
شرف
روايات
الهلال
صنع الله إبراهيم

روايات الهلال

Rewayat Al Hilal

سلسلة
شهرية
لنشر
القصص
العالمي

تصدر عن
مؤسسة دار الهلال

الإصدار الأول:
يناير ١٩٤٩

العدد ٥٧٩

مارس ١٩٩٧ ● ذو القعدة ١٤١٧ هـ

No - 579 - MA - 1997

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٥٥ جنيها داخل ج . م . ع تسدد مقدما نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية ـ البلاد العربية ٣٥ دولارا ـ امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٥٠ دولارا ـ باقى دول العالم ٦٠ دولار .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال ـ ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

فى الكويت السيد عبدالعال بسيونى زغلول
ص . ب ٢١٨٣٣ (13079) ت ١٧٤١١١٦٤
القاهرة ـ ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان
٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتبات ص ب
. القاهرة ـ الرقم البريدى ١١٥١١ ـ تلغرافيا
القاهرة ج . م . ع .

TELEX 92703 hilal u

شـــــــرف

بقـلم

صنع الله إبراهيم

●

دار الهلال

القسم الأول

(١)

من المؤكد أن الحذاء ليس هو المسئول عن المصير الذى آل إليه أشرف عبد العزيز سليمان (أو شرف كما ألفت الأم أن تنادى حبة عينها) : فقد كان مبرمجا ، بجيناته الداخلية ، والخارجية لما وقع له من أحداث . و لا يغير من الأمرقصر الطريق الذى قاد من "كوتشى " إلى "جون " ، ولا من الأخيرإلى بؤر أخرى

صحيح أن كوتشى صارت رائحته لا تطاق وبليت مقدمته ، لكن هذا لم يكن السبب الذى دفعه إلى التوقف أمام الواجهة الزجاجية المضاءة بمصابيح سبوت لايت السبب الأصلى أن كوتشى كان أخضر اللون بينما هو مقبل على المرحلة السوداء ، التى وضع أساسها برأس حلق على المودة الإنجليزية مع مقدمة مفلفلة ، طالعه الآن فى زجاج الواجهة .

أبرز الزجاج أمرين آخرين : الأسعار الفلكية للأنواع الأخرى ذات النقش الأسود من "أسكوت" إلى "أديداس " مرورًا ب" نايك" ، و هيكل أنثوى يحاذيه : أربعينية أو خمسينية ممتلئة الجسم فى الملابس الشائعة المنحدرة من عصور الجليد ، التى تتألف من جوبة طويلة حتى القدمين ، وجاكت ملون وطرحة تغطى الرأس وتحيط بالوجه

وسواء أكانت السيدة تعانى من قصرالنظر أم كان لديها مآرب أخرى ، فقد انحنت مدققة النظر فى أسكوت ، ثم إستدارت قليلا لتحصل على زاوية رؤية أكثر ملاءمة ، لكن نظرها لم يسعفها ؛ فقامت بحركة خفيفة ، وضعتها فوق خط التماس مباشرة

يجب أن نكون موضوعيين في تقديرنا لموقف أشرف : كان في السن التي تفورفيها الدماء و تغلي لأقل لمسة (ولد سنة ١٩٧٤) ، لكنه - أيضا - كان مثقلا بمجموعة من المحرمات التي تقيد الفعل ، و لهذا السبب كان رد فعله التلقائي ، علي عكس ما هو متوقع ، التراجع إلى الخلف ، بدلا من الاندفاع إلي الأمام، مما عرضه لدفعة من أحد المارة قذفت به إلى نهر الزحام الجارف

فرغم إرتفاع درجة الحرارة والرطوبة ، أو بسبب ذلك ، خرج سكان القاهرة جميعا إلى الطرقات ، وتدفقوا على شوارع وسط المدينة ، و"طلعت حرب" بالذات ، وإلى نقاط تجمع ثابتة أمام محلات الملابس و الأحذية والساندوتش والمثلجات ، فضلاعن السينمات والمسارح .كان شرف قادمامن ميدان التحرير، وقد عبر ميدان طلعت حرب ، معطيا ظهره ، بطبيعة الحال ، لتمثاله وكان جوعانا، عطشانا ، حائرا في كيفية إنفاق الساعات المتبقية من المساء

كانت الأوبشنز أمامه كالآتي : دخول السينما و بالتحديد فيلم تسيل فيه دماء كافية طالما أن الأفلام الأخرى ذات ال "صور" غير متاحة بفضل الرقابة التي تتولاها سيدة فاضلة و صارمة في آن ، أو شراء علبة سجائر"مارلبورو" ، أو شراء ساندوتش و كوب من الكولا وسيجارتين من "كليوباترة" التي يكره مذاقها ، أو العودة إلى البيت الإختيار الأخير كان في الحقيقة إثنين : تحت، وفوق . تحت أي في الشارع ، على الناصية (حيث كشك سجائر ودين كبير) أو عند حانوت الميكانيكي مع أفراد الشلة و سيجارتين من البانجو الذي يجلب الصداع والغثيان إذا كان على معدة فارغة ثم الشاي في مقهى الكورنيش الذي أقيم في موقع استراتيجي على حافة ترعة قديمة تحولت إلى مقلب زبالة (وإذا كانت لدى الميكانيكي سيارة صالحة للسير انتقلت المجموعة إلى المعادي القريبة لتلتحق بشلة الطلبة والمزيد من البانجو) فوق معناها الشقة (الضيقة

حيث لا يوجد مكان للجلوس أوالنوم) والمواجهة (مع النفس و الآخرين) ومحاولة حل المعادلة المستحيلة .

ففي هذا الوقت من اليوم يكون أبوه بين مسلسلين تليفزيونيين، وبالتالى فى حالة عدم توازن ، فيستبدل نظارة المشاهدة بنظارة القراءة ، و يتناول ورقة وقلم و يشرع في تدوين مجموعة من حقائق الحياة يحفظها أشرف عن ظهر قلب منذ كان أبوه حريصا على ألا يخفيها عنه .

التمرين اليومي كانت له عدة أهداف إضافة إلى إزجاء الوقت حتى موعد مسلسل السهرة : تقريع أفراد الأسرة (وخاصة الولد الكبير) و إشعارهم بالعبء الذى يمثلونه ومدى الجميل الذى يصنعه الوالد لهم عندما يجعل ٢٤٠ جنيها (راتبه الشهرى المضمون) تتحول إلى ٨٠٠ (النفقات الفعلية) . محاولة إيجاد نوع من التوفير و إستبعاد بعض الأيتمز (فى أخر مرة تم شطب بند الجريدة اليومية على أساس أنها لا تقدم غير مادتين : الكوارث وخطب الرئيس و هى مواد يقدمها التليفزيون بالتفصيل و الألوان) ، إثارة شئ من الحمية في بدن شرف أو قلبه كى ينهى دراسته أو يجد لنفسه شغلة تخفف العبء (وهى محاولة كانت تصطدم دائما بدفاع الأم عن حبة عينها). الهدف الأخير يدخل تحت طائلة علم المستقبليات ، إذ تجرى محاولة استشراف الوضع فى ظل قانون المساكن المتوقع وبعد رفع الدعم الحكومى عن الكهرباء والمياه والمواصلات والخبز والسكر والشاى ، أى التحرير (للأسعار) ، والتثبيت إن لم يكن التقليص (للأجور) .

لم تكن العودة إذن ، بمستوييها الاثنين ، مغرية . ولأنه لم يتمكن من الحسم فقد تشاغل بالاستكمال النظرى فقط ، الطاقم الجديد و الإكسسوار المناسب له

تغاضى عن قمصان "فان هاوزن" ، "سيلفانو" ، "فستياكو" ، "بيير كاردان"، وعن" سونيتي " الأسبور، وتوقف برهة أمام قميص "ليفايس" و جمع بينه وبنطلون جينز" رانجلر" . ثم إنتقل إلى الأكسسوار : ساعة "سواتش" بخلفية سوداء اللون وسوارمن نفس اللون، (رغم أن الموضة السائدة هي الساعة الكبيرة على شكل بوصلة)، سلسلة ذهبية للعنق وإنسيال ذهبي للمعصم . و لم يقدر للطاقم أن يكتمل لا في هذا المساء ولا بعده ، لأنه لم يعثر بين النظارات الشمسية ، من "ستينج" و" بوليس "حتي" ريبان "" ، على النظارة المستديرة المذهبة الإطاربالعدستين السوداوين التي ارتداها "سلفسترستالوني" في آخر افلامه.

خلال ذلك كان الزحام قد بلغ أقصاه و تمت غربلته من العنصر الأنثوى ، وتحولت حركة السيارات التي ملأت عرض الشارع إلى زحف بطئ . وسادت الحمى التي تسبق عادة الحفلات الأخيرة لعروض السينما ، فتجمهرجمع كبيرمن الشبان ، أسفل ملصق كبير ملأته "ليلى علوى" بما تملك من وفرة . الشاب الذي أبدى نقصا في الخبرة أمام حانوت الأحذية ، كان مدربا في مجال آخر: فقد أخذ ينقل البصر في حنكة بين صفوف السيارات التي ملأت عرض الشارع ، متجاهلا الماركات الشعبية مثل "الفيات" ، والأخرى الكلاسيكية مثل "المرسيدس"، مركزا على "الهوندا سيفيك" و"التويوتا كرولا" إلى أن حالفه الحظ : "جولف" ذات نوافذ سوداء قاتمة تتصاعد منها موسيقى صاخبة وتقودها فتاة تطاير شعرها وأبرزت من النافذة ساعدا عاريا حتى الكتف مما بشر بالمزيد . لكن " ب م دابليو" لم تلبث أن حجبتها عن ناظريه وقد انسابت في بطء حتى أوشكت أن تتوقف أمامه مباشرة . هكذا ألفى نفسه يطل على ساقين بديعتين انحسرالثوب عن أعلاهما لتتمكن صاحبتهما من نقل قدميها بين المارش والفرامل لم يكن مهتما بتحت وإ نما بفوق . فلم يكن بعد قد انتقل من مرحلة التعلق بالمكان الذى تغذى عليه إلى المكان الذى دلف منه . لكن المرور

انساب قبل أن يعيد تصويب نظراته ، فاندفعت السيارة إلى الأمام وسرعان ما اختفت عن ناظريه .

انتظر حتى تباطأت حركة السيارات من جديد وعبر الشارع . عاد القهقرى في اتجاه الميدان ، متعثرا فى أفريز من الرخام أمام حانوت للنظارات ، مد بمنسوب أعلى من الرصيف ، هبط به بالنتيجةإلى حفرة طينية كومت فيها بعض المخلفات . بعد خطوات كان أمام "ومبى" فوقف يتأمل آكلى الهامبورجر ويستعرض قائمة الأسعار المضيئة ، رغم أنه يحفظها عن ظهر قلب ، ثم واصل السير حتى حانوت يتصدر مدخله عمود شاورمة ، ساعدته رائحتها على الوصول إلى قرار قائم على التضحية : الاكتفاء بكيس من الشيبسي و كوب من الكولا .

انضم إلى الآكلين الذين زحموا الرصيف ، فاتيح له مثلهم متابعة الظاهرة الشقراء من لحظة ظهورها : سائحتان ترتدى إحداهما شورتا كشف عن ساقين سمينتين لفحتهما الشمس ، أسفل مؤخرة قوية وممتلئة ، بينما أبرزت الأخرى نقاط قوة مختلفة ، ففوق بنطلون ضيق من الجينز استقرت بلوزة ملونة بلا أكمام يبدو منها شعر إبطها و جانب من سوتيانها . و على أية حال فقد نجحت الفتاتان فيما فشلت في تحقيقه كافة الأحزاب السياسية فى مصر .

فسرعان ما وجد شرف نفسه على رأس حشد كبير لبى نداء الفلقتين المتماسكتين لصاحبة الشورت؛ اضطره إلى استخدام منكبيه للمحافظة على موقعه القيادى . هكذاكان خلفها مباشرة عندما توقفت فجأة ، فأوشك أن يصطدم بها . وأساءت هى من جانبها تفسير الموقف فإستدارت بوجه عابس و هى تفتح حقيبة يدها و تستخرج ورقة مالية من فئة الجنيه دفعتها إليه مرددةكلمة لم يتبينها .

فوجئ بمبادرتها فلم يمد يده لالتقاط الورقة وتركها تهوى إلى الأرض بينما استأنفت الفتاة السيرمع رفيقتها ومن خلفهما كوكبة التابعين و تطلع حوله فوجد

أكثر من عين تتأمله فى تفكه . و ربما كان هذا هو السبب فى أن الدماء اندفعت إلى وجهه وأنه أشاح به ودس يديه فى جيبى بنطلونه، وواصل السير ، غير عابئ بالنقود ، مقتربا من المصير الذى بُرمج له .

لم يبتعد كثيرا إذ اجتذبه تجمهر آخر أسفل لوحة كبير تملأها وفرة من اللحم، لا الليلى علوى وإنما ل "شوارزينجر". و بينما هو يتأمل اللقطات المعروضة من الفيلم فى لوحة الإعلانات سمع من يوجه إليه الحديث باللغة الإنجليزية .

إستدار ليجد نفسه أمام رجل أجنبى ، طويل القامة عريض الصدر أشقر شعر الرأس والحاجبين والشارب ، يرتدى قميص الأحلام ، قصير الكمين أسود اللون ، وتتدلى من عنقه سلسلة ذهبية ، خاطبه قائلا :

- معى بطاقة زائدة .. هل تريدها ؟

ككل الأجيال الجديدة من المصريين ، كان شرف يجيد اللغة الإنجليزية ، أكثر حتى من العربية ، لكن ذاكرته لم تسعفه بمفرداتها فتلعثم فى محاولة الإجابة إلى أن تمكن أخيرا من أن يقول :

- شكرا ..لا أحتاج إليها .

وككل الأجانب الشقرفى مصر ، لم يكن صاحبنا معتادا أن يُرفض له طلب :

- يجب أن ترى هذا الفيلم فهو مثير للغاية . و لا أظن أنك ستجد بطاقة أخرى الآن .

تدافعت حصيلة أشرف من الكلمات الإنجليزية وسعد بقدرته على استخدامها:

- فى الحقيقة أرغب فى ذلك . لكنى لا أملك كفاية من النقود

قال الأجنبى و هو يهز كتفه فى غير مبالاة : أنا أقدمها لك من غيرمقابل فلست فى حاجة إليها ،إن لم تأخذها سأرميها

سلوك طبيعى لدى الأجانب ، الأمر الذى دفع شرف إلى إعادة التفكير:

- فى الحقيقة هل أنت واثق ؟

مد الآخريده بالبطاقة و دسها في يد شرف قائلا : خذها . لا تكن (و لم يفهم معنى الكلمة) ..اسرع فالعرض على وشك أن يبدأ .

أخذها و تبعه إلى داخل السينما وإلى مقعدين متجاورين وسط الصفوف الخلفية كان الحصول عليهما وسط الإقبال الشديد مكسبا حقيقيا . وكانت المقدمة الإعلانية قد انتهت وتبعتها استراحة ضرورية ، فحانت فرصة للحوار

قال الأشقر : أنا إسمى جون . و أنت ؟

قال : أشرف .. أشرف عبد العزيز..فى الحقيقة حصل لى الشرف .

كان مخلصا فى هذا القول ، فلقاء الأجانب الشقر لا يحدث كل يوم . لكن جون ، لسبب غير مفهوم، ضحك ومد ساقين طويلتين وأراح ذراعيه المفتولتين على مسندى مقعده فتماس ذراعاهما وأبعد أشرف ذراعه فى الحال .

قال : فى الحقيقة البطاقة كانت لشاب مثلك تعرفت عليه فى الصباح و وعد بالحضور لكنه لم يأت .

قبل أن يستفسر منه عن سر غرامه بتوزيع بطاقات السينما على الشبان ، رآه يطيل النظر إلى فمه ، فشعر بالزهو لأن أخته كانت تعرب دائما عن إعجابها بشفتيه و تتمنى لو لديها مثلهما ، ثم إن الفيلم بدأ فى هذه اللحظة ، فوجه إليه اهتمامه و تابع أعاجيب شوارزينجر مبهور الأنفاس ، و قد حرص على أن يترك لرفيقه المسند المشترك كى لا يتلامس ذراعاهماالعاريان

علق جون على الفيلم عندما انتهى بكلمة لم يفهمها شرف لكنه أومأ برأسه موافقا ، وعندما خرجا إلى الطريق سأله : من أى بلد أنت ؟

– استراليا .

– ظننتك أمريكيا ؛ أنت تتكلم مثلهم تماما . وتعيش هنا ؟

– مؤقتا .

– منذ متى ؟

هزكتفه : منذ عدة شهور .

سأله : أول مرة ؟

– في مصر ؟ أجل و أنت ، أين تسكن ؟

أجاب على الفور : في الحقيقة في المعادى .

أراد أن يصف له المكان، فتراءى له مدخله عند محطة المتروالذى تتجمع فيه القاذورات وتفوح منه رائحة المجارى ويغطيه الذباب ، والحارات المليئة بالحفر والمطبات تحلق فوقها أسراب الذباب والناموس ، والبيوت الصغيرة التى يرتفع منسوب الأرض عن مداخلها بصورة مستمرة ، والغرف التى يقيم فيها بين خمسة أشخاص و عشرة والمياه المقطوعة وأجهزة الراديو والمسجلات في النوافذ والمقاهى وميكروفونات المساجد و الأفراح .

بدت الإنجليزية عصية على كل هذه التفاصيل فاكتفى بأن يقول : في الحقيقة أنا أسكن في مكان جميل علي حافة القاهرة يجب أن تراه و أنت أين تسكن ؟

أين في غير الزمالك ؟

– تعال معى لأريك منزلى . فلا بد أن تعرفه نحن الآن أصدقاء

طاوعته إنجليزيته في سلاسة : أوكى .

أشار جون إلى سيارة أجرة بالغ سائقها في إبداء تهذيبه ورقته عندما تبين الشعر الأشقر ، فتظاهر بتشغيل العداد ، و خفض من صوت الكاسيت الذى كان

يردد أغنية جديدة لوردة الجزائرية . ثم أغلقه تماما وحاول تشغيل الراديو على برنامج للموسيقى الغربية ، كما لم يفته القيام بقليل من الإرشاد السياحى ، فتمهل فوق كوبرى ٦ أكتوبر أما م عروسين يلتقطان صورة تذكارية يتحمل فيها النيل نصيبه من المأساة المقبلة ، وعندما أبدى الخواجة عجبه من زحام السيارات فوق رصيف نادى الجزيرة ، تبرع بالإيضاح :

- الأعضاء هنا بالآلاف .

ثم أضاف بزهو : الإشتراك بالدولار .

شعر شرف هو الآخر بالزهو وهو يتطلع بعينى رفيقه إلى الشوارع الواسعة المرصوفة التى تحف بها الأشجار والقصور الفاخرة ، متغاضيا عن القاذورات والأتربة التى كومت بحذاء الأرصفة و أسفل السيارات الفاخرة ، وفى الزوايا المتوارية ، حتى توقف التاكسى أمام منزل من الأربعينيات (تحيط به حديقة ويضع أشجار) ، يتصدره بواب من التسعينيات (يجمع بين مهنتى الحراسة و القوادة) قادهما إلى مصعد حداثى ، (بلا باب و بأثر واحد من العهد الغابرعبارة عن مرآة عريضة حال لمعانها) ، صعد فى بطء شديد أتاح لشرف أن يتأمل صديقه الجديد الذى وقف ممسكا بمقبض الباب وقد أعطاه ظهره ، فكشف بذلك عن قفا عريض أثار إهتمام الشاب لا بسبب ما أوحى به من إمكانيات للعبث ، و لا بسبب شحوب بشرته البالغ ، وإنما بسبب السلسلة الذهبية التى أحاطت به .

غادرا المصعد فى الطابق الثالث إلى طرقة نظيفة مضاءة ، تتوسطها نافذة تطل على منور ، تنتهى فى أحد طرفيها بباب خشبى متين ، تزينه قضبان من النحاس اللامع ، أدى إلى ردهة وثيرة الأثاث وصالة فسيحة تتوسطها مائدة واطئة بصينية كبيرة من النحاس ، و يتألف أحد جدرانها من مدفأة كبيرة صفت فوق رفها الرخامى التماثيل الصغيرة والمشغولات النحاسية و زجاجات الخمر . أما

الجدران الأخرى فقد إزدحمت باللوحات الفرعونية الملونة و قطع القماش والسجاد التي تمثل مناظرمن الريف المصرى ، فى محاولة جاهدة للإنتماء .

بإشارة من مضيفه إحتل فوتيا وثيرا في حرص . و أنزل الآخر "جونى ووكر" من عليائه مع كأسين قائلا، كما فى الأفلام بالضبط : لا تمانع فى كأس ، أليس كذلك ؟

غالب شرف إنجليزيته : فى الحقيقة يا مسترجون هذه مناسبة تتطلب الاحتفال . لكني لا أشرب سوى البيرة .

قال مستر جون مقلدا طريقته في الحديث : فى الحقيقة أنا عندى بيرة . بيرة مستوردة . وعندى أيضا حشيش لو أحببت .

وقام على الفور إلى المطبخ وعاد منه بعلبتين " هينيكين " وإناء من مكعبات الثلج وصحن مليئ بالفستق و اللوز والبندق . ثم مضى إلى الناحية الأخرى من الشقة وعاد بعلبة معدنية صغيرة فى حجم علب السجائر و دفتر من ورق البفرة و لفافة من السلوفان فى حجم علبة الثقاب تصاعدت منها رائحة المخدر النفاذة اللذيذة .

صب لنفسه كأسا من جونى ووكر وأشار لشرف كى يصب لنفسه البيرة ورفع كأسه في الهواء ليقرعه بكأس أشرف قائلا : نخب صداقتنا .

ردد شرف النخب فى حماسة بينما إنصرف الخواجة إلى إعداد سيجارةملفومة : أفرغ أولا محتويات سيجارة عادية ثم إقتطع حمصة من قطعة الحشيش و أودعها ورقة مفضضة استخرجها من علبة السجاير ، سخنها قليلا بعود كبريت حتى لانت فدهسها مع التبغ ثم أفرغ المزيج فى ورقة السجاير وأدخلها العلبة المعدنية وأخرجها منها ملفوفة جاهزة .

قدم السيجارة إلى ضيفه و أشعلها له . جذب شرف عدة أنفاس ثم أعادها إليه . وتبادل الإثنان التدخين حتى انتهت السيجارة . وقدم الخواجة لضيفه قطعة شكولاتة أوشك أن يعتذر عن تناولها إلى أن تبين نوعها .

قال شرف و هو يلتهم " كادبورى " : عندك شقة جميلة .

كان الرأى صادرا عن وعى كامل فلم تكن السيجارة قد أحدثت تأثيرها بعد.

قال الآخر : تعال أفرجك عليها .

تبعه إلى غرفة نوم وثيرة يتصدرها فراش مغطى بالدانتلا و دولاب أنيق من خشب لامع وأباجورة بجوار السرير وأخرى بجوار فوتيل أنيق ذى مسندين محشوين جيدا وبينهما نافذة مفتوحة تملأفراغها أغصان الأشجار . انتقلا إلى الحمام الذى كان فى سعة الصالة يتصدره بانيو ضخم وبه تواليت نظيف وله باب متين يُفتح ويُغلق فى هدوء وإحكام ، و إلى مطبخ فسيح تتصدره ثلاجة تكدست بالمحتويات التى أشهرتها إعلانات التليفزيون،استخرج منها الخواجه أطباقا صغيرة بها شرائح من اللحوم الباردة والسجق الغريب الشكل وأنواع من الأجبان لم يسبق لأشرف أن رآها ، وضعها فوق صينية خشبية ناوله إياها فحملها إلى الصالة و هو فى أعقابه .

تناول شرف كأسه و رشف منه ثم قال : أنا أيضا أعيش فى بيت له حديقة كبيرة .

قاطعه مضيفه : فى المعادى ؟

بلع ريقه وقال : فى الحقيقة نعم . ولى حجرة خاصة مدهونة بالزيت و نظيفة تطل نافذتها على شجرة ياسمين فأشم رائحتها طول الوقت .ولى سرير فى الركن ، لى أنا وحدى ، أمامه ستارة و مكتب خلفه دولاب فيه راديو ستريو

وكاسيتات ولوحة الموناليزا على الجدار، هل تعرفها ؟ وصورة كبيرة أيضا لمايكل جاكسون ، هل تحبه ؟ وفي الصباح تحضر لي أمي أوأختي الكبيرة الإفطار: بيض و حليب و مربى ، كما تأكلون أنتم . أليس هذا إفطاركم ؟ تحضره أمي في صينية كبيرة بها زهرية من ورود الحديقة . لا تتخيل الرائحة .

كان جون يستمع باسما . و خيل إلى شرف أن وجهه إزداد شحوبا .

سأله و هو يصب له بقية البيرة : هل أنت طالب ؟

أجاب على الفور : في الجامعة

شعرأن ضوء المصابيح إزداد توهجا و إلتمعت السلسلة الذهبية المحيطة بعنق الخواجه الذى لم يفته إتجاه نظر ضيفه فقال و هو يمسكها بأصابعه : تعجبك ؟

أجاب : في الحقيقة نعم .

خلعها من عنقه و ناولها له قائلا : هي لك .

قال : لا أستطيع أن آخذها .

كان الخواجة حاسما فالقى بها نحوه واضطر أشرف إلى تلقفها .

- سأشتريها منك .

- لن تستطيع فهي غالية جدا .

قال في عناد متمسكا بمفهومه عن الشرف : بل سأفعل !

وسواء أكان السبب إدراكه لعجزه أم أن السيجارة بدأت عملها ، فإنه شعر بالدوار فجأة و بالرغبة في البكاء ، الأمر الذى مس قلب الخواجة ، فانتقل إلى جواره و أحاطه بذراعه .

أسند شرف رأسه إلى صدرالخواجة العريض فقد حانت لحظة الاعتراف . وأثبتت اللغة الإنجليزية أنها عصية على الحقيقة ؛ فعاد إلى لغة موطنه :العربية لا

"المعادية" : كيف أنه كان يكذب ، وأنه لن يستطيع شراء شئ ، وحتى الآن لم يتمكن من دخول الجامعة ، ورائحة الياسمين التى ذكرها عندما تحدث عن منزله هى الرائحة الدائمة « لخرانا » الذى يتجمع فى بئرأمام باب المنزل و تأخذه شاحنة مرة فى الأسبوع .

ذروة الإعتراف بدت كمقطع من أغنية لأم كلثوم ، أى ميلودرامية تماما . أنا زهقت من حياتى و نفسى أسيب البلد . يا ريت تاخدنى معك بعيد .

لم يتكلم الخواجة واكتفى بأن وضع السلسة حول عنق الشاب ثم مد يده إلى ساقه وتحسس فخذه .

أعادت إليه اللمسة إنجليزيته ، إذ قال مستنكرا:

- أنت لا تصدقنى ؟ لن تجد فى جيبى نقودا تذكر

أبعد جون يده وقال . يمكننى أن أعطيك ما تشاء و تناول مجلة مصورة من فوق رف المدفأة و ناولها له قائلا : هل تحب الصور ؟

من الذى يكرهها ؟ كانت المجلة أجنبية بها صور كثيرة لنساء ورجال عرايا فى أوضاع أجرت الدماء ساخنة فى عروق الشاب الغر ، كما أثبت السؤال الذى بدر منه :

- هل أنت متزوج ؟

أجاب : كلا ، أنا لا أطيق النساء .

كفت الغرفة عن الدوران لحظة و لأول مرة شعر شرف بقلق مبهم

سأله الآخر : و أنت ؟

قال : أنا أحب جارة لى لكن أهلها يريدون تزويجها .

– لك ؟

– لا ، لقريب لها غنى .

– هل هى تحبك ؟

– إنها تتلطف معى أحيانا ، وفى أحيان أخرى تتجاهلنى و تعاملنى بقسوة .

غير جون الموضوع قائلا : السلسلة حلوة عليك . أنظر إلى نفسك فى المرآة

أشار إلى مرآة مذهبية الإطار على الجدار الواقع خلفه ، فنهض شرف وهو يترنح واستدار يواجهها . بدت السلسلة فعلا جميلة و شيك ، لا ينقصها إلا القميص الأسود و النظارة السوداء لكن ما إنضم إليها فى المرآة هو وجه جون الذى ازداد إقترابا حتى أوشك أن يلمس خده بشفتيه ، بينما أحاطه بذراعيه من الخلف .

أبعد شرف وجهه و هو يحاول الإفلات من الذراعين قائلا : ما هذا يا جون ؟ ماذا تفعل ؟

لم يكن جون فى حالة تسمح له بالرد شفاهيا ، و بدلا عن ذلك أطبق على فريسته الذى قاوم بعنف و نجح فى أن ينسل من بين ذراعيه إلى أسفل ويقفز ناحية الباب ، لكن الحظ لم يكن فى صف أشرف من البداية ؛فقد تعثر فى السجادة و سقط على الأرض إلى جوار المائدة . و فى اللحظة التالية كان الخواجة فوقه .

جاهدالشاب فى دفع مهاجمه الذى كان يفوقه قوة ونجح فى شل حركته إلى أن شعر به يحاول تجريده من ملابسه و هو يلهث ، فأمده العدوان الصريح بقوة جديدة ؛ وجه إلى رأسه ضربات عشوائية بقبضتى يديه أجبرته على محاولة

توقيها . وبدا أن الحظ قد تدخل أخيرا فى صفه إذ ارتطم رأس المعتدى بحافة الصينية فخفت قبضته .استطاع شرف أن يحررجسده ويزحف مبتعدا . وكما يحدث عادة فى هذه المواقف ، غيَّر الحظ موقعه على الفور . فقبل أن يصبح شرف بمنأى عن مهاجمه تمكن هذا من الإمساك بساقيه و أوقعه أرضا ثم إرتمى فوقه من جديد

بدت النتيجة محسومة هذه المرة وشعر بها شرف بجسده قبل أن يدركها بعقله . ولأنها المرة الأولى التى يواجه فيها عدوانا صارخا من هذا النوع فقد استنفر كل طاقاته . كان قد فقد السيطرة على نصفه الأسفل ، فطوح ذراعيه على غير هدى هكذا لمست يده سطح الصينية فتحسسها فى لهفة حتى عثر بصحن الفستق لم يتردد ثانية واحدة : قبض عليه وقذف به الرأس الجاثمة فوقه .

كان جون منهمكا فى حل مشكلة الملابس ومع ذلك إنتبه للصحن المندفع نحوه فتفاداه . وأيقن شرف أنه خسر المعركة وعندئذ لمح بطرف عينه زجاجة الخمر فجاهد حتى قرب أصابعه من عنقها وأطبق عليه ثم رفعها فى الهواء وأهوى بها على صدغ مهاجمه .

لم يتمكن جون من تفادى الزجاجة . وأصابته الضربة بالذهول فجمدت حركته . ولم يلحظ شرف الدماء التى سالت على وجهه ، لم يلحظ شيئا على الإطلاق ولا حتى أن يده القابضة على شظية مدببة من حطام الزجاجة كانت مستمرة فى الإرتفاع والهبوط فوق الرأس الأشقر المخضب بالدماء .

(٢)

أسلمنى الرقيب فى صمت إلى حارس وقع بإستلامى على دفتر وتبعته فى ممر طويل تضيئه المصابيح الكهربائية و تتصاعد من جنباته رائحة غريبة هى مزيج من الفنيك والبول مررنا بغرف خالية اكتظت بالمكاتب الخشبية وأضاءتها شمس العصارى ، ونزلنا سلما إلى الطابق الأرضى ؛ فأبرز الحارس حلقة من المفاتيح الضخمة فتح بأحدها بوابة من القضبان الحديدية انتهزت الفرصة لأطلب منه مساعدتى فى الاتصال بأهلى .

قال : إيدك على خمساية

قلت : أنا دلوقت ممعييش لكن أهلى حيدولك

لم يرد على و دفعنى أمامه فى ردهة صغيرة بها ثلاثة أبواب مصفحة و فى طرفها فتحة بغير باب تضم مرحاضا مكشوفا ، تكوم البراز حول حافته ، وتصاعدت منه رائحة خانقة

أبرز مفتاحا آخر فتح به أحد الأبواب الثلاثة ودفعنى إلى الداخل ثم أغلق الباب ورائى د ون أن يعبأ بالصيحات التى استقبلته ، شققت طريقى بين بضعة أشخاص تجمعوا عند الباب و انهالوا عليه بالدق و الصياح

ألفيت نفسى فى غرفة كبيرة تلطخت جدرانها بالحبر و بقع الدماء و كتابات مختلفة ، واكتست أرضها بالزفت و خليط من البصاق والبول . أشار لى رجل ضخم الجثة يجلس القرفصاء على الأرض كى أنضم إليه كان يرتدى جلبابا قذرا شق من منتصفه ليكشف عن صدره وعورته شعرت بالخوف فتجاهلته ومضيت إلى ركن بعيد عن الباب . جلست فوق مصطبة من الأسمنت أسفل نافذة عالية من القضبان الحديدية المغطاة بشبكة من السلك

اقترب منى رجل أكبر منى فى السن ، ذو ملامح وادعة ،يرتدى قميصا عاديا وبنطلونا ، ويضع نظارة طبية ، ذات إطار من نوع رخيص . جلس إلى جوارى وأخرج سيجارتين من جيب قميصه قدم إلى إحداهما . أخذتها رغم أنها كانت من طراز " كليوباترة ". عرفنى بنفسه قائلا أنه موظف فى وزارة التربية والتعليم وأنه احتجز على سبيل الخطأبسبب التشابه بين اسمه واسم أحد المتطرفين الهاربين . كشف عن باطن ذراعيه أسفل الإبط وباطن ساقيه أسفل الركبة فرأيت كدمات زرقاء كبيرة وآثار تقيحات على حوافها .

قال : مصدقونيش إلا بعد ما أكلت الطريحة .

سألته : قصدك إيه ؟

قال : مسمعتش عن الجهاز ؟

هززت رأسى نفيا .

قال : بكره تدوقه .

تسارعت دقات قلبى و سألته بصوت مرتجف : هم بيعذبوا كل واحد ؟

– اللى ما يعترفش ياخد نصيبه . و اللى يعترف كمان . أمال يتأكدوا إزاى إنه بيقول الحقيقة ؟

ران علينا الصمت برهة وشعرت بقرصة حادة فى ساقى ، عندحافة الجورب. حركت ساقى فى حذر وجذبت ساق البنطلون فى عناية ثم تطلعت إلى حافة الجورب ، لكنى لم أجد أثرا للبرغوث الذى قرصنى .

قال أن القاضى أمر بالإفراج عنه منذ ثلاثة أسابيع وأنه ينتظر التنفيذ فى أية لحظة .

قلت : تلات أسابيع ؟ المفروض تكون خرجت مادام أفرج عنك .

قال . دخول الحمام حاجة والخروج منه حاجة تانية

راح يعدد لى الإجراءات المصاحبة لقرارالإفراج : العودة إلى المحكمة فى اليوم التالى للحصول على ورقة اسمهاصحة إفراج تفيد مراجعة الأوراق ، ثم الذهاب إلى مديرية الأمن فى باب الخلق للحصول على ورقة تفيد أنه ليست عليه أحكام سابقة وبعد ذلك المباحث فى لاظوغلى لكى تسجل أنه لا يوجد لديها مانع من إطلاق سراحه بشرط ألا يكون مطلوبا فى جهة أخرى ، ثم العودة إلى القسم للحصول على امضاء رئيس المباحث الذى كان قد انصرف ولم يظهر إلا فى اليوم التالى ، وبعد أن وقع اصطحبه الباشكاتب إلى مكتبه و طلب منه بطاقة الهوية ثم بسط يده طالبا الحلاوة

– طبعا عادى ، المشكلة إنى من ساعة ما القاضى أفرج عنى و أنا بأوزع شمال و يمين . كل خطوة مبروك ألف مبروك يعنى اطلع بالسجاير والشاى والقهوة . خلصنا الورق وخلصت فلوسى . و لما الباشكاتب طلب الحلاوة كنت وصلت لآخرى . لعنت أبوه و أبو الضباط والحكومة . تفتكر عملوا فىّ إيه ؟

– ضربوك ؟

– يا ريت .. الضرب كان أهون . لأ يا سيدى . عملوا لى كعب داير .

– يعنى إيه ؟

– يعنى ألف محافظات مصر كلها عشان كل محافظة تشوف إذا كان عندها حاجة ضدى .

هونت عليه و دعوت له بالإفراج القريب ثم طلبت منه أن يتصل بأهلى إذا خرج و أعطيته رقم تليفون بوتيك على ناصية شارعنا ، تعمل به أختى . وعدنى بأن يفعل قائلا :

– حاقولهم يجيبوا لك بيجامة و فوطة و صابونة و أكل طبعا .

سألته مترددا : هو مفيش أكل هنا ؟

"نظر إلى مستنكرا ثم ضحك : أكل ؟ إنت فاكرها لوكاندة ؟ . لك رغيف واحد حاف فى اليوم و الباقى عليك . إنت تغديت ؟

قلت : ولا فطرت .

مد يده إلى كيس كبيرمن البلاستيك بالقرب منه و أخرج لفافة قدمها لى

– كل . . جبنة و لانشون .

تطلعت إلى الساندوتش في تردد ودفع هو به إلى يدى فى حزم فأخذته وعاد ينبش فى الكيس البلاستيك حتى استخرج فلفة خضراء مسحها فى ملابسه وقدمها إلى قائلا : كل يا راجل .

التهمت الساندوتش وأناأتطلع حولى إلى الآخرين إلتقت عيناى بعينى الرجل العارى الذى سلطهما على فى تركيز غريب . و دون أن أشعر وجدت نفسى أقترب من كعب الدايركانما أحتمى به .

فرغت من الأكل فقدم لى سيجارة وسألني عن سبب احتجازى . حكيت له قصتي وكيف أن الشرطة تتهمني بقتل الأجنبى بغرض السرقة و قلت له أن جون كذب علي فقد عرفت من التحقيق أن هذا ليس اسمه الحقيقي و أنه من إنجلترا و ليس من أستراليا .استمع إلى باهتمام دون أن يعلق بشئ .

تدافعت الدموع إلى عيني وواجهته قائلا : أنت مش مصدقني ؟

بدا عليه الارتباك و قال : لا . مصدقك

أضاف بعد لحظة : الواحد هنا يسمع حكايات يا ما .

لم أفهم مايعنيه فسألته عن رأيه فى مصيرى . قال :

- محامى شاطر يطلعك براءة أو بحكم بسيط .

انفجرت فجأة عاصفة من الشتائم البذيئة من الركن البعيد عن الباب . رأيت اثنين يمسكان بخناق بعضهما البعض و يتبادلان الاتهام بالغش وقد تناثرت حولهما أوراق كوتشينة قديمة . كان الشر يبدو على وجهيهما وبخاصة واحد منهما نحل شعر رأسه من الجانبين و المؤخرة تاركا جزيرة صغيرة فوق جبهته مباشرة . ورأيت زميله يرفع يدا برزت منها مطواة صغيرة . ولمحت إصبعا زائدا يتدلى منها إلى جوار الخنصر .

اعتدلت في جلستي متوترا فضحك كعب الداير قائلا : متخفش . مش حيحصل حاجة . وبالفعل هدأ الإثنان بعد لحظة واستأنفا اللعب و كأن شيئا لم يحدث .

اقترب منا شاب في سني يرتدى نظارة طبية سميكة ، عقد ذراعيه أمام صدره وأخذ يضغط بهما على جسمه الهزيل . وكان وجهه شديد الشحوب وحول عينيه حلقات سوداء .

تطلع إلى فى صمت . ولحظت أن وجه كعب الداير قد تجهم . ظل الشاب فى مكانه وجسمه يرتعش بين الفينة والأخرى و أصابعه تدعك ذراعيه. ورأيت العرق يتجمع على وجهه .

خاطبه كعب الداير فى جفاء : مفيش معاه .

ظل الشاب واقفا و هو يتطلع إلى كأنه لم يسمع .

قال له كعب الداير : إذا كنت عاوز تاكل عندى سندوتش زيادة .

استدار الشاب مبتعدا دون كلمة . و تابعته بنظرى فى استغراب .

زايلت الجهامة وجه كعب الداير وحل محلهاتعبير حزين :

- مش راضى ياكل . شاى وقهوة على طول . طالب بالجامعة . ضبطوه بياخد حقنة ماكس تحت الكوبرى . كانوا اتنين . هو اتحبس هنا و زميله اتحبس فوق في مكتب مأمور القسم وبعدين أفرجوا عنه .

قلت : كوسة ؟

قال : طبعا . أصله إبن رئيس المحكمة العليا .

وأضاف ساخرا : المسكين ده فاكر أن صاحبه حيتوسط للإفراج عنه . ما يعرفش أنه هو اللى حيشيل القضية كلها .

تابعت الشاب وهو يتنقل من مجموعة إلى أخرى دون أن يتوقف عند أحد ثم يدور بالقاعة و هو يدعك ذراعيه فى عصبية .

أومأت إلى رجل وقور بلحية كثة تتدلى على صدره وقلت : من الجماعات، مش كده ؟

ضحك : أبدا . ده سواق على نقل "سوزوكى" . حرامى .

أبديت استغرابى .

قال : وحرامى خطر كمان . إتفق مع تاجر ينقل له كمية بيض و فى الطريق هدده بموس وأخد منه البيض وخمسمائة جنيه .

واصل تعريفى بالباقين : سائق سفير أعطاه شيكا بسبعة آلاف دولار لصرفه من البنك فصرفه وترك السيارة وسافرإلى الأردن بحثا عن عمل وعندما فشل عاد فقبض عليه فى المطار، مدير فرع فى مؤسسة حكومية لتعبئة الأغذية وجدوا عنده كميات كبيرة من الشاى الذى انتهت مدة صلاحيته وأقر بأنه تلقى تعليمات من رؤسائه بإعادة تعبئتها فى عبوات أخرى ببيانات جديدة ، جزار ذبح عجلا مريضا فى المقابر ، عاطل ينتظرالترحيل إلى الزقازيق حيث

اغتصب فتاة صغيرة هاربة من بيتها عمرها ١٥ سنة هو وإثنان من أصدقائه ، كهل بدين فى ثياب متسخة قبض عليه لأنه يبيع مكرونة فى عربة مكشوفة .

سمعته يشكو لمغتصب الفتاة قائلا : المكرونة بتجيلنا في براميل من غير غطا . وكل الناس شايفاها . يبقى أنا لما أبيعها عريانة أتمسك . ليه ؟ عشان مدفعتش .

أضاف بعد أن هدأ : وفيها إيه يعنى ؟ حيحصل إيه ؟ ده إحنا شعب يهضم الزلط .

تصاعدت ضجة فى الخارج ، و تجمع المحتجزون عند الباب و أخذوا يدقون عليه . نهضت واقفا وانضممت إليهم . نادى صوت جهورى عدة أسماء ثم ظهرالصول عند الباب وفتحه ليخرج أحد المحتجزين ثم أغلقه من جديد فى وجه الآخرين الذين تزاحموا حوله . وأمكننى أن ألمح طرفا من البوابة الحديدية الخارجية وقد تجمع عندها عدد من السيدات في الملابس البلدية و أطفال فى جلاليب .

تابعت النداء على الأسماء فى ترقب أملا فى سماع اسمى . و تكرر فتح الباب و إغلاقه . وعاد البعض يحمل كيسا من الطعام وبطانية وظهر البعض الآخر خاوى الوفاض كسيف البال . وفرش أحدهم بطانية سميكة ملونة جاءته وجلس فوقها سعيدا أسفل عبارة سجلت على الجدار بحبر جاف : "كله من النسوان ".

انتهت الزيارة بعد ساعة و دب النشاط فى المحتجزين و تجمع بعضهم حول الطعام الذى جاءهم من أهلهم وجلست أنا وحيدا في الركن أتأملهم . واستأنف طالب الماكس جولاته بين الذين جاءتهم زيارات ، ثم إنكمش إلى جوار الحائط وتكور وهو يرتعش .وبعد قليل قام أحدهم ومضى إلى النافذة ونادى على جندى

فى الخارج ثم لف ورقة مالية على شكل سيجارة مدها له من ثقب بالشبكة وأتى بكوب من البلاستيك وضعه أسفل الثقب فامتد منه خرطوم رفيع من البلاستيك إنسال منه الشاى.

سال لعابى لمنظر الشاى والتفت إلى صديقى آملا أن يشترى لنفسه كوبا ويعزمنى على واحد أو على الأقل تنوبنى رشفتان من كوبه . وجدته قد إلتف ببطانية واستسلم للنوم وترددت أصوات غاضبة فى الخارج ميزت بينها صوت إمرأة بلدية تصيح :

– وإيه يعنى لما أضربه ؟ داجوزى وأنا حرة فيه . محدش له دعوة .

تباعد صوتها بعد قليل وسمعت صوت إغلاق باب الحجز المجاور لنا والخاص بالنساء .

فتح بابنا بعد لحظات وانضم إلينا كهل فى ملابس بلدية فاخرة لم يكن يبدو عليه الإنزعاج كأنما ألف المكان . ولم يلبث الحارس أن فتح الباب وناوله لحافا سميكا وبطانية جديدة وعدة لفائف من الطعام تصاعدت منها رائحة الكباب . وكان يدعوه بالحاج . بسط الرجل فرشته ثم فض لفافة الطعام ووجه الحديث إلى الجميع دون أن ينظر إلى واحد بالذات : تفضلوا معايا . ترددت بضع كلمات الشكر و لم يستجب أحد إلى الدعوة ويبدو أنها لم تكن جادة فلم يكررها وانقض على طعامه فى شهية و حماس .

غالبت نفسى كى لا أنظر إلى قطع اللحم والكفتة المغطاة بالبقدونس و إلى أرغفة الخبز التى كان يقضم منها لقمات كبيرة و إلى أنواع السلاطات التى أحاطت بالطبق . وجهت انتباهى إلى كهل فى جلباب رخيص يبكى فى صمت . واجتذبنى حديث رجل هادئ ، أصلع الرأس ، كان يحكى لجاره عن

زوجته . فهمت أنها ادعت عليه بأنه سرقها لأنه قال للقاضي أنها ما زالت بكرا وأنه لم يدخل بها حتى الآن ، فاعتبرت ذلك طعنا في شرفها .

سمعت نداءً على اسمي و ظهر الصول في فرجة الباب . أشار إلى فتبعته إلى الخارج . صعدنا السلم من جديد إلى أعلى .وفي هذه المرة تجاوزنا الطابق الأول و واصلنا الصعود إلى الثاني .

انطلقنا في ممر تحف بجانبيه الغرف المغلقة حتى وصلنا إلى باب بجواره لافتة تعلن عن : "ضابط المباحث "يقف أمامها رجل في قميص و بنطلون. أشار لنا بالانتظار و طرق الباب و دخل ثم عاد بعد دقائق و أومأ لنا بالدخول .

كان ثمة ساتر خشبي في المدخل درنا حوله لتطالعني غرفة كبيرة وصورة رئيس الجمهورية فوق شاب مديد القامة وسيم الملامح يبدو عليه أنه من أولاد الناس ، كان يتحدث في سماعة تليفون بصوت هامس بينما يده الأخرى تنفض رماد سيجارة "كنت " في منفضة معدنية على مكتبه .وكان يرتدي قميصا سبورمخططا من طراز" سونيتي " لم يعجبني ذوقه ، و تنبعث منه رائحة عطر"كارتييه " . وإلى الجانب الضيق من المكتب جلس في احترام رجل آخرفي قميص عادي بنصف كم يتشاغل بالتقليب في بعض الأوراق .

أدى الصول التحية العسكرية و ظل واقفا في انتباه إلى أن أنهى الضابط حديثه التليفوني وأشار له بالإنصراف دون أن يرفع إليه عينيه . خرج الصول بينما ظل الضابط يتطلع إلى يده التي تنفض السيجارة و قد بدت عليه علامات التفكير العميق .

شعرت بشخص خلفي يضع كفه على قفاي و يتحسسه برقة . إرتعش جسدي من اللمسة التي لم أعهد مثلها من قبل و بدت لي اليد دافئة توحي بالإطمئنان ثم سمعت صوتا يقول في أذني : تكلم أحسن لك .

التفت برأسي لأرد على من خاطبني فهوت يد على صدغي . ترنحت من وقع الصفعة و كيدت أقع على الأرض لكن مخبرا آخر تلقفني بين ذراعيه ، ونهرني الضابط قائلا : بص لي و جاوب بسرعة .

قلت : حاضر .

هوت يد المخبر الثاني على صدغي فأعادتني إلى حضن الأول . قول أفندم يا ولد .

رددت بسرعة : حاضر يا أفندم .

قال : تعترف و الا أعلقك ؟

قلت في توسل : والله العظيم يا سعادة البيه أنا قلت كل حاجة زى ما حصلت .

تلقيت لكمة صاعقة في وجهي فأضفت على الفور :

- متاخذنيش يا سعادة الباشا ، مش قصدي . وحياة المصحف زى ما قلت أول مرة . هو اللي إداني السلسلة من نفسه ولما حب يعتدى على شرفي دافعت عن نفسي لكن ما قصدتش أقتله أبدا ، هاتلي مصحف أحلف عليه .

ظل يتطلع إلى دون أن يتكلم فشككت أنه مسيحي .

قلت : و الإنجيل يا سعادة الباشا زى ما قلت .

بدا عليه الغضب و قال : قلعوه .

شدوا بنطلوني إلى أسفل بينما تولى أحدهم ربط يدى بكلبشات معدنية خلف ظهرى .

خاطبني الضابط متهكما : عارف إحنا حنعمل فيك إيه ؟

انتابنى الرعب و جذبت يدى فازدادت الكلبشات ضيقا حول رسغى .وجذب أحدهم كيلوتى إلى أسفل فتضاعف رعبى ، ربط به قدمى ثم أحضر طرحة نسائية وربط بها عينى ، وأخيرا رفعونى و علقونى فى النافذة بحيث ألمس الأرض بأطراف الأصابع .

جربت أن أنقل ثقل جسدى بالتناوب بين اليدين و القدمين لأخفف الألم بينما إنهالوا على بالكرباج و الشتائم .

هتفت : ارحموني . أنا مستعد أقول أى حاجة . بس كفاية كده . و مش حاقول على اللى إنتو عملتوه فى . أنا عارف أنه غصب عنكم . .كفاية بأه . حرام عليكم .

شعرت بإعياء شديد و سمعت من يسبنى طاعنا فى رجولتى فلم أملك نفسى و صحت به : أنا أرجل منك . و هنا سمعت الضابط يقول لواحد منهم : هات الجهاز .

ربطنى المخبر بسلك فى كتفى و بدأ يضع شيئا تحت رجلى . و سمعت صوتا يقول : الفيشة بايظة .

قال الضابط بصوت نافذ الصبر : حطه في التانية ياحمار .

مرت لحظات بطيئة و فجأة إخترق ساقى قضيب من النار فصرخت . وتكررالأمر مع الساق الثانية . أخذت أئن و شعرت فجأة بأنى أقفز من مكانى وأطير فى الهواء . ثم غبت عن الوعى .

أفقت لإجد نفسى راقدا على الأرض غارقا فى المياه و عاريا تماما ، و قدماى مربوطتين بالكيلوت ، و الكلبشات فى يدى خلف ظهرى كما هى ، و الغمامة تغطى عينى .

أدركت من الأصوات المحيطة بى أن الضابط و المخبرين ما زالوا موجودين ، فخاطبتهم قائلا : حرام عليكم .و بدأت أبكى .

سمعت الضابط يقول : إختارإسم واحدة تندهلك بيه .

قلت : ليه ؟ ما أنا لى إسم !

قال : إيه رأيك فى إسم شريفة ؟ و الا فتحية ؟

قلت : اعمل معروف .

قال : اسمع الكلام أحسن تنده لأختك و نقلعها .

قلت له : كله إلا ده .أنا مستعد أعمل أى حاجة ، أبوس رجلك .

قبل أن أغلق فمي شممت رائحة نتنة تقترب منى و بجسم غريب يستقر بين فكى لم ألبث أن أدركت أنه قدم الضابط المكسو بجورب نتن .

لم أتمكن من تحريك فمي لكى أقبل قدمه . و سمعته يقول : إخترت إسم يا واد؟

لم أتمكن من الإجابة . ثم سمعت لطمة و صوت أختى تصرخ : يالهوى .

صرخت : أنامعترف بكل حاجة . أنا كنت عاوز أسرقه و لما قاومنى ضربته .

وفقدت الوعى .

لم أدر بنفسى إلا و أنا جالس على الأرض وسط صمت مطبق و ما زلت مغمى العينين ، مقيد اليدين .

مضت عدة ساعات كنت خلالها مشلول التفكير و الإرادة ثم سمعت وقع أقدام تقترب و صوت باب قريب يفتح . امتدت يد إلى غمامة عينى فأزالتها . وألفيت نفسى أمام رقيب من جنود القسم طلب منى الوقوف و فك قيدى .

أسلمني الرقيب في صمت إلى صول وقع باستلامي على دفتر . تحاملت على نفسي و تبعته في صعوبة إلى الطابق الأرضي حيث يقع الحجز.

كنا في الفجر والجميع نيام فوق المصاطب أو على الأرض حيث انفرد البعض ببطانية فرشها تحت جسده و اشترك آخرون في بطانية واحدة استلقى فوقها إثنان أو ثلاثة . أما الذين لم يكن لديهم شئ فقد تمددوا على الأسفلت مباشرة وتوسدوا أحذيتهم .

وجدت مكانا إلى جوار كعب الداير فرقدت فوق الأرض العارية و أنا أتحرك في حذر لأن كل عضلة وعظمة في جسمي كانت تؤلمني . خلعت حذائي ووضعته تحت رأسي . شممت رائحة عرقي النفاذة و تقلبت عدة مرات بحثا عن جانب مريح دون فائدة . اصطدت بضع بقات ظهرت على ملابسي فدعكتها في الأرض و أنا أكتم نفسي كي لا أشم رائحة دمائها . استعدت صورة فتاة سيارة الجولف وتخيلتها ترتدي بلوزة بفتحة واسعة تكشف عن منبت ثدييها وأني أطاردها في سيارة كابورليه بمقعدين وأسابقها حتى أجبرها على التوقف . عندئذ تفتح باب سيارتها و تستدير لتغادرها فتنكشف ساقاها . إستمنيت على هذه الصورة من فوق ملابسي و أنا أتطلع حولي في حذر . ثم استدرت على جانبي وأغلقت عيني . ورحت في نوم عميق لم تزعجه الحشرات .

في الصباح قاسمني كعب الداير إفطاره من الطعمية و الجبنةالبيضاء واستمتعت بجزء من بصلة قذف بها إلينا أحد المحبوسين في قضية مخدرات . رويت له ما حدث و كيف أني سمعت صوت أختي . علق قائلا أنها قد تكون تمثيلية من المباحث للضغط علي .

اكتشفت أن طالب الماكس تبول على نفسه بالليل وأن هناك نزلاء جددا إنضموا إلينا . كان أحدهم فلاحا من كفر الشيخ جعل يضرب كفا بكف وهو

يردد : حسبى الله و نعم الوكيل . حسبى الله و نعم الوكيل . وعندما رآنى أنظر إليه وجه إلى الحديث :

– الواد ابنى بيعمل عملية مخ فى أبو الريش . إديته دم .وطلعت أبات بره على الرصيف . يقوم البوليس يمسكنى فى الفجر . يرضى ربنا الكلام ده ؟

كان الباقون جماعة واحدة من ثمانية أشخاص من مختلف الأعمار والأشكال ، ملابسهم ممزقة وعليها آثار دماء . بعضهم يرتدى ملابس كاملة رغم الحر ، و البعض الآخر جلاليب بيضاء و مع ذلك تبدو عليهم مظاهر النعمة كما تجلى لى من الأقدام النظيفة الناعمة فى الصنادل الجلدية .

عرفت من كعب الداير أنهم كانوا يستمعون إلى درس دينى من الشيخ عمرعبد الكافى فى المسجد ، وعندما انتهى الدرس بدأ يجمع التبرعات لمسلمى البوسنة قائلا أنه يفعل ذلك بتكليف من وزيرالأوقاف وشيخ الأزهر.إعترض هؤلاء على جمع التبرعات قائلين أنهم تأكدوا من الوزارة والأزهر عدم صحة هذا الزعم ، فاعتدى أنصاره عليهم . و عندما أبلغ مدير المسجد الشرطة جاءت على الفور و بدلا من إلقاء القبض على أعوان عبد الكافى ألقت القبض على الضحايا .

عرف كعب الداير أيضا قصة الحاج صاحب الكباب ، فهو تاجر أسماك مستوردة وجدوا فى ثلاجته كمية من سمك الماكريل منتهية الصلاحية و كان ينوى تعديل تواريخ إنتاجها و طرحها فى الأسواق .

أتاح لنا الحارس الذهاب للمرحاض المكشوف حتى إنتهينا جميعا من استخدامه على مرأى من بعضنا البعض . وعندما أعادنا إلى الحجزبدأ النداء على أسمائنا .

لحظت البعض يتداولون شيئا فى سرية . و سألنى أحدهم : معاك حمام ؟

تطلعت إليه فى بلاهة : حمام إيه يا عم ؟ إحنا فى ايه ولا ايه ؟

كان صديقي يستمع فضحك و قال لى : الراجل يقصد برشام .

كنت أعرف القرص الأبيض الذى يحمل على أحد وجهيه صليبا . وهو فى الأصل دواء أجنبى للشلل لا تصرفه الصيدلية إلا بروشتة . وهو غالى جدا . فالقرص الواحد يشتريه صديقى زلطة الميكانيكى بثمانية جنيهات . وهو يأخذ في العادة قرصين كل ثلاث ساعات وبعدهما كوب شاى . وجربت تعاطيه مرة واحدة شعرت بعدها بانبساط و جرأة رهيبتين . ولم أكرر هذه المرة لأنه مكلف للغاية ولا يبقى أثره لليوم التالى على عكس الأنواع الأخرى . وكنت أعرف انه يسمى أحيانا من باب التدليل " صلايش " لكنى لم أسمع من قبل باسم " حمام " . وشرح لي كعب الداير أن المجربين يأخذونه قبل العرض على ضابط المباحث ليساعدهم علي تحمل التعذيب .

لم يرد إسم كعب الداير بين الأسماء فبدا عليه الابتهاج وقال: معنى كده أنا باقى هنا . يمكن أطلع على طول .

قلت له : وحياتك ما تنساش . فى أقرب فرصة . حد يزورنى ويجيب معه أكل وفوطة و بيجامة و غيار داخلى . سكت قليلا ثم أضفت : وصابونة ضرورى وماكينة حلاقة و أمواس و سجاير. و أضفت بعد تفكير : مش ضرورى مالبورو . يجيبوا كليوباترة . أرخص .

كانت أمي تعرف أني لا أدخن غير المارلبورو التي يقترب ثمنها من الأربعة جنيهات . وكانت تتحايل دائما لتمدنى بالنقود الضرورية لأن مصروفى لم يكن يسمح لى بشرائها بل إن أبى لم يكن يعرف أني أدخن و إن كنت قد لاحظت

أنه بدأ يشك فى الآونة الأخيرة فضربنى وطردنى من البيت حتى إضطررت للمبيت فى الشارع .

غادرنا الحجزمن جديد وألفيت نفسى أمام الزنزانة المجاورة فوضعت عينى على الفتحة الدائرية فى بابها . رأيت عدة نساء بينهن واحدة شقراء الشعر ترتدى جوبة و شبشب زنوبة أمسكت بسيجارة بين أصابعها وجلست فى الوضع الذى تفضله أمى : ثانية ساقها اليمنى أسفل فخذها الأيسر، الذى أقامته عموديا على الأيمن واستندت إليه بمرفقها . وكانت تختلف عن أمى فى السيجارة التى تمسك بها بين أصابعها والكيلوت الأحمر اللون الذى ظهربين ساقيها . وتربعت أخرى سمينة فى ملابس بلدية سوداء على الأرض وانطلقت تحكى وهى تشرح بيديها يمنة ويسرة فى سطوة و عنجهية .و قدرت أنها المرأة التى ضربت زوجها .

اصطففنا طابورا فى الردهة الخارجية امتد حتى الطابق الأعلى . كنت فى مقدمة الطابور وفى مواجهتى مباشرة قاعة استقبال كبيرة يجلس فى طرفها ضابط بثلاثة نجوم منهمكا فى الكتابة . لحظت أنه يتصبب عرقا ويبذل مجهودا بالغا فيما يفعل . وكان هناك عدد من الضباط الشبان أغلبهم بنجمة واحدة أواثنتين يروحون ويجيئون بين المكتب وقائم خشبى مرتفع فى الجانب الآخر من القاعة صفت فوقه مجموعة من الدفاتر . تابعتهم فى إعجاب وحسد . كانت النعمة تبدو عليهم من بياض ووسامة وشياكة : الكاب الأبيض تحت الأبط ،القميص الأبيض الناصع بنصف كم ، البنطلون الأبيض الضيق الذى يكشف تفاصيل الفخذين و الأليتين ، المسدس المثبت فى جانب داخل حافظته، ومشية فيها زهو واعتداد . ولفت نظرى واحد منهم ذو وجه بيضاوى و شفاه حمراء مكتنزة حلق شعره على طريقة كابوريا .

سمعته يهتف : يا عوض . ثم يكرر ياعوض يا وسخ . يا عوض يا زفت.
ولبى النداء شاب ريفي مكتئب الوجه كان منهمكا في إغراق الطرقة بالمياه تمهيدا لمسحها . أنبه الضابط على قذارة المكتب أمره بمسحه و صفعه على قفاه . وتناوب بقية الضباط صفعه على قفاه وهم يضحكون .

انتهى عوض من تنظيف المكتب فعاد إلى الطرقة وشرع يجرف المياه بالمساحة الكاوتشوك حتى كومها قرب الدرج . تركها ومضى إلى قاعة الاستقبال فأغرقها بالمياه ثم أزالها بالمساحة فتجمعت أمامها قاذورات مختلفة كومها في الجزء الذى نظفه من الطرقة . وتركها . واختفى .

أمرنا الحارس بأن نجلس القرفصاء . وصاح آخر في قمة السلم : الشحاتين والنشالين و الحرامية. الناحية دى بعدهم بتوع المخدرات والتسعيرة. وهنا بتوع التزوير و الدعارة .

توزع الجميع طبقا للأمر . واحترت أين أقف . وأخيرا تراجعت إلى نهاية الطابور . اقترب منا حارس آخر وأخذ يضع القيود الحديدية في أيدينا : كل ذراع يمنى في ذراع يسرى . وجاء نصيبي مع رجل طويل القامة يرتدي بلوزة رخيصة وبنطلون من قماش ردئ ويحمل في يده كيسا بلاستيكيا تبدو منه زجاجة كوكاكولا كبيرة الحجم .

نادى أحد الحراس : حق البنزين يا حضرات . و بدأ كل واحد يدس يده في جيبه متأففا و يخرج مبلغا من المال يدفعه للحارس .وتحسست جيبي رغم أنى لا أحمل نقودا .

جمع الحراس النقود و قادونا إلى الخارج فدسنا في القاذورات التى خلفها عوض وأعدنا توزيعها في الطرقة . اتجهنا إلى سيارة نقل مغلقة الجوانب لها

فتحات صغيرة مسورة بالسلك . دفعنا الجنود بغلظة من بابها الخلفى . كان سلمه يعلو عن الأرض بنصف متر على الأقل . فوجد أغلبنا صعوبة فى القفز إليه بسبب القيود الحديدية فى أيدينا . وعندما اكتمل عددنا أغلقوا الباب علينا بالرتاج .وإحتل حارسان مقعدين متقابلين خارج الصندوق .

كان الزحام كثيفا داخل العربة وأوشكت أن أختنق من روائح العرق و الأفواه التى استمتع أغلبها مثلى بأكل البصل . علق أحد الواقفين :

- مش احنا دفعنا عشان يحطونا فى عربيتين ؟

قلت له : لا . إحنا دفعنا عشان البنزين .

ضحك وقال : انت يابني على نياتك خالص .

جاهدت حتى اقتربت من إحدى الفتحات المسورة من أجل نسمة هواء . بدالى الشارع غريبا كأنى أراه لأول مرة . وتنبهت لاشياء لم أعرها إهتماما من قبل: حركة الناس و السيارات و اشكال النساء وخطواتهن المرتبكة .ولحظت أن الناس تمشى كالمنومة وأن سيارتنا لم تثر اهتمام أحد .

مررنا بثلاث محطات للبنزين ، دون أن نتوقف عند إحداها .

ترجلنا أمام مديرية الأمن حيث اتجه أغلبنا إليها بينما تابعت السير على الاقدام مع حوالى العشرة فى طابور يقوده الصول و يحف به اثنان من الحراس حتى مبنى المحكمة المجاور .

ولجنا ردهة غاصة بالناس . وشق لنا الصول طريقا إلى حجرة كبيرة بها أرائك خشبية و بمجرد أن دخل آخر واحد فينا خاطبنا قائلا :

- الشاى يا حضرات .

أخرج البعض جنيهاتهم فجمعها الصول . وكنت بين قلة لم تدفع بينهم زميلي في القيد والكهل الباكي الذى يدعى فوزى . ونزع الأول سدادة زجاجة الكوكاكولا وأصر أن نشرب منها فروينا عطشنا رغم أنها لم تكن باردة . عرفت انه عامل بشركة شحن وتفريغ تهدم منزله في الزلزال وأقام بمساكن الإيواء حيث حصل هو وزوجته وأطفاله الثلاث على حجرة صغيرة في شقة من حجرتين ودورة مياه واحدة تسببت في مشاجرات دائمة مع الأسرة التي احتلت الغرفة الأخرى وخصوصا في الصباح عندما يستعد أطفال الأسرتين للذهاب إلى المدرسة . وفي يوم دخل جاره الحمام صباحا وظل أكثر من ساعة بينماكان الأطفال الصغار يصرخون خوفامن التأخر على الإمتحان . وعندما خرج دبت بينهما مشاجرة وتضاربا .

لمحت من فتحة في الباب كهلا في بدلة زرقاء من الكتان بكمين قصيرين يقتعد الأرض ويضع أمامه لفافة من ورق الصحف تضم عدة أقراص من الطعمية وعلبة مخللات ورغيفين من الخبز . اقترب منه كهل آخر في ملابس الصولات فخطف لقمة من الخبز والتقط بها قرصا من الطعمية . وجرى ريقي و أنا أتابعهما يلتهمان الطعمية .

انفتح الباب بعد ساعة ، وتسلمنا حارس جديد قادنا إلى باب آخر ألقينا أنفسنا بعده في القفص الحديدى بقاعة المحاكمة . وقفنا خلف شبكة من السلك تمتلئ حافتها السفلى القريبة من الأرض بالثقوب التى تسمح بمرورالأيدى . وتطلعت إلينا أنظار الجالسين فوق الدكك الخشبية . وقف إلى جوارى طالب أخر بكلية الطب عثر على بطاقة اشتراك مجانية في المواصلات ملقى في الشارع فوضع صورته عليه ليركب الأوتوبيسات مجانا إلى أن شك فيه المحصل فأمسك به و سلمه إلى الشرطة التى أحالته إلى النيابة بتهمة التزوير في أوراق رسمية .

وتلاه شابان يرتدى أحدهما قميصا مشجرا فوق بنطلون متسخ ويمسك في يده بعلبة مارلبورو . والآخر شديد السمرة قذر للغاية يرتدى بوتا يتابع ما يجرى حوله بلامبالاة وهو يمضغ لبانة . وفهمت أنهما من لصوص السيارات .

مضت ساعة ظلت فيها منصة القاضي خالية .كانت القاعة تمتلئ فجأة بالجالسين ثم تخلو منهم بعد قليل لتمتلئ بهم من جديد على الفور وهكذا دواليك . ولم يظهر أحد من أهلي . و بعد ساعة أخرى دب النشاط فى القاعة . وانشقت الأرض عن حاجب فتح بابا خلف المنصة و هو يصيح فينا : محكمة .

انفرج الباب عن ثلاثة رجال تقدموا من المنصة فاحتل اثنان منهما مقعدين خلفها ، أحدهما ضئيل الحجم بادى الخجل و الانطواء ألقى علينا نظرة عابرة من خلف عوينات داكنة ثم ثبت عينيه فى سطح المكتب ، و الثانى شاب متأنق يرتدى ربطة عنق ماركة "تيد لابيدوس ". أما الثالث فقد دار حول المنصة وجلس إلى جانبها ويبسط عدة ملفات أمامه و بعد أن دون عدة سطور فى إحداها بقلم " بيك " تناول أولها وقدمه للقاضى الذى تمتم بشئ فزعق الحاجب الذى وقف تحت المنصة مناديا بأحد الأسماء .

تتابعت القضايا ، و نودى على كثيرين بينهم أبو إصبع وزميله وسائق النقل السوزوكى وعم فوزى و الحاج آكل الكباب . ثم رفعت الجلسة بعد ساعة دون أن يتم استدعائى أنا أو الطالب أورفيقى فى القيد . واختفى القاضى وزميله خلف الباب الذى جاءا منه . و بعد نصف ساعة سمعت اسمى و قادنى الحارس بعد أن فك قيدى إلى غرفة المداولة .

جرى بعد كل شى بعد ذلك بسرعة مذهلة .وبينما كنت أحاول أن أحدد نوع العطر الذى ينبعث من زميل القاضى سألنى هذا عما إذا كان لدى محامى . أجبت بالنفى و قبل أن أفكر فى إعلان براءتى أعلن القاضى بصوت مرتفع :

- قررت المحكمة استمرار حبس المتهم ٤٥ يوما و إيداعه السجن .

أعادني الحارس إلى القفص . و جاء الدور على الطالب الذى خرج من غرفة المداولة منهارا . بعد ذلك أعلن الحاجب القرارات فنال الحاج إفراجا بكفالة . تصاعدت الزغاريد من أهله و تكاتف عليه عدد من الحاضرين وأخذ يوزع النقود بلا حساب وسرعان ما اختلطت الزغاريد بالصويت عندما تليت بقية الأحكام .

خرج بنا الحارس إلى الردهة الخارجية وألفيت أمى فجأة أمامى . بدا عليها كأنها شاخت و تقدمت في السن عدة سنوات . كانت ترتدى ملابس سوداء و تلف رأسها بطرحة سوداء .احتضنتني في صمت و هى تبكى . و تخلصت منها في غضب شاعرا بالخجل من أنظار الآخرين . تطلعت حولي بحثا عن أختي و أبى فلم أجد لهما أثرا .

غاص قلبي بين قدمي و سألتها : فين عايدة ؟ . هى بخير؟

ردت بصوتها الباكى : بخير يا بنى .

لم أشأ أن أستوضحها السبب فى عدم حضورها أو أستفسر منها عما إذا كانت قد تعرضت لشئ على يد ضابط المباحث . ولم تتبرع هى بأى إيضاح فسألتها عن أختى الثانية وأبى .

- فاطمة فى الشغل و أبوك تعبان شوية . راقد من ساعة ما سمع الخبر.

سألتها كيف عرفت بمكانى فقالت أن أحد الحراس زارها وأخبرها .

- اديتيلو كام ؟

قالت : حكم دماغه على عشرة جنيه .

- وهدى أخبارها إيه ؟

- يابنى انت فى إيه والا إيه .

كررت السؤال وشعرت أنها تتهرب من الإجابة .

– قوليلي . عايز أعرف .

– يابني ماقلتلك . مش لك .

– حصل حاجة ؟

– الظاهر اتخطبت رسمي .

جذبني الحارس من ساعدي لننصرف وسألتني أمي عما أحتاج إليه فطلبت منها نقودا . أعطتني خمسة جنيهات . أرادت أن تعطيني كيسا كبيرا من البلاستيك لكن الحارس اعترضها و أبعد يدها في عنف قائلا :

– ممنوع يا ست .

استعطفته أنا وأمي ومدت إليه يدها بورقة من فئة الخمسة جنيهات فثار. استبدلتها بعشرة جنيهات فسمح لي بأخذ الكيس . وجدته يحتوي على خبز و فاكهة وأطعمة ملفوفة في أوراق الصحف . تبينت بينها علبة تونة "شايس"وصابونة "زست" وعلبة شاي " ليبتون" وفانلتين "جيل" ملونتين ولبان "شيكلتس" وفرشاة أسنان " سبيك "و أنبوبة معجون أسنان " كولجيت " وماكينة حلاقة " جيليت " ومعجون حلاقة " بالموليف " وجوارب تايلاندية و منشفة للوجه .

طلبت منها أن تتصل بصديقي سيد و تخبره بمكاني و أن تجد لي محاميا شاطرا . وتركت نفسي للحارس شاعرا بالارتياح لأني تخلصت منها .

(٣)

توقفت عربة السجن أمام بوابة ضخمة مقوسة من الخشب الثقيل تعلوها لافتة تعلن عن رسالة المؤسسة بكلمتين مقتضبتين هما " التأديب والإصلاح ". لم يكن ثمة محاولة للتضليل ، فالكلمتان عبرتا بدقة عن الغرض المستهدف وهو المحافظة على تدفق المنح الأمريكية الموجهة للغرض نفسه (التدفق لا التأديب والاصلاح) ، بل ومضاعفتها إن أمكن . وهو الأمر الذى تكشف لأشرف عبد العزيز سليمان منذ لحظة العبور .

فالبوابة الضخمة كانت تحتوى فى منتصفها على باب صغير بحجم القامة الإنسانية تطلب المرور منه القفز فوق حاجز خشبى بارتفاع قدم . عندئذ ألفى نفسه فى فناء مربع أقيم وسطه نُصب غامض تحيط به دائرة من الحجارة الملونة مزروعة بالنجيل و الزهور . بعد هذه الافتتاحية المضللة سيق إلى قاعة كبيرة ازدحمت بالوافدين الجدد و بجيوش الذباب التى كانت تقوم بعمليات إقلاع وهبوط منتظمة فوق مرحاض فى الركن ، تناثرت الإفرازات حول فتحته .

تولى الجنود تفتيش الإيراد الجديد (الذى جمعته العربة من عدة أقسام فأربى على الثلاثين محبوسا) تفتيشا دقيقا ، فقلبوا أكياس الطعام فوق الأرض، وتحسسوا السيقان والآباط والأفخاذ وما بينها . لم يبد شرف تأففا من الأيدى التى جالت فى جسده بحرية ، مستفيدا من درس التحسس الأول على يد جون ، ولا اعترض على ماقام به الجنود من مصادرات : ماكينة الحلاقة لأن كل الأدوات المعدنية والأسلحة البيضاء ممنوعة (وهو إجراء قديم من

إجراءات الحماية يهدف إلى دعم المنتجات المحلية) ، النقود (كى لا يشترى من الكانتين الذى يبيع للنزلاء ما يحتاجون إليه من أطعمة وسجائر) ، الساعة (كى لا يخسرها فى لعب الكوتشينة) ، الخاتم (كى لا يسرقه منه أحد) ، رباط الحذاء (كى لا يشنق به نفسه فى النهاية) . وبالمقابل سُمح له باستبقاء كوتشى والمنشفة والصابون الحلو ولفافة طعام (عدا الشاى والسكر اللذين وضعا جانبا من أجل عدم إعدامهما فيما بعد) .

جلس الوافدون القرفصاء إلى جوار الحائط واضعين أكياسهم بين سيقانهم وهم يمسحون عرقهم و ينشون الذباب . ومضى بعض الوقت قبل أن يبدأ المشهد التالى . و مهد له جنديان يحملان كرسيا وضعاه فى مدخل القاعة (حتى تخفف تيارات الهواء من الروائح و الحرارة) وبحيث يواجه الساحة الخارجية التى تتوسطها الزهور . وبعد قليل ظهر ضابط شاب ، رياضى الهيئة ، وسيم الطلعة ، على وجهه تعبير من الضجر الدائم ، احتل الكرسى وجلس فى استرخاء متجنبا النظر إلى الضيوف ، مثبتا عينيه على الزهور . أعطاه أحد الجنديين دفترا فتحه وقلب صفحاته ثم بدأ ينادى منه الأسماء بصوت ملول . وجاء دور الحلاق فى الملابس الخضراء التى تميز المساجين ، فمر عليهم فى عجلة كشفت عن خبرة مع البهائم فى سوق القرية .

تابع شرف باهتمام عملية الحلاقة ولاحظ منزعجا أن الحلاق يطلق آلته بقوة فى الرأس ويجردها من الشعر تجريدا تاما فى حركتين سريعتين . كما لاحظ أيضا أنه يرق أحيانا فيأخذ من أحدهم علبة سجائر ، عينى عينك تحت بصر الضابط ، ويستبدل آلته بمقص يعالج به الشعر فى رفق .

كان كعب الداير قد نصحه باستبدال المارلبورو بكليوباترة . لأن الملكة المصرية فضلا عن رخصها بالمقارنة مع الكاوبوى الأميركى ، هى العملة

السائدة فى مؤسسة التربية . هكذا كان شرف مستعدا للتضحية بعلبة كاملة للحيلولة دون الإستئصال الوحشى للشعر الذى عانى كثيرا فى تربيته ومحاولة تطويعه للمودة المتقلبة . فأعطى الحلاق علبة سجائر عندما بلغه و هو يتوسل إليه :

– و حياتك تخف إيدك شوية .

استخدم الحلاق مقصه في رفق فتساقطت الخصلات الثمينة على الأرض . وكما يحدث فى أمثال هذه الصفقات ، لم يتجاوز ما فاز به شرف من شعر طبقة لا يزيد سمكها عن سنتيمتر واحد .

بعد الحلاقة جاء دور التصوير ثم القرفصة من جديد ، لتبدأ نمرة الصول . كان هذا كهلا ذا كرش ضخم ، يدعى لسبب غيرمفهوم "عترة" ، قام بتقسيمهم إلى مجموعات طبقا للتهمة مستعينا فى ذلك بعصا رفيعة فى يده إتخذها من فرع شجرة . و عندما إنتهت تلك العملية أعاد لخبطتهم من أجل تقسيم من نوع آخر:

– اللى عاوز يدخل عنبر الميرى شمال واللى عاوز الملكى يمين .

توقف لحظة محسوبة ثم تعطف فشرح المقصود بالمصطلحين : الملكى يعنى تاكل وتلبس زى ما انت عايز . والميرى تلبس بدلة السجن وتاكل عيش وجبنة وتشتغل كل يوم عند بتوع الملكي .

لمزيد من الايضاح حول الفرق بين القطاعين الخاص والعام أضاف الصول أن الشغل المقصود هو تنظيف الزنازين وتفريغ دلاء البول و الخراء .

انقسموا على الفور إلى مجموعتين ، واحدة صغيرة تألفت فيما يبدو من القادرين – كان بينهم طالب الجامعة المدمن وصاحب التى شيرت –

وأخرى أكبر من الرعاع تضم صاحب الأصبع السادس و زميله و عم فوزى الدائم البكاء ، وشاب فى قميص مزركش و نظارة طبية مذهبة وآخرين . وجاء وضع شرف فى منزلة بين المنزلتين .

هل إنتهى الأمر ؟ ليس بعد .

صاح الصول بأعلى صوته : اللى عاوز ملكى يقدم طلب على عرضحال دمغة .

بدأ القادرون كتابة الإلتماسات التى وزعها عليهم أحد الحراس بثمنها : ثلاثة علب سجائر للواحد . ولمح الصول شرف واقفا على حدة فصرخ فيه : إنت واقف كده ليه زى اللطع ؟

اعترف اللطع بأنه لا يعرف موقف أهله من هذا الأويشن ، وأنه لا يستطيع أن يحسم الأمر قبل أن يأخذ رأيهم ، طالما أنهم سيدفعون الثمن .

ضحك الصول وقال : شاالله ياأهلى .. خش يا خويا ع الميرى لغاية ما يبقوا يبعتولك .

انضم إليهم و وقفوا ينتظرون حتى إنتهت كتابة الإلتماسات وقام الصول بمراجعتها . واذا به يصرخ غاضبا ، وتنهمر الشتائم من فمه . لم يكن ثمة خطأ فى محتوى الالتماسات . الخطأ كان فى حصيلة ثمنها . وأثمرت ثورة الصول محاولة تصحيح متواضعة . وفى النهاية تم اقتياد الجميع إلى الحمام حيث تعرض شرف لأول تجربة من نوعها فى حياته : أن يقف عاريا بين العراة .

حاول بالطبع أن يحمى خصوصيته بكفيه . لكنه إضطر لإستخدامهما بعد قليل لدعك جسمه بصابونة سوداء متحجرة أسفل مياه الدش الساخنة . ودفعه الحياء (و محدودية التجربة أيضا) إلى أن يستدير مواجها الحائط ، حاميابذلك خصوصيته ، ومقدما للآخرين أعز ما يملك .

ارتدى الملكيون ملابسهم و انصرفوا إلى عنبرهم ، بينما اقتيد أهل الميرى إلى غرفة "الأمانات" حيث خلعوا ملابسهم ووضعت فى أكياس بأرقامهم . كان أغلبها خرقا بالية لن تتحمل لبستين أخريين أوقذرة لدرجة لا يصلح معها تنظيف، و ما كان أصحابها أنفسهم يعارضون لو شاء السجن إعدامها . لكن المؤسسة، فيما يبدو ، كانت متعنتة في أمانتها . ولهذا السبب قدمت إليهم خرقا بالية من موضة مختلفة عبارة عن رداء من الدمور السادة أبيض اللون يتألف من أربع قطع : قميص مثل الفانلة بلا أكمام ، قميص مثل البلوزة بكمين طويلين وفتحةصغيرة عند الرقبة ، بنطلون يعقد بواسطة شريط من نفس القماش أشبه بالحبل ، وطاقية مثل الكاب . لم يكن ثمة كيلوت إذ قدرت المؤسسة أن المحبوسين (بالنظر إلى طبيعة الظروف التى جاءت بأغلبهم ، و ما ينتظرهم من تأديب و اصلاح) لن يكونوا بحاجة إليه .

لم يكن أشرف عبد العزيز ، الخبير بالملابس و أنواعها ، وتقلبات موداتها ، جاهزا لرداء لا يتناسب فقط مع حجم لابسه وإنما يتألف أيضا من قطع غير متناسقة . ولا تردد فى الجهر برأيه .

قال للحارس منفعلا و هو يتأمل البلوزة التى تستوعب نزيلين في أن والبنطلون الذى غطى ركبتيه بالكاد :

– مش مقاسى .

على كثرة الغرائب التى مرت بالحارس فى حياته السجنية ، لم يسبق له أن استمع إلى وجهة نظر من هذا النوع . وكان رد فعله طبيعيا . هوى بيده على قفا الشاب و هو يقول :

– حاضر . حشوفلك مقاسك حالا . شيل نمرتك وقدامي ع الزنزانة .

كانت الصفعة إشارة لبقية الحراس بأن عملية التأديب و الإصلاح قد بدأت، فانهالت الصفعات تقود النزلاء الجدد إلى عنبرهم .

حمل كل منهم "نمرته "على كتفه : بطانيتين رثتين وبرش (سجادة من الليف الخشن المجدول كفيلة بتذكير النائم فوقها بما ارتكب من جرائم) وحملوا أكياس الطعام و الحاجيات الأخرى فى أيديهم وخرجوا إلى الفناء حيث كان الضابط المغرم بالزهور قد نقل كرسيه (أو بالأحرى نقل له) إلى ظل مبنى صغير من طابق واحد رصت أوانى الزهور حول مدخله . وبدأ العبور الثاني في هذا اليوم ..

لم يكن إجتيازا لعائق واحد كما كان شأن الأول ، فالفناء انتهى ببوابة كبيرة من القضبان الحديدية ثم فناء آخر على صورة مربع يتوسطه مبنى قديم من الحجارة السميكة المطلية بألوان جيرية كالحة له باب حديدى ضخم انفرج عن رائحة عفنة طاغية ذكرت شرف بالملابس المتسخة إذا ما تسللت إليها الرطوبة أو المياه و تركت عدة أيام فى حاوية مغلقة ، كما دأبت أمه على أن تفعل .

امتدت أمامهم ردهة طويلة صفت الزنازين على جانبيها وتوسطها سلم حديدى يؤدي إلى الأدوار العليا . وكان ثمة لافتة خشبية تحمل كلمة " الإيراد " ، كتبت بالطباشير في خط ركيك ، بجوار عدد من الزنازين إتجه إليها الحارس ، دس مفتاحه الحديدى الكبير بعنف في قفل أول باب محدثا صليلا مدويا ، ثم دفعه إلى الداخل ، وتنحى جانبا دون أن يتخلى عن المفتاح في قفله .

فاحت رائحة العطن مركزة هذه المرة ، وتبدى عدد من أصحاب الأردية البيضاء يفترشون الأرض . نهض أحدهم وكان طويلا نحيفا بكرش بارز يجعله يبدو كالمرأة الحامل في شهرها الخامس فتقدم للقاء الوافدين وهو يمد يده

بعلبة ماربورو لا إليهم وإنما إلى الحارس الذى لم يكتف بسيجارة وضعها في فمه و إنما التقط أخرى أودعها خلف أذنه ، و أشار إلى أقرب خمسة من رعيته بالدخول . ثم إنسحب فى صمت مغلقا الباب خلفه ، منتقلا إلى الزنزانة المجاورة .

وقف الخمسة فى مدخل الزنزانة وحاجياتهم فى أيديهم وعلى أكتافهم : شرف ، الشاب ذو النظارة المذهبة ، أبوإصبع (ولهذا يدعى بلحة)، زميله سعد صلصة ، عم فوزى دائم البكاء ـ وكمايفعل الدجاج المذعور عندما يدخل العشة تدانوا من بعضهم البعض وأخذوا يتبادلون النظرات مع القاطنين ، الذين لم تبدر منهم إشارة ترحيب بمن سيضيقون عليهم فسحة المكان.

خطا صاحب "المالبورو "إلى منتصف الزنزانة و قال فى حزم :

– أنا بطشة نبطشى الزنزانة .كل واخد له بلاطتين ونصف عرض وسبع بلاطات طول . ولا سنتى زيادة .

إذا كان هذا البيان السيادى قد فهم من قبل المجربين أمثال بلحة و زميله ، فان الآخرين ظلوا يتطلعون فى بلاهة إلى المتكلم الذى خص بحديثه أقربهم إليه: صاحب النظارة المذهبة الإطار ، صبرى ، الذى فقد قميصه المزركش وبدا ضئيلا منكسرا فى رداء السجن غير المتناسق . فقرب منه رأسه وتأمله متحديا :

– إيه ، مش عاجبك ؟

وقبل أن يتاح له ايضاح موقفه صفعه

رفع المسكين يده إلى خده فى استكانة بينما تطلع بطشة حوله منتصرا . لم يكن قد صدر عنهم ما يبرر هذه المواجهة ، لكنها كانت الطريقة الوحيدة المتاحة

أمام شخص فى أهمية النبطشى ، أى المناوب بالتركية المصرة ، كى يعلن عن (و يؤكد) منصبه الذى يجعله بسبب سجله الحافل ، حارسا غير رسمى ، أو ممثلاشخصيا للحارس، وفى العمق ، أى أن درجة تمثيله تمتد إلى من يقف خلف الحارس (أو أمامه حسب منظورالرؤية) ابتداء بالصول ثم الضابط وبعده وكيل السجن ثم مديره صعودا حتى وزير الداخلية و رئيس الوزراء .

تشاغل الضيوف بمسح عرقهم الذى أسالته حرارة الجو والإستقبال حتى انتهى القدامى من تحريك الفرشات (النمر) ليفسحوا لهم مجالا طبقا للقانون العصامي الذى يقضى بأن يبدأ الجدد من القاع (و هو هنا الباب ودلو البول الموضوع إلى جواره) . وكان بلحة و صلصة على معرفة بالقانون فقفزا إلى الداخل تاركين زملاءهم حيارى فى المدخل . ولأنه أصغر الجميع فى السن ، استقر شرف فى نهاية المطاف إلى جوار الدلو (مشرفا على تشكيلة فريدة من النعال يصعب نسبة أى منها إلى ماركة معروفة) .

. أحصى شرف ستة من السكان القدامى ، لم يكن من السهل تمييزهم لأول وهلة ، فالملابس البيضاء متماثلة وكذلك الوجوه السمراء . لكنه تعرف بعد لحظة على سائق السوزوكى بلحيته الكثة ومسبحته (وكان يحتل أحد الركنين الاستراتيجيين) ، وميز شابا ذا وجه شديد الشحوب ، وآخر أسود البشرة ورابع بلحية مشذبة تدور بوجهه ولا تحتل سوى شريط ضيق من الوجنتين والذقن .

هل إنتهت إجراءات الدخول ؟ ليس بعد .

. دار المفتاح مرة أخرى فى قفل الباب و ظهرحارس ضخم الجثة غريب المنظر؛ إذ تألف جسمه من عدة انبعاجات فى اتجاهات مختلفة .

رحب به بطشة قائلا : مساء الخير يا بو علي ، ثم التفت إلى النزلاء الجدد وصاح :

– كل واحد يطلع علبة سجاير .

تجلت على الفور فائدة الصفعة التى نالها صاحب النظارة المذهبة ، إذ سارع الجميع بتنفيذ أوامرالنوبتجى الذى جمع العلب وقدمها للشاويش "بَعْجَر" . و انسحب هذا بعد أن أخذ العلب دون أن يفه بكلمة تاركا الباب مفتوحا .

لم يتبرع بطشة بأى إيضاح لنوعية الرسوم المدفوعة ، ولم يخطر لأى من النزلاء الجدد أن يستفسر عن الأمر ، على أنهم سيعرفون فيما بعد انها حلاوة المفتاح وهى احدى رسوم الريسبشن التى يحصل عليها شاويش العنبر من كل وافد جديد .

لكن الحلاوة مثل الصفعة كانت تهدف إلى توصيل رسالة هامة . وكانت هذه الرسالة فى منتصف الطريق إلى أدمغة الضيوف الذين تبادلوا نظرات متفهمة ، عندما نادى الحارس على بطشة فغادر الزنزانة و عاد فى صحبة مسجون قذر الهيئة حافي القدمين يجر دلوا معدنيا من النوع الذى جلس شرف إلى جواره ، تتصاعد منه أبخرة الطعام لا البول ، وتبرزمنه يد مغرفة . تناول أحد النزلاء ثلاث "قروانات" (وهى أطباق غويطة من الألومنيوم) وهرع بها إلى صاحب الدلو الذى ملأها بسائل أسود تعلوه طبقة زيتية . وانتقل الدلو إلى الزنزانة التالية وحل محله دلو آخر من الحجارة البيضاء تشبه الجبن القريش وتغطيها الشوائب . ثم ظهر ثالث (سجين لا دلو) يجر بطانية كبيرة فوق الأرض إحتوت علي أكوام من أرغفة الخبز أعطي ثلاثة منها لكل نزيل .

انطلق صوت بعيد يردد : تمام ، أعقبه صوت إصطدام المفتاح فى قفل زنزانة.
و تكرر الصوتان و هما يقتربان . ثم ظهر الشاويش بعجر فى صحبة بطشة .
ودخل الأخير حاملا زجاجة مياه مثلجة تحت إبطه ثم قام الشاويش بإحصاء العدد وهتف مرة أخرى : تمام . و أغلق الباب بالمفتاح قبل أن ينتقل إلى الزنزانة التالية .

لم يرفع شرف عينيه عن زجاجة المياه و آثار برودتها المنعكسة على جدرانها و لعله لم يشعر بالعطش فى حياته كما شعر به الآن . لكن السبيل كان ممتنعا عليه و تعين عليه أن يقنع بزجاجة بلاستيكية أخرى فوق دلو المياه فمد يده إليها ورفعها إلى شفتيه ، متجاهلا دفئها، ولم يكد يجرع رشفتين حتى فوجئ بيد بطشة تنتزعها بعنف وصوته يصرخ :

- إنت حتشرب المية كلها .. عندك الجردل اشرب منه .

كان يشير إلى دلو مماثل لدلو البول وضع فى الناحية الأخرى من الباب يعلوه غطاء معدنى استقر فوقه كوب معدنى ذو أذن . نهض شرف و تناول الكوب و أزاح الغطاء وتطلع داخل الدلو . كان ممتلئا بالمياه إلى قرب حافته. وإنعكس الضوء على سطحها كاشفا عن طبقة زيتية خفيفة تمرح فيها الكائنات الدقيقة . فى الظروف العادية ما كان شرف ليتنازل عن كوب المياه المثلج تحمله إليه أمه أو إحدى أختيه ، لكن الله غالب . غالب اشمئزازه وغمس الكوب فى المياه . وفى اللحظة التى بدأ يتجرع فيها الماء عادت الرسالة تشق طريقها إلى أدمغة الضيوف ، واختار بطشة هذه اللحظة ليعلن أن ملأ جرادل الماء وتفريغ جرادل البول يتم بالدور وأن هذا الدور يبدأ من الغد بشرف . ساعد هذا الإعلان على وصول الرسالة بسرعة ، فتقاربت رؤوس

الضيوف ثم أخرج كل منهم علبة سجائر وباتفاق صامت عهدوا بها إلى محمد بلحة ، بعد أن توسموا فيه (بسبب إصبعه السادس) أنه المؤهل مهنيا بينهم ، ليقدمها باسمهم إلى السيد المناوب .

كان هذا قد إرتقى عرشه في الركن الاستراتيجي (الذي لا يصل إليه بصر المار في الطرقة إذا كان الباب مفتوحا ولا المتلصص من خلف الباب إذا كان مغلقا) الذي أتاح له أن يستولي على جدارين في آن واحد رتب المساند الكافية لهما : أكياس ولفافات عديدة وبطاطين قديمة ، بينما تألفت قاعدة العرش من طبقة سميكة من عدة بطاطين جديدة مازالت محتفظة بوبرها جلس فوقها بالطريقة المناسبة : الساق اليسرى مثنية ومستقرة في إسترخاء على الأرض تحت اليمني القائمة وفوقها الذراع اليمني تحمل في نهايتها سيجارة بين اظفرين متسخين . الذراع اليسرى كانت في المكان المتوقع ، في نقطة ملائمة تسمح لأصابعها أن تعبث بالتبادل بأصابع القدمين في ناحية والأجهزة الإخراجية في الناحية أخرى . نفس الوضع الذي اتخذه أسلافه من الولاة والسلاطين و الخلفاء عندما كانوا يتلقون خراج الولايات والأقاليم والأمصار .

تلقى النوبتجي الهدية المتواضعة من ممثل الوافدين في غير مبالاة إذ ناولها لوزيره – النحيف مثله لكن أقصر وله أنف متورمة وشفاه متشققة وكتفين محنيتين –الذي أودعها في نشاط أحد الأكياس الغامضة المدسوسة في غياهب نمرة رئيسه .

شرع النزلاء يعدون نمرهم فبسطوا الأبراش والبطاطين وطووها بطريقة معينة فشل شرف في تقليدها . وهنا هب إلى نجدته جاره صبري ، الذي

وسعت مدرسة الجندية مداركه ، فطوى إحدى البطانيتين ثلاث طيات وفرشها فوق البرش واقترح عليه أن يجعل الثانية وسادة إلى أن يتغير الطقس فيتغطى بها.

انقسم القدامى إلى مجموعتين بسطت كل واحدة أطعمتهاأمامها . و تجمع الخمسة قرب المدخـــل ، وجردل البول ، حول القروانة ذات السائل الأسود . أخرج كل منهم ما لديه فتكونت مائدة حافلة من البقايا : أنصاف وأرباع ساندوتشات الفول و الجبن و أقراص الطعمية و أكياس الشيبسي . قامت جيوش الذباب بعملية إنزال ساحقة ، على الطريقة الإسرائيلية ، انضمت إليها قوات أرضية من صراصير صغيرة الحجم داكنة اللون خرجت من خلف دلو البول الذى فاحت رائحته النفاذة ، فلم يشعر شرف برغبة فى الأكل . بلحة الذى عاد للتو من سفارته شاعرا بأهميته ، هو الذى أخذ على عاتقه قيادتهم فهش الذباب بيد و مد الأخرى إلى " نصف فول " أمام شرف ورفعه إلى فمه قائلا : بسم الله .

كانت المائدة متواضعة بالقياس لمائدة المجموعة التي تزعمها بطشة وضمت معاونه و سامبو . أو الأخرى التى ضمت الملتحيين والشاب ذا الوجه الشاحب . ما كان يميز المائدتين (ويساوى بينهما) هى المختارات التى تألفتا منها : جزء من دجاجة ، أربع قطع من محشى ورق العنب ، قطعة من مكرونة الفرن ، إصبعان من الكفتة و أشياء أخرى (منها ربع صينية كنافة أمام بطشة) تمثل حصيلة اليوم من الأطعمة الوافدة إلى عنبر الملوك . وبهذا لم يعودوا فى حاجة لقروانة السائل الأسود ، وصارباستطاعة النوبتجى أن يبدى رضاءه عن الهدية التى تلقاها ، فأشار لمعاونه أن يعطى القروانة للضيوف ، قائلا فى نبرة لم تخل من تهكم :

- عاوزين يمك ؟

تناولوا منه قروانةالسائل ذا اللقب التركى ، لكن أحدا منهم لم يقربها . تظاهروا بالإنهماك فى الأكل بينما كانوا يرقبونه هو ومجموعته وهى متابعة إستمتع بها النوبتجى وحرص على إستمرارها . ففى لحظة توقيت دقيقة ، انتهى فيها الضيوف من ساندوتشاتهم وأخذوا يحدقون بمشاعر ملتبسة إلى محتويات القروانتين ، مد يده إلى أحد أكياسه وهو يتطلع إليهم ليتأكد أن المشهد لن يفوتهم ، واستخرج علبة من الطعام المحفوظ ، أعطاها لمعاونه الذى عكف على مهمته فى نشاط : وضع العلبة فوق أرض الزنزانة وأخذ يحكها فى قوة حتى تآكلت حافتها ثم رفعها وقلبها وضغط على سطحها بيده فسقط داخله . تناول الغطاء بإصبعه و وضعه جانبا ثم أفرغ محتويات العلبة فى صحن معدنى واستقر اثنا عشر زوجا من الأعين على السمكات الأربعة التى رقدت فى صلصتها .

انضمت عين جديدة من خلف الباب ، ظهرت فى فتحة دائرية صغيرة بمنتصفه استقبلهاالنوبتجى بالهتاف : مساء الخير على غفرالليل . تراجعت العين و ظهرمكانها فم ردد : مساء الورد . وعلى الفور قام بطشة وألقم الفم سيجارة . انسحب الفم بالسيجارة وانسدل الغطاء فوق العين السحرية ثم تكررت التحية المتبادلة عند الزنزانة التالية .

انتهى طقس الأكل وأشعل المدخنون سجائرهم . وتولى المعاون، صنقر، إدارة الطقس التالى : خلع قميصه معريا صدره و أفرغ محتويات قروانتين من السائل الأسود فى دلو البول ثم وضعهما إلى جواره مقلوبتين ومتباعدتين قليلا ، واستخرج من مخلاة كبيرة معلقة فوق رأس سيده برادا صغيرا من الألومنيوم

وعلبة معدنية صغيرة و بضع شرائط من القماش ، ومن خلف جردل البول قنينة زجاجية فى حجم زجاجة الكولا ، ومن جيبه علبة ثقاب . وضع كل هذه المعدات على الأرض إلى جوار دلو البول و قرفص أمام القروانتين . فتح العلبة المعدنية واستخرج منها لفافتين من الورق : أفرغ من الأولى فى البراد قدر ملعقتين من الشاى ومن الثانية حفنة من السكر، ثم أعادهما إلى العلبة وملأ البراد من مياه الشرب ووضعه جانبا . وجه اهتمامه إلى بقية المعدات فضبط وضع القروانتين وبلل القماش بمحتويات القنينة الزجاجية ودعكه بين كفيه ثم ألقى به بين القروانتين و أضرم فيه النار من عود ثقاب . و عندئذ تناول البراد فأقامه فوق النيران مستندا إلى حافتى القروانتين .

قام صنقر بهذه العمليات فى دقة تامة و مهارة عالية فاستحق المكافأة فى صورة سيجارة قدمها إليه سيده وهو يتطلع إلى الجمهور قائلا : ولع يا صنقر .

اهتز صنقر فى جلسته يمينا ثم يسارا كأنما يقف وراء النصبة فى مقهى حقيقى و تناول السيجارة قائلا : تسلم إيدك يا معلمى .

تبادلا التدخين عدة مرات قبل أن يتعطف النوبتجى و يقدمها إلى سامبو الذى كان منهمكا فى غسيل علبتين فارغتين من علب السالمون و كوب من البلاستيك له أذن جانبية ، أفرغ فيها صنقر الشاى طبقا للقواعد : كوب البلاستيك للرئاسة ، علبة سالمون ينتهى الشاى قبل حافتها باصبع لسامبو، وعلبة سالمون ، مملوءة حتى الحافة بطبيعة الحال ، لصنقر شخصيا .

انتقل البراد للمجموعة الثانية وتولى الشيخ سوزوكى إعداد الشاى . خلال ذلك قام بلحة بمفاوضات مكوكية بين بطشة والضيوف أسفرت عن

تلقيمة من الشاي والسكرو الوقود(بضع قطرات من محتويات القنينة الزجاجية المؤلفة من الطبقة الزيتية التى تعلو محتويات دلاء الطعام) مقابل سجائر جمعها من زملائه الأربعة ، وتولى خبيرآخر ذو تجربة هو سعد صلصة إعداد الشاي و توزيعه .

هكذا وصلت علبة السالمون أخيرا إلى فم شرف الذى تلقى فى الدقائق الأخيرة الرذاذ الناجم عن عمليات الغسيل فوق جردل البول ، فأراح رأسه على الجدار و مضى يرتشف محتوياتها فى تلذذ ، دون أن يعبأ بالطعم الكارف ، من جراء دخان الوقود ، و انصرف إلى متابعة المباريات .

كانت ثلاثا : واحدة للأيدى والثانية للأنف و الثالثة للسان . فبينما كان ورق الكوتشينة ينتقل فى سرعة خاطفة بين الأرض وأيدى سوزوكي والشاب ذى الوجه الشاحب ، مشفوعا بالسجائر التى إتخذاها عملة للمكسب و الخسارة ؛ تحلقت جماعة بطشة ، فى مقر قيادته ، حول طبق كبير من البلاستيك به أقراص بيضاء مثل أقراص الأسبيرين تولى صنقر طحنها بملعقة ثم قسم الطحين إلى أكوام صغيرة . وكان بطشة مستعدا بورقة لفها على شكل سيجارة وهو يتطلع إلى الضيوف ليتأكد من متابعتهم لما يفعل من أعاجيب ثم دس أحد طرفى الورقة فى كوم وأخذ يستنشق حتى أتى على نصيبه فناول الطبق لصنقر ، و اضطجع على وسائده تاركا للمسحوق أن يفعل فعلـــــه ، ومفتتحا المباراة الثالثة :

القرص الواحد بعلبة سجاير يا بلاش . يعمل دماغ حلوة . يخليك تنسى كل حاجة والوقت يعدى من غير ما تحس .

لمن خالجه بعض التردد أو شاء الإستزادة فى المعلومات أضاف المعاون:

- في أقراص تانية تودى فى داهية . أخدت منها مرة عشرة أقراص مرة واحدة ورزحت . يقوم يحصل إيه ؟

أدلي سامبو بالمداخلة المطلوبة : يعنى حنيحصل إيه يا خيّ . ماحنا عارفين اللى فيها .

واصل صنقر دون أن يهتم : الولية مراتى فتحتلى . رحت قالع ملط على طول .

هلل المستمعون وتوالت التعليقات إلى أن تبرع صنقر بالإيضاح :

- جريت على الدولاب . فتحته ودخلت جواه . ورحت قافل الباب على وقاعد .

انفجرت عاصفة من الضحك والتهليل ضاعفها بطشة عندما روى كيف تهيأ للمعلم حنكوشة أن السلم أمامه فألقى بنفسه من الطابق الرابع ونزل حتت في قناء العنبر . و الظاهر أن مصير المعلم حنكوشة كان محملا باغراء لا يقاوم بالنسبة لبلحة وصلصة إذ أخذا يزحفان حتى بلغا الرئاسة ، وحصلا على استنشاقة ، أجريا بعدها مفاوضات هامسة بشأن استمرار التموين ثم عادا إلى قاعدتهما ليستمتعا بالنتائج : دورجديد من الشاى ونزاع غامض ما لبث أن فضح سرهما .فبعد أن حمّل صلصة زميله مسئولية التهمة التى يواجهانها تكشفت التفاصيل : صعدا إلى إحدى سيارات الركاب القادمة من الأقاليم وأشهرا المطاوى و جمعا تحت تهديدها ما يحمله الركاب من نقود وساعات . وعندما أراد أحد الأغبياء ، واد تلميذ ، المقاومة وجه إليه بلحة عدة طعنات أودت بحياته .

أرهف بقية الضيوف أسماعهم وهم يتبادلون النظرات . وشعر صلصة بالأمر فلزم الصمت فجأة وهو ينقل البصر بين شرف و جاره المصفوع في حدة أثارت قلقهما ودفعت شرف إلى تشغيل لسانه فسأله عن السبب في إسمه .

تجهم وجهه و تبرع بلحة بالإجابة : أصله من صغره غاوى يسرق علب الصلصة .

إنفجر ضاحكا و هو يتطلع إلى مستمعيه منتظرا مشاركتهم وهي ما انتووه . وبالفعل فتحوا أفواههم لكن النظرة الباردة في عيني صلصة كتمت الضحك فيها وتركتها فاغرة في بلاهة . وتدارك بلحة الأمر فسأل أشرف عما أتى به .استمعوا إلى قصته في اهتمام أسفر عن تنشيط لملكاتهم القانونية : أكد صبرى فرصة أشرف في النجاة لأن القانون يبرئ الشخص الذى يقتل دفاعا عن النفس، فما بالك بالدفاع عن الشرف ؟ و هز صلصة رأسه متشككا و قال بلهجة العليم :

– لو ماكانش اعترف كان نفد .

روى بلحة حادثة مشابهة ، تعرض فيها صديق له لاعتداء راح ضحيته لكن القاتل فاز بالبراءة لأن محاميه أثبت أن القتيل كان مسلحا و بادر بالهجوم . وسرد سعد صلصة عدة وقائع نال فيها المعتد البراءة أو حكما مخففا لأن القاضي لم يجد دليلا على نية مدبرة .

قال صبرى : الأسبوع اللى فات واحد دبح مراته عشان لقاها نايمة مع واحد. تفتكروا خد إيه ؟

هتفوا جميعا في صوت واحد : إيه ؟

تطلع إليهم منتصرا : براءة .

إنتعشت آمال شرف فقال متكلفا الضحك و هو يتلمس صدى كلامه في عيونهم : المهم الواحد ميخدش إعدام .

- يا راجل تف من بقك . أقصاها سبع سنين .

جاء التعليق العنيف من سامبو ، الذى قرر أن يأخذ حقه ، فأوضح أن الدفاع عن الشرف له أوجه مختلفة ، هو واحد منها : المهنة نقاش و الحكاية بدأت بعلاقة مع زوجة خفيرفي التبين . ما إن يغادر الخفير منزله ليقوم بالحراسة في مدينة ١٥ مايو ، حتى يتسلل سامبو داخلا ليقوم بالواجب ، إلى أن وقع المحظور . ففى إحدى الليالى قررالخفير أن يقوم بالواجب بدلا من الحراسة ، و عندما وصل النقاش فوجئ بوجود الزوج الذى قرر ، بالطبع ، أن يدافع عن شرفه . وكان من الممكن أن تكون النتيجة كلاسيكية لولا تدخل الزوجة التى عالجت زوجها بضربة على رأسه بالهون أتاح للعشيق أن ينهال عليه طعنا بسكين المطبخ حتى أجهز عليه .

تبارى المتخصصون فى التكييف القانونى للحادث قطعه صوت جهورى فى الخارج صاح فى لهجة آمرة : عنبر كله يسمع ..

صاح بطشة بدوره : اسكت إنت وهو .خلونا نسمع النشرة .

كررالصوت الجهورى : عنبر كله يسمع .. بعد مساء الخير على المساجين وعلى حرس الليل .. النشرة يحييكم و يقدم الوصف التفصيلى للخارجين بكرة ..

وصمت لحظة ثم صاح فجأة : ردوا ورايا ..يا رب الخارجين بكرة يروحوا ما يرجعوا .. آمين .

رددت كل الزنازين الدعاء خلفه . و بدت يا رب وآمين خارجة من أعماق القلوب النقية التائبة . ثم ساد الصمت و أنصت الجميع للأسماء والجهة المستدعى إليها أصحابها ، تليت باللهجة التي يستخدمها الراديو عند إذاعة أسماء الناجحين فى الثانوية العامة . و بعد أكثر من خمسة عشر إسما قال المذيع فى أدب جم : أشكركم لحسن الاستماع و عقبال ما تروّحوا جميعا .

ساد الزنزانة الوجوم الذى يتلو إذاعة نتائج الثانوية العامة .وتذكر البعض ربهم فاصطفوا لصلاة العشاء خلف صاحب اللحية المشذبة . وأشعل المدخنون سجائر جديدة و أسند شرف ظهره إلى الجدار ثانيا ساقيه بحيث تصبح ركبتاه فى مستوى ذقنه . كان الحر لا يطاق و الذباب لحوحا بطئ الحركة لا يحفل بمحاولة إبعاده أو قتله فراودته الرغبة فى أن يخلع سترته السجنية ويعرى صدره و ذراعيه كما فعل صنقر أمام النار . لكن نظرة غامضة، ليست الأولى ، من سوزوكى ، مصحوبة بابتسامة ودية ، جعلته يحجم عن ذلك . واكتفى بأن يتطلع فى حسد إلى ورقة الكرتون التى كان بطشة يروح بها عن وجهه متنازلا عنها لأحد الجالسين حوله بين الحين والآخر فيما خاله شرف أريحية إلى أن تبين حقيقة الموقف عندما لاحظ أن من يأخذ الكرتونة يستخدمها فى التهوية ، لا عن نفسه ، وإنما عن بطشة .

بدا الجميع عازفين عن استئناف المباريات وهى اللحظة التى يعرفها حارس الليل بالتجربة و لهذا إختارها ليظهرمرتين . فى الأولى أعلن عن نفسه بواسطة راديو ترازستورصغير وضعه بين القضبان التى تتألف منها شراعة الباب وأداره على أغنية لأم كلثوم انتزعت صيحات الإعجاب والتهليل بالإضافة إلى سيجارة من كل مستمع . وفى الثانية أغلق الراديو عندما أوشكت الأغنية على الانتهاء و سحبه منتقلا إلى زنزانة أخرى .

شرف كان من الذين ضاقوا بالأغنية رغم أنه ساهم فى تكلفتها . فمن يسمع أم كلثوم اليوم ؟ كان يفضل بالطبع أغانى الشباب : من أول " ما تخافيش أنا مش ناسيكى" حتى "تعبتينى قوى يا عمتى" . وعندما اكتشف أن جاره المكتئب منذ صفعة الرئاسة يشاركه الرؤية ، وجه إليه السؤال التقليدى ليحصل على إجابة تقليدية : العمل فى مصانع إيديال ، فى المخازن بالطبع . فماذا غيرها يمكن أن يأتى بالواحد إلى هنا ؟

المجئ إلى هنا كان بسبب الترموستات : ففى أثناء الجرد السنوى اكتشف المسئولون نقصا فى العهدة .

أبدى شرف إدراكا للمشكلة من واقع تجربته . فعلا، تلاجتنا عطلانة بسبب الترموستات وكل ما أروح أسأل عندكم يقولوا مفيش .

لم يقل شرف أنه وجدها فى حوانيت القطاع الخاص ، بثلاثة أضعاف ثمنها الأصلى عند إيديال . فقد خالجه إحساس مبهم بأن هذه الإضافة قد تكون محرجة .

و من ناحيته قطع صبرى الطريق عليه بسؤال حاسم :

– زانوسى ؟

أجاب شرف بمسكنة : لا . إيديال .

بعد التحديد الصارم للمواقع عرج صبرى على جذر المشكلة : كان فيه مشروع لمصنع ترموستات و بعد ما بنوه وصرفوا عليه ثلاثة مليون جنيه رئيس مجلس الإدارة اتغير والرئيس الجديد لغى المشروع .

– ليه ؟

لم يقل صبرى أن الرئيس القديم يملك شركة مقاولات بناء والرئيس الجديد يملك وكالة لإستيراد قطع الغيار بينما هو لا يملك غير الستر، إذ تذكر فى هذه اللحظة النصيحة التراثية المجربة بشأن اللسان و آذان الجدران .

سؤال آخر جال بذهن شرف ولم يجسر على التفوه به : إذا كان هذا هو الحال فلماذا لم ينضم صبرى إلى عنبر الملوك ؟

إجتذبت وحدة الجذورلسان صاحب اللحية المشذبة . فهو سائق أتوبيس تعطلت فرامل سيارته فصعد على رصيف المحطة و أسقط تحت عجلاته خمسة أشخاص مات منهم ثلاثة . أولاد الحرام هم السبب فهو يسوق منذ عشرين سنة ولم يرتكب حادثة واحدة . لم يكن لديه رئيسان : قديم وجديـــد ، وإنما رئيس واحد يجمع بين ملكات الاثنين ، و جاراج هائل مثل الغابة لا يعرف أحد الداخل إليه ولا الخارج منه .

لم تنجح التجربة فى هز إيمان السائق المسكين ، فمصيره على أية حال لا يختلف عن مصير زميل له هاله ما يرتكبه المديرون الكبارمن انحرافات فأبرق إلى رئيس الجمهورية طالبا إنقاذ أموال الشعب وممتلكاته ، فتم تحويل الخطاب إلى رئيس الوزراء الذى حـوله إلى وزيرالنقل الذى حـوله إلى رئيس الشركة الذى حول العامل الغيور إلى التحقيق ثم الفصل ثم السجن .

بدأت الحكايات تنحو إلى التكرار فهبط حماس اللسانيين . وانصرف بعضهم إلى لعب القمار بينما أخذ الباقون يستعدون للنوم . هنا حانت فرصة شرف للتعرف على جانب أخرمن شخصيات زملائه .

فقد شرعوا يغادرون أماكنهم واحدا بعد الآخر ، مقتربين من حيث جلس، وما أن يصبح الواحد منهم فوق رأسه تماما ، حتى يفك رباط سرواله ثم

يخفضه قليلا لأن السروال ليست له فتحة من الأمام و يخرج قضيبه ويحكم توجيهه فوق دلو البول . و بعد أن يتبول يهز القضيب في يده ليتخلص من آخر نقطة ، ويعيده إلى سرواله بعد أن يلقى نظرة على شرف تعكس إحساسا بالزهو أو ضآلة الشأن حسب الحال .

اختنق هواء الزنزانة ببخار البول و دخان السجائرونشط الناموس ودبت الحدة إلى تعليقات لاعبى القماروأوشكوا أن يتماسكوا بالأيدى ، بينما غفا آخرون وهم جلوس . تمدد شرف فوق بطانيته ورأسه عند الحائط فأوشكت قدماه أن تحتكا بقدمي بطشة الراقد في مواجهته . وإلى جواره ، بعد صبرى ، بدأ عم فوزى، بمجرد إطفاء النور ، يندب حظه ويبكى ، تمهيدا لجولة أخيرة فى مباريات اللسان .

لم يكن فى حاجة إلى تشجيع أو حث ، فهوبائع جوال ، صناعته النداء على البضاعة طول النهار، ويعود منهكا فى نهايته إلى غرفة ضيقة يسكنها مع زوجته وأولادهما بالإضافة إلى أخته وولديها . فى اليوم المشئوم اشتدت الحرارة والرطوبة و عاد من جولته في السوق ليجد المياه مقطوعة . أراد أن يغفو قليلا فأيقظه شجارالأطفال وقام وهو يتصبب عرقا شاعرا بصداع . نجحت زوجته فى الحصول على قليل من المياه من حنفية عمومية فى حى مجاور فأشعلت موقد الكيروسين فى ركن الغرفة المخصص للطهى وعهدت لابنة أخته أن تعد له الشاى ففعلت . وعندما غلى الشاى طلبت البنت من أخيها البالغ من العمر عشرة أعوام أن يصبه له فأسقط بضع قطرات على قدمه . هنا فاض به الكيل -كما يقول الأدباء - فمد يده و تناول موقد الكيروسين المشتعل وقذف به الفتاة . الباقى قامت به النيران التى أمسكت بها وأحرقتها . عند هذه النقطة كان قد استنفد مؤونة اليوم من الدموع فلزم الصمت .

أثارت الحكاية شفقة شرف كما حركت مشاعره العائلية و أحاسيسه الجمالية ، إذ ألفى نفسه يتأمل مسكنه بعين فاحصة زادتها الأيام الأخيرة عمقا فى الرؤية . و ظهر تأثير اللسانيات التى نشطت طوال الساعات الأخيرة وحفلت بشتى ألوان الفعل . فلم يضيع وقتا فى المقارنات . و لم يستسلم للنظريات الإصلاحية إنما اختار القطيعة التامة منطلقا من شقة جديدة فى منزل حديث بحى راقى . اختاره فى البداية ذا واجهة من الزجاج والألوميتال ثم اكتفى ببناية عادية لها مدخل عادى يتألف من بوابة حديدية وبواب و عدة درجات من الرخام تؤدى إلى سلم عريض وشقة فى الطابق الثانى أو الثالث ، لها باب خشبى متين يفتح على أنتريه به ثلاث فوتيهات أو أربعة من الجلد الأسود بالإضافة إلى أريكة ومائدة معدنية يعلوها لوح من الزجاج الفيميه ، ويؤدى إلى صالة بها مائدة مستديرة للطعام فوقها مفرش مزركش وحولها أربعة مقاعد وخلفها بوفيه .

عندما وصل إلى هذا الحد لم يعد بالإمكان اعتراض طريقه : فرش الشقة كلها بالموكيت الأحمر وجهزها من جميعه : مكنسة " ناشيونال " وجهاز تكييف سبليت "باور" ، وزود المطبخ الواسع بثلاجة "جنرال إليكتريك" "بيابين" ، وحوض "ستانليستيل" وغسالة أطباق " بوش" و "ميكروويف " و بوتاجاز "ماجيك شيف "بخمس شعلات و كيتشن ماشين " مولينيكس " ، وشفاط " توشيبا" لطرد الروائح الناتجة . أما الحمام فكسى أرضه و جدرانه بسيراميك ملون ووحدة "ليسيكو " كاملة من حوض وبانيو وكومبينيشن، وسخان " جونكر " وغسالة " وستنجهاوس " فول أوتوماتيك . أهم الأجهزة كانت فى الأنتريه ، خلف بارتيشن ، فوق طاولة صغيرة مخصوصة من سطحين : تليفزيون

"شارب" ٢٦ بوصة بالريموت ، ديش ضخم فوق السطح (و بالتالي تليفون محمول "نوكيا" لتسهيل الإتصال بين فوق و تحت) ، فيديو "سوني" متعدد الأنظمة ، و ستريو "أكاي" كبير علقت سماعتاه في ركنين متقابلين قرب السقف .

هكذا تم الإعداد للمشهد الرئيسي الذي ضمه هو وأصدقائه ، سيد و زلطة و جمال ، يتناولون البيرة ويدخنون "جوانت" الماريجوانا بينما يستمعون إلى أغنيات "ساندرا" و "مادونا" . ولم يلبث أن كشف عن هدفه الحقيقي عندما طردهم ووضع هدى مكانهم . لكنه لم يدر ماذا يفعل بها فاستبدلها بفتاة الجولف . وكان على وشك أن يضع يده داخل صدرها عندما تبين فجأة ما لم يحسب حسابه . وتم ذلك مع أول قرصة .

فعندما اطمأن البق للظلام خرج من مكامنه وانطلق يعربد ، معيدا شرف لا إلى الزنزانة وحدها وإنما إلى حافة المعادي أيضا حيث تظهر آثار المقاومة في خطوط دموية على الجدران . هكذا انتبه إلى أنه لم يحسب حساب شركائه في الجدران الأربعة التي قسمتها كنبة بلدية إلى جناحين : واحد له مع أبيه والثاني لأخته مع أمهما . لم يكن بوسعه أن يخصص لكل منهم حجرة، لا بسبب الإمكانيات ، وإنما لأن الهدف الأساسي كان يتمثل في الانفراد بمسكن خاص من أجل أن يصبح سيد مصيره . بدأ التخلص من عايدة سهلا بإعادتها إلى زوجها الذي تطلقت منه لأن أمه (التي تأويهما) تسيء معاملتها . ثم ألحق بها أمه هو وزوج الأخت الأخرى وأوجد عملا لأبيه خارج البلاد .

أوضحت له قرصة حادة ، من برغوث هذه المرة ، هشاشة الحلول التي لجأ إليها (لأن طلاق عايدة بائن لا عودة فيه و أخته الأخرى سيئة الحظ

وأمه لن تقبل الحياة فى منزل غريمتها كما أن أحدا لن يقبل استيراد الأب الذى أوشك عمره الافتراضى على النهاية) فقرر أن يترك للعناية الإلهية مهمة التخلص منهم . لكنه لم يسلم من شعور بالذنب نتيجة هذا المنحى فى التفكير، فانصرف عن الأمربرمته .

كان تدبر الأوبشنز التى أتيحت له قد أرهقه ، فراح مرة واحدة فى نوم عميق استيقظ منه مفزوعا على ساق صبرى فوق فخذه . هدأ روعه قليلا عندما إستمع إلى شخيرجاره المتواصل فأزاح الساق وإبتعد عن صاحبها قدر الإمكان حتى إلتصق بدلو البول تماما وغرق فى رائحة متعددة الأبعاد كونتها الأحذية المحيطة برأسه ونتائج تخمركل من الأطعمة فى البطون والإفرازات فى الدلو . استسلم لغفو متقطع تسلى خلاله بالإنصات إلى النشرة الأخيرة ذات البناء الأوبرالى المؤلف من شخير (تمسك بطشة بقيادته وهو نائم) ، يتردد بين العويل و الحشرجة (حسب نوع الصور المصاحبة) ، تعترضه إيقاعات من زرطات متباينة الشدة (حسب نوع الطعام الذى أنتجها) ، ممتزجة بنداءات حراس السور الخارجيين ، فى أبراجهم المشيدة ، معلنين عن وجودهم كل ساعة بصوت جهورى (يغالبون به خوفهم) : واحد تمام . اتنين تمام . تلاتة تمام... حتى ستة .

(٤)

فتحوا علينا في الصباح الباكر ليخرج بطشة وحده ، ثم أغلقوا الباب . وألفيتني عاجزا عن التنفس إذ كان جو الزنزانة خانقا مكتوما . وازداد الأمر سوءا عندما أشعل البعض سجائرهم و أخذوا يسعلون ويبصقون .

فتح لنا بطشة بعد نصف ساعة لنذهب إلى المراحيض . واندفع القدامى إلى الخارج قافزين فوقي . دسست قدمي في حذائي ، طاويا مؤخرته ، محولا إياه بذلك إلى خف . ووضعت منشفتي حول رقبتي وحملت صابونتي في يدى واقتربت من دلو البول . كان ممتلئا لحافته والرائحة المنبعثة منه قوية زاعقة . انحنيت فوقه و أمسكته من مقبضيه لكن الصابونة التي في يدى عاقتني . ألقيت بها في عبي ورفعت الدلو وغادرت الزنزانة .

مشيت بصعوبة منحنيا إلى الأمام ، محاذرا أن تهتز محتوياته كي لا يصيبني الرذاذ . اتجهت إلى حيث وقف الحارس بجوار باب في منتصف العنبر يؤدى إلى ردهة صغيرة ثم جناحين متقابلين بكل واحد صف من مراحيض بلدية مكشوفة مزودة بستائر من الخيش لا تكفي لستر الجالس و أمامها صف من الحنفيات ثبتت في الجدار المقابل فوق مجرى أرضى . دلقت الدلو في المجرى وشطفته بمياه الحنفية عدة مرات ووقفت أنتظر دورى في استخدام المرحاض . أوشكت الروائح المتصاعدة أن تصيبني بالغثيان ، وعندما حان دورى أخيرا لم أتمكن من التبرز . غسلت وجهي و أسناني وألقيت بالمنشفة حول عنقي ثم حملت الدلو وعدت إلى الزنزانة .

وجدت بطشة يصرخ بعصبية أمام دلو المياه موجها السباب لشخص مجهول . و تبينت أن أحد النزلاء أخطأ الهدف بالليل و تبول في دلو المياه . أمرني أن أحمل الدلوإلى الدورة وأنظفه بالصابون ثم أملأه بالمياه وطلب من صبري أن يعاونني ، منبها على بألا أنسى غسيل القروان المتخلف عن عشائنا .

انصعنا لأمره ثم تناولنا إفطارنا المؤلف من الجبن القريش المتحجر ورغيف من الخبز المتجمد . ولاحظت أن صنقر أضاف قطرات من الزيت إلي نصيبه من الجبن وكسر بصلة في مصراع الباب أما بطشة فلم يأكل معه .

وضعت علبة السجاير فى عبى وطويت فرشتى حسب التعليمات وأخرجتهاإلى الممر ووضعتها إلى جوار الحائط وفوقها القروانة . لمحت بطشة جالسا إلى جوار الحارس فوق دكة مكتب خشبى صغير مثل مكاتب التلاميذ وضع فى منتصف الطابق . كان يأكل معه فى رصانة من طبق كبير أحاطت به أعواد من الفجل و الجرجير و البصل الأخضر .

نودى علينا بعد قليل وجمعنا الحارس وهو يتجشأ فى ردهة العنبر مع نزلاء الزنازين الأخرى فأربى عددنا على المائة . وكان ثمة عدد من الشبان المتماثلى الهيئة وفهمت أنهم من المجندين الهاربين من الجيش و حكم على كل منهم بسنتين . أمرنا بطشة أن نجلس القرفصاء .وأطل علينا نفر من نزلاء الطوابق العليا أخذوا يتفرجون علينا . أحصيت ثلاثة طوابق فوق الأرضى ، تدور بها أسيجة حديدية ، يعلوها سقف من القضبان المتشابكة . وعرفت من صلصة الذى قرفص إلى جوارى أن أغلب سكان الطابق العلوى متهمون مثلى فى جرائم قتل دفاعا عن الشرف .

ألقى علينا الحارس كلمة عن أهمية المحافظة على النظام والعمل بالتعليمات واللوائح وتجنب إحراز الممنوعات . كنت أمامه مباشرة فجعل يخبط على

رأسي بخرزانة رفيعة ليؤكد حديثه . ثم ترك الكلمة لبطشة الذى طلب ممن له دراية بيننا بالطهى أو الخبيز أو أشغال النجارة أن يرفع يده .

اختارني بطشة مع صبرى وآخرين للنظافة و أوضح الحارس أنها على عكس الأعمال الأخرى يجمع تكلفتها من نزلاء كل زنزانة ملكية فينال الواحد ثلاثة جنيهات .

همس صلصة : مش حنشوف منها حاجة . حيقسم مع بطشة .

تبعنا الحارس إلى الخارج حاملين بطاطينا ، فنشرناها فى الشمس و مضينا إلى العنبر الآخر المخصص للملكية . فعهد بنا إلى حارسه الذى سلم كل منا قطعة كبيرة من خيش المسح ووزعنا على الطوابق المختلفة لرفع البول والمخلفات ومسح الزنازين .

بدا لى أن العنبر الملكى لا يختلف عن عنبرنا إلا فى شئ واحد هو الملابس . و فهمت أن هذا وضع مؤقت طالما أن نزلائه تحت التحقيق . فبمجرد الحكم عليهم سيرتدون ملابس السجن الخضراء .

عهد الحارس إلى أنا وصبرى بالطابق الثانى الذى يقطنه البسنية من أصحاب اللحى . وأفهمنا أنهم ينظفون زنازينهم بأنفسهم و أن مهمتنا تقتصر على تنظيف الطرقة الخارجية التى تمتد أمام الزنازين فضلا عن المراحيض .

لم يسبق لى أن أمسكت فى حياتى خيشة حتى أو مكنسة فقد كانت أمى تنفرد بكل أعمال البيت بمعاونة أختاى . و يبدو أن صبرى كان مثلى فقد وقفنا نتبادل النظرات في مدخل الدورة لا ندرى ما ذا نفعل إلى أن جاء الحارس ونهرنا . خلعت حذائى و تقدمت حافيا إلى المراحيض فأزحت ستارة أحدها و طالعتنى على الفور كومة من المخلفات يغطيها الذباب . تراجعت متأففا وأنا أشعر بالغثيان

وتذكرت يوم الترنش عندما تأتى سيارة الفضلات لتفريغ البئر الموجود في مدخل منزلنا .

تدافعت الدموع فى عينى و تطلعت إلى صبرى فوجدته قد فتح حنفية المياه فى المرحاض المجاور ففعلت مثله وفتحتها على آخرها حتى تجتاح المخلفات فى طريقها . ثم واتتنى فكرة فتناولت دلوالمسح وملأته إلى منتصفه بالماء وألقيت بمحتوياته فى المرحاض . كررت العملية حتى نظف تماما فإنتقلت إلى المرحاض المجاور.

استخدمنا الدلو بعد ذلك فى تنظيف أرض الدورة ، ومسحت مدخلها بالخيشة ثم خرجنا إلى الطرقة فتولى صبرى النصف الأيمن وتعهدت أنا بالأيسر . بللت قطعة خيش ومضيت حتى نهاية الطرقة فبسطتها فوق البلاط ثم سحبتها إلى الخلف فى اتجاه دورة المياه . كانت الزنازين مفتوحة ووقف أصحابها على عتباتها يتابعون ما أفعله . كان أغلبهم يرتدون الجلاليب البيضاء فوق سراويل طويلة من نفس اللون . اختلست النظر داخل إحدى الزنازين و أنا أجر الخيشة فرأيتها مرتبة ممتلئة بصناديق من الكرتون اصطفت فوقها أنواع المعلبات و علب لبن " نيدو" الكبيرة وصناديق " كوكان ". و لمحت فى أخرى سخانا كهربائيا فوق صفيحة كبيرة .

لم أجد معنى لإعادة إرتداء الحذاء فحملته في يدى وحذا صبرى حذوى . هبطنا حفاة إلى الطابق الأرضى فوجدنا القدامى قد سبقونا إلى الزنازين بحيث وقع تنظيف المراحيض من نصيبنا . و عندما إنتهينا منها أمرنا الحارس بتنظيف الزخارف الحجرية البارزة التى تحيط بأبواب الزنازين وكانت مدهونة حديثا بلون رمادى كئيب .

إختلست النظر داخل الزنازين التى علقت بجوار بعضها لافتة " الإيراد " . كانت حاشدة هي الأخرى بصناديق المعلبات و حبال الملابس التي تدلت من السقف . أما أصحابها فكانوا يرتدون خليطا منها . ولمحت أكثر من شخص يرتدى الروب دى شامبر الملون . وكان أحدهم يدخن غليونا و خيل إلى أنى رأيت صاحب التى شيرت الذى تعرفت عليه فى مركز الشرطة ، وكان يرتدى هنا شورتا رياضيا أبيض اللون .

جمعنا الحارس أنا وصبرى في طرف الطرقة ، بعد أن ضم إلينا عم فوزى. أوقفنا صفا بالعرض و وجوهنا إلي الجدار وأمرنا أن نبسط قطع الخيش أمامنا علي البلاط بحيث تلاصقت و غطت كل شبر منه ، و بحركة واحدة سحبنا الخيش إلي الخلف مكتسحين القاذورات التي تخلفت عن نظافة الزنازين . تراجعنا بظهورنا حتي بلغنا مدخل المراحيض،فكومناها أمامها وغسلنا الخيش في الدلاء ، وعدنا إلي نقطة البداية .كررنا هذه العملية عدة مرات حتي لمع البلاط من نظافته ثم إنتقلنا إلي النصف الآخر، الذي يبدأ من باب العنبر ، فأعدنا الكرة.

ظهر سجين قديم في مدخل العنبر ؛ ونادي من ميكروفون في يده النزلاء الذين جاءتهم زيارة . كنت علي يقين من أن اسمى لن يكون بينهم . إذ لايستحق النزيل زيارة إلا بعد أن يمضي شهرعلى حبسه . ومع ذلك أصغيت للأسماء وتابعت أصحابها و هم يغادرون زنازينهم على عجل و قد إعتنوا بمظهرهم و بدا البشر و التلهف على وجوههم .

انتهينا من عملنا فجمعنا الحارس وتمم علينا ثم أسلمنا لحارس عنبرنا . واقتادنا هذا إلي الفناء الخارجي المفروش بالرمل . فقمنا بجمع ما تبعثر فى أنحائه من قصاصات ورق وأعقاب سجائر وضعناها في برميل مخصص للقمامة. و حان موعد آذان الظهر ، فسحبوا منا اثنين لتوزيع الطعام .

مر بنا السجناء العائدون من الزيارة و هم يحملون أكياسا متفاوتة الأحجام وصناديق "تيك أواى" من "كنتاكى فراى تشيكين "و " بروست فود" . كانوا يبدون فى لهفة للعودة إلى زنازينهم . و سمح لنا الحارس أن نحصل من موزعى الطعام العائدين إلى المطبخ على قروانة من سائل طينى لزج تسبح فيه حبات من الفول المسلوق .

انتحيت جانبا أنا و صبرى وحجاج واقتعدنا الأرض وما لبث صلصة و بلحة أن انضما إلينا . خطر لى أن أشرب السائل لكن منظره لم يشجعنى . تطلعت إلى بلحة فرأيته يلتقط حبات الفول وينزع قشرتها ثم يقذف بها إلى فمه . قررت أن أفعل مثله ، فتناولت حبة وأزلت قشرتها وعندئذ إنفصلت فلقتاها . وجدت قلبها مهترئا ترقد داخله حشرة سوداء غريبة ، ألقيت بالفولة وحشرتها جانبا فى إشمئزاز وتناولت غيرها . لكنى صادفت نفس الأمر و أوشكت الكمية أن تنتهى دون أن أعثر على حبة سليمة فعدلت سياستى بأن صرت ألقى بالحشرة وألتهم الفولة .

. واقبنى بلحة فى استهزاء ثم خاطبنى قائلا : إيه اللى بتعمله ده يا بابا؟ والتفت إلى صلصة وقال: الواد ده باين عليه ابن ناس . شفت بياكل الفول إزاى ؟

دافعت عن نفسى قائلا أنها أول مرة أدخل السجن

قال صلصة : كان لازم تدخل أيام ماكان يوم عدس ويوم فول . يوم « وس ويوم زلط . الوقت العدس بيصدروه فمعدش غير السوس .

لمحت بطشة يسيربمفرده قادما من ناحية الإدارة متجها إلى باب عنبرنا

سألت : هو بطشة جاى فى ايه ؟

قال بلحة : نفوس . واخد مؤبد .

سأل فوزى : وايه اللى جابه هنا . مش مفروض يودوه الليمان ؟

- كان فيه لغاية ما مسكوه بيتاجر فى البرشام . بقاله سنة ونص مستنى يتحاكم .

سألت مدهوشا : يقوموا يعملوه نبطشى ؟

قال بلحة : يابنى انت كركى . هم بيختاروه عشان كده . المأمور عارف انه بيتاجر فى المخدرات يقوم يعمله نبطشى . يطنشوا على شوية الإقراص اللى بيوزعها عشان يضمنوا انهم يعرفوا كل حاجة بتحصل فى العنبر .

سألت : قصدك إنه ...

قال صلصة : طبعا ، مش عاوزه كلام . مكنوش يخلوه رايح جاى كده و معاه المفاتيح .

تابعه بلحة فى حسد : أهو ده اللى عايش زى الملك . ميحسش بالحبسة أبدا .

سألته : إزاى البرشام بيدخل لما هم بيفتشوا كل واحد . يمر إزاى على العساكر والضباط ؟

- ما هم دول اللى بيدخلوه . العسكرى من دول يحط الأقراص فى بالونة ويلبسها من تحت لغاية ما يمر من بوابة السجن و ياخد على كل عملية تلاتين جنيه. بعد كده التاجر يبيع القرص اللى باتنين جنيه برة بأربعة و خمسة .

صاح الحارس فينا كى نواصل العمل . انتشرنا من جديد فى الفناء لتنقية رماله من الشوائب إلى أن أذن العصر وحان وقت الفسحة فقادنا الحارس إلى فناء عنبرنا .

وجدته مكتظا بالنزلاء الذين شكل بعضهم طابورا يطوف حول الفناء على مهل بينما جلس البعض الآخر القرفصاء إلى جوار الجدار وانهمكوا فى لعب

السيجة . وكان بينهم عدد ملحوظ من الأفارقة . و بسط أحدهم صحيفة على الأرض رص فوقها أنواعا مختلفة من السلع مثل بكر الخيط والابر والامشاط والفنيك والبخور وماكينات "ناسيت "البلاستيكية للحلاقة ، وسجائر " كنت " و"مارلبورو" و"سيلك كت " ، بألوانها المختلفة ، وأظرف الجوابات والاقلام الجافة وعلب الفول و الخضراوات الاخرى والاعصرة المحفوظة .

اشتريت ظرفين وطابعين وورقتين وقلم " بيك" بنصف علبة كليوباترة . وانضممت إلي سوزوكي وجابر ، سائق الأتوبيس ، اللذين كانا يرقبان شابين شديدي الشبه يثرثرن مع الحارس بعجر .قال لي جابرأنهما شقيقان من بولاق الدكرور ساعدا أمهما في قتل شقيقتهما فأوثقوها بالحبال في الحمام وسكبوا عليها جركن كيروسين وأشعلوا فيها النيران ثم أغلقوا عليها الباب حتى فارقت الحياة .

استبشعت الأمر وسألت : هي عملت إيه ؟

قال جابر : هربت من البيت عشان تتجوز واحد غني من بتوع الخليج. الظاهر حد ضحك عليها و لما كشفت الحقيقة رجعت . لكن الناس قعدوا يعايروا أمها .

تركتهما إلى حلقة أحاطت بشيخ مهيب المنظر تحيط بوجهه السمح لحية بيضاء كثيفة و يرتدي طاقية من الصوف المشغول خضراء اللون . سمعتهم يلقبونه بالشيخ عبد الله وكان يتحدث في صوت رزين والجميع ينصتون إليه في إحترام :

- يجب أن يسير كل شئ في حياة البني آدم على ترتيب حضرة النبي صلى الله عليه و سلم . .. في الأكل و الشرب و دخول المسجد والخروج منه . في كل حاجة . ابن أحد الصحابة مات في دورة المياه فخاف أبوه إنه مش

حيدخل الجنة لكن الفتى جاله فى المنام و طمأنه أنه دخل الجنة لأنه لما دخل الحمام دخله على ترتيب حضرة النبى .

تطلع الشيخ إلى مستمعيه مثبتا عينيه فى كل واحد لحظة ثم استطرد :

- أنا عيلتى اهتدت جميعا و ابنى و عمره سنتين لا يشرب و لا يجلس لطعام إلا بالطريقة الإسلامية وهم لا يفتحون التليفزيون وكنت اشتريته بفلوس العراق ومرضتش أبيعه عشان اللى يشتريه ميفتحوش و يرتكب معصية .

استمعت إليه فى إهتمام و قد سحرنى صوته . و شعرت بالسكينة فاقتربت منه و قد تعلقت عيناى بوجهه السمح . مضى يتحدث عن الآيات المختلفة للحكمة الإلهية فقال : ربنا خلق لنا مفاصل فى الكوع لولاها كنت تيجى تاكل يقوم دراعك ياكل وش اللى جنبك .

أعلن بعجر انتهاء الطابور فحملت بطاطينى ودخلت العنبر . وسمح لنا بالذهاب إلى دورة المياه للإغتسال . أخذت صابونتى ومنشفتى سعيدا بأنى سأتخلص من العرق والتراب اللذين التصقا بجسدى وهنا نادانى بطشة وطلب منى وهو يتحسس خدى بيده أن أملأ مياها إضافية للشرب . سارعت بتنفيذ أمره وقد سرنى أنه تخلى عن عدوانيته معى . ملأت أربع زجاجات "سبرايت" كبيرة من حنفية الدورة و حملتها إليه ثم عدت ادراجى .

انتظرت حتى جاء دورى فى استعمال المرحاض الأخير المخصص للاستحمام . دخلت و أنزلت الستارة ثم خلعت ملابسى وعلقتها على مسمار فى الحائط . تلفت حولى بحثا عن مصدر المياه فلم أجد غير الحنفية الواطئة القريبة من الأرض . قرفصت بجوارها و فتحتها ثم بللت الصابونة و دعكت جسمى .

انقطعت المياه فجأة وانتظرت عودتها و أنا مقرفص فوق فتحة المرحاض . سمعت بعد لحظات صوتا يشكو من انقطاع المياه كعادتها كل يوم . نادى علينا

بعجر من أجل التمام . و بعد قليل فوجئت به يرفع الستارة و يطل علی و المفتاح الحديدی الثقيل فی يده .

بادرني قائلا : إنت بتعمل واحد و تلاتين و الا إيه يا مسجون ؟

شكوت له إنقطاع المياه و أني لم أنته بعد من الإستحمام فأشار لی بالخروج قائلا :

- معلهش يا بيه . اخرج الوقت و إحنا نجيبلك المية لحد عندك فی الزنزانة .

قلت محتجا : أخرج إزای و أنا عريان كده .

تطلع إلی ثم قال متفكها : البس هدومك .

- فوق الصابون ؟

انحنی فوقی و مد يده فقبض علی ذراعی بيد من حديد و جذبني إلی خارج المرحاض قائلا :

- تعال زی ما انت .

جذبت ملابسی و ارتديتها فوق الصابون الذی امتزج بعرقی و قذارتی . وتبعته إلی الزنزانة .

وجدت وضعی قد تحسن قليلا إذ إنضم إلينا زبون جديد استقرمكانی إلی جواردلو البول فتقدمت أنا خطوة نحو عمق الزنزانة . ولاحظت أن سوزوكی فقد موقعه المتميز ، بينما إحتفظ بطشة بركنه .

تعرفت فی النزيل الجديد علی محمود سعيد ، فلاح كفر الشيخ الذی قبض عليه البوليس لأنه كان نائما فی الشارع . سألته عما جاء به فقال أنهم أفرجوا عنه فی الصباح الذی رحلونا فيه إلی السجن فأسرع إلی المستشفی و هناك نصحه الأطباء بنقل ابنه إلی مستشفی استثماری توجد به

استعدادات أكثر . عمل بالنصيحة وذهب إلى المستشفى الذى طالبه بأن يدفع أولا ألف جنيه . فأسرع بالعودة إلى قريته حيث رهن بيته و جاء بالنقود فى نفس اليوم وأدخل ابنه المستشفى وفى المساء قالت له إحدى الحكيمات البقية فى حياتك ياعم محمود . لم يدر ما حدث بعد ذلك سوى أنه عاد مرة أخرى إلى القسم و أحيل إلى النيابة بتهمة التعدى على أطباء المستشفى و تحطيم واجهته الزجاجية .

ملأت كوزا من البلاستيك من دلو المياه وانحنيت فوق دلو البول فصببت منه فى يدى اليسرى و حاولت أن أغسل وجهى . و شعرت بسوزوكى إلى جانبى . تناول منى الكوز قائلا:

– كده مينفعش . لازم حد يصبلك .

غسلت يدى ووجهى أنا أتوقع زجرا من بطشة . وصح ما توقعته إذ صاح :

– ضيعولنا المية بأه . الشوية دول عشان الشرب مش عشان مسح الطين.

لم يأبه سوزوكى بالرد عليه ، و شعرت أن الجو بينهما ليس طبيعيا .

بدأ توزيع اليمك و كان عبارة عن حساء الرجلة و قطعة من اللحم أو بالأصح قطعة من الجلد .

أبدى صبرى تذمره فعقب بطشة – الذى لا يأكل أبدا من اليمك – قائلا فى غير مبالاة :

– محدش بيشوف اللحمة هنا خالص . .

تكونت مجموعات الأكل الثلاث مثل الأمس . وأصر بطشة على استضافة محمود سعيد الذى كان يحمل لفافة بها عدة ساندوتشات . أما نحن فلم

يكن لدينا غير قروانة اليمك فوضعناها وسطنا وأمسك كل منا برغيفه وبدأنا نغمس .

توقف صلصة فجأة عن الأكل وتطلع إلى فى غضب . إتهمنى بأنى أكل مثل الخنازير . وقلد طريقتى فى الأكل فغمس لقمة ورفعها عموديا إلى فمه بعد أن مده إلى الأمام بحيث تساقطت نقاط الحساء من أصابعه وفمه فى الإناء . وتطوع بلحة ليشرح لى طريقة الأكل الجماعى السليمة فطوى اللقمة بين أصابعه و غمسها ثم رفعها بالقرب من حافة الإناء و أدارها فى خفة حتى إلتقطها بفمه دون أن تسقط منها نقطة واحدة .

أتينا على القروانة بسرعة ثم التجأنا إلى نمرنا . واكتشفت أنه لم يتبق معى غير سيجارتين هما كل ما أملك . و كان أمامى أحد سبيلين : إما أن أستمتع بتدخينهما مرة واحدة أو أقسمهما على عدد من المرات بحيث تكفيانى حتى مساء الغد . و بينما أنا أتدبر الخيارين رأيت سامبو يضع سيجارة على الأرض ويعكف على تقطيعها بنصف مشرط إلى ثلاثة أجزاء متساوية ثم ثبت إحداها فى مبسم خشبى صغير .

سألته عن المصدر الذى حصل منه على المبسم ، فأجاب:

- اشتريته .

تدخل بطشة فى الحديث بعد أن سمع حوارنا و سألنى :

- عاوز واحد ؟

أومأت برأسى .

قال : بعلبة سجاير .

تدافعت الدماء إلى وجهى فضحك مستهزئا .

خاطبني سوزوكي من فرشته متجاهلا بطشة :

- ميهمكشي يا أشرف . أنا حشوفلك واحد . ولو عزت برشام أنا أجيبلك القرص بنص علبة .

تجهم وجه بطشة و تردد فجأة صوت صاحب النشرة المألوف : عنبر كله يسمع .

أردف بعد أن ساد الصمت : بعد مساء الخير على الجدعان ..أعرفكم إن المعلم الفص طالع بكرة من خمس سنين جدعنة يا رب يروح ما يرجع ، عقبال عندنا يا حبايب .

تصاعدت صيحات التهليل و بدأت الزنازين توجه التحية إلى سعيد الحظ ثم جاء دور نشرة الخارجين في الغد . سألت صلصة عن حكاية هذه النشرة فقال لي أن المذيع مسجون قديم محكوم بست سنوات و يحصل من الحراس قبل التمام على أسماء الذين سيتم ترحيلهم في الغد .

قلت : ويدوهالو ليه ؟

قال : بيشتريها منهم بسجاير ، و يذيعها كمان بسجاير . علبة من كل واحد يقول اسمه . و بالفلوس دى يصرف على نفسه و عيلته برة .

أخرجت الورقة والقلم من كيسي و فجأة زعق صوت جهوري : عنبر كله يسمع .

هتف بطشة مهللا و هو يستنشق الأسبرين : أيوه يا شيخ عبد الله ... ادينا .

مضى الصوت الجهوري في رزانة فقرأ البسملة معلنا عن تقديم نشرة الأخبارالإسلامية التى استهلها بأخبارالبوسنة والصومال قائلا ان الأمم المتحدة

بقيادة الصليبي بطرس غالي لم تفعل شيئا للمسلمين . ثم تلا تقريرا خاصا عن أوضاع الأراضي المحتلة وصور الاضطهاد التي تنزلها اسرائيل بالشعب الفلسطيني . وقال ان اتهام إيران بدعم الإرهاب في مصر مزاعم أمريكية تمهد لضرب إيران بعد خطواتها السريعة في مجال الأسلحة الذرية .وانتقل بعد ذلك إلى الأخبار المحلية فوصف مطاردة رجال الأمن للجماعة في الصعيد وأعلن أن وزير الزراعة قرر إزالة محصول قصب السكر واستبداله بالبنجر بعد أن عجز الأمن عن ملاحقة أفراد الجماعة . ثم زف إلى المسجونين نبأ اغتيال عقيد شرطة في أسيوط فتصاعدت صيحات التكبير من بعض الزنازين . وتكرر التكبير عندما أكد أن أولياء أمور الطالبات في مدرسة إعدادية أعلنوا رفضهم لقرار وزير التعليم بنقل المدرسة التي فرضت الحجاب على الطالبات .

سألت صلصة : و الشيخ عبد الله بيجيب النشرة دي منين ؟

تدخل بطشة قائلا : الشيخ ترتيب حضرة النبي ؟ ده راجل عقر! متغركش دقنه . مربيها هنا . عنده تسع قضايا نصب آخرها ع السياح في الهرم . طلعلهم كارنيه إنه مخابرات وفتشهم ولطش فلوسهم وكان شايل مسدس صوت . لما جه هنا لف على السنية اللي في عنبر الملكية . بيعتلوه أكله وشربه وسجايره و النشرة اللي بيقراها كل ليلة .

لحظت أن مجاهد، الشاب ذا الوجه الشاحب يتأمل جانبا من ورقة جريدة في استغراق . ولمح صنقر إتجاه نظراتي فهتف : وريهم يا مجاهد الجرنال .

ناولني الشاب الورقة بشئ من الزهو فوجدتها بالية بعض الشيء . قرأت عنوانا كبيرا نصه : " ضاعت القيم و جاء الحقد ليحصد الخير" ، وأسفله هذه السطور :

"استيقظت سيدة أحد القصور على نباح كلبها الكبير فأسرعت تستطلع الأمر فوجدت شابا متعبا يفترش الأرض ومستغرقا فى النوم . فرق قلبها لهذا المنظر المؤلم غير الإنسانى ، فهرولت إلى داخل القصر و أحضرت بطانية و بعض الطعام و عرضت عليه أن يعمل عندها لرعاية ابنها الصغير . وذات يوم وأثناء مراقبتها لابنها الصغير (٩ سنوات) وهو يلهو رأت الشاب يطعنه وفر هاربا . أسرعت بنقل ابنها إلى المستشفى و أبلغت الشرطة و بعد ٢٤ ساعة ألقى القبض على الجانى – مجاهد سليم –الذى اعترف بجريمته وبررها بأن الحقد استولى عليه عندما اكتشف أن الكلب يأكل وجبة أسرة كاملة وأن الدراجة البخارية التى يلهو بها الطفل حمادة بثمن خمسة أفدنة".

استرد منى ورقته و طواها بعناية ثم وضعها فى كيس من البلاستيك دسه تحت نمرته . و أخرج بطشة من جيبه ورقة مطوية من صحيفة اليوم عرضها على سامبو وصنقر وهو يضحك . شاركه الاثنان الضحك معلقين على صورة فى صدرالورقة ، وأدركت أن معرفتهما بالقراءة محدودة . تداولت الأيدى الصحيفة حتى وصلت لعم فوزى فتأمل الصورة ثم ناولنى إياها لأقرأ ما كتب أسفلها . طالعنى وجه رجل أنيق يرتدى ملابس الشرطة وتحته إسمه مسبوقا برتبة لواء يبدو من علية القوم وفوق الصورة عنوان خاص بالقبض على أكبر تاجر مخدرات هارب من حكم بالسجن لمدة عشر سنوات . وعندما قرأت الخبر اكتشفت أن الصورة لم تكن لتاجر المخدرات وإنما للواء الشرطة الذى قبض عليه .

لم أكد أعلن اكتشافى هذا حتى إنهالت على التعليقات بأنى لا أ فهم و صاح بطشة فىّ . وإنت مين اللى علمك القراية ؟

خف صبرى إلى تأييدى عندما قرأ النبأ فتراجع بطشة وقال أن كثيرا من ضباط الشرطة يجربون حظهم في مجالات مثل المخدرات أو سرقة المنازل لكنهم على العموم يتصفون بالخيبة . وقال بلحة أنه شخصيا يعرف ضابط شرطة مفصول سرق خزينة بها مجوهرات ونقود وفوجىء بعودة صاحبة الشقـــــة وهى شقيقة صديقه فهرب إلى سطح العمارة وأمسك به الأهالى واعترف بأنه سرق المفتاح من صديقه .

قلب صنقر شفته قائلا : كان لازم يعمل حسابه .

تبينت بعد لحظات أن صنقر من لصوص المنازل ، و أن بطشة بدأ حياته أيضا بتخصص مختلف فى نفس المهنة : فكان يسرق عن طريق كسر الباب أوكسر ريشتين من مصراع النافذة الخشبى أما صنقر فيتسلق المواسير. كما أن بطشة لم يكن يسرق غير الأجهزة الكهربائية والمنقولات أما صنقر فيقتصر اهتمامه على النقود السائلة والذهب أى ما غلا ثمنه وخف حمله .

شرح لنا صنقر فى شئ من الزهو كيف يختار ضحاياه :

- الشقة المقفولة أنا مدخلهاش . لأن اصحابها مش حيسيبوا فيها مصاغ أو فلوس ياإما بيخدوا كل حاجة معاهم وهم خارجين أو يحطوها فى البنوك. أنا بحط عينى ع الشقة اللى ساكنة . اللى اصحابها بيخرجواكل يوم الصبح لأشغالهم و يسيبوا المصاغ بتاعهم وراهم .

سأله جابر : ولو حد منهم رجع صدفة ؟

- يبقى حظى وحش

- بتشيل سلاح ؟

تدخل صلصة وهو ينظر بطرف عينه إلى زميله بلحة :

- الحرامى الشاطر عمره ما يستخدم السلاح لأن ده يعرضه للسجن المؤبد أو الإعدام فى حالة الوفاة . في حين إنه لما يتمسك فى سرقة عادية أقصاها من ست شهور لتلات سنين أو بالكتير ستة .

علق صبرى قائلا : يعنى أربعة و ٨ شهور .

سألته عما يعنيه فشرح لى أن السجين الذى يحسن السلوك تحسب له السنة بتسعة شهور و يخرج بثلاثة أرباع المدة .

أبهجتني هذه المعلومة وجعلت أحسب الأحكام المختلفة عندما تطبق عليها هذه القاعدة .وأعطيت نفسى حكما من عشر سنوات ثم خفضته إلى سبعة ثم ثلاثة .

حصل صبرى على الكوتشينة وأقنع عم فوزى بأن يكف عن البكاء ويلاعبه وعرضا على أن أنضم إليهما فاعتذرت كما رفض فلاح كفر الشيخ وانفجر باكيا . ثم لزم الصمت محدقا فى الحائط .

اقترضت نصف الموس من صنقر وقطعت به سيجارة ثلاث قطع . و ألقى لى سوزوكى بمبسمه كى أضع به الثلث الأول . شكرته و قدمته إليه ليشعله ويأخذ لنفسه نفسا لكنه رفض . أشعلت لنفسى وعدت إلى الورقة والقلم وأنا أبحث عن شئ صلب أستند إليه . لمحت عم فوزى يعبث بغطاء بلاستيك لعلبة حلاوة فاخذته منه ومسحته فى بنطلونى ثم ثنيت ركبتى إلى أعلى و وضعت الغطاء فوقهما وأسندت الورقة إليه .

لم يسبق لى أن كتبت إلى أمى ولهذا واجهتنى صعوبة شديدة فى صياغة الكلمات . لم أعرف كيف أخاطبها . كتبت أولا ماما . ثم غيرتها إلى أمى .

وأضفت بعد تفكير العزيزة وعدت فشطبتها واستبدلتها بالغالية .فى البداية وصفت لها الزنزانة وزملائى بها ونزلت دموعي و أنا أصف لها الأكل وكيف نظفت المراحيض ، فمسحتها ثم واصلت الكتابة :

" أمى الغالية

أنت وحشتيني جدا يا أمى أنت و عايدة و أبى و الجميع . لا بد أن تتأكدى من براءتى . فأنا لم أسرق و لم أقتل . أنا كنت أدافع عن شرفي . أنا ضحية الأقدار المريرة لكن ربنا هو الذى يرى كل شئ و يعلم كل شئ و أنا متأكد أنه لن يخذلنى .

أمى الحبيبة

أرجوك ألا تتأخرى فى الرد على . ليس لى الآن زيارة لكنك تستطيعين القدوم إلى السجن و تقديم طلب بنقلى إلى الملكية بشرط أن تكونى مستعدة لإحضار طعام لى كل يوم أو يومين و كمان تأخذى الغسيل مرة فى الأسبوع . وعشان كده لازم تشتريلى غيار أو اثنين . ولا تنسى شبشب زنوبة من النوع التايوانى المستورد لأنه يتحمل .أرجوك يا أمى فلن أستطيع احتمال الحياة هنا فى هذا العنبر وسط المجرمين والمراحيض . ولا تنسى السجاير . قد ما تقدرى . مش عشان أشربها . لا . أصل كل حاجة هنا بسجاير . وكمان "أوبتاليدون "عشان الصداع . و على فكرة من حق أى سجين أن يودع له أهله رصيدا من النقود فى صندوق الكانتين عن طريق الإدارة ، يسحب منه لشراء أى كمية من السجاير و الحلاوة الطحينية . إبنك البرئ المظلوم ".

قرأت الخطاب عدة مرات وأضفت إليه حاشية أطلب فيها منها أن تتصل بصديقى سيد و تحضره معها إلى جلسة المحاكمة .

أشعلت الثلث الثاني من السيجارة و كتبت لهدى :

"حبيبتي الغالية :

لقد تحددت ساعة اللقاء منذ الأزل و كانت محور وجودي و سببه . إني أتحدث عن شئ أجمل من أن يوصف بأي وصف . استردي ثقتك في . سأخرج قريبا فأنابرئ وعند خروجي قريبا سأسافر إلى الأردن أو ليبيا لإعداد كل شئ لارتباطنا ، كل شئ من كبير وصغير وسأعود قريبا لكي أتقدم إليك رسميا كي نذوق السعادة المطلقة .. انتظري شهرا أو شهرين بالكتيرو سترين مني عملا جادا خاصة أن الشقة في طريقها أن تكون جاهزة تمليك وهنا في مصر .

حبيبة قلبي :

لا أريد أن أكون متطفلا عليك و لكنني أدرك جيدا أننا خلقنا لبعض ولا سعادة لأحدنا بعيدا عن الآخر . ومع ذلك فأنت حرة لكن فكري جيدا ولا تخشي شيئا إطلاقا . فكري بقلبك و عقلك ".

توقفت وأشعلت ثلث السيجارة الأخير وفكرت قليلا ثم استأنفت الكتابة:

" حبيبتي الغالية :

إن الحياة كون واستحالة ومأساة ، وجانب الكون يكون بارتباطنا وعدم ذلك لا يبقى لكلينا سوى الإستحالة و المأساة . أنت لي وملكي وهيهات أن يظن أي إنسان غير هذا ... انها الحقيقة والقدر، إنه كتاب مكتوب .اهربي من نفسك ، اسمعي كلامهم ، استسلمي لهم صدقيهم واسلميه نفسك ، تزوجيه.. لكن أنت لي وأقسم لك أنك لي . مردك لي ومردنا إلى الله . روح قلبي وسر وجودي

لا تقلقى ولا تحزنى افعلى ما ترينه و اعلمى أننى لا ولن أسبب لك أى إشكال إطلاقا وعلى العكس أتحمل لأجلك و لأجل حبنا " .

انتهيت من الكتابة وأغلقت الرسالتين ثم كتبت عنوان بيتى على الأولى وعنوان البوتيك القريب من منزلنا على الثانية وأضفت جملة تحتها خط : "يسلم ليد الآنسة هدى فريد " .

لمحت الصحيفة ملقاة جانبا فتناولتها وقلبت صفحاتها بحثا عن اعلانات السيارات فاستوقفنى واحد بعنوان " دليلك فى اختيار سكن العمر " . كان يحدد المعايير التى يجب أن يختار بها المرء مسكنه وأولها أن تكون فيلا و فى موقع مرتفع عن سطح البحر وجاف و بعيد عن التلوث ، و أن تسمح مساحتها الفعلية بالتنفس و الاستمتاع وألا تقل مساحة الخضرة عن ٧٠ فى المائة منها أما المساحة التى تمنح الخصوصية فيجب ألا تقل عن ثلاثة أمتار من كل جانب ، وأن تكون الفيلا مجهزة بحمام سباحة وتكييف مركزى .

لحظت أن الجميع ناموا فيما عدا بطشة الذى كان يتأملنى من نمرته وهو يدخن . ورأيته يعتدل جالسا ثم يزحف نحوى . خاطبنى هامسا :

– عارف إنك ملكش جوابات إلا بعد ما تطلع من الإيراد ؟

قلت : طب والعمل ؟

قال : قدامك طريقة واحدة عشان تبعت جواب .

سألته فى لهفة : إية هى ؟

تطلع حوله إلى أن اطمأن إلى أن الجميع نيام .

قال : تنزل بنفسك تحطها فى صندوق البوستة اللى فى الميدان .

سألت فى دهشة : برا السجن ؟

- طبعا يا كركي . الصبح تقول للشاويش . بس إوعى تقول للتانين أحسن يعملوا زيك . السجن مبينزلش أكتر من واحد في المرة .

لم أكذب خبرا و توجهت إلى الحارس في الصباح بمجرد انتهائي من الدورة - وكان وجها جديدا لم يظهر قبل اليوم - و طلبت منه أن يسمح لي بالنزول إلى الميدان لوضع الخطاب في صندوق البريد . تأملني لحظة ثم ظهرت ابتسامة على شفتيه سرعان ما ملأت وجهه فنادى بطشة و قال له :

- خد مكاني لغاية لما أودي المسجون ده لسيادة الضابط علي بلبل .

كان الضابط جالسا في الفناء و أمامه مائدة صغيرة عليها كوم من أرغفة الخبز و طبق صغير به أقراص الطعمية ، و ألفيته شديد السمرة ، ضخم الجثة طولا و عرضا ، لا تتناسب سنه المتقدمة مع رتبته الصغيرة التي لم تزد عن نجمتين ، يحمل وجهه تعبيرا غاضبا .

صاح في صوت جهوري لا يقل عرضا عن جسده عندما رآنا نقترب منه :

- إيه ؟ في إيه ؟

أدى الحارس التحية العسكرية و قال :

- النزيل عاوز ينزل الميدان .

قال الضابط بصوت أقل حدة و إن بدا متوترا مهددا :

- ينزل فين ؟

قال الحارس مجاهدا ليغالب ابتسامة : الميدان يا باشا . عاوز يحط الجواب بنفسه في صندوق البوستة .

أطلق الضابط العنان لحنجرته صائحا : ميدان إيه يا سي عبد الحفيظ؟ إنت بتهزر ؟

قال الحارس : لا يافندم . هو قال كده . و سعادتك قلت التعليمات إن أى مسجون يطلب حاجة نجيبه لسعادتك .

توعده الضابط قائلا : طيب يا عبد الحفيظ . و تحول إلى لأول مرة و قال بصوت أقرب إلى الهمس :

- عاوز تنزل الميدان ؟ الميدان مرة واحدة ؟

شعرت أن هناك شيئا فى الأمر فقلت بحذر : بطشة قال لى كده يا سعادة البيه .

قال بنفس الصوت الهامس المتوعد : بطشةاللى قال لك ؟ .

دوى صوته فجأة بأعلى درجاته فقفزت من البغتة : روح عنبرك يا عبد الحفيظ و سيبلى الواد ده .

أدى الحارس التحية وإنصرف . وأشارلى الضابط أن أقف إلى جوارالحائط ففعلت .إنصرف إلى طعامه دون أن يفقد وجهه تعبيره الغاضب . ولحظت أنه يتناول رغيف الخبز فيطويه مرتين و يدس فى ثناياه قرصا من الطعمية ثم يقضم منه قضمات كبيرة تقضى على الرغيف فى ثوان .

أحضر له أحد المساجين كوبا من الشاى . وما لبث أن أتى على الخبز والطعمية فتطلع إلى الإناء الفارغ برهة ثم تناول كوب الشاى وأخذ يرتشف منه بصوت مسموع ، و بدا كأنه نسانى تماما . ثم نهض من مقعده و دخل مكتبه الذى تؤدى إليه درجتان حجريتان . و لاحظت أن قدميه بالغتا الضخامة وان حذاءه بال كما أنه يعرج قليلا .

رأيت طابور الخدمات يغادر العنبر . و مضت ساعة ثم أخرى كنت أنقل خلالهما ثقل جسمى بين ساقى بالتناوب . و سمعت فجأة صوت الضابط يصرخ

مناديا من يسمى بالدهشورى . أقبل على الفور حارس متقدم فى السن جلل الشعر الأبيض رأسه يمسك بخيرزانة رفيعة فى يده . كان هو نفسه بالغ النحافة يشبه عصا تحمل عنقا رفيعة بتفاحة آدم بارزة . دخل المكتب و غاب بضع لحظات ثم خرج واقترب منى و هو يضرب بعصاه كف يده اليسرى : قدامى ع العنبر .

مشيت أمامه بينما أضاف : بقى حضرتك كنت عاوز تنزل الميدان ؟

قلت : بطشة اللى قاللى .

هوت صفعة على قفاى فترنحت وكدت أقع لكنى تماسكت وإستطعت أن أتحمل الصفعة الثانية .

وكنا قد وصلنا إلى باب العنبر فلمحت بطشة واقفا يتطلع نحونا و هو يضحك.

(٥)

لم يتأخر دور شرف في مساعدة " النشرة " على إعالة نفسه و عياله . ففى إحدى الليالى سمع اسمه في قائمة المرحلين إلى المحكمة فى الغد . وقضى الليلة ساهرا ، لا من التفكير في إحتمال الإفراج وإنما في الامدادات : من الصور الحية والسجائر. الصور لدعم نشاطه الليلى بعد أن استنزف إمكانيات فتاة الجولف . والسجائرلأغراض متعددة : تسديد الديون (لسوزوكى) والضرائب(لبطشة) والاشهار (للنشرة) فضلا عن الاستخدام المباشر (في التدخين) والخدمات الأخرى التى تضاعفت في الصباح : حلاقة للذقن كاملة من جميعه ، أي تتضمن النتف بالفتلة والدعك بماء الورد من زجاجة " أكوا فيلفا أفتر شيف " مقابل علبة سجائر ، مسح الكوتشى وإعادة ألوانه الطبيعية مقابل نصف علبة ، حمام مخصوص في المرحاض لا تنقطع خلاله المياه مقابل علبة ، كيّ في الموقع (أي في مبنى الإدارة ، أمام غرفة الأمانات، حيث يسلم البذلة البيضاء ويتسلم قميصه وبنطلونه الملونين والمكرمشين) مقابل علبة للقميص و علبتين للبنطلون .

حليقا ، نظيفا ، مكويا تسلم الكارت الأصفر الذى حرر له يوم دخوله وبدأ العبور المضاد : جلس القرفصاء في طابور مزدوج مع الخارجين . ثم سار معهم إلى فناء الإدارة الخارجي حيث تمت إجراءات التتميم مرة أخرى . وأخيرا باب السجن الرئيسى ، حيث تم تقييد المحبوسين ، اثنين اثنين ، و ضُم إلى مجموعة من اثنى عشر محبوسا بينهم بعض زملاء مركز الشرطة القدامى مثل فوزى وبلحة وصلصة ، وضعوا في الزنازين المتحركة .

كانت الرحلة على العموم مخيبة لآمال شرف . فبسبب القيد لم يتح له الإقتراب من إحدى الكوات المطلة على الطريق ولم ير من صنف النساء غير بضع مارات محجبات . لكن حظه تغير في المحكمة . وبدأ التغير فور وضعه في القفص فقد وجد نفسه في صحبة ثلاث نساء ، مرة واحدة ، مثلن التيارات الأساسية في الحركة النسائية .

كانت الأولى إمرأة ضامرة ، من طراز أم قويق ، في ملابس شعبية سوداء ، انتحت ركنا لزمته دون حركة و هي تتطلع أمامها ساهمة ، تتأمل ما اقترفته يداها . و كانت الثانية سمراء ، في مقتبل العمر، ذات شعر بين الأحمر والأصفر، ترتدي ثوبا ملونا يكشف نحرها وينتهي عند ركبتيها و تشعل السيجارة من السيجارة من علبة وضعتها في فتحة صدرها ، وتحصل على إمدادت مستمرة من الشاي و القهوة . أما الثالثة فسيدة وقور ، سمينة ، (من طراز الخنزيرة، الحيوان لا السيارة) في رداء حريري سنمني اللون غطى جسدها حتى أصابع القدمين ، أحاطت وجهها بطرحة ثبتت من جانبين بدبوسين لامعين ينتهيان بحبتي لؤلؤ، وأخفت عينيها خلف نظارة شمسية سوداء ، مزخرفة الإطار.

جاءت وقفته إلى جوار شاب في مثل سنه ، منكوش الشعر ، يدخن في عصبية ، يبدو عليه الذعر ، ألصق وجهه بشبكة القفص ليقترب قدر الإمكان من أم باكية تردد دون توقف : يا عيني يابني يا صالح . أفضى إلى شرف بأنه طالب بالمعهد الفني الصناعي ثم تبادلا اللسانيات .كان قد تلقى خطابا من مجهول يخبره أن شقيقته الصغرى وعمرها سبعة عشر عاما على علاقة بشاب و حملت منه . واجهها بالخطاب فأنكرت . تحداها أن تذهب معه إلى المستشفى للتأكد من صدق أقوالها فوافقت .اصطحبها دون علم والديهما بعد أن أخفى سكينا في

ملابسه وفى الطريق وعد بمساعدتها وعدم إفشاء السرلأحد إذا قالت له الحقيقة . اطمأنت إليه البلهاء وإعترفت بأنها كانت على علاقة بشاب وعدها بالزواج ثم غرر بها . وهنا لم يتمالك نفسه فأخرج السكين من ملابسه وإنهال عليها طعنا فى أجزاء متفرقة من جسدها ثم أسلم نفسه للشرطة معترفا بفعلته فقدمته النيابة إلى المحاكمة بتهمة القتل العمد مع سبق الاصرار والترصد

أعاده ذكر التوصيف القانونى إلى الحاضر فانهار باكيا واقتعد الارض ليكون قريبا من رأس أمه وتختلط دموعهما . وقفز مكانه شاب أخر وسيم الملامح ، ذو شعر ناعم بالغ السواد ، في نفس العمر، وربما نفس المصير ، لكنه على عكس الاثنين الآخرين بدا مستسلما لا مباليا يتطلع حوله كأنه يتفرج على فيلم. الفيلم الحقيقى بدأ من عدة سنوات لا فى حديقة الحيوان وإنما فى الموسكى . كان فى الصف الثانى الإعدادى و يعيش وأربعة من الأشقاء والشقيقات و والديهم في غرفتين أسفل السلم بمنزل قديم بمنطقة جبلية عشوائية . وبسبب صيام رمضان المرهق أرسله أبوه العليل الذى يتاجر فى إبر الخياطة المثبتة فى بطاقات صغيرة إلى تاجربالموسكى . هناك تقابل مع حسن زرافة .

قدم زرافة نفسه على أنه صاحب محل بمصر القديمة يريد كمية كبيرة من بطاقات الإبر ودعاه لعقد الإتفاق فى مقهى بالحسين(أهناك مكان أكثر ملاءمة في الشهر الكريم ؟) . كان السعر مغريا ، يتضمن عمولة معقولة للصبى حجاج ، مهرت بدعوة للإفطار لاقتراب وقت المغرب ، تلاها شرب الشاى والمثلجات على مقهى برمسيس ، ومحاولة فاشلة لإقناعه بتدخين السجائرالتى سببت له سعالا حادا ، فكرس زرافة نفسه لتعليمه شرب الشيشة ولعب الورق حتى تجاوزت الساعة منتصف الليل فأبرز ورقته الأخيرة :

– لو روحت الوقت أبوك حيضربك . تعالى معايا أحسن . أنا متجوز وعندى أولاد فى سنك تنام معاهم والصبح روح . وعندى كمان شيشة .

لم ينصرف حجاج فى الصباح التالى ولا الذى بعده ولم يرأسرته أومدرسته منذ ذلك اليوم . فقد أخذه إبن الزرافة إلى عزبة اسطبل عنتر بمصر القديمة وغرفة واحدة تضم حيوانا آخر يدعى سيد غوريللا وأكثر من ١٥ طفل لا يتعدى أصغرهم سن الثمانية أثار منظرهم فزع الزبون الجديد فأراد الانصراف . لكن دخول الحمام ليس مثل الخروج منه كما سبق أن اكتشف الكعب الداير

أبرز زرافة مطواة فبكى حجاج وأخذ يصرخ فضربه بعصا كبيرة على رأسه لم يشعربعدها بشئ . الأولاد الآخرون هم الذين أخبروه عندما أفاق بما حدث . لا شئ أكثر مما حدث لهم . فقد اعتدى زرافة على شرفه وداوم على الاعتداء عليه طوال شهر كامل ظل خلالها حبيس الغرفةإلى أن ظن أن ترويضه اكتمل فصحبه إلى العمل . بيع بطاقات إبرالخياطة فى وسائل المواصلات كغطاء للعمل الحقيقى .

هل استسلم ؟ لا . فى أول يوم قررالهرب داخل أتوبيس فغافل زرافة ونزل من الباب الآخر. فوجئ أمامه بالحيوان الآخر الذى يشترك فى السكن والحريم والمهنة . النتيجة علقة بخرطوم جلد وإنذار ناجع : لو كرر المحاولة سيشوه وجهه الوسيم بماء النار ويخطف أحد أشقائه أو يعتدى على والدته ولتكن له عبرة فى أحد عيال سيد غوريلا الذى حاول الهرب فقطع سيد رقبته وشرب من دمه .

هكذا مضت السنوات انتقل خلالها حجاج مع صاحبه من اسطبل عنتر إلى دار السلام ثم مدافن اليهود ، كما انتقل من إبر الخياطة إلى الأمشاط

والمناديل الورقية ثم البانجو . وهنا تنبهت له الشرطة اليقظة فعقدت من أجله الإجتماعات المكثفة على أعلى مستوى فى لاظوغلى وباب الخلق ورسمت خطة محكمة للإيقاع به فتنكر له خصيصا عقيد محترم اقترب منه أثناء وقوفه على ناصية شارعين فى مصر الجديدة وقدم له عشرة جنيهات و عندما شرع حجاج فى إخراج لفافة البانجو من جيبه أطبق عليه الكمين وعثرمعه على ثمانى لفافات أخرى اعترف بحيازتها بقصد الإتجار فاستحق العقوبة المقررة وهى الإعدام .

ضم القفص أيضا مجموعة غريبة من عشرة رجال ، أغلبهم ضامرى الأجسام ، شاحبى الوجوه بطريقة ملفتة ، يتنفسون بصعوبة ويصدرعنهم سعال حاد متكرر، اكتظت القاعة من أجلهم بجمهرة نساء فى جلاليب سوداء و أطفال فى جلاليب بلا لون وعدد من المحامين والصحفيين .وكشفت اللسانيات أنهم من عمال حلوان الذين أضربوا عن العمل واعتصموا بمصنعهم إحتجاجا على فصل عدد من زملائهم لأنهم طالبوا بإحتساب أيام الجمع ضمن المرتب أسوة بالمستشارين وهم موظفين متقاعدين من أصدقاء رئيس مجلس الإدارة عينهم برواتب عالية لا يقل الواحد منها عن الألف جنيه فى الشهر، تكفى لحساب أيام الجمع للعمال إلى يوم القيامة .

هل تعبيرهم عن الرأى هو الذى جاء بهم ؟ أبدا . الأهل هم السبب . فقد تجمعوا أمام بوابة الشركة لكى يطمئنوا على أزواجهم و أبنائهم و يزودوهم بالطعام . لكن الشرطة منعتهم و ألقت بالزاد و الزواد فى الترعة و بقنابل الدخان فى المصنع . لم يجدالأهل وسيلة للتعبيرعن رأيهم سوى الحجارة . وتصورت الشرطة أنها تواجه انتفاضة على الطريقة الفلسطينية وردت بإطلاق الرصاص

على الطريقة الإسرائيلية فقتلت ثلاثة و جرحت سبعين ثم ألقت القبض على الباقين .

شكوى أخرى جانبية لا علاقة لها بالموضوع و إنما تفسر الشحوب والضمور و السعال ، لديهم ولدى الأهل و الشرطة معا، فضلا عن الاستعداد المغامرة (بالإضراب و الإعتصام) : فمداخن المصانع تنفث في الهواء عشرين طنا من الأسمنت كل يوم .

أخته فاطمة وأمه اللتان لم تذهبا في حياتهما إلى حلوان ، بدت عليهما نفس المظاهر عندما اقتربتا من القفص في وجل ، و كل منهما تحمل في إحدى يديها كيسا منتفخا من البلاستيك . كانت الأم ترتدي جلبابا داكن اللون و تغطي رأسها بطرحة سوداء ، و تنتعل صندل الخروج الأسود المعهود . وكانت الأخت ترتدي الفستان الوحيد الذي تذهب به إلى البوتيك و تلف شعرها في اشارب ملون لتعطي الإنطباع بأنها محجبة . أما الأب فظل جالسا في نهاية القاعة ، جزعا مهدما يتمتم الصلوات والدعوات ، محتفظا بالمسافة التي حرص عليها دائما بينه وبين ابنه ، وطالما أثارت ضيق الإبن وتساؤله عن حقيقة عواطف الأب ، لكنها الآن لقيت رضاه .

تلفت شرف حوله بحرج عندما رفعت أمه منديلا تجفف به دموعها وطلب منها في غضب أن تكف عن البكاء ثم سألها إن كانت قد وجدت محاميا فأجابت بالإيجاب . جففت دموعها وعندئذ شرع في البكاء وهو يشرح لها مايتعرض له من مهانة وكيف أن إرسال الخطابات لا يسمح به للسجين إلا بعد مرور أسبوعين على تشريفه ، وكيف حاول مع ذلك الكتابة إليها . المطلوب ؟ الإنتقال إلى عنبر الملكيين و ما يستتبع ذلك من لوازم (ملابس و طعام و مزيد من السجائر) .

تفجرت دموع الأم من جديد وظلت تتطلع إليه وهي تبكي في صمت فتشاغل عنها بالفرجة . و إتجهت أنظاره مع الجميع إلى حشد من المحامين بأروابهم

السوداء ولجوا القاعة فى صحبة رجل قصير القامة فى ملابس أنيقة . تعرف شرف فى الحال على بذلة من انتاج "إيف سان لوران" ، وحذاء من طراز "بالى" ، و نظارة طبية ذات إطار من طراز "كارتييه" يحتل مساحة كبيرة من الوجه . كان شعرالرجل مصففا فى عناية وشاربه محفوفا على شكل خط رفيع فوق الشفتين ويتحرك بطريقة متخشبة وهو يبتسم بصورة مستمرة ، كمن اعتاد الوقوف أمام كاميرات الميديا .

تعرف شرف أيضا على شحوب من نوع مختلف . فإلى جوارالرجل المتخشب سارت امرأة أطول منه ، ذات بشرة بيضاء موردة ، ترتدى بلوزة سماوية اللون بكمين قصيرين للغاية ينتهيان تحت الكتف مباشرة فيكشفان عن ذراعين ريانيين ، و أسفلها جوب فضفاض أزرق اللون . كانت تضع نظارة شمسية داكنة لم تتضح هويتها ولا معالم وجهها الذى أحاطت به هالة من الشعر الأسود الكثيف استقرت فوق كتفيها ، إلى أن خلعتها لتكشف عن عينين سوداوين حزينتين ، تحيط بهما تجاعيد خفيفة ، وفم صغير رقيق الشفتين . واعتبرَ أشرف نفسه سعيد الحظ عندما أحضر لها الحراس مقعدا وضعوه إلى جانب النافذة المواجهة له ليخففوا عليها من الحرارة فجلست محافظة على انتصاب قامتها واضعة ساقا فوق الأخرى ، كاشفة عن انسيابهما و امتلاء ربلتيهما .

الدولة المتهمة بالتراخي والرخاوة أبدت درجة عالية من سرعة الأداء بواسطة ممثلها الذى تصدر القاعة ، فتتابعت القضايا فى سرعة البرق ، لدرجة أن عم فوزى لم يدرك أن قضيته نظرت ، إلا عندما سمع نبأالتأجيل فى نهاية الجلسة . أماشرف فقد تمكن من التقاط اسمه وهتف : أفندم . رأى شخصا يتقدم إلى المنصة ويخاطب كاتب الجلسة فى عجلة فيسجل الأخير كلماته ثم

يهمس للقاضى بشــئ ما . هز القاضى رأسه موافقا وهمس بدوره للكاتب همس الكاتب للمحامى فعاد إلى مكانه بين الجالسين بينما نادى حاجب الجلسة على متهم آخر .

شرح له صلصة هامسا :

- الظاهر المحامى بتاعك مجاش وبعت واحد بداله .

سأله : و بعدين ؟ .

قال : ولا قبلين .حتتأجل .

التجأ القاضى إلى غرفته بعد ساعة قضاها شرف فى تأمل ساقى رفيقة الرجل المتخشب . و بعد حوالى نصف ساعة خرج الحاجب و نادى على أم قويق فأخرجوها من القفص واقتادوها إلى الغرفة .. عادت بعد عشر دقائق دون أن يبدو شئ على وجهها . ثم نودى على ثابت محفوظ ، فتقدم الرجل المتخشب من الغرفة يتبعه مرافقوه من المحامين .

استغرق الإنترفيو مع القاضى قرابة الساعة كان صلصة لا يكف خلالها عن الحركة فى أرجاء القفص ، ينصت للأحاديث الجارية بين المتهمين وأقاربهم ويستفسر عن القضايا المنظورة ويدلى بآرائه فى الأحكام المتوقعة ويلح على معارفه كى يحضروا له دواء توسيفان المضاد للسعال ، آخذا نَفَسُه بين الحين والآخر خلف مؤخرة المرأة ذات الشعر الملون . عن هذا الطريق عرف شرف أن الرجل المتخشب من كبار موظفى الحكومة و يرأس الهيئة التى تتولى توزيع الأسمنت على التجار و أنه منْ الذين وُسع عليهم فى الرزق إذ وجد معه عند القبض عليه مليونين و ربع مليون جنيه نقدا . ومع ذلك خرج من غرفة المداولة عابسا .وفوجئ سكان القفص بانضمامه إليهم فأفسحوا له مكانا وتراجعوا بعيدا فى احترام . وتقدمت رفيقته من القضبان التى تعلق بها بيديه الإثنتين

(كاشفا لعيني شرف اليقظتين عن ساعة ذهبية من طراز "رولكس") ووقفت تتطلع إليه (بعد أن وضعت نظارتها المعتمة كي لا تكشف عن حقيقة مشاعرها) بينما انهمك في حديث هامس مع محاميه .

كان قاتل أخته قد إقتيد إلى غرفة المداولة وخرج بعد دقائق وقبل أن يبلغ القفص تصاعدت الزغاريد . و أحاط به أقاربه وجلهم بالملابس الريفية و نشط بينهم عامل البوفيه الذى أحضر صندوقا كاملا من الكوكاكولا وضعه قرب المنصة. قاد الحراس صالح إلى القفص وما أن دخل حتى إتضحت التفاصيل : حكم القاضي عليه (أو له كما تبين) بسنة مع وقف التنفيذ .

أحدث النبأ تأثيرالسحر على القتلة ، بما فيهم شرف ، لما كشف عنه من احتفاء بالغ بقيمة الشرف ، فلم يعبأوا بتأجيل قضاياهم لمدة ٤٥ يوما أخرى ، وغادروا القفص إلى قاعة الانتظار في معنويات مرتفعة فيما عدا الدكتور ثابت الذى كان واجما . و لم يخفف من وجومه عرض الاستربتيز الذى كان فى انتظارهم عندما صعدوا إلى سيارة الشرطة والذى قدمه راكب يرتدى ملابس السجن المقيفة . فقد وقف فجأة وفك رباط بنطلونه وتركه يهبط حتى قدميه وتبعه بالكيلوت كاشفا عورته ثم أقعى القرفصاء ، معطيا مؤخرته لضيف الشرف ، ومد يده إليها بلفافة صغيرة من البلاستيك و بحركة سريعة دسها إلى آخرها في إسته، ثم إعتدل واقفا وأعاد ملابسه إلى وضعها دون أن يعبأبنظرات الآخرين أو بنظرات الحارس الذى تابع كل ذلك من نافذة الباب الخلفي دون اكتراث .

لم تكن المؤخرة العارية الوحيدة التى قدر لشرف أن يراها في يومه . فعندما بلغوا السجن وتم تفتيشهم للتأكد من أن الممنوعات التى أحضروها مخبأة فى أماكن أمينة ، احتجزوهم فى قاعة الاستقبال دون ما إيضاح كي لايعبروا الفناء الذى حجزلطقس العروسة . ومن كوة صغيرة مسورة رأى شرف

مشهدا سينمائيا : مائدة مغطاة بمفرش أحمر اللون يجلس خلفها ثلاثة ضباط مهيبو المنظر، أخفوا عيونهم بالنظارات السوداء المعهودة ، وأمامهم هيكل خشبي غريب عبارة عن قائم منفرج الساقين ينتهي من أعلى بذراعين تتوسطهما دائرة مفرغة .إلي جوار الهيكل الصليبي وقف أحد السجناء بين اثنين من الحراس شارعا في عرض ستربتيز ، وسمع شرف سجينا خلفه يقول :

– ده السوهاجى بتاع اللحمة .

كان يشير إلى ما وقع منذ أيام فى طابق النفوس (جرائم القتل) عندما احتج أحد المساجين على قطعة الجلد التى وجدها فى اليمك وقذف بها فى وجه الصول معلنا ، للعجب ، تمسكه بحقوقه التى تنص عليها لائحة مصلحة السجون وهى قطعتان من اللحم الأحمر(لا الجلد) فى الأسبوع (لا فى اليوم) .

تفرج شرف على عقوبة التمرد التى تنص عليها لائحة مصلحة السجون: تقدم شخص فى ملابس مدنية فأعطى حقيبته لحارس بعد أن أخذ منها مقياس الضغط فثبته إلى ذراع المتمرد و قاس ضغطه ثم كشف على صدره وظهره بالسماعة وتناول حقيبته و مضى إلى المأمور فتحدث معه قليلا ثم جلس إلى جوار علي بلبل . و أشار المأمور بيده للحراس فأشاروا بدورهم للسجين الذى ارتمى فوق الصليب الخشبى بحيث إستقرت رأسه وسط الدائرة و ذراعاه فوق الذراعين الخشبيين ، و تجلت مؤخرته للناظرين فى عريها التام . وبعد أن ربطوه إلى العروسة الخشبية بسيور جلدية تبادل حارسان ضربه لمدة ربع ساعة بشومة طولها نصف متر تنتهى فى أحد طرفيها بعدة قطع من الجلد ، لا جلدة واحدة .

صعدوا أخيرا إلى زنازينهم وهم لايكتمون إعجابهم بصلابة المجلود الذى لم يفه بآهة واحدة . نجمان آخران نازعاه بطولة اللسانيات : أم شرف (بفضل المحشي والملوخية والدجاج المحمروالباذنجان المخلل والبقلاوة والعنب والكانتالوب التي وزعها على الزنزانة بأريحية بررها لنفسه بأنها تتلف لو بقيت للغد) وصلصة (بفضل جعبته التي ضمت إلى جانب زجاجة "التوسيفان "، دواء السعال ذى المنافع الجمة ، التى تقاسمها مع بلحة ، ما جمعه من معلومات عن نجوم القفص) .

فأم قويق قطعت زوجها بالسكين إلى أجزاء صغيرة . وكان المرحوم سباكا ذهب إلى الخليج وتركها تقوم بتربية الأولاد وبعد غيبة عدة سنوات عاد ليستمتع بنتائج كيحه فطردها هى والأولاد الثلاثة وتزوج من فتاة صغيرة . والمرأة المحجبة الوقور صاحبة عمارة تتميز بالوعي الإجتماعى ، إذ عنيت بالمساهمة فى حل مشكلة الإسكان ، فضاعفت طوابق عمارتها العشرين دون أن تعبأ بقواعد البناء الغبية ، مما أدى إلى سقوطها فى أول هزة للزلزال . أما السمراء الملونة فمؤخرتها طرية أكثر مما يجب لأن (طبقا لصلصة) المؤخرة الممتازة هى الصلبة المتماسكة . وهى خبرة أكدها الزعيم بعد أن أخذ نصيبه من التوسيفان .

استمع الجميع إلى حديث المؤخرات بعيون لامعة فيما عدا واحدا انخرط بالبكاء . لم يكن عم فوزى وإنما كهل أبيض شعر الرأس ، امتلأ وجهه بالحفر والأخاديد ، انضم إليهم بالأمس فاحتل مكان فلاح كفر الشيخ (الذى خرج بكفالة) ، إلى جوار دلو البول ، دون أن يتأفف . و ظهر السبب بعد قليل ، فالمهنة هى الصرف الصحي بالتحديد ، و الإسم بالنتيجة : حسن بكبورت.

هددت دموعه بتغيير جو السهرة فهب المجربون إلى العمل . هتف به صنقر : صلي على النبى . و ناوله صبرى كوب ماء ونصف ليمونة .وأشعل له سوزوكى سيجارة كاملة . وكان عليهم أن يدفعوا الثمن .

تحولت دموع عم حسن إلى نهنهات سمحت له بالتقاط أنفاس السيجارة والتعبيرعن نفسه : فهويمارس مهنة الخراء منذ ٢٤ سنة ومع ذلك لم يتجاوز مرتبه ٩٢ جنيه .

– عندى سبعة فى المدارس . ده حتى ما يكفيهومش عيش . طب ويعملوا إيه الوقت ؟

على العكس مما تبادر إلى أذهانهم ، فان عم حسن لم يدخل السجن بسبب محاولة تصحيح الوضع . و إنما لأن صبيا مجهولا سقط فى بالوعة منزوعة الغطاء و مات .

– هو أنا اللى شلت الغطا ؟ ميروحو يدوروا على اللى شالها .

استخلص الحكمة : إحنا محكوم علينا بأكل الخرا من ساعة متولدنا . ولو محدش وقع فى البلاعة إحنا اللى نموت فيها .الحكومة مبتدّيناش معدات كفاية أوملابس وقاية . والنتيجة زى ما انت شايف السكروالضغط والهرش .

شفع حديثه بالهرش أمام الجميع . على العكس منه لم يكن شرف يجرؤ على الهرش علانية رغم أنه كان يتوق إلى ذلك بسبب ما فى جعبته . وحال القيظ بينه و بين ما فعله مرة في الفجر، عندما استغل انخفاض درجة الحرارة ، فبسط بطانية فوقه بحيث غطت وجهه وكل جسمه وثبتها خلف مؤخرة رأسه ثم رفع ركبتيه إلى أعلى وجذب الطرف الآخرمن البطانية أسفل قدميه فصارت مشدودة كالوتر و توفرت أسفلها مساحة واسعة للتنفس والهرش دون أن يلحظ أحد .

راود نفسه على الصبر حتى ينعس الآخرون . و كان هو أول من راح في سبات استيقظ منه فجأة قرب الفجر على أصوات هرش حادة .

كان ينام بين صبرى وسامى عازر ، و هو عامل مصبغة في الأربعين ، سبق عم حسن إلى الإلتحاق بالزنزانة فصار الآن يفصل بينه و بين شرف . دون أن يحرك الأخير رأسه استطاع أن يتبين صبرى راقدا على ظهره ، وذراعيه إلى جانبيه ، غارقا في نوم عميق . وكما كان سامى عازر بالنهار منطويا على نفسه ، عازفا عن الكلام ، دافنا رأسه في كتاب صغير يخرجه من كيسه و يفتحه على صفحة بعينها لا تتغير ، رقد الآن منطويا على نفسه ، في وضع الجنين ، دافنا رأسه بين ذراعيه .

إستمر صوت الحك المتواصل ، فرفع شرف رأسه ببطأ وتطلع حوله .كان الجميع نياما والسيمفونية المعهودة تتردد بقيادة بطشة . و بين المقاطع كانت هناك لحظات توقف تسمح بالتقاط موسيقى من نوع أخر . وبفضل شعاع من الضوء نفذ من كوة الزنزانة ، قادما من مصابيح السور الخارجي ، ميز يد عم حسن وهي تتحرك بعنف بين فخذيه . ألقى نظرة أخرى حوله أكدت له أن الآخرين غارقون في النوم . عندئذ قرر أن يستغل الغطاء الصوتى المتاح ، ففك سرواله في حذر وهو يعد بسرعة ملفا مكثفا من صور اليوم ، تتصدره ساقا رفيقة الدكتور ثابت .

لم يستغرق منه الأمر كثيرا على عكس عم حسن الذى بدا أنه يواجه صعوبات جمة ، مما مكن بطشة من اكتشاف مايجرى .

كان النوبتجى بحكم تجربته الطويلة قادرا على التمييز بين أنواع الهرش. هكذا أرغم عم حسن في الصباح على أن يتعرى ، فكشف عن عورة حمراء ملتهبة ، وآثار دماء بين الفخذين . وعلى الفور أسرع بطشة إلى الحارس الذى

جاء برفقة تومرجي العيادة ، وهو حارس متنكر فى بالطو فقد لونه الأبيض من زمان ، أمرهم جميعا أن يحملوا نمرهم و حاجياتهم (فيما عدا المأكولات والسجاير) ويتبعونه إلى العيادة .

كعادة الرؤساء لم يتبرع بطشة بتفسير ما يجرى ورفض الإجابة على أسئلة رعاياه . صنقر هو الذى أفضى ببعض المعلومات : عم حسن بكبورت مصاب بالجرب الذى تنتقل عدواه بسرعة خاطفة ولهذا لا مفر من عزله فى المستشفى .

أسفر صنقر أيضا عن مشاعر القيادة :

– أنا خايف يكون عدانا . أصل العلاج صعب . لازم العيان يستحمى بالليف الخشن و المية السخنة . و يدهن مرهم يشتريه على حسابه .

كانت العيادة فى الطابق الأرضى من مبنى مستقل يتألف من طابقين ، خصص الأعلى للمستشفى . و كان الممر المؤدى إلى غرفة الطبيب مزدحما بطابورمن مسجونين ينتظرون الفحص ، بالإضافة إلى أجساد ذابلة ملقاة على الأرض ، تتصاعد منها رائحة عفنة ، وتتناثرحولها قطع الشاش الملوثة بالدم .

لم يكن السبب هو كثرة الزبائن وإنما خطأ فى المصطلح . ذلك أن المستشفى الواقع فى الطابق الأعلى لم يكن مخصصا للمرضى وإنما للمعافين: مجموعة من أصحاب اللحى الذين حاولوا اغتيال وزير الداخلية يتعافون من أثر اعترافاتهم . حوت كبير ، متزوج حديثا ، ينتظر المحاكمة و يهرش طول الوقت ليرى زوجته فى زيارة خاصة (كى تهرش له) . واحد فقط إستثناء من القاعدة ، اتهم بسرقة سيارة وعندمارفض الإعتراف حقنه ضابط الشرطة فى ساقه بمزيج من محتويات المرحاض ، فأصيبت بالغرغرينا .

عندما يئس الجميع من . ىٔ الطبيب في يومه ، التجأ التومرجي للضابط علي بلبل الذى التجأ إلى و ـل السجن الذى تلفن للمأمور فى منزله (حيث كان ملتجئا إلى زوجته ا ، ـخيرة) . وفى تصرف فريد نادرا ما تعهده البيروقراطية ، أمر المأمور با/ ج اء الضرورى إلى أن يأتى الطبيب في الغد .

قاد الحراس المجموعة (تاركين عم حسن فى المستشفى لا المنتجع) إلى الحمام العمومى (الذى يترددون عا ه مرة فى الأسبوع من أجل المكاشفة الجماعية) . تركوا حاجياتهم فى الشمس وخلعوا ملابسهم كلها ووضعت فى كوم واحد على جانب . و إندفعوا جريا تحت الدش الساخن و هم يهللون كالأطفال . فيما عدا واحدا .

زعق الحارس في سامي عازر الذى ظل واقفا بكامل ملابسه فى مدخل الحمام :

- إقلع يا مسجون .

لم يتحرك سامي وإنما ظل واقفا وكيسه فى يده ، فتولى بطشة الأمر.

تقدم منه وهو يقول : معلهش يا حضرة الصول ، أصله مينكشفش على رجالة .

ولسامي قال مهدهدا : إقلع ياسامى . متخفش . محدش حيعملك حاجة. حط الكيس فى الشمس و اقلع .

تشبث سامي بكيسه وتلفت حوله بنظرات مجنونة كأنما يبحث عن منفذ.

همس له بطشة : إن مقلعتش حيفتكروك عيان و يودوك الحجر الصحى . إنت كنت نايم جنبه .

انصاع سامي ففتح الكيس وتناول كتابه . احتفظ به فى يده اليسرى ثم أغلق الكيس و خطا إلى الخارج فوضعه إلى جانب بقية الأكياس .

قال له صنقر مهدهدا : دا اللي انت خايف عليه ؟ متخفيش . خده معاك تحت الدش .

صاح الحارس : وبعدين بقى ؟ هات ده .

وتقدم منه مادا يده ليختطف الكتاب .أبعد سامي يده بعيدا فسقط منه . وانفرجت صفحاته عن صورة صغيرة ملونة تدحرجت على الأرض .

انحنى الحارس قبل أن يتمكن سامي من منعه والتقط الكتاب و الصورة . تعرف في الكتاب على الإنجيل الذي يعرفه لا بحكم دينه وإنما بحكم عمله . ولهذا لم يفه بكلمة كي لا يجرح المشاعر المقدسة . لكن الصورة كان لها شأن آخر .

قال وهو يرفعها أمام عينيه :

– الله . دي زي القمر أهيه امال مش عاوز تقلع ليه ؟

قال سامي بصوت واهن : اديني الصورة .

قال الحارس : خليها معاي شوية حاديهالك لما تخلص حمام .

استسلم سامي و خلع ملابسه ودخل تحت الدش الساخن . وبعد خمس دقائق نفخ الحارس في صفارته معلنا انتهاء الحمام .استعاد سامي كتابه وصورته وتسلم الجميع ملابس ونمر جديدة و عادوا إلى زنزانتهم ليبدأ تنفيذ الشق الثاني من اجراء المأمور وهو الحبس . فلم يغادروها إلا قبل توزيع العشاء بقليل ولمدة عشر دقائق ذهبوا خلالها إلى دورة المياه التي أخليت تماما من أجلهم كي لا يختلطوا بأحد .

على العشاء كان الموقف و إحتمالاته (مدة الحبس) و نتائجه المباشرة (تخفيف الزحام) هو الموضوع السائد و الذي كشف لأشرف حقائق جديدة عن عالم ما وراء الاسوار . فالمال الذي ظن أنه تحرر من سطوته بمجرد عبور العتبة

الأولى ، يشترى هنا كل شئ تقريبا : بخمسة جنيهات يترك الحارس باب الزنزانة مفتوحا طول النهار . بخمسين يحولك طبيب السجن إلى مستشفى خارجي لتقضى عطلة نهاية الأسبوع أو الموسم . بمائة يتم تهريب أى ممنوعات ابتداء من الويسكى حتى الحشيش . بعدة آلاف تنال عفوا صحيا أو يقرر الطبيب أنك مجنون لتحال إلى مستشفى الأمراض العقلية كخطوة أولى للانتقال نهائيا إلى مجتمع العقلاء .

كسر بطشة الدائرة اللسانية بأن اومأ إلى سامى قائلا : فرجنا بأه على الصورة

رد هذا و هو يغمس لقمة فى طبقه : ما تستهلش .

قال صنقر: برضه نشوفها .

مد يده إلى كيس سامى . و نظر الأخير إلى يده لكنه لم ينبس بحرف و لم يعترض .

قال بطشة : دوّر فى الكتاب .

أخرج صنقرالكتاب المقدس وفرّ صفحاته حتى عثر على الصورة فأخرجها وعرضها للضوء ثم قدمها لرئيسه الذى صفر بشفتيه : يابن الهرمة . حتة مرة .

تخاطف الجميع الصورة فطالعهم سامى بوجه متجهم تعلوه نظارة طبية قاتمة ، وقامة قصيرة بالغة النحافة يعلوها قميص أبيض شمرت أكمامه، وسيجارة فى اليد .لم تكن صورته هى التى أثارتهم و إنما الحسناء الممتلئة التى وقفت إلى جواره فى ثوب زفاف أبيض ذى فتحة عريضة تكشف عن منبت ثدييها .

تابع سامى انتقال زوجته من شخص لأخر دون أن يبدو على وجهه أى تعبير.

سأله سوزوكى : إنت متجوز من إمتى ؟

أجاب : من حداشر سنة .

السؤال التالي جاء من سامبو بحكم تخصصه : إنت قتلتها صحيح ؟

لزم سامي الصمت و هويحدق فى الأرض ثم قال : الشيطان شاطر .

- لازم مشيها كان وحش .

بهت سامي ورفع رأسه مواجها سامبو . وتوقع الجميع معركة لكن سامى كان يفكر . هز رأسه و قال : كانت بتخرج كتير بعد ما أروح الشغل صحيح. أصل احنا مجبناش ولاد .

أدرك بعد لحظة انتفاء العلاقة السببية بين كثرة الخروج و عدم الانجاب فسارع بالتصحيح :

- يوم الحادثة كنت قايم من النوم فقعدت تعايرنى إنى مبصرفش عليها كويس ومبدورش على شغلانة أحسن أو أسافر وأني مبخلفش . قمنا تخانقنا . مسكت في رقبتها . و مدريتش بنفسي إلا و أنا في الشغل . لما روحت المغرب لقيتها ميتة فبلغت البوليس .

مد يده إلى إبطه وأخذ يهرش ، فتبادل الآخرون النظرات . هدأت هواجسهم عندما أبعد يده . و جاء نورشرف الذى شعربقرصة فى جنبه . تجاهل الرغبة فى حك مكان القرصة كي لا يلفت الإهتمام . وإنتظروهو يجز على أسنانه ويتطلع إلى الآخرين . كانت نشأته على حافة المعادى قد وسعت مداركه ، فأصبح قادرا على التمييز بين أحوال القرص و تجلياته (من قبيل القرصة الكاذبة التى يشعر فيها المرء بأعراض القرصة دون أن تحدث) . هكذا اطمأن عندما انتقلت القرصة إلى كاحله ، فهو مكان مفضل لدى البراغيث ..

استمر الحبس طيلة اليوم التالى دون أن يظهر الطبيب . وحرم سامى من زيارة القسيس الذى يأتى كل اسبوع في سيارة مرسيدس للاطمئنان على

أرواح رعاياه . و ارتفعت درجة حرارة الغرفة فتخففف النزلاء من ملابسهم حتى أو شكوا على التعرى فيما عدا شرف الذى خجل من الكشف عن الدهون المحيطة بثدييه . و دب الشجار بين سامبو وصنقر وبين صلصة و بلحة وبين عم فوزى وجابر . وأوشك سوزوكى أن يمسك فى رقبة بطشة عندما لم يجد صابونته وبدا بطشة نفسه مهتاجا لا يستقر فى مكان لأنه لم يعرف الحبس منذ دخل السجن . كان يهرع إلى الباب بين الفينة والأخرى فيقفز فى الهواء ويمسك بقضبان الشراعة بأطراف أصابعه ثم يرفع جسده إلى أعلى ثانيا ساقيه و يستديربحيث يتكور فى الفتحة مستندا بساقيه إلى الحائط . ويبدأ النداء على الزنازين الأخرى والحراس متسائلا عن الأخبار .

هكذا وصلهم نبأ الشجار الذى نشب فى عنبر الملكية بين واحد من السنية وسجين مسيحى بسبب تعليق أبداه الأول على ارتداء الثانى للشورت . وسرت إشاعة بأن السنية قرروا قتل جميع المسيحيين فتجمع هؤلاء فى فناء العنبر وهم فى حالة فزع و رفضوا دخول الزنازين .

. شحب وجه سامى عندما سمع بالأنباء فقال له بطشة وهو يبتسم بخبث :

– انت حتلاقيها منين ولا منين يا سامى .

تدخل جابر فجأة :

– متخفش يا سامى . طول ما انت معانا محدش يقدر يقرب منك .

لم يهدأ بال سامى إذ أخذ يرتعش . وعرض عليه سوزوكى نصف سيجارة ثم قال :

– أهو انت لازمك برشامة تخليك فل . ولا يهمك . دواك عندى .

فتحداه بطشة : لأ عندى أنا يا سوزوكى .

رغم الصليب الصغير المدقوق فى باطن رسغ اليد اليمنى لعم فوزى ، فانه لم يعر الأمر اهتماما ، إذ كان منصرفا بكل كيانه إلى الألعاب : قطع شطرنج من لباب الخبز وعرائس من القماش على صورة ابنة أخته يجمع لها كل ما تقع عليه يده من فضلات من خرق وقش و ورق صحف و علب كرتون .

انتهت الأزمة الطائفية قبل التمام ، إذ نفى أمير السنية للمأمور إشاعة المذبحة ، فعاد المسيحيون إلى زنازينهم ، وهدأ روع سامى قليلا . ومع ذلك نشط سوق البرشام بعد العشاء وهبطت المنافسة بين بطشة وسوزوكى بالأسعار.

عند ظهر اليوم الثالث أخذوهم إلى الطبيب الذى فحص أصابعهم ثم ألقى نظرة عجلى على عوراتهم و أصدر حكمه بالبراءة .

فى طريق العودة إلى الزنزانة تداولت القيادة فى الأمر و قال صنقر مستوحيا تجاربه :

- أنا خايف نكون اتعدينا بصحيح .

صاح بطشة الذى راوده نفس الشك : أما ابن قحبة صحيح ! الراجل قالك مفيش حد اتعدي .

قال صنقر : و لو كان كداب ؟

خبط بطشة كفا بكف : سبحان الله ! و يكدب ليه ؟

قال صنقر: عشان سمعة السجن .

تدبر بطشة الأمر طويلا بحثا عن ثغرة فى تحليل معاونه حتى وجدها أخيرا فى شخص عامل الصرف الصحى :

- و يعمل ايه فى البكبورت ؟ حيقول كمان إنه مش عيان ؟

- لا . يقول إن عنده هرش عادى .

نوع من أنواع الهرش العديدة .

(٧)

أخذني الحارس مع عم فوزى إلى المطبخ لتحل محل مسجونين خرجا إلى محكمة الإستئناف ، كان هناك أربعة مساجين من الذين صدرت عليهم أحكام متفاوتة وحارس وأسطى بدين في جلباب بلدى .عهد إلينا الأسطى بتنظيف جدران المراجل وأوانى الطهى الضخمة ودلاء التوزيع ثم تنظيف الأرض . وأثناء ذلك وضع أحدهم كميات كبيرة من نبات الرجلة فى أحوض الغسيل ثم رفعها ونقلها إلى طاولة خشبية عريضة وما زال الطين يسيل منها . رأيته يقطعهابسرعة إلى أجزاء صغيرة يزيحها بالسكين إلى حافـــة الطاولة لتسقط فى دلو . وتولى سجين أخررفع الدلو وأفرغ محتوياته فى مرجل كبير يتصاعد منه البخارفوق شعلة قوية تغذيها أنبوبة غاز .

انصرفنا إلى تفريغ محتويات عدة أجولة من الفول الناشف فى دلاء وضعت تحت الماء . وعكف آخران على تفريغ جوالين من الأرزفى إناء كبيروضعاه تحت حنفية المياه وبعد أن قاما بتقليبه عدة مرات أفرغا مياهه وأضافاه إلى مرجل الرجلة دون أن يعنيا بتنقيته من الشوائب .

أعد الأسطى برادا من الشاى فوق نار صغيرة ووزع علينا أكوابه ثم انتحى جانبا هو والحارس وجلسا يشربان الشاى ويدخنان وهما يثرثران . ظهر سجينان بعد قليل يحملان عجلا كبيرا مذبوحا تتساقط منه الدماء فألقيا به فوق طاولة خشبية وانصرفا . نهض الأسطى فاستبدل ملابسه بإحدى بدل السجن وشمر كميه، ثم تناول سكينا كبيرة وتقدم من الذبيحة بعد أن استدعانى وطلب منى أن أمسك بها .

خلّص اللحم من عظام السيقان وانتزع الكبد و الكلوتين والقلب ووضعهم جانبا ثم أضاف إليهم قطعا من الفخذين و الكتفين . و كوّن كوما ثانيا من اللحم الخالص . و سرعان ما تحول العجل إلى شبه هيكل عظمى فقطعه إلى أجزاء صغيرة إنتقى منها قطع الدهن و الجلد و ألقى بها فى دلو حمله عم فوزى وألقى به فى مرجل الرجلة .

وجه الأسطى اهتمامه بعد ذلك إلى الكوم الأول فانتقى أفضل أجزائه ووضعها فى كيس بلاستيك و عهد إلى أحد المساجين بأن يحملها إلى نوبتجى سيادةالمأمور . ثم ألقى بالباقى فى حلة متوسطة الحجم و طلب منى أنا و فوزى أن نقشر له كمية كبيرة من البصل . وسخرمناعندما إنهمرت دموعنا .

مسحت دموعى و مخاط أنفى فى كم سترتى وقلت له : أنا عمرى ما قشرت بصل .

لوى شفته المتهدلة فى احتقار : و عامل راجل ؟

انتهينا من تقشيرالبصل فطلب منا أن نغسله جيدا وإنصرف إلى توزيع كوم اللحم الثانى فى أكياس بلاستيكية مختلفة الأحجام . ألقينا البصل فى أحد الأحواض ودعكناه جيدا تحت الماء . ثم تعاونا أنا وفوزى فى تقطيعه إلى أجزاء دقيقة وأضفناإليه حفنة من الملح وأخرى من الفلفل الأسود وثالثة من البهار . ثم أسقطناالخليط فى حلة الكبد وقلب الأسطى المحتويات بمغرفة كبيرة ثم وضع الحلة فوق شعلة صغيرة .

قلت له : بقى الحلة دى حتكفى المساجين ؟

أجابنى هازئا: إنت فاكرها عشانكو ؟

تناول أحد الأكياس وأعطاها لحارس الفرن الذى حمل إليه كوما من أرغفة الخبزالطازجة المعتنى بها والتى تختلف تماما عن كتل العجين التى توزع علينا

تحت هذا الإسم . وبعد قليل جاء حارس المستشفى وأخرج من جيوبه كوما من البيض المسلوق أعطاه للأسطى الذى أعطاه كيسا من اللحم مقابله . وتلاه أمين المخازن الذى أحضر كيسا من العجوة وآخر من الحلاوة الطحينية . وكان حارس المطبخ يتابع من مقعده بإهتمام هذه العمليات .

تتابع مجيئ حراس السجن المختلفين ،وكان حراس العنابرو العاملون فى المكاتب يقدمون للأسطى السجائر بينما كان البعض لا يقدم شيئا مثل حراس المغسلة و ورشتى النجارة و السجاد . و لم يكن من الصعب على أن أتصور الخدمات التى سيقدمونها لأسطى المطبخ و حارسه مقابل ما يأخذونه من لحم. واكتشفت أنه جنب أيضا قدرا من الفول نظفه بعناية ثم وضعه فى قدرة تدميس كبيرة أقامها فوق شعلة خافتة .

أذن المؤذن لصلاة العصرفمضى الأسطى إلى المسجد و عند عودته عكف على إلتقاط قطع اللحم والعظم من حساء الرجلة ووضعها جانبا . أزلت آثار الدماء من فوق الطاولة والأرض ثم مسحتهما جيدا . وإنضم إلى عم فوزى ووقفنا إلى جوار الأسطى وعيوننا على كوم اللحم المسلوق . ناداه الحارس فمضى إلى باب المطبخ واشتبك معه فى الحديث هو وحارس آخر، ثم طلب من عم فوزى أن يناوله أحد الأكياس . وبقيت بمفردى إلى جواركوم اللحم .

تلفت حولى فى حذر . كان المساجين الأربعة منهمكين فى تعبئة الدلاء بالحساء ،مددت يدى فى خفة والتقطت أقرب قطعةإلى و دسستها فى صدرى وحركتها حتى إستقرت فوق دكة السروال .

عاد الأسطى ليستأنف تقسيم اللحم إلى أكوام متباينة الحجم . وأعطى لكل مناقطعة فى رغيف خبز رششنا فوقهاالملح والفلفل . تذكرت أمى عندما تطهى دجاجة وتخصنى وحدى دوناعن أختىّ بالكبدة والقلب و بقية الأحشاء بعد أن ترشها بالملح و الفلفل .

أتيت على الرغيف بسرعة . كانت أول مرة أذوق فيها اللحم منذ يوم المحكمة .وكنت ما أزال جائعا . وإنتظرت أن يعطينا الأسطى شيئا لكنه لم يفعل . لم يفارق طاولة اللحم و لهذا لم أتمكن من اختلاس قطعة ثانية ولا من التهام القطعة التي خبأتها في ملابسي .

عدنا إلى العنبر قبل موعد التمام بقليل . كنت جوعانا لكن نفسي عافت حساء الرجلة . ولم أتمكن من التهام قطعة اللحم . فلو أبرزتها سيدركون كيف حصلت عليها ولا يستبعد أن يبلغ بطشة عنى . و قررت أن أنتظر حتى ينام الجميع لآكلها .

لاحظت أن بطشة في حالة إنسجام . وكان يرميني بنظرات غامضة بين الحين و الآخر . وروى لنا وهويستنشق مسحوقه الأبيض نكتة فحواها ان اثنين من إياهم رغبا في الشفاء فذهبا إلى الطبيب . وبعد شهر التقيا فوجد أحدهما الآخر يقلّم عودا من القصب ويقشره ثم يقطعه قطعا صغيرة متساوية في حجم الأصبع .

خبط صنقر على فخذيه منفجرا في الضحك واستعد الآخرون لأن يحذوا حذوه لكن بطشة

صرخ في معاونه :

– لسه يابن القحبة . النكتة مخلصتش .

كف صنقر عن الضحك وانتظر .

دعك أعلى صدره باصبعه الوسطي من اليمين إلى اليسار في بطء مستخرجا فتلة سوداء طويلة تأملها بامعان قبل أن يلقى بها جانبا ويستأنف الحكاية : لقاه بيقشر القصب و يعمله عيدان صغيرة فزعق فيه : الله، مش

قلنا حنبطل؟ رد عليه التانى : أصل أنا ما استريحتش على علاج الدكتور وعاوز أجرب العلاج بالأعشاب .

ارتجت الزنزانة من الضحك وتطلع إلينا بطشة فى زهو .

تتابعت النكات و شارك الجميع ماعداى . كنت عاجزا عن التركيز من الجوع أفكر فى قطعة اللحم و أنتظر الفرصة لالتهامها . وروى سوزوكى نكتة عن أبناء المنوفية أدركت أنها موجهة ضد بطشة الذى ولد و نشأ فى شبين الكوم : واحد منوفى دراعه مقطوع أبوه مات . الناس جم يعزوه . تفتكروا أخد العزا إزاى ؟

تطلعنا إليه متسائلين فقال وهو يرمق بطشة بركن عينه : خده على قفاه.

كانت نكتته التالية ضد سامبو : واحد أسود غطيس عنده عشر أولاد سود و فجأة مراته خلفت واحد أبيض . قعد مستغرب . و كان متأكد أنها متعرفش حد . استشار واحد صاحبه . صاحبه سأله إزاى بينام معاها . قاله زى الناس . قاله : يعنى بقك على بقها ؟ قاله أيوه . فضل يسأله عن كل حتة فى جسمه . الراجل زهق وزعق فيه : أنا مش عارف إنت عاوز توصل لأيه؟ التانى قاله عاوز أعرف الحتة اللى خدت منها نور .

شاركنا سامبو الضحك وقال مجاهد الذى لقبناه بضاعت القيم :

– لو خرجت من هنا حأزور باسبور وأطلع على بلد عربى .

كنا قد ألفنا تدخلاته المفاجئة التى لا تربطها علاقة ما بالحديث الجارى .

– معدش الوقت غير الأردن . العراق خلصت و الخليج ميبخدش وليبيا مش مضمونة . مرة واحدة يروحوا مرحلينك من غير متاخد فلوسك .

روى صلصة قصص المصريين فى العراق و فهلوتهم و تحايلهم على الرزق . فعندما يفشل الواحد منهم فى إيجاد عمل يقف أمام إدارة الجوازات والبصمة حاملا منشفة ودلو به مياه وصابون ليغسل أيدى الخارجين مقابل دينار للشخص . وأخيرا زهقت منهم الحكومة فصارت المخابرات تتصيدهم وتشحنهم إلى القاهرة فى توابيت .

التفت بلحة إلى مجاهد قائلا :

– متروح اسرائيل؟ فيه ناس راحت و بتشتغل هناك حلو . بيدوا الواحد حقه على داير المليم ..

قال ضاعت القيم : ياريت .

تدخل سوزوكي في الحديث : اسمعوا دى .. واحد عايز يتجوز واحدة خام متعرفش حاجة خالص . الناس دلوه على واحدة منقبة . اتجوزها . وفى أول ليلة مرضتش تخليه يقرب منها . يهديك يرضيك تقوله عيب وحرام . الليلة التانية نفس الحكاية . بعد أسبوع زهق . راح لشيخ الجامع وحكاله الحكاية . قاله طب هاتها الجامع وقت الصلاة فى الأودة اللى ورا . جابها . شيخ الجامع قال خطبة حولين إزاى المرة لازم تطيع جوزها و تسمع كلامه و متتأخرش عن طلباته وقال ان المجامعة لها مقام كبير جدا وثواب عظيم زى ميكون الواحد قتل يهودى . الإتنين رجعوا بيتهم . وبالليل الراجل قال لمراته ياالله نقتل واحد يهودى. وافقته . عجبتها الحكاية فقالتله بعد شوية متيجى نقتل واحد تانى . التانى جاب تالت لغاية ما الراجل فرهد . الولية دى كانت مكارة . بعد شوية قالتله : بقولك إيه ..متيجى نحرر القدس بالمرة .

ضحكت و أنا أتثاءب . ولم يلبث النعاس أن استولى على . إستيقظت خلال الليل لأتبول و رأيت بطشة يتبادل حديثا هامسا مع صنقر وسامبو .

استأنفت النوم بعد لحظات ثم انتبهت فجأة على تأوهات وحشرجات بالقرب مني . رأيت الشاب الفلسطيني الذى انضم لنا أخيرا ، واحتل مكان حسن بكيورت ، يحرك رأسه يمينا ويسارا و قد تجمع الزبد على شفتيه . هززته حتى استيقظ ونهض جالسا و هو يلهث .

زحفت إلى جردل الماء و ملأت له الكوب المعدنى فتناول منه رشفتين ثم استأنفنا النوم . و إستيقظت مرة أخرى لأرى مشهدا غريبا : بطشة واقفا فى منتصف الحجرة ، رافعا ذراعه إلى أعلي وقد أطبقت يده على المصباح الكهربائي. كنت أشبه بالمخدر ولم يجلب هذا المشهد أى معنى لمخي فإستأنفت النوم وإذا بى أستيقظ فجأة مفزوعا لأجد شخصا جاثما فوقي وملمس حاد فى عنقى بينما غرقت الغرفة فى ظلام حالك . جاءتنى رائحة فم عفنة و سمعت صوت بطشة يهمس فى أذنى : إذا فتحت بقك بكلمة حأدبحك .و ضغط بشيء حاد على عنقى شعرت أنه حافة مشرط . وإمتدت يده إلى ملابسى .

خطرلى أنه يسعى وراء قطعة اللحم التى خبأتها فى صدرى ففتحت فمى لأعرض استعدادى للتنازل عنها دون قتال لكنى فوجئت به يحاول نزع سروالي. تجمد عقلي من الرعب و تابعت محاولاته كأنى أتفرج على مشهد بعيد عني . و فجأة سطع النور مرة واحدة فطالعنى وجه بطشة القبيح فوقي و يده المستقرة على عنقي بنصف الموسى . إبتعدت يده فى تردد وإعتدل واقفا فرأيت سوزوكى واقفا أسفل المصباح الكهربائى يديره بيده المرفوعة إلى أعلى .تدفق سيل من السباب من فم بطشة وإندفع نحوه وهو يرفع المشرط فى الهواء لكنه تعثر فى أحد النائمين الذى هب صارخا لاعنا .

استيقظ آخرون وتصاعدت صيحات تطلب الهدوء . لم يعبأ بطشة وهجم من جديد على سوزوكى لكن بلحة وأخرين حالوا بينهما وأمسكوا بطشة

بقوة . ولم يلبث هذا أن أذعن وجلس فوق فرشة بلحة والشتائم والتهديدات تتدفق من فمه .

تقدم سوزوكي من فرشتي و سألني :

- الكلب دا عورك و الا حاجة ؟

تحسست عنقي بأصابعي و قلت : ملحقش .

قال : الحمد لله أني شفته بيفك اللمبة فقلت ناوى على شر .

قلت : إنت أنقذت حياتى و شرفي كمان . الصبح حبلغ الإدارة .

قال : إوعى . دى حاجات متتقالش . مش حيحصل كويس . إسمع يا شرف . السجن ميحبش اللى يروح يشتكى . لا الإدارة ولا المساجين .

وافقته ووعدته بأن ألزم الصمت . وتجاهلنى بطشة تماما فى الصباح كما تجنب الحديث إلى سوزوكى .

انضم إلينا حجاج فى طابور النظافة ووجدته قد سمع بما حدث . سألني عن التفاصيل وقال لى أن لبطشة سوابق كثيرة من هذا النوع . سألته عما إذا كان من الأفضل أن أشتكى للإدارة فنصحنى بألا أفعل وأن أعتبر الموضوع منتهيا .

تصورت فعلا أن الموضوع انتهى عند هذا الحد لكنى فوجئت بعد يومين أثناء تنظيف الفناء الخارجي بأحد الحراس يندفع جريا إلى داخل العنبر. اقتربت من بابه فرأيت سيادة الضابط على بلبل واقفا فى الفناء وهو يصيح بصوته الجهورى متوعدا و منذرا كل من يخرق النظام . و سمعته يقول إنه لاتخفى عنه خافية و أنه قادر على الرؤية من كل أجزاء جسمه ، بما فى ذلك خرم ظهره .

عرفت ما حدث عندما ولجت الزنزانة قرب التمام : فتح بطشة رأس سوزوكي . وقال لي عم فوزى أن الشجار دب بين الإثنين قبل صلاة الظهر مباشرة .وأنه شاهد سوزوكي واقفا ممسكا بوجهه وبطشة يضربه بماسورة حديدية في بطنه و صدره ، فقلت له أنه يجب أن يذكر هذا للإدارة .

فتح علينا الحارس بعد ساعة وسأل إذا كان أحد منا قد شهد ماحدث . فقلت له : عم فوزى . طلب منه أن يتبعه فتردد . و عندئذ شجعته قائلا أن الواجب يدعوه للذهاب والإدلاء بشهادته .

أذعن عم فوزى و غادرالزنزانة خلف الحارس . و بعد ساعة أخرى ظهر حارس جديد أجرى التمام للعنبر فيما عدا زنزانتنا . سألناه عن الحارس الأول فقال أنه في التحقيق . و فوجئت به يعود بعد قليل ويسأل عني قائلا أني مطلوب عند سيادة المأمور .

دسست قدماى في الكوتشى وتبعته إلى صالة العنبر. بدا لي منظره غريباوالأبواب مغلقة تتصاعد من خلفها الهمهمات . أغلق الحارس باب العنبر وخرجنا إلى الفناء الخارجي . كان الضوء يأتيه من المصابيح الكهربائية المعلقة فوق مداخل العنابر والمباني الإدارية وأبراج الحراسة . سرنا في صمت وسط هدوء شامل لا يقطعه غيرصوت احتكاك أقدامنا بالرمل . ولم يكن هناك مخلوق سوى ثلاثة حراس أمام مكتب سيادة المأموروصلت إلينا أصواتهم واضحة في هدأة الليل .اتجهنا إليه و صعدنا أربع درجات . كان الباب مفتوحا إلى نهايته لكن ساترا خشبيا أخفى من بالداخل .

وقفنا في مدخل الغرفة ومد الحارس ذراعه اليمنى و طرق مصراع الباب االذى استند إلى الحائط في رفق . و أتانا صوت حازم : أدخل .

أمسك الحارس بذراعي وولجنا الغرفة سويا . طالعتني صورة رئيس الجمهورية وأسفلها جلس خلف مكتب خشبي كبير ، رجل قصير أشيب يرتدى قميصا حريريا أسود اللون لعله من طراز "سلفيانو" ويمسك بغليون سميك فى يده اليمنى . و لم أتمكن من تحديد طراز الساعة التى كانت تنور بمعصمه . وفى زاوية المكتب جلس أحد المساجين الذين يعملون فى مكاتب الإدارة فى احترام أمام مجموعة من الأوراق و هو يمسك بقلم " رينولدز " جاف إستقر طرفه على ورقة بيضاء .

أدى الحارس التحية العسكرية وقال : النزيل أشرف سليمان يا باشا .

وجه إلى الباشا نظرة فاحصة ثم سألنى : إيه اللى حصل يا أشرف ؟

أجبت : مفيش يا سعادة الباشا . بطشة ضرب سوزوكى .

– إنت شفته بيضربه ؟

– لا يا أفندم . أنا كنت فى الشغل .

– أمال عرفت إزاى ؟

– المساجين قالوا .

– تعرف سوزوكى من إمتى ؟

– أنا تعرفت عليه هنا فى الزنزانة .

– تفتكر ضربه ليه ؟

– معرفش .

أضفت بعد لحظة : بطشة أخلاقه وحشة و دايما يتخانق .

– هو سوزوكى كان بيبيع برشام ؟

– معرفش يا باشا .

سكت لحظة ثم سألني بطريقة مفاجئة :

- إنت بتنام جنب سوزوكى ؟

- لا ياباشا . بعيد عنه .

تدخل الحارس و شرح لسيادة المأمور ترتيب النمر فى الزنزانة .

استأنف سؤالى :

-ألم يتحرش بك المسجون بطشة ؟

ترددت ثم قلت : حصل . و رويت له محاولة الإعتداء على .

تصفح المأمور بضع أوراق أمامه ثم أخذ يملى الكاتب السجين : وبسؤال المسجون تحت التحقيق أشرف عبد العزيزسليمان سن واحد وعشرين سنة وتهمته القتل قررأنه لم يشهد الواقعة وأنه تعرف على المسجونين فى الزنزانة ولا يعرف سبب العدوان و علله بأن المسجون سالم عويضة و شهرته بطشة سئ الأخلاق و دائم الإحتكاك بالمساجين .

أشار إلينا المأمور بالانصراف فسحبنى الحارس من ذراعى إلى الخارج وعدنا إلى العنبر. ألفيت عم فوزى قد سبقنى وتجمع حوله المساجين وهو يحكى لهم ما جرى فى التحقيق .فهمت أن بطشة ادعى أن سوزوكى استفزه وحاول الإعتداء عليه بمشرط حلاقة وماسورة . ثم اعترف تحت الضرب بأنه هو البادئ بالعدوان و أنه أحضر ماسورة كان قد وضعهامنذ أسبوع تحت بلاطة مكسورة فى الصالة و ضرب بها سوزوكى .

سألته عنه فقال أنه رآه وضمادة تحيط برأسه لكنه يعتقد أن إصابته ليست خطيرة .

- طب ليه مجاش معاك ؟

قال أنهم أخذوه إلى المستشفى .

- وبطشة ؟

- في التأديب .

ظلت نمرتا سوزوكى وبطشة خاليتين وإن كنت لحظت أن الأعين تستقر عليهما بين الحين والآخر . كنا جميعا نفكر فيما سيطرأ من تغيير على ترتيب النمر فى حالة عدم عودة الإثنين .

روى ذوو الخبرة الأحداث المماثلة التي شهدوها أوكانوا طرفا فيها . وقلت لصبرى :

- أنا مش فاهم إيه اللى بين الإتنين . زى ميكون طار بايت .

هز رأسه بهيئة العليم و همس : التجارة .

تطلعت إليه متسائلا : تجارة إيه ؟

قال وهو يرمق صنقر بركن عينه : البرشام .

انتقل الحديث إلى سيادة المأمور . وذكر صبرى أنه تعرف في الفسحة على سجين يعمل في حديقة منزله الواقع فى أرض السجن .وأن هناك مساجين آخرين يعملون في حظيرة مواشى يملكها بها خرفان و بط و دجاج . وأن المفروض أن يتقاضى الواحد منهم ثلاثة جنيهات من المأمور نفسه طبقا للوائح لكنهم لايحصلون على شئ . وقال إن زوجة سيادة المأمور حسب كلام السجين ، فتاة صغيرة ترتدى البنطلونات المحزقة وتقضى الوقت كله فى تسريح شعرها ولا يوجد لديها أطفال وتعامل المساجين بقسوة .

أضاف : الظاهر إنها مراته التانية و بيموت فيها

حكى بلحة قصة زوجة ضابط كبير كانت زوجته تتصيد المجندين الذين أخذهم للعمل عنده في المنزل . كانت تنادى الواحد منهم وهى فى قميص النوم وتطلب منه إصلاح حنفية الحمام و تقف خلفه وهو منحنى فوق الحنفية فيحتك جسمه به عندما يتحرك ثم توجه إليه حديثا موحيا فتسأله مثلا إذا كان لا بد من إستبدال الماسورة بواحدة جديدة وكيف يمكن إدخالها فى الحوض إلخ . وحكى آخر قصة ضابط وجد زوجته فى حضن جندى مراسلة فقتلهما .

عندما هجعنا أخذت معي زوجة المأمور وتصورتني أمسح لها بلاط مسكنها وهى تروح و تجيئ أمامى ببنطلون محزق و بلوزة تكشف عن صدرها . ثم أبدلت لها ملابسها و جعلتها فى قميص النوم وخارجة فجأة من مخدعها فتتعثر فى طرف السجادة و تقع على الأرض وأهب لنجدتها فأرفعها بين ساعدى أدخل بها غرفتها وأمددها على الفراش وأدلك لها كاحلها الذى التوى ثم أزيح الرداء عن ساقيها وأتحسسهما حتى فخذيها .

تذكرت سالى وكيف تعرفت بها عن طريق شلة المعادى إذ كانت تقف معهم وكيف كنا ندبر لها كل ليلة مكانا تبيت فيه لأنها هربت من منزل أهلها وليس معها بطاقة أو نقود أو حتى حقيبة ملابس وكيف نامت مرة فى بلكونة عمرو حتى الصباح و مرة أخرى فى سيارة هشام وذهبنا مرة إلى منزل عجيب عبارة عن فيلا فاخرة من طابقين يعيش فيها شقيقان ، كل منهما فى طابق لأن الأب والأم يعملان فى الخليج . كانت البنت مرهقة فتمددت على كنبة وراحت فى النوم لكن الأخوين رفضا فكرة بياتها عندهما .فأخذناها إلى شقة أخرى أشتراها والد عمرو له وكانت على البلاط فإقترضنامن الأخوين بطاطين و مخدات وانطلقنا بالسيارة . وفى الطريق قرر عمرو وهشام الإنصراف فبقيت مع الفتاة . فرشت البطاطين على الأرض فاستلقت فورا و راحت فى

النوم . و احترت فيما أفعل فنمت إلى جوارها والتصقت بها فلم تستيقظ . كان الحر شديدا ففككت أزرار بلوزتها و مددت يدى وتحسست ثدييها فلم تتحرك. أيقظتها قائلا أن هناك فئران فقالت : مش مهم أنا متعودة عليهم ورجعت نامت . وظللنا هكذا حتى الصباح .

يبدو أنى رحت فى النوم وسط ذكرياتى إذ وجدت سالى تحتضننى ثم ألفيتنى أحدق فى وجه هدى و يدى تتحسس صدرها العارى وتهبط على بطنها وفوجئت بأن جسدها ينتهى عند السرة وأنها بلا حوض وساقين وان شخصا ما يصرخ فى رعب من المنظر . استيقظت على صوت حشرجة مرعبة قريبة منى . و رأيت عم جابر منحنيا على الفلسطينى يهزه بعنف ليفيق.

أفاق الفلسطينى وساعده عم جابر على الجلوس وناوله سامبو كوز مياه . وجلس عم جابر قبالته وأخذ رأسه فى صدره وجعل يربت عليها وهو يقرأ سورة «يس» . وبعد قليل لحظت أن حالة من الاسترخاء استولت على الفلسطينى وعاوده النعاس فمددناه فوق نمرته .

لم نخرج إلى الخدمة فى الغد وظلت زنزانتنا مغلقة إلى قبل الظهر ونحن ندق الباب وننادى على الحارس كى نذهب إلى دورة المياه . وكان وجها جديدا لم نره من قبل، يدعى صبحى ، له بشرة صفراء وصوت مبحوح . وسمعناه يمر فى الطرقة وينادى أمام كل زنزانة : اسحب الفجل . كان يمط الكلمات كما يفعل الباعة عندما ينادون على بضائعهم . ثم ظهرت فى فتحة شراعتنا بضع عيدان من الفجل إصفرت أوراقها و كرر ندائه : اسحب الفجل ، فسحبناها من يده .

كرر عم جابر رقى الفلسطينى . وكان هذا فى سنى تقريبا ومتدينا للغاية حريصا على أداء الصلوات الخمس خلف جابر. سألته عما إذا كان تعرض

لكابوس بالليل فرمقني في حذر ولم يجب . وبعد قليل نجح جابر في إقناعه بأن يحكي لنا قصته .

قال إن مباحث أمن الدولة اعتقلته و خيرته بين سحب جوازسفره وبين التجسس على الجماعات الإسلامية التي كان يعرف بعض أفرادها . وعندما رفض التجسس ألقوا به في السجن . وبعد أربعين يوما اقتادوه إلى مكتب المأمور حيث أجروا له محاكمة سريعة وفوجئ بالحكم يصدر باعدامه شنقا . نقلوه إلى زنزانة انفرادية ضيقة امتلأت بالمواسير والخوابير الحديدية بحيث يضطر للجلوس و الرقاد فوقها . و في الصباح دخلوا عليه وألبسوه طاقية حتى الرقبة غطت عينيه وقيدوا يديه إلى الخلف ثم أخذوه إلى غرفة وأوقفوه فوق مستوى مرتفع عن الأرض ووضعوا أنشوطة في عنقه . وفي هذه اللحظة جاء من يستدعي الضابط فأمر بتأجيل الشنق إلى أن يعود بعد دقائق .

أبدى بلحة استنكاره : هو الشنق لعبة ؟ مقالش إيه السبب ؟

- قال ان عنده محضر مفتوح . ووقفت أستنى متغمي وأنا بترعش . بعد شوية لقيتهم بيفكوا الرباط و قالوا لي أن الضابط استدعى إلى منطقة أخرى و لا يمكن إتمام الإعدام في غير وجوده . كل ده محدش مد إيده على ولا حتى قلم . بعد الظهرإدوني سجاير وقعدوا المخبرين يتكلموا معايا بكل ود . وبعدين قالوا أن الضابط مش راجع والتنفيذ اتأجل لبكره ، وودوني الزنزانة .

تكرر هذا السيناريو خمس مرات : في الصباح ينادون عليه ويغطون رأسه حتى الرقبة و يقيدون يديه إلى الخلف ثم يأخذونه إلى غرفة الإعدام حيث يعتلي درجة خشبية و يضعون أنشوطة حول عنقه و بعد فترة يحدث ما يعطل التنفيذ إذ يتم استدعاء الضابط لأمر ما فينزعون غطاء رأسه وقيوده

وينتظرون عودة الضابط ثم يتأجل التنفيذ إلى اليوم التالي وهكذا . وفي آخر يوم وضعوه في سيارة وقالوا سننقلك إلى سجن آخر و سمع أحدهم يقول أنهم سيغيرون طريقة الإعدام وتصور أنهم سيطلقونه في الصحراء ثم يقتلونه لكنه وجد نفسه معنا .

أجهش بالبكاء فربت جابر على ظهره . ولحظت أن بلحة وصنقر وصلصة يتطلعون إليه في شئ من العداء . اعتقدت أنهم لم يصدقوا قصته. أما أنا فكنت أميل إلى تصديقهابعد ما حدث لي مع المباحث .

ارتفعت درجة الحرارة حتى صار العرق يتصبب من وجوهنا . ورش البعض المياه فوق نمرهم لتبزيدها . وفتحوا لنا أخيرا عند الظهر لنذهب إلى المراحيض . لم نلبث أن علمنا بنتائج التحقيق : أسفر عن مجازاة رقيب الدور بالحجز في الثكنة ثلاثة أيام لعدم قيامه بواجبه في الحيلولة دون وقوع الإعتداء وجوزي الضابط على بلبل بالإنذار لعدم قيامه بتفتيش عنبرنا بنفسه وبدقة الأمر الذي ترتب عليه وجود ممنوعات مثل المشرط ومفصلة الباب .و نال سوزوكي عشرة أيام في الحجزالانفرادي . أما بطشة فقد جوزي بثماني عشرة جلدة والحبس الانفرادي في التأديب لمدة أسبوعين والحرمان من الزيارة والفسح لمدة شهر .

(٧)

الخطوات القليلة المؤدية إلى عنبر الملكية التى قطعها أشرف برفقة حارسه، حاملا متاعه المؤلف من كيس و نمرة ، كانت مصحوبة بموسيقى من النوع الذى رافق جنرالات اسرائيل وهم يجتاحون الأراضى العربية أو الدكتور ثابت محفوظ عندما انتقل إلى قصره المشيد على ترعة المنصورية . مع الموسيقى مشاعر مختلطة لا بد عرفها كل من صعد من القاع بطريقة مفاجئة ، خاصة وأن الانتقال لم يكن سلسا على الإطلاق ، إذ شابته السلبيات فى خطوط الإمداد .

فالطلب الذى قدمته الأم المتفانية وكان مصحوبا بعامود أكل ، تأجل النظر فيه بسبب قيام المأمور بمأمورية تستغرق عدة أيام ، وأعيدإليها عامود الأكل وقيل لها أن تأتى بعد أسبوع . وفى اليوم التالى عاد المأمورمن مأموريته بعد أن أنجزها بسرعة البرق لينضم إلى زوجته الصغيرة . وكان مازال تحت قوة الدفع التى أعادته فأنجز الأوراق المتراكمة . هكذا اقتيد أشرف إلى المكاتب فى الصباح حيث قرفص بجوار الحائط إلى أن إنتهت الإجراءات الدفترية . و انتظر ساعتين أخريين إلى أن جاء أمين المخزن بعد صلاة العصر، فخلع ملابس السجن وإستبدلها بالقميص والبنطلون المودعين فى أماناته . وهنا عبر الفناء إلى العنبر الملكى دون لقمة واحدة .

لم يكن ثمة شك فى أنه حقق تقدما مهما على الصعيد الاجتماعى . صحيح أنه لم يرتفع عن الطابق الأرضى ، وأن رائحة الزنزانةالجديدة لم تكن أقل عفونة من تلك التى تركها ورائه ، و أن مكانه تحدد إلى جوار دلو البول .

لكن الديكورات كانت مختلفة إبتداء من الجماهير التي راقبت الموكب والتي تبدت في ملابس متنوعة ليس بينها الزي الأبيض المعهود ،إلى الزنزانة نفسها التي تدلت الحبال على جدرانها محملة بالسلال والأكياس وحل فيها برميل كبير من البلاستيك محل دلو الماء ، وسخان كهربائي صغيرمن الفخارمحل الخرق المبللة بالزيت .كما كانت هناك صناديق من الكرتون إلى جوارالحائط إستقرت فوقها علب النيدو وعدة ترامس وزجاجات كولا في أحجام سوبـــر وزجاجات مياه و صحف ومجلات وكتب . ذلك بالإضافة إلى نوبتجي في جلابية يدعى تَوَكّل، أربعيني صغير الحجم عصبي الحركات ذي ندبة عميقة في جانب وجهه ، وجفون منتفخة وأنف متورمة في رأس ملفوفة بشال أبيض حال لونه ، لوّح بمبسم سيجارة تزينه حلقة معدنية ، لتدل على أنه مستورد (من خارج السجن) ، معينا له مكانه إلى جوار دلو البول المعهود .

ولج الزنزانة شاب أسمر طويل القامة شديد النحافة ، يعلو رأسه شعر كثيف مجعدّ ، ويهز في يده حزمة من الجرجير لينفض عنها المياه ، خاطبه النوبتجي باسم ماكس ، وبدا وجهه مألوفا رغم هزاله الغريب . ومالبث أن تعرف فيه على عدّاء شهير احتكربطولة الجمهورية و عناوين الصحف عدة سنوات حتى آخر بطولة وخبر: قام بتقليد مفتاح الشقة الخاص بأحد أصدقائه وسرق جهاز فيديو.

بسط شرف نمرته إلى جوار الدلو في استسلام . فهل يتركه النوبتجي في سلام ؟ كلا و ألف كلا .

خاطبه متفكها :

– مش إنت الواد اللي سخمطه بطشة ؟

أوشك الواد أن يومئ برأسه مومنا ثم تذكر أن بطشة لم ينجز مهمته وألقى نفسه مرة أخرى في منزلة بين المنزلتين .

واصل النويتجي : القروانة هنا بعلبة سجاير .

أعرب المسكين عن دهشته : مش السجن بيصرف لكل واحد قروانته؟

حسم النويتجي الجدل : هو ده اللي ماشي هنا . و أنا مبخدش لنفسي حاجة . شاويش العنبر هو اللي بيأجر القروان والبطاطين الزيادة .

تتابع وصول النزلاء ، بعضهم قادم من فسحة بعد الظهرو البعض الآخر كان يقف في الخارج أو في زنزانة بالطابق الأعلى . والقليل منهم سبق أن لمحهم أثناء قيامه بتنظيف العنبر .وبرز بينهم النزيل الجديد / القديم محاطا ببقية النزلاء يوزع عليهم السجاير و مازال في ملابس الحرية الكاملة . وكان قصير القامة نحيفها يرتدى عوينات طبية . ولم يلبث حامل المفتاح أن حضروحصل من الإثنين على ضريبة الإيواء .

أحضر الخدم دلاء العشاء وإفطاراليوم التالى وتركوها وسط الطابق، بجوارمكتب الحارس ، و أمام باب دورة المياه . فرغم أن عنبرالملكية يحصل على طعامه من خارج السجن فان اللوائح تنص على تقديم الطعام إلى سكانه ليتولوا بأنفسهم إلقائه في دلاء البول ، ولتسهيل هذه المهمة وضعت الدلاء على مسافة خطوتين من المراحيض الرئيسية .

وسواء كان النويتجي عليما بخلفية شرف بحكم منصبه ، أو كان الأمرراجعا لنظرته الثاقبة بحكم المنصب أيضا ، فإنه أدرك على الفور أنه أمام حديث نعمة لا يرتقي إلى مرتبة الملكيين الأصلاء ، وبدافع من إحساسه بالمسئولية عن رعاياه قال له :

روح هاتلك تعيين .

حمل شرف قروانته ومضى إلى البوفيه المفتوح . ملأ القروانة بالميك وأشار له الحارس أن يأخذ قطعتين من الجبن القريش وثلاثة أرغفة . عاد إلى

الزنزانة فاستقر فوق نمرته المطوية والقروانة بين ساقيه بعد أن غطاها برغيف ليحميها من الذباب ، وضع فوقه قطعتى الجبن وغطاهما بالرغيفين الآخرين ليؤجل الكشف عن حقيقته الإجتماعية إلى آخر لحظة .

أجرى حارس الدورالتمام و أغلق الباب فأخلى الساحة للنويتجى كي يؤكد حقوقه على الشبكة الكهربائية . فآخر دفعة من الشيوعيين - الذين تتيح لهم أفكارهم استشراف المستقبل - زودت المراحيض ، على نفقتها ، بسخانات كهربائية للمياه ، أتيح استخدامها لجميع المساجين دون مقابل . وعندما أفرج عن أفراد الدفعة تركوها كما هى ، لا عن أريحية وإنما لأنهم كانوا واثقين من عودتهم . وظلت السخانات فى أماكنها إلى أن سمع توكل بإنهيار الأيديولوجيات فأتلفها واحتكر تسخين المياه لمن يريد الاستحمام ، مقابل سجائر بالطبع . ولم يعدم مصادر أخرى للجباية .

فك لفافة رأسه كاشفا عن صلعة جرداء ، و اتجه إلى فرشته فى الركن العميق (فى مواجهة شرف) ثم صفق بيديه موجها الحديث لأهم الضيفين :

- سالمة يا سلامة . رحنا و جينا بالسلامة .

كان المعنى قد استقر إلى جوارشرف مباشرة و بسط نمرته فى حركات متئدة رزينة ثم طوى بطانيتيه بعناية شديدة بحيث تطابقت حوافهما . ضحك برزانة و هو يرتب حاجياته ويستخرج منها المطلوب : ثلاث علب " كنت " قدمها إلى الزعيم . و تطلعت إليه الأنظار ، مارة فوق شرف و تحته ، شاملة النمرة وكيس حاجياته المتواضع والقروانة المنقبة .

هتف به توكل : بقوا كام دلوقت يا ابو السباع ؟

رفع أبو السباع رأسه و قال فى وقار : تلاتة و خمسين فى وش العدو .

صفق البعض مهللين . و هتف نزيل يحتل النمرة المواجهة للباب مباشرة ،

وهو رجل خمسيني ، لا تكف أطرافه عن الحركة ، أبيض شعر الرأس ، يضع نظارة طبية مذهبة الإطار ، تطل من ورائها عينان تشوبهما حمرة ويتجمع العماص في ركنيهما : يا كريم ابعت .

رد عليه أبو السباع معاتبا : لايا عزت بيه . كفاية كده .

سأله شرف في حيرة : تلاتة و خمسين إيه ؟

التفت إليه أبو السباع و تأمله من فوق عويناته ثم أجاب وهو يستأنف ترتيب محتويات كيسه : حتكون إيه يعني ؟ قضية .

– في إيه ؟

تبرع بالإجابة جار أبو السباع الذي سمع السؤال و هو خمسيني أيضا، مائل إلى السمرة ، حريص على تصفيف شعر رأسه الخفيف ، يرتدي شورتا كاكيا، كثير الشرود و التمتمة لنفسه .

قال و هو يمر بيده فوق ما تبقى من شعر فوق رأسه و يبتسم : أبو السباع أكبر مزوّر في البلد .

أحنى أبو السباع رأسه في تواضع مصطنع :

– أشكرك يا دكتور . أنا مجرد بأدي خدمة قومية . البلد دي مش مأخرها غير البيروقراطية .

عقب الدكتور : الواحد فينا يا دويك عنده قضية واحدة عمال يتخبط فيها ، بتاعت إيه القضية الجديدة ؟

قال أبو السباع في زهو وهو يسوي طرف نمرته الذي لا يحتاج إلى تسوية: دفاتر توفير البريد .

أذن للصلاة صوت جهوري صادرمن طابق المتحين فنهض الشيخ فتحي الذي احتل الركن الثاني . كان شابا بلحية مهيبة تصل إلى منتصف صدره ،

يرتـدى جلبـابا حريـريا سـمني اللون تزينه زخرفة ذهبية حول فتحة الصدر .
تقدم من برميل الماء فى وقار وتوضأ على مهل وهو يردد : الله أكبر . الله أكبر . حى على الصلاة . حى ع الفلاح ، ثم اتخذ موقعه نحو القبلة واضعا يديه على الجانب الأيسر من بطنه . واصطف خلفه الملاكين : الذى إلى يمينه (وهو شاب بدين تكاد عيناه الضيقتان تختفيان وسط بشرة وجهه المدهنة ، يدعى رمضان) ، و الذى إلى يساره (وهو رجل متقدم فى السن، ضخم الجثة ، مهيب الهيئة ، تكشف فانلته عن ثديين كبيرين بينهما كتلة من الشعر الأسود يمتد حتى يغطى كتفيه وذراعيه ، له وجه ذئب ، خاطبه الشيخ بسعادة السفير)، بالإضافة إلى عزت بيه .

قال توكل لأبو السباع مداعبا : هو إنت بطلت صلا والا إيه ؟

رد ضاحكا : أصله منفعش .

واحد آخر لم يقلع عن الصلاة و إنما شاء أن يحتفظ باستقلاليته . كان جرما بلحية خفيفة ، يضع نظارة مقعرة العدستين فتبدو عيناه واسعتين غامضتين ، يلى الدكتور فى ترتيب النمر .

لم يكن قد تحدث مع أحد أو قام بأى حركة منذ دخل الزنزانة ، إنما تربع فى ركنه ودفن رأسه بين دفتى مصحف كبير الحجم . انتظر حتى بدأ الآخرون الصلاة فقام إلى جردل المياه وتوضأ ثم عاد إلى فرشته ووقف فوقها متجها إلى القبلة ، متوليا إمامة نفسه.

انتهت الصلاة فبدأوا يحتشدون للأكل . لم يكن ماكس قد بسط نمرته ، على عكس جاريه، فتكون مربع خالى من الأسفلت العارى بين النمر الثلاث صف فيه طبق سلاطة وسلطانية ملوخية وطبق أرز وآخر بيضاوى كبير الحجم من

البطاطس والدجاج. ونبات غريب أخضر اللون يشبه الأرنبيط على شكل كرات صغيرة . أضاف جارماكس طبقا ورقيا من أرغفة الكايزر. وكان شابا طويل القامة ، أبيض البشرة ، في الثلاثين أو يزيد ، يرتدى شورتا أبيض كشف عن ساقين ممتلئتين يغطيهما شعر قصيرملفوف ، وجورب أبيض وكوتشي . بعد نظرة واحدة لمحتويات الطبق البيضاوى أعرب النوبتجي عن رضائه :

- الله ينور عليك يا مستر تامر . اسمه إيه ده ؟

قال مستر تامر برقة أبناء الذوات : بروكلى بالمايونيز والفراخ .

هتف توكل : يا عيني . وإستدار متربعا على حافة نمرته وفعل مستر تامر المثل فتواجها عبر البروكلى . مد توكل يده إلى إناء زجاجى كبير وضعه بجوار رأسه فاستخرج منه بضع حبات من الفلفل المخلل أضافها إلى المائدة وأعطى الإشارة : بسم الله . اتفضلوا يا جماعة .

كان الشيخ فتحى قد كون مجموعة طعام من الملاكين اللذين صليا خلفه . واحتفظ الملتحى ذو النضارة المقعرة بموقفه المستقل فأكل بمفرده من محتويات عامود معدنى ، من طراز قديم للغاية ، يحمل ثلاث أوان صغيرة . وتكونت مجموعة من عزت بيه و جاريه من ناحية اليسار ، (أحدهما قصير القامة أبيض شعر الرأس ، والثانى فى مقتبل الشباب ، ذو بشرة سمراء داكنة ، تبدو عليه السماحة ، مذكرة باسمه : سامح) .

قرّب شرف قروانة اليمك متحاشيا النظر إلى محتوياتها . وطوى أبو السباع فرشته إلى الخلف ليخلى مكانا للمائدة و صف لفافاته المغلفة ب"الفويل" فوقها . تصاعدت رائحة الطعام الساخن عندما شرع فى نزع الورق المفضض كاشفا عن صينية مكرونة بالفرن احمر سطحها والتمع . و كشفت اللفافة الثانية عن صينية مسقعة و الثالثة عن بطة ضخمة محمرة .

مد أبو السباع يده فتناول قروانة اليمك من أمام شرف وصبها في جردل البول ثم جذبه من ذراعه ليستدير بحيث يشغل أحد أضلاع مربع المائدة مواجها الدكتور على الضلع المقابل،وهويقول :

- الخير كتير زي ما انت شايف . مش حنقدر ناكل كل ده . ولو سبناه لبكرة يحمض .

ولهذا خاطب الجميع قائلا : اتفضلوا معانا . لم تكن عزومة مراكبية إذ مد يده و أمسك بالبطة و فصل أحد أوراكها ورفع يدَهُ بالورك إلى أعلى، مشهدا الكافة ، ثم انحنى ووضعه أمام النويتجي الذي أبدى تمنعا مصطنعا .

فصل أبو السباع الورك الثاني في اللحظة المناسبة . إذ جاء حارس الليل على الرائحة .

أقبل شرف على الطعام بشهية بالغة لأنه لم يذق شيئا منذ الصباح . وربما كان هذا هوالسبب فيما وقع من تطورات تحتمل تفسيرات أخرى : التلوث (ويمكن إستبعاذه طالما أن أحدا غيره لم يشتك) ، الحساسية المرهفة (بعد شهرين و نصف من تناول السوس والحجر الجيري بصورة مستمرة) ، ضياع القيم (ذلك الداء المستشري) ، التعبير عن الرأى (بالالتفاف حول قوانين الطوارئ) . المهم أن امعاءه تحركت فجأة في مغص حاد ولم يتمكن من المقاومة فأسرع إلى دلو البول و فك سرواله وأنزله ثم أنزل الكيلوت وإستدار مواجها الآكلين (بالرغم منه لا عن تعمد) ثم إستقر فوق فتحته . ومن موقعه الجديد المرتفع أمكنه أن يطل بصورة أفضل على الموائد المنصوبة ويعقد المقارنات الضرورية .

تنوعت ردود الفعل لسلوكه من زمجرة صادرة من سعادة السفير (الذى كان يأكل من صندوق تيك أواى ضخم إنفرد به تماما رغم انضمامه الشكلى للكومونة) إلى نظرة غامضة من المعتزل (لعلها نظرة تشفى) إلى تكشيرة استنكار من مستر تامر (بحكم موقعه القريب) إلى إيماءة متفهمة من أبو السباع و ابتسامة تفكه من الزعيم . الوحيد الذى لم يلحظ ما حدث هو الدكتورالذى أفاق من شروده عندما رأى الكيس الأسود .

فعندما أراد أبو السباع وضع ما تبقى من البطة فى كيس بلاستيكى أسود اللون اعترض الدكتور : ماقلنا الشنط دى بتجيب بلاوى ..

إستفسر شرف عن الأمرمن عليائه فأوضح الدكتور :

- بيعملوها من الزبالة واكياس المبيدات الفاضية . الأكل يتلوث أول ما يلمس الكيس وخصوصا الأسود ده اللى بيحطوله فحم عشان يخبوا ريحته الزنخة.

اعترض جار عزت بيه قائلا بصوت أخنف : محنا بنسخن الأكل يا دكتور .

لم يهتز الدكتور : ولو . لا الحرارة ولا التبريد يموتوا الميكروبات .عشان كده الدول المتقدمة رجعت للإكياس الورق .

تدخل عزت بيه بدوى : يا دكتور رمزى ..سيبك من الكلام ده . إحنا بناكل منها من زمان و مجرلناش حاجة ..

رد الدكتور غاضبا من الجهل : إنت فاكر السرطان بييجى للواحد فى يوم ولا يومين ؟

أتيحت له فرصتان أخريان للتعبير: الأولى عندما لمح شرف يتطلع فى لوعة إلى " كوتشى " مستر تامر ، فقال له : عارف سعره كام ؟

كان شرف يحفظ كل الأسعار فوجدها فرصة لاستعراض معلوماته وصبر عليه الدكتور حتى انتهى فاستعرض معلوماته هو :

– فى أى حتة فى الدنيا مش حيقل عن ثمانين دولار . تعرف انتاجه بيتكلف كام ؟ ده بيتعمل فى مصنع فى أندونيسيا بيشغل نسوان بس . الواحدة منهم بتاخد على كل جوز ١٢ سنت . حوالى تمن دولار .

لم يفهم شرف المقصود : يعنى إيه ؟

تطلع إليه الدكتور برهة ثم قال : ولا حاجة .

حانت الفرصة الثانية للدكتور عندما قضم توكل خوخة كبيرة الحجم فتفتت نواتها بين أسنانه . صاح به : بس . إرميها .

تطلع إليه النوبتجى فى ذهول أوضح الدكتور : دى فيها مبيدات كتيرة.

مر توكل بلحظات صعبة كان ينقل فيها البصر من وجه الدكتور الغاضب إلى الخوخة الشهية المفشوخة بين أصابعه . و أخيرا حسم أمره ونظفها من بقايا النواة ثم إلتهمها مرة واحدة و هو يقول : قول يا باسط . خليها على الله .

جاءه الدعم على الفور من الصوت الجهورى الذى تلى الأذان : عنبر كله يسمع . بسم الله الرحمن الرحيم . الدنيا سجن المؤمن و جنة الكافر و الأرزاق على الله و حيث الفقر لا يأتى إلا لغياب الإيمان .أيها المسلمون ، نقدم إليكم نشرتنا لأخبار المساء .

لم يكن فيها جديد سوى القليل من الإضافات النوعية (دعوة للتبرع من أجل غرضين ساميين : مساندة المسلمين اليوغوسلاف و ترميم دورة المياه).

وبالمثل كانت الألعاب التى بدأت بمجرد انتهاء الأكلين من التهام طعامهم وشرف من التخلص منه . فبعد الشاى ، دار أبو السباع بعلبة سجائر "كنت" على الجميع ثم أخرج زجاجة دواء قدمها إلى توكل الذى قفز واقفا وهو يهتف :

– كودافين !

قال أبو السباع · بأربعة و تلاتين جنيه وحياتك .. من أجزاخانة فى عين شمس ..تصور ..سعرها الأصلى ميزيدش عن تلاتة جنيه.. إنما تلاقيها فين..

صاح توكل : دى ليلتنا فل .. ياالله ياماكس . دمّغنا ..

دب النشاط فى ماكس فاستخرج من أحد الأكياس المعلقة فوق رأسه علبة صغيرة من الصفيح فتحها و أخذ منها قرصين و هو يردد على وزن "الليلة الكبيرة": دمغنا ...دمغنا .

قال توكل فى عظمة : تفضل عندنا يا أبو السباع .

نهض أبو السباع وأخذ علبة سجائره و انتقل إلى نمرة توكل الذى أفسح له مكانا بجواره بحيث استند بظهره إلى الحائط .

تصاعدت ضجة من مجموعة عزت بيه التى كانت تلعب الورق . و صاح عزت بيه فى جاره القصير : هو كل حاجة عندك دوبل ؟ تاخد ورقتين ليه ؟

قال هذا بصوته الأخنف : مخدتش حاجة .

مد عزت بيه يده و بسط الأوراق التى أمام جاره و تناول منها واحدة : يا راجل يا ضلالى ،.إنت فاكرنا هنا زى الغلابة اللى ضحكت عليهم وبعتلهم شقق عمارتك مرتين ؟

قال صاحب العمارة وهويتطلع ببرودإلى الورقة التى فى يد عزت بيه : عمارتى وأنا حر فيها .

لم يواصل عزت بيه جدلا عقيما و وجه إهتمامه إلى الحديث الدائر بين رمضان وسعادة السفير حول قانونية التسجيلات التليفونية التى تقوم بها الشرطة . كان الأخيريقول : التسجيلات دايما ضعيفة لو كانت هى الدليل الوحيد .

علق رمضان بلهفة : يعنى المحكمة متخدش بيها ؟

تدخل الدكتورالذى كان قد شرع يلعب الشطرنج مع الشاب الهادئ سامح فوق رقعة صغيرة وبقطع دقيقة الحجم من البلاستيك صنعت فى الصين :

– لازم كل شريط يكون فيه رقم التليفون اللى بيسجل و التاريخ ..

أراد رمضان الإستزادة : متأكد ؟

قال الدكتور : أيوه . أنا كمان على تسجيلات . هم مسجلين لك حاجة؟..

أطرق رمضان برأسه ثم قال : أيوه . مقابلة مع مدير مدرسة عاوز تصريح تعلية .

سأله صاحب العمارة : طلبت منه كام ؟

أسرع رمضان ينفى : مطلبتش منه حاجة . الرسوم وبس .

– طب و إيه المشكلة ؟

أطرق الداهية الحريص بعينيه وقال : التسجيل اللى قدمته النيابة بيقول إنى طلبت منه حداشر ألف .

انتزع الرقم صاحب العمارة من طموحاته الكوتشينية وصاح : يا مفترى.. حداشر ألف عشان يعلى دور ؟

دافع المفترى عن نفسه : ده كان عاوز يطلع ست ادوار . و مدينة نصر ممنوع فيها أكثر من أربعة . .

وجه صاحب العمارة الحديث للبكوين اللذين على يمينه :

- يا سعادة البيه أنا مش فاهم المنع ليه ؟ قال وعندنا مشكلة إسكان ! طب سيبونا نبني و نعلّي . يا سعادة البيه البلد عاوزة مدارس . أنا موجّه في وزارة التربية وعارف بتكلم على إيه .

عارضه رمضان مثبتا إنه لايوجد منع : مدينة نصر كلها أدوارمخالفة . فيها أبراج خمستاشر دور . و أضاف مدافعا عن المظلومين : يعملوا إيه إذا كان سعر المتر بقى ثلاث آلاف جنيه . لازم يعوضوا فلوسهم ..

تذكر الشاب سامح الذى تابع الأرقام باهتمام شديد ، أنه قرأ في الصحف قصة مهندس بلدية رفض رشوة مقدارها ١٥ ألف جنيه تعادل مرتبه في خمس سنوات وهو ٢٥٠ جنيه بعد خدمة ٢٢سنة والأغرب من هذا أن سيارته من طراز سيات وموديل قديم و تحتاج عمرة .

بدت علامات عدم الفهم على الوجوه فخف الشاب لمحاولة الإيضاح : قال للجرايد إن أبوه رباه على القيم و إنه اشترك في حرب اكتوبر.

رمضان المعادى للرومانسيات كان له رأى آخر: لازم كان عاوز أكتر .

كان سعادة السفيرقد ابتلع حبتين من دواء الضغط وأشعل سيجارا وتمدد على فرشته واضعا ساقا فوق ساق ، مستندا برأسه إلى صندوق من زجاجات المياه " بركة " تعلوه صورة عالية ملونة ، ثم تناول صحيفة و أخذ يتصفحها . وإذا به يهتف : والله جدع ! و مضى يقرأ مقالا يندد بصحيفة

معارضة تنتقد إمتلاك عدد من الأثرياء للمرسيدس الشبح التى يصل ثمن الواحدة منها إلى ١،٣ مليون جنيه .

قرأ : " إن مثل هذا الانتقاد يؤدى إلى تغذية التناقض الطبقى فى المجتمع وإثارة الأحقاد بين القادرين و غير القادرين و يعيد مناخ عهد سابق من مصادرة الثروات و التأميم " .

توقف لحظة ليلتقط أنفاسه ثم واصل القراءة بتأن :

- اسمعوا دى .. "إن البحث و التنقيب عن كل صاحب ثورة يمثل تهديدا لمناخ الأمان الذى وفرته الدولة فى عهد مبارك لكل راغب فى الإستثمار" .

عقب الدكتور الذى لم يمنعه الانشغال بنقل الفيل الصغير عن الإستماع إلى تعليقات أخيه الكبير :

- طب اقرا الخبر اللى فى الصفحة اللى بعديها .. عن حجم التهرب من الضرايب ..ألفين مليون جنيه فى ست شهور منها ٤٢ مليون جنيه للسيارات الفاخرة بس .

أنزل السفير ساقه و اعتدل جالسا : و الضرائب لزمتها إيه ؟ يقولوا عاوزين إصلاح اقتصادى ويعملوا زى أوروبا وأمريكا لكن تبص تلاقيهم نازلين فينا ضرائب .

رد الدكتور : ما هى أوروبا وأمريكا فيها ضرايب برضه .. إنت فاكرها سايبة .

قال السفيرمنفعلا : مخربش البلد إلا الناس اللى بيتكلموا زيك .

صاح توكل : صلوا ع النبى يا جماعة .. النهارده عندنا عيد .

انصاع الإثنان فانصرف الدكتور إلى أفياله الصغيرة و السفير إلى صحيفته دون أن يستسلم لليأس . فقد هتف بعد لحظات : أسمع كلامك أصدقك . أشوف أمورك أتعجب .

استفسر رمضان : ليه .. فى إيه ؟

– يقولك إحنا بنشجع الإستثمار و يروحوا مطلعين قانون ضد الغش التجارى .

– طب و فيها إيه ؟

– ما هو لو طبقوه بصحيح كل الشركات حتقفل .

– إزاى ؟

– أهو بقولك .. مصانع اللبان و الشكولاته والحلويات و الألبان ، الآيس كريم و الشيبسى و الحلاوة الطحينية والسمن والزيوت وجمعيات المستثمرين والأطعمة المحفوظة و الثروة الحيوانية .. لو اطبق على كل دول مش حيستنوا لتانى يوم .

إشكالية معقدة لم يعبأ السفير بايضاحها لأن إهتمامه انتقل إلى موضوع آخر : خبر فى صفحة أنباء المجمع قرأه مستنكرا لا بدافع الاعتراض و إنما من باب الحسد :

. و كانت العروس تلبس تاجا مرصعا بالزمرد كما كان فستانها مرصعا باللؤلؤ و الجواهر . وحُملت على هودج مطلى بماء الذهب . و كانت التورتة تتحرك بالريموت كنترول . و يقول العارفون أن ضفاف النيل لم تشهد شيئا مماثلا من قبل إذ تكلف الفرح مليون جنيه ،وضم العشاء كل ما لذ و طاب بما فى ذلك الفواكه المستوردة من الخارج ، و أحيته فرقة حضرت خصيصا من البرازيل

قوامها ٢٥ راقصا و راقصة . و وزعت عشرات الألوف من الجنيهات كبقشيشات على خدم الفندق و سياس الجاراج والسائقين".

لم يثر النبأ دهشة كبيرة بين الغالبية وإن أثارالرغبة فى المعرفة : من هو؟ وتنوعت الإجابات و إن أجمع الكل على أنه ، أيا كنت شخصيته ، سبق ولهف . عندما وصلوا إلى هذا الاستنتاج رفع توكل زجاجة الكودافين إلى فمه ، معلنا عن فقرة جديدة فى السهرة بقوله :

- فى صحة أبو السباع .

قال أبو السباع بصوت مبحوح من تأثير الدواء : الحلو ميكملش .. لو واحدة بانجو كمان كنا عملنا دماغ هايلة .

ألقى عزت بيه بأوراق الكوتشينة جانبا و زحف إلى حافة فرشته . ناوله ماكس دلوا صغيرا من البلاستيك وضعه مائلافى حجره . و تناول علبتين فارغتين من العلب المحفوظة فأعطى واحدة لرمضان والأخرى لسامح . ثم زودهما بشوكتين معدنيتين . ونقر عزت بيه على قعر الجردل بأصابعه عدة مرات ثم تنحنح وانطلق .

كانت مناحة امتدت من أم كلثوم متمردة (متصبرنيش ماخلاص أنا فاض بى ومليت) ، ثم مستسلمة (على بلد المحبوب ودينى ، زاد وجدى والبعد كاوينى) ، إلى عبد الوهاب متسائلا (يا وابور قولى رايح على فين) ، وعبد الحليم حافظ متفلسفا (مشانى زمانى سواح) ، ومن شادية متدللة (سلامات سلامات يا غايب عنى) ، و ليلى مراد متألمة (من بعيد يا حبيبى بسلم) ، إلى أسمهان مستنجدة (يا حبيبى تعالى الحقنى شوف إللى جرالى) .

أثار الشكل (صوت مشروخ أنهتكه السجاير) والمضمون (مناخ عهد سابق) استنكار سعادة السفير : بكره يرجعوا الراديوهات و نترحم .

أوضح أبو السباع لشرف : كان هناك راديوهات و مسجلات في كل زنزانة تقريبا ، قطاع خاص وليس ملكية دولة ، و أربع تليفزيونات في كل عنبر ، لكن الأخوة الملتحين اشتكوا من وصول الصوت إليهم لأنهم لا يرغبون في سماع الأغاني . و أعلنوا أن التليفزيون ينشر الفسق . وخضع لهم المأمور فبعث بضابط ومعه عدة صناديق من الكرتون جمع فيها كافة الأجهزة الصوتية. وهو إجراء لم يستفد منه سوى أمثال عزت بيه الذى عاد الآن إلى اللحن الأساسي : الشاطر اللى سبق ولهف . وأكل النبق .

(٨)

انتظرت طويلا في دورة المياه إلى أن يخلو مرحاض . وظهر الدكتور ثابت محفوظ عند المدخل . كان يرتدي روبا من الحرير المشجر وخف جلدي فاخر يحمل صابونته في يده ومنشفة ملونة فوق كتفه ، و أحدث دخوله نشاطا غير عادي بين المساجين المتجمعين فافسحوا له الطريق إلى المرحاض الاخير وأسرع إليه أحد السجناء بدلو من المياه ليستعين به في حالة انقطاعها .

عدت إلى الزنزانة فالفيت أبو السباع ما زال نائما و الباقين انتهوا من إفطارهم ، ما عدا سعادة السفير ومجموعته الذين تحلقوا حول طبق كبير توزعت في أنحائه الدوائر الصفراء للبيض المقلي . كان رمضان والشيخ مجدى يأكلان بتمهل و يلتقطان نتفا صغيرة من البيض فوق لقمات كبيرة من الخبز علي عكس السفير الذي كان يلتقط قطعا كبيرة من البيض و يمضغها بسرعة وهو يلهث دون أن يرفع عينيه عن محتويات الطبق إلى أن اختفت تماما . استدار إلى صندوق زجاجات المياه خلفه واستخرج منه علبة من البلاستيك رفع غطاءها و التقط منها قطعة من الجبن الرومي ألقى بها في فمه ثم أعاد العلبة مكانها دون أن يعبأ بزميليه .

طويت فرشتي و حملت بطانيتي إلى الفناء الخارجي . وفي الطريق التقيت بأفراد طابور الخدمات الذين يأتون كل صباح من عنبر الميري لرفع البول والمخلفات و مسح الزنازين وكنس الفناء . لمحت بينهم صبري و فوزي فتجاهلتهما و لم تفتني نظرة الحسد التي ألقياها علي .

خرجت إلى الفناء فشعرت كأنى خرجت إلى الطريق العام . كان مزدحما بالرائحين والغادين من النزلاء في ملابس متنوعة الأشكال والألوان ، منها جلاليب أو قمصان وبنطلونات نظيفة مكوية وأحذية لامعة ، بانص أو كوتشى ، ونظارات شمسية .و منها ملابس مهدلة ، أو فانلات على اللحم تغير لونها من عدم الغسيل، وصندل جلدى أو شبشب من البلاستيك ، سارأصحابها برءوس مدلاة، يتأملون الرمال كأنما يبحثون عن شئ ضائع . وكان هناك أيضا بعض السجناء في ملابسهم الخضراء المميزة وكثيرمن الملتحين في ملابس ناصعة البياض تتألف من قمصان طويلة حتى الركبة فوق سراويل . ولاحظت أنهم لا يختلطون بالآخرين .

فرشت البطانيتين في الشمس و قرفصت إلى جوار الحائط . رأيت الدكتور رمزى منهمكا فى تمارين رياضية شاقة جعلت عضلاته تنفر والعرق يتصبب على جسده الذى عراه حتى الوسط و انضم إليه مستر تامر بعد قليل فى بلوزة بيضاء وشورت ضيق ، بألوان العلم الأمريكى ، أظهر تفاصيل مؤخرته . و لحظت نظرات الاستياء توجه إليه من معسكر الملتحين . ثم ظهر السفير وقد غطى عينيه بنظارة شمسية من طراز كارتييه وارتدى قميصا مشجرا بنصف كم وخلفه رمضان يحمل كمية من البطاطين ألقى بها فوق الرمل . انتظر السفير حتى بسط رمضان إحداها فاقتعدها مستندا بظهره إلى حائط العنبر ، ممددا ساقيه أمامه .

لحظت سجينا آخر انتحى جانبا و وضع أمامه صندوق مسح الأحذية المعهود . وتقدم إليه واحد و أعطاه بعض السجائر ووقف يمسح حذاءه . كان إلى جواره سجين ثالث يرتدى فانلة حمراء أمامه دلو ماء وعلبة صابون "تايد" . وأعطاه أحدهم ملابسه و علبة سجائر فعكف على غسلها بنشاط .

ترامى إلى سمعي صوت السفير يحكي لرمضان عن ابنته :

ـ ....كان عندها سنتين ومتنامش إلا وصباعها فى بقها . كنا وقتها فى النمسا . الدكتورة الله يمسيها بالخير قعدت تلاغيها . سألتها : اسمك إيه ؟ قالتلها إسمها بالكامل ومسكتتش . .. أخويا إسمه يوسف وبابا إسمه قاسم وماما ليلى ومعانا كمان نبيلة . دى واحدة قريبتنا عايشة معانا . الدكتورة قعدت تقولها انت حلوة . وبعدين خليتها تبص فى مراية وقالتلها : شوفى إنتى حلوة إزاى . وراحت ورياها صور أطفال شفايفهم وأسنانهم مشوهة . وسألتها : إيه رأيك . وحشين ؟ قالت : قوى . قالت لها : تعرفى ليه ؟ عشان بيحطوا صوابعهم فى بقهم . و أنت كمان حتبقى زيهم لوفضلت تعملى كده . البنت سألتها : طيب و أعمل إيه ؟ قالتلها : بطلى حالا . قالت : حاضر . الدكتورة إدتها . شكولاتة . وإحنا مروحين كانت سرحانة بتفكر. بالليل رقدت أنا وأمها على الأرض جنب سريرها نراقبها . مسكت صباعها بايدها التانية وراحت فى النوم . بعد شوية لقيناها بتفك إيدها . وبعد شوية مدت إيدها ناحية بقها و قبل متلمسه اتنبهت و بعدت إيدها و كملت نوم . من ساعتها محطتش إيدها فى بقها تانى .

سمعت ضحكة أنثوية بالقرب مني فالتفت نحو مصدر الصوت . رأيت شابا فى ملابس السجن جالسا قرب الحائط مع عدد من السجناء وكان يحكى شيئا وهو يشير بأصابعه أمام فمه كما تفعل نساء الأحياء الشعبية . ولحظت أن أصابعه ازدانت بالخواتم الذهبية .

ظهر أحد السجناء قادما من الإدارة يحمل فى يده بضع أوراق و يسير بخطوات سريعة تعكس أهميته . اتجه إلى عنبرنا وولجه . و قدرت أنه يحمل قوائم الأكل الخاص بسكان عنبر الملكى . نهضت مسرعا على أمل

واقتربت من باب العنبر حيث وقف السجين و نادى الأسماء ولم يكن اسمى من بينها .

عدت إلى مكانى بجوار الحائط بخطوات متثاقلة .كنت قد شرحت للدكتور أنى أنتظر طعاما من أهلى فطمأننى قائلا أن أغلب النزلاء لا يحضرون الطعام بصفة يومية و إنما يرتبون مع بعضهم البعض بحيث يتناوبون ذلك و يتشاركون فى الأكل ، و أن بوسعى أن أتفق مع أهلى على إحضار الطعام مرتين فقط فى الأسبوع و يتولى هو وأبو السباع بقية الأيام .

راقبت شابا لبنانيا ممتلئ الجسم عرى ساعديه وكتفيه و شمرشورتا رياضيا أسود اللون عن فخذين ممتلئين غطاهما زغب أصفر. كان لبشرته تلك اللفحة التى يحدثها التعرض طويلا لأشعة الشمس . ويبدو أنه كان معجبا بها فلم يكف عن تأملها باستغراق وهو مستلق إلى جوار الحائط .

أصبحت الشمس عمودية وأذن الظهر فالتجأت إلى المسجد . خلعت حذائى ووضعته فى المدخل و عبرت الحاجز الخشبى . توضأت وانضممت إلى المصلين. عندما انتهيت دعوت الله أن يظهر براءتى وبقيت جالسا وقد إستولى على شعور جارف بالكآبة و الوحدة .

اقترب منى أحد المصلين و سألنى وهو يتطلع ناحية المدخل : مش إنت اللى كنت فى زنزانة بطشة ؟

أومأت بالإيجاب .

قال أنه يريدنى فى كلمة و طلب أن ننتحى جانبا بعيدا عن المدخل . تبعته إلى ركن .

خاطبنى بصوت منخفض : أنا عاوزك تكتبلى جواب .

أعطاني ورقة وقلما صغيرا وطلب منى أن أكتب ما يمليه على . أسندت الورقة على ركبتي و كتبت :

" السيد اللواء مدير مصلحة السجون .

تحية طيبة و بعد :

مقدمه لعدالة سيادتكم المسجون عبد الهادى فرج و هو ترزى أفرنجي وأصبح الترزى الخاص لمأمورالسجن والسادة الضباط وأصدقائهم من كبارتجار المخدرات وأصحاب الأعمال الكبرى مقابل باكو شاى . أوالسماح له بسرير دون أن يدفع ثمنه لبلطجية الأدوار أوالذين يتاجرون فى الأسرة و قد وصل ثمن السرير إلى ٢٠٠ جنيه و ذلك لحساب مأمورالسجن كما أن الضباط يقومون بصرف حصص الخبز للمسجونين خلاف الواقع و يتم بيع الباقى لحسابهم " .

إنتبهت فجأة إلى خطورة ما كتبته وشعرهو برد فعلي فقال وهويتناول منى الورقة :

- متخفش . محدش حيعرف انك اللى كتبتها .

أعطانى علبة سجاير و أضاف و هو يتفحص ملابسى : لو عزت أى حاجة أنا تحت أمرك . سألته عن مكانه فقال أنه فى الطابق العلوى المخصص للمخدرات وجرائم النفس .

غادرت المسجد و انتظرت حتي مر من أمامي كهلان فى القميص والبنطلون انهمكا في حديث بصوت عال عن احتمالات الافراج . كان أحدهما يضع عدسات داكنة فوق نظارته الطبية التى شبكها بسلسلة تدلت فوق صدره وهو وضع طالما أثار أعجابى .

اتجهت إلى مساحة من الظل فى الناحية الأخرى من الفناء قرفص فيها الشيخ فتحى فقرفصت إلى جواره و أخذت أعبث بأصابعى فى الرمل

وأرسم مربعات و دوائر . كان الزحام قد خف بسبب الشمس . ومد ذو الفانلة الحمراء حبلا من حائط العنبر إلي سور من السلك يفصلنا عن فناء العنبر الآخر، ونشر فوقه الملابس التى انتهى من غسلها.

لمحت ملتحيا يطوف بالفناء ورأسه مدلاة يتأمل الأرض . وكان ينحنى بين الحين والآخر ليلتقط قصاصات الورق فيتصفحها و يضعها فى جيب سرواله . كانت ملابسه بيضاء مثل زملائه لكنها كانت أقل بهاء و يبدو عليها القدم وضعة الحال . إستفسرت من الشيخ فتحى عن الأمر فقال لى أنه مكلف من زملائه السنية بجمع كل القصاصات التى تحمل إسم الله أو الرسول عليه الصلاة والسلام كى لا يدهسها أحد بدون وعى و بعد ذلك تحرق . سألنى عن قضيتى فرويت له قصتى . وسألته عن جريمة الدكتور فقال : افتكر رشوة.

- وسعادة السفير ؟

ضحك : ده بتاع الفراخ و الكبدة .

تشجعت وسألته عن قضيته .

قال : موضوع كيدى .

قلت : متهمنيك بإيه ؟

قال : العلاج الروحانى .

- ودى تهمة ؟

هز كتفه ولم يعلق .

أضاف بعد لحظة : أنا أصلا موظف . و يوم كنت راجع من الشغل وطلبت من مراتى تحضر الأكل . و قعدت أقرا فى المصحف . و فجأة لقيت نفسى

في عالم آخر غير عالمنا .بعديها قالت لي زوجتي و أهلي.أني فضلت في الحالة دي ست ساعات .

قاطعته : مكنتش واعي بحاجة؛خالص ؟

قال : أبدا كنت في حالة هدوء غريب و سكينة . وبعدين جاني هاتف طلب مني التسول في الشوارع . مرضيتش . قاموا شكلوا محكمة روحانية من خمسة أعضاء شفتهم زي ما أنا شايفك كده .المحكمة بعد مدة في المداولة والمشاورة أصدرت ضدي حكم بالسجن المؤبد . ثم ظهرت لي الملكة سالي رئيسة المملكة الطبية الروحانية و اتفقت معي انها تسكن جسمي . والناس فوجئت بصوتها يخرج مني مؤكدا أنها الملكة سالي . وأنها من قوم صالحين من الجن يعالجون كل الأمراض ماعدا الشلل و العمى في دقيقتين .

قلت مندهشا : وهي مين سالي دي .. إنس و لا جان ؟

ضحك : جن طبعا . ملكة كبيرة عندهم . و تحت إيدها اتنين مليار جن سخرتهم لعلاج العيانين من بني الإنسان . .

كان الدكتور رمزي قد انضم إلينا وهو يمسح عرقه واستمع إلى العبارات الأخيرة و على شفتيه ابتسامة ساخرة . سأله : و الجن بتعمل معاهم إيه ؟

قال : أنا بقدر أشم ريحة الجن في أي حتة وأحرقه في الحال . الوزرا نفسهم اعترفوا بقدرتي . أيوه أنا عارف انك مش مصدقني . أخر حالة خففتها قبل مايتقبض على كانت واحدة ست مرات وزير مات من سنتين . حطيت إيدي على إيدها و بدأ العلاج . ساعتها مبدراش بنفسي . الست جالها تشنج وخرج منها صوت راجل يقول : أنا الشيخ عبد الله وقد تلبست جسد هذه السيدة لأني أحببتها بعد وفاة زوجها وأريد أن أتزوجها . قلت له أنت

مسلم فلماذا تتلبس أختــا لك فى الإســـلام . أخــرج من جســدهـا وإلا أحرقتك بآيـات الله .

توقف لحظة ووجه إلى الحديث متجاهلا الدكتور رمزى :

– الجن لازم الواحد يكون حـازم معـاه و يوريه إنه أقـوى منه . يعنى يفرض إرادته عليه . أصريت أنه يخرج من جسمها و حددتله المكان اللى يخرج منه وهو قدمها اليسرى . وفعلا مافاتتش خمس دقايق إلا ورجعت الست لحالتها العادية والناس هللت و كبرت . سألتها إنت حاسة بإيه ؟ قالت زى ما أكون اتولدت أول مرة .

سأله الدكتور : و هى كانت بتشتكى من إيه ؟

– بعد موت جوزها على طول بدأت تشعر بحاجات غريبة أول ما الساعة تبقى تناشر بالليل تلاقى حاجة تشدها تخليها تقف قدام المراية وتحط مكياج ويعدين تمدد على السرير . و بعد شوية تحس بالسرير بيتهز وحد بيضغط عليها . قلتلها المسألة واضحة . الشيطان كان عاوز يجامعها .

قال الدكتور : و أنا صغير كان ساكن جنبنا واحد زيك كده . بقال إسمه بولس . الناس كانت تجيله عشان تطلع الجن اللى لبسها . كان يحط العيان فى أودة ضلمة وهو شايل الصليب ويطلب منه انه يقوله على الحتت اللى بيتنقل فيها الجن فى جسمه عشان يحاصره فى مكان ويطلعه .

لوى الشيخ فتحى شفته فى استياء ثم لزم الصمت . ونادانا الحارس لنصعد فنهضنا متثاقلين و دخلنا العنبر . و أمام زنزانتى استوقفنى شاب صعيدى أسمر البشرة يرتدى جلبابا نظيفا تبدو من فتحة صدره صديرية موشاة بالقصب .

مد إلي يده قائلا : خدامك عبد الفتاح .

صافحته وعندئذ طلب منى أن أكتب له خطابا .

أبديت موافقتي فعرض أن نذهب إلى زنزانته . رافقته إليها وكانت في نهاية الطابق . ولم تكن تختلف عن زنزانتنا سوى في غلبة أبناء الصعيد على نزلائها .

بسط نمرته و جلسنا فوقها . أخرج سيجارة ومبسما خشبيا ، وقطع السيجارة نصفين ثبـــت أحدهما في المبسم وقدمه لي .أشعلت السيجارة وجذبت نفسين عميقين أصابانى بالدوارثم ناولته المبسم .

لاحظت أن يديه كبيرتين و أظافره واسعة ومفلطحة . وعندما تربع أمامى رأيت نفس الظاهرة في قدميه . و كانت له عينان عسليتان واسعتان و شعر أسود ناعم .

قال : أنا شفتك بتكتب جواب لواحد فى المسجد .

أملانى رسالة طويلة إمتلأت بالسلامات للأهل و الأقارب و كل من يسأل عنه وتضمنت أنه فى أحسن حال و لا يشكو من شيئ ولا يحتاج إلى شئ و أن موعد ترحيله لم يتحدد بعد .

سألته : ترحيلك لفين ؟

قال إنه أصلا من سوهاج لكن قبض عليه فى القاهرة ولا بد أن يرسلوه إلى بلدته لتتم محاكمته هناك ، و إنه ينتظر هذا الترحيل منذ أربعة شهور .

تعجبت من أن لهجته لا تدل على أميته فأوضح لى أنه قادر على فك الخط لكن خطه ردئ للغاية كما أنه ترك المدرسةخلال المرحلة الإبتدائية و أوشك أن ينسى الأبجدية كلية .

اقترب منا أحد نزلاء الزنزانة ،الصعايدة و صافحنى مرحبا ثم قدم إلى سيجارة فقسمها عبد الفتاح و قدم لى نصفا لأشعله ثم حكى لى قصته . فى قريته مسجد عتيق يقوم على خدمته عمه الذى يستيقظ فى الفجر ليصلى بالناس ثم يتجه إلى حقله ولا يعود منه إلا لصلاة الظهر . وفى أحد الأيام عاد من القاهرة أحد أبناء القرية بعد أن أتم دراسته بكلية الآداب وكانت هيئته غريبة : أطلق لحيته وشاربه وإرتدى جلبابا قصيرا وسروالا طويلا وأخذ يتحدث عن ضرورة تطبيق الأحكام الشرعية و إقامة المجتمع الإسلامى الصحيح على شكل الخلافة ويأمربطقوس خاصة فى الصلاة وينهى عن إقامة المآتم والأفراح وبناءالمقابر. حتى الآن لا بأس . لكنه بدأ يعتلى منبر المسجد قبل وصول الشيخ فيدعو للجهاد ضد الحكام ابتداء من الخفراء إلى تحريم التعامل مع النصارى ومع الجمعية الزراعية ويهاجم خروج الفتيات للدراسة و ينادى بالامتناع عن أكل الخيار والباذنجان .

أبديت دهشتى لمسألة الخيار و الباذنجان و سألته عن السبب فاحمر وجهه وتحاشى النظر إلى وهو يقول : لأنها بتجيب أفكار وحشة .

استأنف عبد الفتاح قصته و كيف أخذ الجانبان يتبادلان الاتهامات : الشيخ يتهم الشاب بالتطرف فى فهم الشريعة بينما الشاب يعتبره متواطئا مع الحكام . وبالتدريج اكتسب الشاب أنصارا من الشبان والعاطلين الذين أغلقت أبواب الهجرة فى وجوههم بعد حرب الخليج . وخلع عليه الأنصار لقب الأمير. وفى أحد الأيام عقد مجلس شورى قرراعتبار الشيخ مرتدا لأنه يتقاضى راتبا من الدولة أى أموالا حراما هى حصيلة الربا ولأنه ينكر فضيلة الجهاد وهى أحد أركان الإسلام . و على هذا الأساس أباحوا دمه .

— قتلوه ؟

- ربنا نجيده . لبدوا له فى الدرة و هجموا عليه بعد المغرب و نزلوا فيه ضرب بالعصى و الجنازير . وكان حيخلص منهم لولا جماعة كانوا فايتين .

لزم الشيخ الفراش شهرا دون أن يجرؤ على إبلاغ السلطات حتى لا يتهم بالاستعانة بالشرطة أعداء الله .وخلال ذلك كانوا قد أفتوا بعدم جواز الصلاة فى المسجد لأنه مسجد ضرار أقيم لأغراض الدنيا واصطدموا بعبد الفتاح ومجموعة من اصدقائه . و أصيب أحدهم بضربة طائشة من عبد الفتاح توفى على أثرها .

رويت له قصتى بالمثل و أجمعنا على أننا - نحن الاثنان - ضحيتان بريئتان ، وأكد لى أننى لا بد سأحصل على البراءة قائلا فى حزم : كله إلا الشرف .

حكيت له عن معاناتى فى عنبر الميرى وما جرى لى مع بطشة وقصة الميدان . ضحك وقال :

- حظك كان كويس إنك وقعت فى إيد على بلبل . ده راجل طيب وغلبان. متأخر فى الترقية و عنده سبع عيال مش ملاحق على أكلهم .

حل موعد التمام فودعته و أصر على إعطائى علبة سجائرمقابل كتابة الخطاب . تمنعت فى البداية ثم اكتفيت بنصفها ، ومضيت إلى زنزانتى وأنا أفكر فيما وقع لى من أحداث وما كسبت من سجائر وماجرى بينى وبين عبد الفتاح من حديث . شعرت فجأة بصداع عنيف لازمنى طول المساء وصد نفسى عن الطعام ، فأعطانى الدكتور رمزى قرص أسبيرين و نمت .

استيقظت فى الفجر شاعرا بالبرد رغم حرارة الجو فبسطت فوقى بطانية وأحطت جسمى بها فى عناية . لكن إحساسى بالبرد استمر و بدأت تنتابنى رعشات خفيفة . فقمت واقفا ونزعت البطانية الأخرى من تحتى وبسطتها فوق زميلتها ، دون جدوى . ظللت أرتعش من البرد حتى أقبل الصباح .وما أن

فتحت الزنزانة حتى تدافع الجميع إلى دورة المياه فأخذت أئن بصوت عالي . لم ينتبه إلى أحد فرفعت صوتي بالأنين و أنا أتطلع حولي لأرى إذا كان أحد قد سمعني . كانت الزنزانة خالية ، فانتظرت حتى عاد الدكتور رمزى وعاودت التأوه بصوت أعلى .

خف إلى جوارى ووضع يده على جبينى ثم أعطانى حبتين أسبيرين تناولتهما مع رشفة ماء . لم تتحسن حالتى إذ انتشرت الالام المبرحة فى عظام ساقى وذراعى وإلتهب حلقى . ولم أقدر على إبتلاع أى طعام كما استمرت حرارتى فى الإرتفاع فأعطانى قرص "باراسيتامول" . وعندما لم تهبط الحرارة صب فى قروانة ماء مثلجا يحتفظ به فى ترموس . تناول من حقيبته منديلا نظيفا فبلله بالمياه المثلجة و وضعه على جبهتى إلى أن فقد برودته . كرر هذه العملية إلى فرغت المياه الباردة فى ترموسه فاقترض ترموس قاسم بيه .

ظهر عبد الفتاح على باب الزنزانة قائلا إنه عرف بمرضى فأحضرلى ثلاث ليمونات عصرهم لى فى كوب به قليل من الماء و أصرعلى أن أجرعه . وظل إلى جانبى مضحيا بطابورالعصر حتى بدأت الحرارة فى الهبوط واستسلمت لنوم متقطع تخللته الأحلام و التخيلات . كنت أتخيل لنفسى مصائر متنوعة : طالبا فى كلية الطب ثم طبيبا متخصصافى أمراض النساء . أوطالبا فى الجامعة الأمريكية ثم سفيرا فى السويد . وقضيت وقتا طويلا فى محاولة إنفاق عدة آلاف من الدولارات عثرت عليها صدفة : حسبت الإقامة فى الشيراتون عدة ليال و سيارة بى إم دابيو ثم شقة فى المهندسين أو على النيل وعندما لم تنته النقود صرفت عدة الاف على الملابس واكسسواراتها وفى النوادى الليلية وأخيرا ضقت بالأمر عندما لم أتمكن من تخيل أوجه جديدة للإنفاق . ففكرت فى هدى وكيف أن غيابى سيكشف لها

حقيقة مشاعرها وعند خروجي سترسل لى موعدا للقاء في كازينو على النيل وتعترف لى بحبها .

عدت بعد ذلك إلى مغامرة مفضلة لدى تبدأ في مترو الأنفاق عندما يصل إلى محطة المعادى . تخيلت نفسي واقفا إلى جوارالباب وكانت هناك فتاة جميلة للغاية ذات جسم مثير وصدرنافرتستعد للنزول . وعندما توقف المترو فقدت توزانها فسقطت في حضني وشعرت بثدييها على صدرى .احمروجهها وتبادلنا الاعتذارات وغادرنا القطار معا فتعرفت بها ودعوتها إلى شقتى حيث قدمت لها الكباب والكفتة والتفاح والبرقوق و حكت لى حكايتها . كانت يتيمة اختطفت من أهلها في الصغر واستقرت عند أسرة مبسوطة تولت تعليمها . دمعت عيناها فاحتويتها بين ذراعى وأخذت أربت عليها فقبلتنى وإنتهزت الفرصة فتحسست صدرها وفخذيها . وصرنا نلتقى كل يوم في شقتي وعملت معها كل شئ دون أن أمس بكارتها . وفى نفس الوقت بدأت أبحث عن أهلها . وقادتنى الصدف إلى أبيها فإذا به أمير سعودى . هنا فضضت بكارتها وأخذتها إليه فكافأنى بتزويجي منها وجعلنى وكيلا لأعماله في مصر .

تحسنت صحتي بعد يومين لازمنى فيهما عبد الفتاح . و نودى على في اليوم الرابع للزيارة . أقرضنى ماكينة حلاقته و شفرة " ناسيت " جديدة فأزلت شعر ذقنى . وصحبنى إلى دورة المياه حيث استحممت . و عندما عدنا إلى الزنزانة لم يكن بها أحد إذ خرج الجميع إلى الطابور . ناولنى قميصى مكويا واكتشفت أنه قام بكيه بنفسه . قلت له وأنا أرتدى القميص :

– أنا مش عارف كنت جاعمل إيه من غيرك .

احمر وجهه و تشاغل بتسوية فتحة القميص . تطلعت إليه في حنان ثم ضممته إلى صدرى .

صحبنى الحارس مع عدد آخر من النزلاء إلى قاعة الزيارة . ومررنا بصالة كبيرة ملحقة بمكاتب الضباط ، مخصصة للزيارات الخاصة ، ظهرت من بابها دكك خشبية و بطاطين مفروشة على الأرض و إزدحمت بالأهالى . مضينا إلى صالة أخرى واسعة تعترضها فى المنتصف شبكتان متوازيتان من السلك يفصل بينهما حوالى متر يقف فيه الحراس . وقفنا خلف الشبكة وقد بلغ عددنا حوالى ستين سجينا . ولمحت أمى بين الأهالى الذين تزاحموا على الشبكة الأخرى . كانت الضجة هائلة إذ كان الجميع يتكلمون فى وقت واحد و بأعلى أصواتهم ليتمكن ذووهم من سماعهم .

صحت بها بأعلى صوتى : فين الأكل ؟

قالت شيئا وهى تهز رأسها . أشرت بيدى إلى فمى و حركت أسنانى فى مضغ وهمى . فصاحت بشئ لم أسمعه وأخيرا فهمت أنها أحضرت الطعام و سلمته للإدارة .

حاولت أن أشرح لها الإتفاق الذى وصلت إليه مع الدكتور رمزى بشأن إحضار الطعام مرتين فقط فى الأسبوع لكنها لم تسمع صوتى كما لم تفهم إشارات أصابعى .

صحت بها: المرة الجاية اطلبى زيارة خاصة عشان نعرف نكلم مع بعض.

لم تسمع و تطلعت إلى مستفهمة . و يئست أخيرا من المحاولة فانصرفت إلى تأمل الزوار الآخرين إلى أن إنتهت الزيارة .

أعطونى كيس الطعام وصندوق السجائر اللذين تركتهما أمى . كان الصندوق مفتوحا و ناقصا علبتين . ومع ذلك حملته سعيدا إلى العنبر لأهدى عبد الفتاح علبة كاملة منه .

(٩)

إذا كان شرف موجودا بجسده بين جدران الزنزانة الأربعة ، فإن روحه كانت ترفرف في الخارج طول الوقت ، ليلا و نهارا ، فهو من سلالة شعب عظيم فضل دائما أن يكون مستعبدا كي لا يحرم من عشق الحرية والتطلع إليها .

حقا إن رحلات الليل كانت مختلفة عن رحلات النهار بحكم تغير موقع الأرض من الشمس من ناحية واختلاف موقعه هو من الأرض من ناحية أخرى . فالمعلوم أن الوضع الأفقى الليلى بتجلياته الرحمية والبطنية والظهرية يجلب صورا مختلفة عن تلك التى يجلبها الوضع العمودى النهارى فى تنوعاته من انتصاب و قرفصة و تربع و ركوع . لم تكن لديه مشكلة بالنسبة للأول . وأمدته الزنزانة الملكية بوقود للثانى تمثل فى إمكانية التخطيط للمستقبل وفقا لأوبشنز متعددة لم تتوفر فى زنزانة الميرى .

فلم يكن هناك ما يغري فى تسلق مواسير عمارة (بطشة أو صنقر) ، الاعتداء على راكب مسالم (صلصة و بلحة) ، الاستسلام للغضب (سامي عازر و عم فوزى) ، قضاء الليل فى ميدان العتبة (فلاح كفر الشيخ) ، حراسة الأبنية و المخازن (سامبو وصبرى) ، النزول إلى باطن الأرض (حسن بكبورت) ، قيادة باصات لا تتوقف (عم جابر) ، التمسك بجنسية خاسرة (الولد الفلسطينى) ، أو حتى الدفاع عن الشرف (أشرف نفسه) .

أما مع الملكيين فقد كانت هناك مثلا فرصة للجمع بين رحلات الليل والنهاريقدمها الشيخ فتحى (بحكم قدرته على شفاء الأمراض من ناحية

وبراعته في إخراج الجان من أجساد السيدات ، من ناحية أخرى) ، وقد أمدته بوقود لنشاطه الليلي إلى أن ضربته الشمس فتبين أنه لا يملك شيئا من العدة الضرورية . فهو لا يحفظ من القرآن إلا ثلاث سورقصيرة لزوم الصلاة : الفاتحة وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس . وكان الشيخ ضنينا بعلمه ، يرى في شرف ما رآه أغلب رفاق الزنزانة : عيل مشكوك في رجولته . كما أن هذا سريعا ما اكتشف أن دروب العلم غويطة ، و أن الأرواح أنواع كما طرق إخراجها أيضا .

فقد تعجب مرة من أمر السجين المنعزل ذى العوينات المقعرة الذى يدفن نفسه في الركن والمصحف ، فاستفسر من جاره ، الشاب الهادئ سامح (الذى يثور مع ذلك إذا لمس أحد حاجياته أوحتى صابونته) قائلا : راجل غريب. هو أخرس ؟

قال سامح : أبدا . دا مهندس محترم في شركة الألومنيوم .

- و إيه اللى جابه ؟

ليس لأنه متزوج من مهندسة محترمة مثله ، زميلته في نفس الشركة ، ولا لأنه مرة واحدة أطلق لحيته ونقّب زوجته ثم تركا العمل ولزما البيت ، وإنما بسبب الأرواح الشريرة .

- عندهم بنت سنها اتناشر سنة . حبوا ينقبوها مرضيتش . قاموا حجزوها في البيت ومنعوها من الخروج والمدرسة . فضل حبسها مدة والبنت راسها وألف سيف انها متتنقبش . واحد صاحبه قاله ان عليها أرواح من نوع ميخرجش إلا بالضرب . نزل ضرب فيها هو وأمها بخرطوم بلاستيك .

سأله شرف : وطلعت الأرواح ؟

أجاب : لأ . روحها هي اللى طلعت .

لم يقلها بسخرية أوحزن وإنما بلهجة تقريرية أثارت فضول شرف . وتكشف الشاب رغم واقعيته عن حالم كبير بفضل شهادته الجامعية (بكالوريوس تجارة)، ووظيفته (أمين خزينة فى عمر أفندى) (مما يفسر أيضا إحتياجه الدائم إلى تنظيف يديه) . أما الحلم فهو أسطول من سيارات نقل السائحين ، يقترب ثمن الواحدة من رقم واحد وأمامه ستة أصفار. سجل الرقم على ورقة مذكرا نفسه بأنه لا يملك صفراواحدا . وتجلت له على الفور الإمكانيات التى تتفتح عندما يتغير موقع العلامة العشرية . فبوسعه أن يقترض خمسة الاف من إحدى قريباته و يحصل على خمسة الاف أخرى من جمعية يؤلفها مع زملائه فى عمر أفندى ثم يدفع الالاف العشرة لمعرض يبيع بالتقسيط و يحصل منه على سيارة فان تتسع لـ١٦ راكبا . ثم يسدد ثمن السيارة من سلفة أخرى مؤجلة بالإضافة إلى عائد تشغيلها فى نقل أطفال بعض معارفه إلى مدارسهم . وبعد ذلك يسدد السلفة المؤجلة و يؤجل قريبته إلى أن يأتى الله أمرا كان مفعولا . وما أن ينتهى من سدادثمن السيارة يكرر العملية ، و ينتقل إلى سيارات أكبر حجما و هكذا إلى أن يتكون أسطول الأحلام .

– متتصورش كنت عايش إزاى . كان لازم أكون فى الشغل الساعة تسعة إلا ربع وقبليها بساعة قدام مدرستين و قبل كده بساعة تانية قدام بيوت التلامذة . مكنتش بنام و طول الوقت على أعصابى . حاطط منبهين جنبى عشان أضمن أصحى الساعة خمسة الصبح . وياويلى لو تلميذ منزلش لأنه عيى أوراحت عليه نومة أو لو اتحرقت بوجيهات السيارة أو انفجرالكاوتش أو البطارية عطلت . المهم قدرت أسدد شوية أقساط لغاية ما العربية طارت .

حادثة ؟ تقريبا . فقد صادرتها الشرطة بعد أن تبين أنها مسروقة من الأساس وضاعت عليه الآلاف العشرة وما تلاها من أقساط وانضم إلى ثلاثين

حالما آخر قدموا بلاغات ضد صاحب المعرض الذى كانت كل جريمته هى العبث ، مثلهم ، بالعلامة العشرية .

هل يستسلم لليأس ؟ ويظل قابعا خلف خزينة عمر أفندى حتى يبلغ سن التقاعد ؟

أجاب شرف على الفور : طبعا لا .

التجأ سامح مرة أخرى إلى تحريك العلامة العشرية . و اختار مكان عمله مجالا للمحاولة . فالثمن المقيد بقسيمة البيع إذا كان مثلا ٢٣ جنيها و ١٢ من مائة يسجله على شريط ماكينة الخزينة جنيهين و٣١٢ من ألف . نجحت الطريقة نجاحا باهرا ولم يعبها سوى أمرين : الأول اضطراره لاقتسام الدخل مع زميل له . والثانى هو ما حدث فى يوم موعود ، فبدلا من أن تتحرك العلامة العشرية ، تحرك ضمير الزميل .

اكتشف شرف بالتدريج أن محاولة تحريك العلامة العشرية هى القاسم المشترك الأعظم بين زملائه فى الزنزانة . لكن الحساب ، بكل تجلياته من جمع وطرح وقسمة وضرب ، كان أضعف نقاطه فى المدرسة ، ولهذا استبعده من مخططاته وخاصة بعد أن علم ببعض مضاعفات الأرقام كما فى حالة توكل الذى يحتل أهم نمرة فى الزنزانة ولا تنتظره أى نمرة فى الخارج . فعندما خرج من أول سجن على الحديدة ، التجأ إلى أبيه الذى جمع ثروة كبيرة من التسول و تقاعد بعد أن بلغ السبعين . طلب منه قرضا بسيطا ، ستة الاف من الجنيهات ، ليستأنف بها تجارة المخدرات لكن الأب البخيل رفض . عندئذ إنهال عليه بالشاكوش حتى مات وحفرله مقبرة داخل غرفته دفنه بها وقام بتبليط الغرفة ، لكن الرائحة فضحته و رافقته حتى الزنزانة . وبسبب هذه الرائحة انجذب شرف إلى مستر تامر .

فبهدف مكافحتها جلب الأخير اسطوانة معدنية أنيقة ، نقش عليها شعار غامض : " حل خاص لمشكلة عامة من جونسون " ، ووعد براق : "يقضي على رائحة الدخان فورا وينشر رائحة عطرية هادئة تعطر الجوفي الصباح".

ضاعف هذا التصرف الشيك من جاذبية مستر تامر في نظره ،إلي جانب ملابسه الكاجوال ورقته المنحدرة من ملوك ومماليك أحسن الخدم تربيتهم ، وبيجامته الحريرية ال"بيزيك ثينكينج " التي يصر على ارتدائها قبل النوم ، وهالة العطور التي تحيط به دوما (من دهان الشعر " كازوريل " إلى مضاد العرق " بروت " مرورا بأفتر شيف " سبورت ") ، والكلمات الإنجليزية التي تقفز إلى شفتيه عن غير قصد ، وأنواع الأطعمة التي تأتيه يوميا · معجنات وفطائر، كرواسون وسابليهات ، ألبان طازجة ، شرائح أناناس لزوم الإستعمال مع "كلوجز" الذي اصطف خلفه بتجلياته المتنوعة ("هوني سماكس " ، "رايس كريسبيز " ، " فروستيز" ، "كورن فلاكس " ، "كورن بويس")، مربات وأجبان فرنسية كريهة الرائحة ، قلوب النخل بالدريسنج ، كشك الدجاج والتوست ، دجاج مخلي بالزيتون ، دجاج شركسية ، دجاج بالكاري ، سمك باللبن ، سمك بالجمبري ، جمبري بالشامبينيون ، جمبري بالجمبري ، ومن الحلويات ألماظية الشكولاتة وطورطة "بلاك فورست " و تارت جلاسيه دون أن ننسى شاي الساعة الخامسة مع الكوكيز .

كانت كل هذه الخيرات تأتي في صناديق تحمل اسم فندق مشهورمن فنادق الخمسة نجوم سرعان ما تبين أن مستر تامر ليس غير مديره الإقليمي . و ارتفع قدر مستر تامر أكثر عندما عرف شرف أنه يدير، بالإضافة إلى الفندق ، شبكة دعارة من ممثلات الإعلانات التليفزيونية . ثم هوى بسبب الألعاب المحلية .

لم تكن كوتشينة أو دومينو أو سيجة (سيتعلمها أشرف بعد ذلك على يد عبد الفتاح) ولا حتى شطرنج ، وإنما "سكرابل"، أخرج رقعتها من أحد صناديقه ليلاعب من يستطيع تكوين كلمات بالإنجليزية إنطلاقا من أحد حروف كلمة قاعدية يصفها بنفسه بحروف جاهزة .

كان مستر تامر ذو فراسة فاختار لمنازلته اثنين فقط لمس إجادتهما للإنجليزية هما الدكتور والسفير ، ورفض أن يسمح لشرف بملاعبته رغم تأكيدات الشاب أنه يجيد اللغة " في الحقيقة "

لم تمض اللعبة في سلاسة . فلم يكن هناك قاموس مشترك . وكان كل واحد يختار مفرداته من قاموس خاص يجهله الآخران، فيثور الجدل لكن اختلاف القواميس لم يكن السبب الوحيد في تخريب سكرابل . فعلى عكس مستر تامر الرقيق المهذب ، كان سعادة السفير، في الفانلة التي كشفت عن شعر كتفيه و ثدييه ،والكلسون البلدى الفضفاض الذى يبلغ ركبتيه ، وبصوته الجهورى ، فخورا بتاريخه الذى امتد من العسكرية إلى الخارجية ثم الفراغ والكبده فأتاح له مكانة مرموقة ومعرفة شاملة ، مما جعل الإصطدام بالدكتور رمزى أمرا محتوما .

فالدكتور رمزى (رغم شروده المتواتر) ، كان مغرما بإيضاح الأمور ، والتعليق على القضايا المثارة ، مستعينا بكوم من الجرائد والمجلات العربية والأجنبية تصله بانتظام (المحلية عن طريق الكانتين والأجنبية تحضرها سكرتيرة مخلصة مع الطعام والملابس المغسولة) فضلا عن الكتب التى يستعيرها من مكتبة السجن . كما كان عاجزا عن السيطرة على انفعالاته جاهزا للانفجار عند أدنى معارضة ، على عكس السفير البارد الأعصاب ،

غير المستعد (بحكم تاريخه العسكرى الحافل بالانتصارات) لقبول الهزيمة. لهذا أثارت نتيجة موقعة " إيزالو" حفيظته .

فقد شاء السفير أن يكافح الناموس الهائج بالقرص الساحر وتصدى له الدكتور مؤكدا أن القرص يؤدى للإصابة بالسرطان وعلى الأقل تضخم الرئتين وإحتقان الطحال .

قال له سعادة السفير في بروده القاتل : و انت إيش عرفك ؟

لم يكن الدكتور رمزى طبيبا وإنما صيدليا و لهذا كانت مصداقيته أكبر (بسبب الجرائم التى لم يتمكن الصيادلة بعد من إرتكابها) . ولم يكن السفير يتمتع بشعبية ، كما أن توكل رأى ببعد نظره أن تشغيل الجهاز سيفتح بابا لتبديد التيارالكهربائى الذى يتولى مسئوليته . لهذا كله انتصر الدكتورفى معركة إيزالو، و استعوض السفير هزيمته فى معارك سكرابل .

ففي إحدى المرات تشكلت على الرقعة عبارة " سيتى بنك " و بينما كان الدكتور رمزى يفكر فى كلمة تنطلق من إحدى حروفها ، وجد سعادة السفير الفرصة لتعليق اقتصادى : فهذا البنك الذى سيبدأ نشاطه فى مصربطرح سندات قيمتها ٢٠٠ مليون جنيه هودليل على صحة الاقتصاد المصرى وعلى نجاحه فى اجتذاب الخواجات . وما كان الدكتوررمزى ليترك تعليقا كهذا يمرفى بساطة فقال للسفير إنه يتذكر أن هذا البنك كان موجودا من عشر سنوات واستفاد من الاعفاءات التى قررتها الدولة بهدف جذب الاستثمارات الأجنبية ثم أوقف نشاطه بعد إنتهاء مدة الاعفاء وحول أرباحه للخارج ومضى .

– طب وفيها إيه ؟

ولا حاجة . سوى أن البنك ، فى رأى الدكتور، يعود الآن ليكررما فعله من قبل فيستفيد من الإعفاءات دون أن يجلب إستثمارات ولا يحزنون وإنما

يستعين بقرض من جمهور المصريين على تمويل نشاطه في امتصاص استثماراتهم .

كفر وتجديف بالطبع في نظر السفير لأن مجلس إدارة البنك مكون من ناس محترمين هم رؤساء "بيبسى كولا" ، و "بوينج" و "بيكتل" للمقاولات ، التى كان يرأسها "شولتز" وزير الخارجية الأمريكية ، فاكره ؟ أما أكبر مساهم فهو أمير سعودي وهذا وحده أكبر دليل علي سلامة البنك .

من وجهة نظر الدكتور رمزى كان هذا دليلا دامغا وإنما على العكس ؛ فانفجر السفير موجها شتى الاتهامات للدكتور ، وكاد الاثنان يتماسكان بالأيدى لولا توكل الذى تدخل مكررا نداءاته بضبط النفس .

شيئا فشيئا كان اللون الأبيض يزحف إلى شعر سعادة السفير لا نتيجة زوال الصبغة و إنما بسبب معارك سكرابل . و فقد مستر تامر حماسه للعبة فقد السيطرة على تجلياتها و كان هناك ضغط غير ملحوظ من الرأى العام الذى كان مستبعدا من معاركها . هكذا تراجعت سكرابل لصالح لعبة أخرى أكثر شعبية ، تدعى " عروستى " .

كانت بسيطة للغاية : يختار الواحد كلمة لا يفصح عنها للأخرين . ثم يقدم معلومات مبهمة عن مضمونها مبتدئا بالتصنيفات الرئيسية لأنواع الموجودات : انسان ، حيوان ، جماد . و يتبارى اللاعبون فى التخمين متقدمين على طريق المعرفة .

سبق لأشرف أن جرب هذه اللعبة مع أخته و أمه و أولاد خالته فى دمنهور. وكان الرصيد من الأغانى و الأفلام المصرية أساسا ومسلسلات التليفزيون وبرامجه ثم بضاعته الخاصة التى أفحمهم بها والمؤلفة من نينا

ريتشي كريستيان ديورشانيل كارفن جيفنتشي لاروش لانفان تيد لابينوس باكورابان ،

كارتييه بوشرون دوبون إيف سان لوران بيير كاردان هرمس ،

وستنجهاوس يونيون إير فيلكوساس ميركو كاريير ،

سوني بوش سامسونج جنرال الكتريك أريستون فيليبس ،

شارب كريازى سيتيزين كلفينيتور ناشيونال ،

يورك هوفر هيتاشى طومسون أكاى ،

شيراتون هيلتون سوفيتل موفينبيك أوبروى هيلنان ،

انتركونتيننتال سويس أوتيل سونستا ،

فولكس فاجن سكودا فيليشيا ،

فيات أونو بونتو دوجان الفاروميو،

أوبل كورسا فيكترا بيجو ،

هيونداى لادا داتشيا نيسان كيا بيتسا كيا سيفيا نوشا ،

ميتسوبيشى لانسر سوزوكى ماروكى مازدا تويوتا كرولا ستارليت ،

فالكون كريست نوتس لا ندنج دالاس بولد آند بيوتيفول ،

لانس آبى ريتشارد جير ريدج .

لكن ملكيىّ السجن غير مثقفى دمنهور . وكما يحدث فى التحولات الثورية ، سرعان ما وقعت اللعبة التى استوعبت جميع الطبقات والإتجاهات فى البداية ، فى قبضة مراكز القوى وأصبحت مجالا للتنافس بين الأقطاب الثلاثة . فارتفعت إلى مستويات عالية بعيدة عن مدارك أمثال شرف . صحيح أنه سجل نقطتين

ساحقتين . فهو الوحيد الذى عرف أن "كورونا" تؤكل وتركب (الأولى شكولاتة والثانية طراز لتويوتا) و أن سيارة " دوجان "من فيات مثل مواطنى الكويت ، نوعان : واحد بمحرك " تمبرا " بالباور والثانى بدون . لكن معلوماته كانت مليئة بثغرات واسعة مثل الثقوب الكونية السوداء . فمن أين له أن يعرف فضيات "ريجالى"، جلود "بوزانو" ، حقائب سيدات " أوريالى " ، أو "جاكوزى" التى ثبتها السفير فى حمامه ، أو ملوك ملابس الرجال مثل "ماريان بيك " ، "غولدستين" ، "سرج غيور" ، "تيدى كنوف " الذين يعرفهم مستر تامر معرفة شخصية أو الشخصيات الأخرى التى لا يعرفها الدكتور رمزى شخصيا مثل " دورينمات " و"إبسن "، "مصطفى النحاس " و "عبد المنعم رياض "، "نور الهدى"، و" مارلين ديتريش "، ابن رشد و "باسكال "الفيلسوف لا المجوهراتى ، فضلاعن طراز "موستانج " فى السيارات ، و عاصمتى باراجواى وأوروجواى وبضع عشرات من الأمراض و الأوبئة و الأدوية ؟ وفى النهاية تكفلت قضية الشرق الأوسط بنسف اللعبة نسفا تاما .

والذى حدث أن سعادة السفير اختار كلمة و أعطى الإشارات الضرورية التى حددتها كاسم دولة فى الشرق الأوسط ، و أضاف مجموعة من الإشارات توجت بحاصل جمع الفَلَس و الطين ، فانفجرت ثائرة الدكتور رمزى .

لم يكن السبب سياسيا أو أيديولوجيا و إنما تقنيا بحتا : فلسطين ليست بعد دولة رغم كل الاتفاقيات التى عقدت بشأنها . فند السفير هذا الزعم من واقع نصوص مدريد و أوسلو ، عارجا على دوره فى حرب أكتوبر مقاتلا فى قيادة اللواء الثالث ، وفى مباحثات السلام سفيرا فى كامب ديفيد ، متفرعا إلى نتائج الصلح مع إسرائيل (الأموال ستتكدس لدينا ويتم حل مشاكلنا) الأمر الذى عارضه الدكتور مستشهدا بنتائج الخبرة الإسرائيلية فى الزراعة :

خيار بطعم البلاستيك وفراولة بطعم اللفت و تفاح بطعم قشر البطيخ و خوخ مفعوله أقوى من الحقنة الشرجية ، وبيض بلا طعم ونحل بلا عسل .

التفرعات تطرقت إلى مخططات متوقعة : جمال عبد الناصر ، الاتحاد السوفييتى ، وأخرى غير متوقعة .

ففى غمرة إنفعاله تخلى السفير عن نقطة البداية في عروستى معلنا أن فلسطين هى أرض اليهود طبقا للقرآن : عاشوا فيها من قديم ثم تشتتوا وآن لهم أن يعودوا .

- يبقى لهم حق في مصر كمان .. مش عاشوا فيها ؟

- مصر حاجة تانية .

- إزاى ؟

لا إجابة وإنما تفريعة جديدة : التقدم العلمى والتكنولوجى .

عدد الدكتور (مستشهدا بمجلة أمريكية إلى جواره) المساعدات التى حصلت عليها إسرائيل من الغرب والتى تفوق مائة مرة ما حصل عليه جميع سكان العالم الثالث مجتمعين . و قال ملوحا بالمجلة : أمريكا نفسها تقدم ألف دولار سنويا لكل فرد اسرائيلى . ووجد السفير في هذه الأدلة تأكيدا لوجهة نظره : شاطرين .

كان شرف من الجيل الذى شكله سعادة السفير و رفاقه باسم "جيل السلام" و "مصر أولا" واشتهر بالاسم الكودى " جيل أكتوبر" . وكانت للدكتور رمزى أراء غير حداثية من قبيل معارضته لشامبو الشعرعلى أساس أنه مجرد صابون تضاف إليه مواد تضر بجلد الرأس . هكذا وجد شرف نفسه ميالا إلى وجهة نظر السفير ومنحازا إليه بكل عواطفه و بفكره

الاستراتيجى ، خاصة وأنه وجده يحوز مجموعة " ستينج " الكاملة : النظارة وجرابها وسلسلتها ، فشرع يتقرب إليه منافسا فى ذلك رمضان بلدية . لكن طموحات شرف تحطمت على صخرة صغيرة للغاية لا من الحجر الرملى أو الجيرى وإنما من الحلاوة الطحينية .

رغم المساحة الكبيرة التى إحتلها قاسم بيه فى كل من الزنزانة والمجتمع إلا أنه كان تقليديا محافظا متمسكا بالتراث . الملوخية والبامية والقلقاس والخبيزة والأرز المفلفل العادى والفول المدمس والبصارة والكنافة والبقلاوة والبسبوسة (يتخللهاأحيانا البودنج بالمكسرات من ذكريات أيام السفارة) مرددا بمناسبة وغير مناسبة : "إحنا شعب يهضم الزلط " ، كما ألف أن يفعل زميله بائع المكرونة . لكن متعته الرئيسية ، للعجب ، كانت الحلاوة الطحينية، بالفستق بطبيعة الحال .

وتصادف أن هذا النوع المتخلف من الحلوى كان عشق شرف من الصغر. وأجمل ذكريات طفولته هى المصحوبة بساندوتش منها (من الخبز الفينو) وأروعها هى المرات المعدودة التى وسدت فيها فوق طبقة من الزبد . وقد تداعت هذه الذكريات فى كل مرة يلتهم فيها السفير قطعة منها .

وتصادف أيضا أن النمل هاجم نمرة سعادة السفير و نجح فى التسلل إلى علبة الحلاوة . التجأ إلى علبة "بيروسول" رش منها حول نمرته فذكر له الدكتور رمزى أن المبيد لايحل المشكلة وأن النظافة التامة هى التى تمنع توالد الحشرات . لم يحفل السفير بالرد عليه وإنما قال فى سخرية : "و إيه كمان يا دكتور؟ " . قال الدكتور إن البيروسول بالذات يؤثر على العصب البصرى ويمكن أن يؤدى إلى تصلب الشرايين و إرتفاع ضغط الدم وتضخم الكبد كما أنه يضر بالقدرة الجنسية .

كانت الحجة الأخيرة هى التى أقنعت السفير . فكف عن الرش فى صمت . و تنافس شرف ورمضان على إخراج نمرته إلى الفناء وصناديقه إلى الطرقة، واستدعى واحد من الخدم لمسح الزنزانة جيدا ورشها بالجاز. إختفى النمل يوما واحدا ثم ظهر من جديد . فتفتق ذهن السفير عن حل من التراث . وضع علبة الحلاوة فى قروانة مليئة بالماء ووضع القروانة فى منطقة البلل أى عند المدخل ، إلى جوار الدلوين و الأحذية و رأس شرف .

كان الإغراء أكثر مما يحتمل الشاب المسكين ، فانتظر إلى أن نام الجميع ، و مد يده إلى العلبة فرفعها من المياه فى خفة و أزال غطائها ، وجانبا من محتوياتها .

لم يكن البيروسول قد أثر بعد على نظر السفير فاكتشف العدوان فى الصباح التالى مباشرة ووقف وسط الزنزانة ممسكا بالعلبة فى يده وهو يزأر :

- مين الكلب اللى أكل من الحلاوة دى ؟

لم يفه أحد بكلمة و تحاشت الأنظار الاتجاه إلى توكل وربيبه ماكس (وهما مرشحان للاتهام بسبب موقعهما الاجتماعى و الدلوى) و تركزت على شرف (أضعف الحلقات) .

كرر السفير : حد قام بالليل و أكل منها .

بدافع الكيد للسفير أو إشفاقا على الشاب المسكين تدخل الدكتور :

- محدش . أنا معرفتش أنام طول الليل ومشفتش حد قرب منها .

وجه إليه السفير نظرات الاتهام ثم نقل البصر بين شرف و قروانة الما والعلبة مستعيدا القواعد الرئيسية للتحصينات الدفاعية كما درسها فى كلية أركان

الحرب ثم رفع العلبة إلى فمه ويصق فيها . ووسط ذهول الموجودين إنطلق يوزع بصقاته على أركانها قائلا وهو يبتسم في خبث ، مخاطبا شرف :

- كده محدش حيقرب منها غيرى .

دفعت الحادثة شرف في اتجاه الدكتور الذى لم تكن تفصله عنه غير نمرة واحدة . وكان الدكتور بعد انهيار سكرابل قد انصرف إلى مجلاته وكتبه ولم يبخل على شرف بالمعرفة فأقرضه ما شاء منها ، الأمر الذى أصابه بالاحباط .

فالمجلات كانت خالية تماما من "الصور" . ذلك أن الملتحين ألحقوا بإدارة السجن نوباتجيا من بينهم ، من المعجبين بالرقيبة على المصنفات الفنية : لا بجمالها وإنما بمهنتها ، فمارسها على مايصل السجن من مجلات ، مستخدما قيعان البطاريات القلمية في مسح صور النساء والرجال أيضا ، تجنبا لكل صور الانحراف . أما الكتب فكانت نوعين : اقتصادية و علمية فوق مدارك أشرف ، أو روايات مسرحية لا طاقة له على قراءتها .

أبدى شرف تعجبه من اهتمامات الدكتور فاعترف هذا بأنه كان عضوا في جماعة المسرح بالمدرسة و أضاف : المسرح حلو .

وافقه شرف قائلا أنه يحب المسرحيات التى يشهدها في التليفزيون ويتولى بطولتها "فؤاد المهندس " و "عادل إمام "و "محمد صبحي "و" أحمد بدير"، لكنه يفضل أفلام "فان دام " و" شوارزينجر". لم يعلق الدكتور و إنما استعار له من مكتبة السجن مسرحية توفيق الحكيم "رصاصة في القلب" التى أعجبت شرف (فلم يكن قد نسى هدى بعد) ، أو تظاهر بأنها أعجبته كي يحظى بتقدير صديقه الجديد ، حتى أنه إقترح عليه محاولة تمثيلها .

التمعت عينا الدكتور وقال وهو يتحسس شعر رأسه بأصابع طويلة رشيقة ليتأكد من وجود كل شعرة متبقية فى مكانها : ياريت . أنا قلت للمأمور نألف فرقة مسرحية من المساجين . مرضاش .

أن يتبادل سجين الحديث مع الباشا المأمور نبأ مثير . الأكثر إثارة تفاصيل الحديث الذى تناول موضوعات عديدة طلب الباشا خلاله من الدكتور أن يصف له بعض الأدوية المنشطة

استفسر الشاب الغر : منشطة لإيه ؟

ضحك الدكتور : تفتكر لإيه ؟

تأخر شرف فى الإدراك لأنه شخصيا لم يكن يحتاج إلى تنشيط . ولهذا السبب انتهز الفرصة ليستفسر عن الموضوع الذى يؤرقه . وأتحفه الدكتور بعرض علمى رصين : ليست هناك أضرار و على العكس ، أى عضو فى الجسم لا يستخدم يتعرض للضمور ، لكن المشكلة فى وتيرة هذا الاستخدام .

– تصور أنك بتشوف كل يوم فيلم لفان دام بتاعك أو جيمس بوند وتعيش فى عالم السوبرمان ؟ إزاى تكون علاقتك بالواقع ؟ (لم يفهم شرف المقصود) الأهم من كده الإحساس اللى بتسيبه جواك . إن فيه حاجة نقصاك .لأنك بتحضن صورة فى الهواء . مفيش أجمل ولا ألذ من حضن الجسم الحى

لم تكن تجربة شرف فى الحياة تتيح له فهم الجانب الحسى فضلا عن الفلسفى من حديث الدكتور الذى لم ينتبه للأمر وانتقل بسرعة إلى حديث الذكريات قبل أن يفقد مستمعه :

– لمابلغت عملت المناولة . رحت الكنيسة مع أبويا يوم حد . و بعد الوعظ القسيس قرا أجزاء من الإنجيل . وبعدين صلى على القربان . القربان ده حتة عيش ناشفة . كسرها فوق فوطة بيضة و قرب الفوطة من بقى فتناولت الكسر .

كانت هذه هى الفاتحة . فبعد شهوراستمنى الدكتورلأول مرة .انتابه الرعب وذهب للاعتراف . طلب منه القسيس أن يقرأ " السلام عليك يا مريم " عشرين مرة و يصوم يومين ، و أن يمتنع عن العادة الخبيثة . وعده بذلك و انصرف مشيعا بالمطلوب : " اذهب مغفورة لك خطاياك ". بعد يومين ضعف . ذهب إليه مرة أخرى . وتكرر المشهد . يعترف و يتوب فينال الغفران ويعود إلى البيت مصمما على الامتناع وفى مساء نفس اليوم يضعف فيذهب إلى القسيس فى اليوم التالى . وهكذا . و بعد عدة مرات خطر له أنه طالما يحصل على الغفران دائما فلا بأس أن يذهب إليه مرة واحدة فى الأسبوع . ثم جعلها مرة فى الشهر . و أخيرا إنقطع عن الذهاب نهائيا .

لم يكن شرف هو الوحيد الذى لجأ إلى الدكتورفي شئوون الجسد . فقد حرص كل واحد منهم على أن ينفرد بالدكتور ويقود الحديث بمهارة إلى بيت القصيد ، مع تنويعات . فاذا كان شرف يشكو من كثرة القذف فان رمضان شكى من سرعته وسامح عمر أفندى شكى من بطئه ، وأبو السباع من إنعدامه . و أسر عزت بيه وهو يمسح العماص من طرفى عينيه لا بحقيقة التهمة الموجهة إليه وهى اختلاس أموال جمعية إسكان ، وإنما بأن زوجته تتهرب دائما من ممارسة الواجب الشرعى . وأدار مستر تامر معه حديثا علنيا بالإنجليزية حول الأفروديسيات المساعدة ، انضم إليه السفير بأسئلة محددة عن الرويال جيلى والجينيسنج والمخدرات (فاضحا نفسه دون أن يدرى) ثم

تظاهربالموافقة مع الدكتور على أنه لا يمكن إحياء العظام وهى رميم (مؤكدا بذلك ما فضحه) . اثنان لم يحفلا باستشارة الدكتور لأن مشاكلهما كانت محلولة بفضل الأرواح ، هما بالطبع المهندس والشيخ فتحى . اثنان أخران النجآ للدكتور و إنما فى مشكلة من نوع آخر .

كان ماكس دائم الشرود مثل الدكتور ، لكن شروده على العكس من الأخير ، كان مصحوبا بالتدخين المتواصل وبابتسامة سعيدة . وفى أحد الأيام قامت مباحث مصلحة السجون بحملة تفتيشية واسعة بحثا عن الممنوعات . فى اليوم التالى تغيرماكس وأصبح شديد العصبية و أخذ العرق يتفصد من جبينة وامتنع تقريبا عن الأكل مكتفيا بالشاى والقهوة .وأعلن توكل لمن سأل أنه يعرف ما يحتاج إليه ماكس ، لكن العين بصيرة واليد قصيرة . و أخيرا لجأ للدكتور .

قال توكل أن الدكتور يملك مساعدة ماكس ومساعدة نفسه في آن واحد .

كيف ؟

الولد سيجن إن لم يحصل عل حاجته .

- طب و أنا أقدر أعمله إيه ؟

- مش حضرتك برضه أجزجي ؟ إحنا عاوزين الأوزان وبس .

فالتركيبة و المواد متوفرة : ماء يود ، فوسفور أحمر ، إفدرين ، كحول ، جليسرين ، إكرار فيلافين ، بيكربونات صوديوم . لكن النسب لا يعرفها غير المعلمين الكبار و لا يكشفون عنها لأحد إلا مقابل مبالغ ضخمة تصل إلى ربع مليون جنيه .

أكد توكل إن إقتراحه نو طابع إستثمارى :

– الميه النضيفة غالية . الحقنة ب ٦٠ جنيه والوسخة الحقنة ب٣٠ جنيه . ده بره السجن فما بالك جوة ؟ إذا كان على الغلابة كيفهم برضه موجود . العشرة سنتى بخمستاشر جنيه وفيه سنتي واحد بتنين ، نعملنا مطرح . مسمعتش عن المطرح ؟

تولى ماكس الشرح و على وجهه نظرة حالمة : الواحد يروح مع مجموعة من خمسة لتسعة ويمر عليهم واحد بالوسكايه : قزازة فيها تلات أربع لتر ورخيصة جدا . تمنها ميت جنيه أومية وخمسين . كل واحد يتحقن سنتي سنتى على المهل لغاية ما تنتهى الوسكايه بعد ست ساعات .

ثم انتهز الفرصة ليوضح أنه لم يسرق إلا بسبب المخدر و لهذا فهو على ثقة من الإفراج لأنه من نجوم المجتمع و يجب أن يعامل مثل ممثلى السينما الذين يفرج عنهم فى قضايا المخدرات .

أبدى الدكتور تفهمه للإيضاح الإجتماعى و اعتذاره عن السؤال الاقتصادى متحججا بقسم أبقراط الذى لم يسمع به توكل ولا ماكس بالطبع. اعتقدا أنه يسخرمنهما أو ينوى العمل لحسابه ، فأسراها فى نفسيهما وانضما إلى السفير فى حلف معاد بعد حادثة الهامبورجر .

ففى إحدى المرات أرسلت أم شرف إلى حبة عينها ساندوتشات الهامبورجرالتى يعشقها ووجدها الدكتور فرصة لمحاضرة عن أضرار اللحوم غير المطهية جيدا : طفيل إسمه التكسوبلازما يحدث تشوهات فى العصب البصرى وخلايا المخ ويعرض المرء لأمراض الكبد والطحال .

وسواء عن قصد أو غير قصد ، ندد الدكتور بصوت لم يحرص على خفضه ، بأولاد الحرام الذين يستوردون اللحوم الملوثة

كانت الإشارة الأخيرة كفيلة بإثارة سعادة السفير . لكن فمه كان ممتلئا ساعتها . فانتظر إلى أن حانت فرصة الرد عندما تحدد يوم الاحتفال بعيد ميلاد الدكتور ، جريا على عادة الزنزانة فى الاحتفال بأعياد ميلاد نزلائها .

ففى اليوم المحدد ، ظهررمضان عند التمام و معه مسجلة وشريط . حصل على المسجلة من الدكتور ثابت و على الشريط من الطابق الثانى .

بعد العشاء بدأ الحفل وافتتحه ماكس بإدارة المسجلة والشريط . وإنطلق صوت الشيخ عمر عبد الكافى فى فضاء الزنزانة :

" و احد بيقول إحنا جيراننا و زمايلنا فى الشغل مسيحيين .. نصارى .. بتيجى لهم أعياد ، نروح نهنيهم ؟ ..كل سنة وانت طيب يا بطرس .. كل سنة وانت طيب يا إسحاق .. يا وليم .. آه .. ينفع الكلام ده ؟ الإسلام يقولك ما ينفعش.. ليه ؟ لأن إنت لما .. هو عنده عيد مثلا .. عيد القيامة . عندهم عيد اسمه عيد القيامة اللى قام فيه السيد المسيح .. زى ما بيقولوا يعنى .. . فاذن إنت لما تروح تقول له فى عيد القيامة كل سنة وانت طيب .. أنت أقريت من نفسك إن إيه ؟ إن فيه حاجة إسمها قيامة المسيح ... صح والا لأ؟ يبقى هذا إقرار ضمنى من جواك إن فيه للمسيح قيامة .. وإنه مات وصحى .. وإنه بعث لكى يحكم العالم لأنه ابن الرب أو لأنه ابن الله ... والكلام ده كله حرام .. ما ينفعش إنك تروح للمسيحى و تقول له كل سنة وانت طيب ..لكن لو شفته فى السكة قوله ازيك . يقولك يا سيدى أنا زعلان منك .. ليه ؟ زعلان منى ليه يا بطرس ؟ يقولك ما جتش تعيّد على ليه؟ الله .. هو انتو كان عندكم عيد ؟ آه .. امبارح كان عيد القيامة .. يا راجل... هـ ...توِّهه ..المهم متقولوش كل سنة وانت طيب .. العب معاه.. المهم ماتقولش إن عنده عيد . "..

ساد الوجوم الزنزانة . ورفع مهندس الأرواح الشريرة رأسه من القرآن وقد التمعت عيناه وارتسمت على شفتيه إبتسامة لأول مرة . وعلت وجه السفير، الذى كان يحتسى الشاى من مج خزفى مزركش ، إبتسامة صفراء انتقل لونها إلى وجه الدكتور رمزى .

لم يكن الدكتور رمزى مسيحا ولا كان يأمل فى أى قيامة لكن الرسالة وصلته فلم يحتفل بعيد ميلاده فى تلك الليلة ولا فى الليالى التالية وكف عن عرض أفكاره و تعليقاته إلى حين ، منصرفا إلى تدوينها فى أوراقه ، و انغمس في مجلاته وكتبه وعزف عن الاستماع لشرف أو الحديث إليه ، فدفع به ، عن غير قصد بالطبع، إلى أحضان عبد الفتاح .

(١٠)

نادوا على للزيارة وأخذنى الحارس إلى المكاتب . وجدت المحامى الذى وكلته أمى فى انتظارى . كان قصير القامة ، ممتلئ الجسم يرتدى ملابس كاملة رغم حرارة الجو : سترة كاروهات رمادية اللون من صناعة المحلة فوق بنطلون من الصوف الخفيف ، داكن اللون و قميص من قماش أبيض لامع ، يبرز منه كرشه ، و كرافتة ذات ألوان صارخة . وكان يضع فوق ركبتيه حقيبة جلدية، من النوع المزود بقفل يعمل بالشفرة ، تبدو عليها الجدة ، وتشبه حقائب السامسونايت ، لكنها لم تكن تحمل علامتها المميزة . وكان يرتدى حذاء أسود اللون بلا رباط ، من نوع رخيص ، انبعجت جوانبه عند الأصابع و تآكل جانب من نعله .

جلست أمامه على مقعد فتلقيت هواء مروحة قديمة من إنتاج المصانع الحربية كئيبة الشكل ، وضعت فوق خزانة معدنية . وكانت هناك واحدة أخرى حديثة من طراز توشيبا فوق المكتب . لكنها كانت متوقفة .

قال لى : احكيلى يا أشرف كل حاجة من طأطأ لسلامو عليكو .

حكيت له كيف تعرفت بجون و دخلنا السينما . وانتبهت إلى أنه لا ينظر إلى و إنما يتطلع إلى النافذة المسورة بنظرة شاردة فكففت عن الكلام . ولم يعد يتردد فى الغرفة سوى الطنين المرتفع للمروحة .

قال دون أن ينظر إلى : كمل . أنا سامعك .

أكملت قصتى و عندما انتهيت ظل صامتا دون أن يرفع عينيه عن النافذة .

تشجعت وسألته : رأى سعادتك ؟

قال : خير إنشا الله .

تطلعت إليه مستفسرا .

قال : الجلسة الجاية تقول للقاضى ان الإعتراف بتاعك كان تحت التعذيب وتنكر كل حاجة .

قلت : و تفتكر ياخد بكلامى ؟

نهض واقفافى نشاط وهو يقول: ربنا يسهل .

أعادنى الحارس إلى العنبر . لم أدخل زنزانتى وتابعت السير حتى زنزانة عبد الفتاح . وجدت صديقيه شحاتة وزغلول يجلسان أمامها فى الطرقة يلعبان القماربأغطية الكوكاكولا . كان الأول قصير القامة يعتنى بشاربه الكث وملابسه الريفية و يكبرنى فى العمر بعدة أعوام و يتميز بالتحفظ الشديد على عكس الثانى الحليق المهزار والودود الذى تجاوز الثلاثين . كانا من قريته و مشتركين معه فى نفس القضية . هتفا فى نفس واحد عندما رأيانى :

– عاوز عبده ؟ شوفه جوه . يمكن نايم .

وقفت مترددا فى مدخل الزنزانة . كان أحدهم قد حاول حجب الضوء ببطانية ثبتها فوق النافذة لكن طرفها تدلى كاشفا عن النزلاء الغارقين فى نوم القيلولة . وسقط جانب من أشعة الشمس بجوار عبده الذى رقد على ظهره وغطى وجهه بقطعة من قماش خفيف يشبه الناموسية لكى لا يزعجه الذباب .كان قد خلع جلبابه مكتفيا بفانلة بحمالتين من النوع المخرم وسروال فلاحى فضفاض يصل إلى ركبتيه .

ناديته بصوت خافت فهب جالسا وهو يتلفت حوله مبهوتا . انطرحت الناموسية عن وجهه وإستقر الضوء عليه . كان خداه متوردان من أثر

النوم . كذلك كانت شفتاه . و كان كتفاه ممتلئين مدوربن يهبطان إلى ذراعين نحيلين . وظهرت حلمتى ثدييه من بين خروم الفانلة .

أشحت بوجهى بعيدا وسألته إذا كان يريد مواصلة النوم فأجاب بالنفى . نهض واقفا فاستدرت و غادرت الزنزانة .انتظرت فى الخارج حتى ارتدى جلبابه.

قال بمجرد خروجه . ولع لنا نص .

كان يحتفظ بسجائره معى و عندما نفترق فى نهاية اليوم يأخذ لنفسه سيجارة واحدة يدخنها على عدة مرات بالإشتراك مع أصدقائه . أشعلت نصف سيجارة و انتحينا جانبا .حكيت له ما دار بينى وبين المحامى من حوار، فبدا عليه عدم الإرتياح .

قال : تفتكر البوليس و النيابة يسكتولك أو القاضى يصدقك ؟

– أنا قلتله كده

– وقالك إيه ؟ كان لازم تاخد و تدى معاه .

قلت : مكنش سامعنى خالص .

كنت فعلا قادرا على تمييزمن يتظاهرون بالإصغاء إلى بينما هم يفكرون فى شئ آخر ، حتى وهم يواجهونى بنظراتهم . كان الدكتور رمزى واحدا منهم فعندما ينظر إلى مباشرة ألاحظ أنه يحلق فى مكان آخر .

عبد الفتاح كان مختلفا . كان يصغى إلى بكل جوارحه . ويشعرنى بأن كل كلمة أقولها مهمة للغاية . وقد أدركت هذا كله يوم زيارة أمى وصرت أستريح للحديث معه .

قال : على العموم من هنا لساعتها تتحل . ع الأقل حتشوفه يوميها قبل الجلسة .

قلت متشككا : إن جه .

كانت أمي قد وكلته قبل أكثر من شهر ونصف ومع ذلك لم أقابله أو حتى أراه سوى اليوم .

نادى الدهشورى علينا كى نخرج إلى الفناء ولمحت الدكتور ثابت محفوظ يغادر زنزانته بمشيته المتخشبة . كان يرتدى قميصا أبيض اللون بنصف كم، من طراز "سان ميكل"، وشورتا مخططا بالطول من طراز "هارتفورد" ، ونظارة شمسية من طراز " ماتسودا " .

أشار عبد الفتاح إلى حذائه و سألنى : " ميستر" والا " بالى" ؟

كنت قد اكتشفت أنه لا يعرف الكثيرمن الأشياء مثل بعض أنواع السيارات والفروق بين ماركاتهاو بالطبع لا يفهم فى الملابس واكسسواراتها فحدثته عن هذه الأموروهو يصغى مبهورا . واستغرب أن تكون للأحذية ماركات .

تفحصت النقوش التى تغطى حذاء الدكتور ثابت وقلت : لا ده ولاده . شايف التمساح . يبقى " لاكوست " .

لمحت مستر تامر يؤدى التمرينات الرياضية فوجدتها فرصة لإبهار عبد الفتاح . شرحت له أسماء الملابس التى يرتديها : "سويت شيرت" وشورت "برمودا " وكاب " يا ماموتو" الجبردين .

تشابكت يدينا كالعادة و أخذنا ندورحول الفناء .انطلقت أحكى له قصة فيلم أحبه لشوارزينجر تختطف فيه عصابة ابنته الصغيرة ويأخذونه فى طائرة إلى أمريكا اللاتينية . لكنه يقفز من الطائرة فى اللحظة التى ارتفعت فيها عن الأرض و يبدأ مطاردة أفراد العصابة ليعرف مكان ابنته ويقتلهم واحدا بعد

الآخر . وخلال ذلك يقتحم سوبر ماركت ببلدوزر ويهرب من الشرطة مرتين ويسرق طائرة برمائية يذهب بهاإلى الجزيرة التى حبست ابنته فى أحد قصورها ويتسلل إلى القصر حاملا مدفعا رشاشا وراجمة صواريخ وعدة آليات فيتصدى لجيش كامل من الحراس المسلحين ويقتلهم واحدا بعد الآخرإلى أن يواجه عدوه القديم رئيس العصابة فيدور بينهما قتال دموى ينتهى بانتصاره وتحرير الطفلة. وهنا يصل جنرال الجيش المكلف بمطاردة العصابة فيقول له هل تركت لنا شيئا فيرد عليه شوازينجر بعبارته المشهورة : بعض الجثث فقط . فيعلق الجنرال : كالعادة .

أعجب بالفيلم فحكيت له فيلما آخرل"فان دام " يستأجر فيه حجرة لدى أرملة تعيش وحيدة مع طفليها . وتهددها عصابة تريد ضم المنطقة إلى مشروع مشبوه ولايتورع أفرادها عن كل وسائل التهديد والضغط بل حتى القتل .وتبدو لحظة المواجهة غير متكافئة فالشريف نفسه يقف إلى جانب الأشرار. أما الأرملة فليس إلى جوارها غير فام دام بقبضته الفولاذية وطفل صغيرذى أفكارشيطانية . ثم يخرج فان دام فى النهاية منتصرا ويفوزبقبلة من البطلة لكن القيود توضع فى يديه تمهيدا لمحاكمته في قضية سابقة تتعلق بسرقة بنك !

روى لي هو قصة فيلم يقوم فيه "عادل إمام " بدور عامل فى السكة الحديد يلتقى ب"يسرا "التى رفضت التفريط في شرفها عندما حاول رجل أعمال إستغلالها في صفقاته . أعجبتنى قصة الفيلم جدا كما أعجبنى تمسك يسرا بشرفها والحب الذى نشأ بينها و بين عادل إمام .

لمح السجين الذى يتولى توزيع الخطابات فأفلت يده من يدى و جرى نحوه. اقتربت من الحائط ووقفت مستندا إليه . مرت جماعة من السجناء أمامى بينهم السجين الذى يزين أصابعه بالخواتم . كان معروفا باسم عزيزة

ويمشى بطريقة فاضحة متلويا كالنساء . رآنى أتأمله فغمز لى بعينه وهتف : أمال فين الفردة بتاعتك ؟

أشحت بوجهى متجاهلا . لم يكن أول من أطلق على كل منا أنا وعبد الفتاح لقب فردة الآخر . فقد صار تلازمنا موضع حسد الكثيرين .

عاد عبد الفتاح كسيف البال . رويت له ما حدث فعلق فى إشمئزاز . مش عزيزة؟ سيبك منه . مفيش جوابات . لا لى ولا لك .

أشعلنا نصف سيجارة و قلت : أنا مش مستنى جوابات من حد .

لم يكن هناك ما يدعو أحدا من أهلي للكتابة إلى ، وسيد إختفى ، أما هدى فيبدو أنها نسيتنى .

حدق فى بعينيه العسليتين الواسعتين غير مصدق . يا راجل !

كنت قد حكيت له كل شىء بصراحة . من أول قصة الحلاوة الطحينية إلى أبى الذى لا يكف عن نهرى وإهانتى و هدى التى أغرمت بها وكيف تعارفنا والتقينا وكيف كنا ونمشى بالساعات ويدها فى يدى . ثم كيف تغيرت فجأة دونما سبب وأصبحت تتهرب منى .

قلت : مش قادر أفهم إزاى اتغيرت .

سألنى إذا ما كنت قد عرضت عليها الزواج .

تأملته مدهوشا : الجواز ؟ لا طبعا . إزاى أقولها ع الجواز و أنا أهلى بيصرفوا على ؟

هز رأسه فى حكمة المجربين : البنات تحب تسمع كلمة الجواز .

شردت قليلا أحاول أن أتذكر تعبيرات وجهها وكلماتها ومراحل تغيرها .ثم سألته إن كان قد أحب أو فكر فى الزواج . قال أنه يحب إحدى فتيات القرية

لكن أهله مصرين على تزويجه لإبنة عمه فى صفقة تبادلية تتضمن زواج أخته هو لابن العم . ورقت نظراته لذكر أخته وجعل يصفها لى بطريقة حببتنى فيها .

حدثته عن أختى عايدة وكيف أنها تزوجت مبكرا ولم تعرف السعادة لأنها اضطرت للسكنى قرب مصنع الكيماويات الذى يعمل فيه زوجها و أصيبت بالحساسية نتيجة الأبخرة المتصاعدة منه . وعندما فشل علاجها كان لا بد من مغادرة المنطقة والإقامة مع أمه التى دأبت على إساءة معاملتها . ثم وصفت له فاطمة التى تعمل فى البوتيك و خطبت عدة مرات دون أن تنجح واحدة منها . سألنى عنها فوصفتها له . وأضفت أنى أتمنى أن أعرفه بها . قال أنه يود نفس الشئ بالنسبة لى وأخته .

قلت : إن شاء الله أول ما نطلع تزورنا .

قال فى وجوم : إدعى ربك .

حكيت له عن شلة المعادي : عمرو طالب الهندسة الذى يقود السيارة واقفا ، بحيث يكون جسمه خارجها وقدمه اليمنى على البنزين . وهشام طالب الشرطة الذى زود سيارته الجيب بكافة أنواع السرينات و يغوى إطلاقها متتابعة . ووصفت له الموتورسيكل الغريب الذى يشبه سيارة جيب صغيرة والذى أهداه أبوه لشقيقه الأصغر فى عيد ميلاده الثالث عشر وثمنه ١٠ الاف جنيه . وشرحت له لعبة البولينج التى يلعبونها فى صالة مخصوصة ثم حكيت له قصة سالى فتعجب من أمرها وسألنى عن عملها .

قلت : ماكانتش لاقية شغل . كانت بتقول أنها خريجة سياحة و فنادق وتعرف ايطالى .

– منين هى . فين أهلها ؟

- كانت بتقول إنهم ساكنين في الزمالك و إنها متخانقة معاهم وساياهم.

- تبقى كانت بتستغلكم .

- لا و الله . كانت كريمة جدا . لما يكون معها فلوس مرة عزمتنا كلنا في "بيتزا هات" و صرفت علينا متين جنيه حتة واحدة . كانت أول مرة أشوفها بتاكل . دايما يا إما بتدخن أو بتشرب شاى .

قال : يبقى كانت بتاخد أقراص .

تدبرت قوله فوجدته معقولا . ورويت له آخر مرة رأيتها فيها . كنت قد ذهبت بالليل إلى الشارع الذى نقف على ناصيته فى المعادى ووجدت وفيق معها وكان مخدرا تماما مضطجعا فوق ظهر سيارة تحت شجرة . وقفنا نتحدث في انتظار أن يأتى أحد من الشلة ثم قالت أنها تريد سجائر وليس معها نقود و قلت لها أنه ليس معي أنا الآخر و بعد قليل قالت أنها تريد أن تقضى الليلة عند صديقة لها و أنها لا تستطيع المشى لآخر الشارع . سألتها عن السبب . أجابت بحدة : دى حاجة شخصية . قال وفيق أنه ليس معه نقود هو الآخر فقلت ننتظر حتى يأتى واحد من الشلة . فجأة لمحت عمرو خارجا من فيلته و ركب سيارته و مر من أمامنا . قلت له رايح فين فقال : محطة البنزين على الكورنيش عشان بيبيعوا هناك المارلبورو اللى فى علبة مثل الكنت . لاحظت أنه مخدر جدا . قلت له : سالى عايزة تروح عند صاحبتها فوافق على توصيلها . ركبت معهما وقاد ببطء شديد و أنا أنبهه للطريق لغاية ما وصلناها و رجعنا .

أشعل عبد الفتاح نصف سيجارة و قدمه لى . قلت : تعرف يا عبده أنى حاسس زى ما نكون اتولدنا مع بعض أو نعرف بعض من زمن بعيد . قال إنه يشعر بنفس الشئ و تعاهدنا على ألا نفترق أبدا .

أضاف بعد لحظة : حظنا كويس إن عندنا نفس التهمة . فبعد شوية حيوزعوا الإيراد الحرامية فى زنزانة و بتوع النفوس زينا فى واحدة غيرها . يمكن يحطونا سوا .

قلت : ولما نطلع نهاجر سوا .

قال : أنا خلاص تعبت من الهجرة . أنا عاوز أرجع بلدنا و أزرع .

قلت :آجى معاك وأزرع أنا كمان .

قال : حد يسيب مصر وييجى فى الهو اللى إحنا عايشين فيه ؟

حكيت له عن منطقة سكنى وكيف أطل على ترعة أصبحت مقلبا للزبالة . وكيف نشرب من مياه الطلمبات الجوفية رغم علمنا التام بأنها مختلطة بمياه الصرف الصحى لأننا لا نقدر على شراء المياه النقية التى يحضرها بعض الأشخاص فى جراكن ويبيعون الواحد بربع جنيه . فلواعتمدنا عليها لكلفتنا ٧٥ جنيه فى الشهر .

قال : يبقى تعالى شوفنا بنشرب منين .

قلت له أن المواصلات العامة عندنا تنقطع بعد الساعة الرابعة عصرا . وأن كشف الطبيب بالوحدة الصحية قيمته جنيه من غير السماعة وثلاثة إذا استخدمها . و أنه لا يوجد بالمنطقة سوى فرنين اثنين يخدمان ١٦ ألف نسمة فلا نجد الخبز إلافى الصباح .

رمقنى بنظرة جانبية وقال : برضه أحسن من عندنا ، رغيف العيش عندكم بخمسة قروش وعندنا رسمى بسبعة . و كل حاجة عندناثمنها دوبل . ولوحبيت أشترى حاجة حلوة ملاقيش غير ملبن مفعص وحلاوة طحينية . إنتو هنا عندكو كل حاجة . البيوت عندكو طين ؟ أنا كنت عايش فى مطرح

واحد من الطين مع أمي وأخواتي . مقدرتش أبنى بيت زى الناس . عشان كده سافرت و اتبهدلت . نمت في شوارع عمان و بغداد .

- وبنيت البيت ؟

- لا . رجعنا كلنا بعد حرب الخليج . كان القطن نزل لخمس قناطير في الفدان . تصور بعد تمن شهور شغل في الأرض . اللوز ما فتحتش ... ما كانش فيه مية و إضطرينا نروى بمية المجارى .و دى كانت مصيبة . الدود زاد . والمبيد مكنش موجود في الجمعيات . مرشناش . وحتى لو كان موجود . الموتورات خلصانة.

- محاولتش تسافر تاني ؟

- سافرت . جبت عقد للسعودية بعد ما رهنت القيراطين اللى حيلتنا . مكملتش سنة . ربنا ما يوريك . المصرى هناك عبد تحت رحمة الكفيل السعودي . الباسبور بتاعك معاه .متقدرش تخرج من المدينة اللى هو فيها ولا حتى للحج أو العمرة من غير موافقته .السفارة بتاعتنا نفسها تطلب مننا موافقة الكفيل لما نيجي نجدد تصريح العمل .

- ومشيت إزاى ؟

- أنا حظي وحش دايما . قبل ما السنة تخلص راح الكفيل للشرطة وقالهم أني سرقت منه بضاعة . دخلوني السجن من غير ذنب . و بعدين الشرطة قالتلى إنهم ممكن يفرجوا عنى بشرط أني أتنازل عن كل مستحقاتى عند الكفيل . أعمل إيه ؟ وافقت وأول ما خرجت رحلونى على مصر فى أول طيارة من غير حتى ما آخد هدومى .

ذاب قلبى إشفاقا عليه ووضعت ذراعى على كتفه شاعرا بالرغبة فى أن أضمه إلى صدرى .

انضم إلينا الدكتور رمزى وسمع عبارة عبد الفتاح الأخيرة فعلق قائلا:

- وإيه اللى جبرك على كده ؟ مش كان أحسن تزرع فى بلدك ؟ يعني كان لازم تليفزيون و فيديو و سهر لغاية الصبح ؟.

رد عليه منفعلا . يعنى انتو مش بتسهروا فى مصر ؟ وبعدين حقولك حاجة : إحنا بنبيع قنطار القطن بخمسمية جنيه . تعرف بيطلعلى كام فيهم ؟ مية و خمسين . تعرف الشركات اللى بتشتريه بتبيعه بكام فى أوروبا ؟ بألفين وخمسماية ؟ ده يرضى ربنا ؟

قال الدكتور : بس لما كل الفلاحين يسافروا مين حيزرع ؟

- وانتو بتسافروا ليه ؟ إحنا مش بنسافر عشان نشترى شقق تمليك وفيلات وشاليهات و عربيات أوعشان نحط كذا ميت ألف عند الريان والسعد . بنسافر عشان نخرج من فقرنا ، عشان ناكل . ماهاجرناش عشان نبعت لبيوتنا الالافات كل شهر يشترى بيها الإولاد الهيروويين و إنما عشان نجيبلهم جزمة وجلابية . ليه تبقى التلاجة و الغسالة و التليفزيون الملون والتكييف وحمامات السباحة حلال ليكم و حرام علينا ؟

ارتبك الدكتور أمام عنف الهجوم و قال : أنا مقلتش حاجة . أناببص للنتيجة . إحنا مضطرين نشترى القمح من بره .

- طيب هى فين الأرض دى اللى نزرعها قمح ؟

- هو انتو خليتو أرض . ما انتو بتبنو عليها .

- سبحان الله . يعنى مش من حقنا نسكن زيكم فى بيوت زى الناس والا عاوزينا نفضل عايشين فى عشش طين فى الوقت اللى عندكو بدل الشقة

إتنين و تلاتة ؟ طب إدونا أرض نبنى عليها. فين هى الصحرا اللى انتو بتتكلموا عليها في التليفزيون ؟

لاحظت أن الدكتور رمزى لم يغضب و إنما كان يفكر . و نادى علينا الدهشورى لنعود إلى العنبر . فاتجهنا إلى بابه بخطى متثاقلة . لمحت سامح ممسكا بالحافظة الجلدية الصغيرة التى تضم علبة الشطرنج . كان قد شرح لى قواعد لعبها فقلت لعبد الفتاح . تحب أعلمك الشطرنج ؟

قال : يا ريت .

لحقت بسامح و سألته إذا كان يمكن أن يقرضنى علبته لأعلم عبدالفتاح. اعتذر بأنه سيلعب الآن مع الدكتور رمزى . عدت لعبده وقلت له أنى سأحصل على قطع أفضل من العنبر الآخر . كنت أقصد التى يصنعها عم فوزى من لباب الخبز . أما الرقعة فيمكن رسمها فوق غطاء صندوق "نيدو" أو " تانج" .

هز رأسه قائلا : منصحكش .

قلت : ليه ؟

قال مشيرا إلى أعلى : الجماعة مانعين الحكاية دى هنا . أى حاجة معمولة من العيش حرام .

وقفنا فى الطرقة لا ندرى ما ذا نفعل . واقترح أن نذهب إلى زنزانته لنلعب الورق . لعبنا البصرة مع صديقيه إلى أن حان موعد التمام . وشعرت بالاكتئاب عندما تصورت زنزانتى .

و كأنما قرأ أفكارى إذ قال : يا ريتك تفضل معانا للصبح .

قلت : إسمع . عاوزك تروح لتوكل وتقوله ان عيد ميلادك النهاردة و إنك عازمنى عندكم . شوف حيقول إيه .

لم أشأ أن أذهب بنفسى إذ سبق أن تحدثت معه في شأن الانتقال كلية إلى زنزانة عبده لكنه رفض الفكرة متذرعا بأن كشوف التسكين فى المكاتب ولا يستطيع التدخل فيها .

انطلق عبده يبحث عنه . وإتجهت أنا إلى زنزانتى فوقفت فى مدخلها وقلبى يدق . ترددت صيحات التمام . و رأيت عبده يقترب و وجهه طافح بالبشر.

قال لى عندما أصبح بجوارى : كله تمام . عاوز علبة .

قلت و أنا أستدير داخلا الزنزانة : علبة عشان ليلة واحدة المفترى ؟ زى بعضه .

- ولازم واحد من عندنا ييجى مكانك . عشان كشوف التمام .

- و النبطشى بتاعكم ؟

- متشيلش همه .

أحضرت السجاير وحملت نمرتى وبطانيتىّ وانتقلت إلى زنزانة عبده . وحل أحد بلدياته مكانى .

كان عبده يحتل الركن الذى يشغله عزت بيه فى زنزانتى، بين صديقيه شحاتة و زغلول . ورحب الاثنان بى وأفسحا لنمرتى مكانا بجوار عبده ، بينه وبين شحاتة . كانت هناك بضع سنتيمترات من الأسفلت العارى بين كل نمرة وأخرى فلم يزد عدد النزلاء على عشرة . و كنت أعرف من عبده حكايات أغلبهم.

كانت هناك أسرة كاملة من تاجر مخدرات و ابنى أخيه . واحتل الركن الذى يلى نمرة شحاتة رجل متين البنيان ، شديد الاعتناء بملابسه ومظهره، مارس الطب بدون شهادة لمدة ١٧ سنة فى المستشفيات الخاصة والحكومية

بينها مستشفى الشرطة والقصر العينى و السلام الدولى وذلك بعد أن زور جميع مسوغات تعيينه وخطابات توصية من وزير الصحة و نقيب الأطباء . وبعد الحكم عليه وارتدائه الملابس الخضراء قدم للمحاكمة من جديد . فأثناء وجوده فى السجن زور عدة توكيلات لشقيقته لصرف مستحقاته من المستشفيات التى عمل بها .

وكان هناك اثنان لهما قصة غريبة . الأول معلم صاحب مصنع للحلاوة الطحينية فى باب الشعرية يستخدم موادا فاسدة فى صناعتها . والثانى هو مفتش التموين الذى قبض عليه . فبعد ذلك بأيام ضبط ٧٠٠ صفيحة جبن فاسد لدى بقال وتحفظ عليها فى ثلاجة بباب اللوق ثم طلب من البقال عشر الاف جنيه له ولأمين الثلاجة مقابل تمكينه من سحب كميات الجبن من الصفائح وملئها بمواد أخرى . والظاهر أن شخصا ثالثا لم يحصل على نصيبه أبلغ عنه. واجتمع مفتش التموين بصانع الحلاوة بالصدفة البحتة فى نفس الزنزانة .

رحب بى النوبتجى وكان صعيديا متقدما فى السن ، يقضى عقوبة مؤبدة فى قضية ثأر، وجئ به من سجن قنا إلى القاهرة ليجرى عملية جراحية فى القصر العينى . ألحف على بسيجارة و أصر أن أتعشى فوق نمرته . وتمسك عبده بأنى ضيفه ولا بد أن يتكفل هو بعشائى فدعانا نحن الإثنين . وتبين أن عبده لا يأكل بمفرده و إنما مع صديقيه . وفى النهاية تعشينا نحن الخمسة سويا . و تكونت أمامنا مائدة حافلة بها نوعين من سمك البلطى ، واحد مقلى و الآخر مشوى ، و طاجن من الأرز المعمر أرسله إليه أهله من سوهاج مع أقاربه القاهريين الذين يحضرون له طعامه مرتين فى الأسبوع . و بعد العشاء قدم لى النوبتجى الشاى وسيجارة .

اشتدت حرارة الجو فخلع عبده جلبابه و بقى بالفانلة و السروال . وخجلت أن أفعل مثله . وجلست فوق نمرتى المبسوطة إلى جواره سعيدا

بالحفاوة التى قوبلت بها . كان كل من يشعل سيجارة أو نصف واحدة يصر على أن يكون لى النفس الأول . وتمنيت لو كنت أعيش معهم دائما .

طلب منى شحاتة أن أقص عليهم أحد الأفلام التى رأيتها . واكتشفت أن عبده ينقل إليهم ما يسمعه منى . حكيت لهم قصة فيلم أمريكى سمعتها من مستر تامر ، عن سكرتيرة أمينة مجتهدة و طموح رغم أنها لا تحمل شهادة عليا تطرد من عملها لأنها تمسكت بشرفها وتجد عملا كسكرتيرة لمديرة فى شركة استثمارات . تقدم السكرتيرة لمديرتها مشروعا جريئا يدرعمولة ضخمة يقوم على إقناع مليونير يتميزبالإستقامة والأمانة بشراء محطة راديو . تتظاهر المديرة بأن المشروع لم يعجبها بينما تعمل على تنفيذه فى السربالتعاون مع شركة استثمار أخرى ناسبة فكرته إلى نفسها . تكتشف السكرتيرة الأمرفتقررالانتقام . تنتحل شخصيتهاوتتصل بمديرشركة الاستثمارالأخرى الذى يقع فى غرامها ويحتالان حتى يلتقيا بالمليونيرفى حفل زفاف ابنته فتقنعه أثناءالرقص معه بشراء محطة الراديو لكن المديرة تكتشف الأمر وتتهمها بالاحتيال والكذب ، وتعجزالسكرتيرة عن الدفاع عن نفسها فتترك الشركة وتوشك المديرة على إنجازالإتفاق لمصلحتها لولا أن المليونيرالأمين يكتشف الحقيقة فيعين الفتاة مديرة لشركاته و تتزوج مديرشركة الإستثمار الأخرى ، وتتحقق كل طموحاتها .

علق تاجر المخدرات : لو مكنش المليونير أمين مكنتش البنت كسبت . آدى الفرق بينا و بلاد برة .

قال الدكتور : إحنا معندناش أمانة خالص . شوفوا دكاترة الطب واللى بيعملوه فى الناس .

ضحك عبده فاحتد الدكتور : بتضحك ؟ أنا مفيش حد مات منى ولا اتسرقت منه كلوة أو واحدة قلتلها إن عندها ورم و هى معندهاش . أنا اللى متخرجتش من كلية الطب كل اللى عالجتهم خفوا ..

سألته عن تخصصه فقال أنه باطنى و أطفال فى الأساس لكن يعالج أيضا أمراض الصدر والقلب والحساسية والنفسية وأضاف ضاحكا : زى ما بيعمل الدكاترة التانين بالضبط .

أثارت شخصيته فضولى فسألته عن قصته . وعرفت أنه أصلا من أسرة فقيرة جدا و يحلم من الصغر بأن يصبح طبيبا . كان يعيش فى منطقة الهرم و تعلم اللغة الإنجليزية فى الشارع من إحتكاكه بالسياح ثم تعرف على ثرى عربى عرض عليه السفر معه إلى بلاده للعمل عنده فتعلم الإنجليزية فى معهد متخصص وبعد عمل ٦سنوات سافرإلى ألمانيا والتحق بمعهد تمريض لمدة سنة عاد بعدها ليمارس الطب .

اشتبك عبده مع زغلول فى مصارعة عنيفة . تحاشيت النظر إلى صدره العارى وتأملت عضلات زغلول النافرة فى قلق . لم يعد لدى شك فى إنتصاره رغم ما أبداه عبده من جرأة وعنف . وبالفعل ألقى به أرضا و برك فوقه وأجبره على أن يعلن هزيمته بصوت مرتفع ثم رأيته ينحنى فوقه كأنما يريد أن يهمس له بشئ والتقط أذنه بشفتيه وإمتصها من أعلى إلى أسفل وعبده يقاوم ضاحكا ويحاول دفعه عنه .

شعرت بالضيق و التقت نظراتى بعينى مفتش التموين . كان فى سن سامح تقريبا وإن كان اللون الأبيض غزا شعر رأسه الغزير . قال لى : كان عندكم قاسم بيه .

سألت : إنت تعرفه ؟

ضحك وقال : أعرفه كويس .

لم أكن قد رأيتهما معا كما أن السفير لم يشر إليه بالمرة .

قال : أنا قبل ما اشتغل في التفتيش كنت في إدارة اللحوم . حظه حلو إنه خرج بكفالة .

تردد لحظة ثم غير الموضوع : أنا نفسي تقرا حيثيات الحكم بتاعي .

غير صوته مفخما إياه واستطرد : "هذه العقوبة رادع لكل من يسقط عنه ضميره فجأة فيصبح لا يجد خيرا في هذه الدنيا غير جمع المال بأية وسيلة ولو كان هذا على حساب هذا الشعب و صحة أبنائه " .

لوى شفته ثم قال : كل ده عشان حتة جبنة .

كنت أستمع إليه بغير تركيز شاعرا بالاحباط . و تمنيت لو لم أكن جئت. وشرع البعض بالغناء . وجاء الدور على النوبتجي فغنى بعض المواويل الصعيدية التى لم أفهم منها كلمة واحدة أتبعهابأغنية قديمة لم أسمعها من قبل عن أبى العيون السود و الوداد الذى ضاع و متى يعود . كانت الأغنية جميلة و حزينة . و شعرت فجأة بالرغبة فى البكاء .

استولى النعاس على البعض فأعلن النوباتجي نهاية السهرة وخلع المصباح الكهربائي . استلقى كل واحد فوق نمرته ورقدت على ظهرى أحدق في السقف . بينما رقد عبده على بطنه مديرا وجهه ناحية زغلول . وتردد تنفسه في عمق وإنتظام . وسرعان ما انضم إليه شخير زغلول المرتفع .

رفعت رأسي بعد قليل وأمعنت النظر إليهما . كان زغلول يرقد على جانبه الأيسر معطيا ظهره لعبده . و تفحصت المسافة الفاصلة بينهماومن الأسفلت العارى على ضوء مصباح الطرقة .

كان نومي متقطعا وفي الصباح كنت في حال سيئة . أردت أن أذهب إلى زنزانتي فقال عبده : تمشي من غير فطار ؟ لا يمكن .

أعد طبقا من المش الصعيدي إستخرجه من برطمان زجاجي كبيرخلف نمرة شحاتة . وأضاف إليه قليلا من الزيت و بضع قرون من الفلفل المخلل الحامي.

أكلت بدون حماس متحاشيا النظر إليه فسألني : مالك ؟

لم أرد .

أصر : فيه حاجة حصلت ؟

قلت : مفيش .

بدت عليه الحيرة و تشاغلت أنا بالأكل ثم سألته بعد لحظات :

– إنت تعرف زغلول من زمان ؟

قال : لا . أنا اتعرفت عليه في اللومان .

كان قد قضى به عدة أسابيع في زنزانة مجاورة لزنزانة الريّان المشهور .

قال : نفسي كنت تشوف زنزانته . متقوليش المخزن بتاعنا اللي فيه الدكتور ثابت . دا حاجة تانية خالص. ولا الهيلتون . موكيت و مروحة كهربا و تليفزيون ملون و ثلاجة فيها كل حاجة تيجي على بالك من أكل أو شرب وتلفون دولي .

سألته : و عشان إيه التليفون الدولي ؟

– بيضارب في البورصات بفلوس الغلابة اللي لمها و طلعها بره ..

– وإزاي السجن سمحلّه بكل ده ؟

هز كتفيه : الفلوس تعمل كل حاجة . دا حتى مراته كانت بتزوره كل خميس و جمعة .

– بتبات ؟

– كل شئ ممكن . على العموم هى خلفت و هو فى السجن .

ساد بيننا الصمت حتى انتهينا من الأكل . قلت وأنا أشعل سيجارة : قولى ياعبده . إنت حكيتلى عن إصحابك بس مقلتليش أنهو واحد فيهم كان عزيز عليك .

تأمل طبق المش الفارغ ثم قال : كتير .

ترددت قليلا ثم قلت : أكتر واحد .

– عويس . كان معايا فى المدرسة . وفضلنا على طول مع بعض بعد كده . ورحنا الأردن سوا .

– رجع معاك ؟

– لأ . مرضاش . قال إزاى يرجع من غير الريكوردر والفيديون

شربنا الشاى ثم ذهبت إلى زنزانتى وعندما حان موعد الطابور خرجنا إلى الفناء سويا و سرنا متجاورين فى صمت . وفجأة نادى أحد الحراس على عبده قائلا أنه مطلوب فى الإدارة . إضطربت أمعائى وعجزت عن التفكير .

مشيت خلفهما حتى بوابة الفناء . و لحق بى شحاتة و زغلول . قال الأول:

– يمكن ترحيل .

قال زغلول : لوحده ؟ طب وإحنا ؟

قال شحاتة : يمكن يندهولنا الوقت .

قضينا الساعة المخصصة للطابور واقفين بجوار البوابة دون أن يظهر أثر لعبده أو الحارس الذى صحبه . و نادى الدهشورى معلنا انتهاء وقت الفسحة فاتجه الجميع إلى بوابة العنبر فى بطء وتكاسل وبقيت في مؤخرتهم أتطلع خلفى طول الوقت . مضيت إلى زنزانته و ألقيت نظرة داخلها كأنما لأتأكد من غيابه ثم عدت إلى زنزانتي فوقفت في بابها . وانضم لى شحاتة بعد قليل .

قلت له أني أخشى أن يكون قد رحلوه فعلا . طمأننى قائلا أنه لايمكن أن يأخذوه مباشرة فلابد من أن يأخذ حاجياته الموجودة في الزنزانة ويتسلمون منه نمرته . وقفنا سويا حتى اقترب موعد التمام . وأحضر نوباتجية الخدمة دلاء الطعام و وضعوها أمام مدخل دورة المياه .

حاول شحاتة محادثتي لكنى كنت مضطربا عاجزا عن متابعته . وهتف الدهشورى طالبا دخول الزنازين ليقوم بالتمام وهنا لمحت عبده يلج العنبر . ورآني فلوح لى مبتسما . جريت نحوه وإحتضنته ثم قبلته فى فمه .

أبعدته عنى وأنا أتأمل وجهه :

– كانوا عاوزينك ليه ؟

قال : ولا حاجة . يملوا شوية أوراق .

– ترحيل ؟

– مقالوش .

تعالت صيحات الحراس في الطوابق المختلفة : التمام .

شرع الدهشورى فى التتميم على الزنازين و إغلاقهامبتدئا من دورة المياه . سحبت عبده من ذراعه و أردت أن أدخل الدورة لنكسب بعض الوقت معا لكن الدهشورى رآنا فنادى علينا لندخل زنزانتينا .

مـضـيـت مـعــه إلى زنزانتــه في نهـاية الطرقـة . في هذه الأثناء وصل الدهشـورى إلى زنزانتى فوقف أمامـهـا ونادى على غاضـبـا . ثم خطا نحونا منفعلا . جذبت عبده من ذراعه نحو زنزانتى لكن الدهـ ـورى صاح به :

– ارجع زنزانتك .

توسلت إليـه : مـعلهش يا حـضـرة الصـول . ربنا يخليك . حـأديله سجاير.

قال في حدة : لا . خلاص التمام . ابقى إديله بكره .

توسلت إليه فقال لى : روح إنت هات السجاير و هو يفضل هنا .

طرت إلى زنزانتى فأحضـرت ثلاث سـجاير ناولتها لعبـده فقدم واحدة للحارس .

أخذ الدهشورى السيجارة وتشاغل عنا .

قلت لعبـده : اسمع . بعد أدان العـشـا على طول تولع سـيـجـارة وأنا أولع واحدة ونفكرفى بعض .

أطرق برأسه و نادانى الدهشورى للمرة الثانية فمضيت إلى زنزانتى .

(١١)

سواء أكان السبب هو الفراغ الروحي الذى شعر به شرف بعد رحيل عبد الفتاح ، أم الرغبة فى الإتابة والإنابة عن آثام متعددة بعضها فى مقدمة الوعى مثل النشاط الليلى والبعض الآخر فى خلفيته مثل قبلة ساعة التمام (التى أوشكت أن تدخل باب اللسانيات) ، فإن سقوطه فى شباك أصحاب اللحى كان محتوما بحكم التطور الطبيعى للأمور، و بصرف النظر عن الدور الذى لعبه الشيخ عصام فى هذا الشأن .

حقا إن وجود الملتحين وما يعدون به لم يغب عن فطنته ولا فطنة غيره . وغالبا ما كانوا يخطرون على باله قبل النوم فى خانة التمنى ، لا بسبب مبادئهم و إنما لما يتمتعون به من امتيازات بسبب علاقة أحد أمرائهم بالرائد الجوهرى ، المغرم بالجلوس إلى جوارالزهور. فالملل الذى كان يعانى منه هذا الضابط الوديع أوقعه هوالآخرفى الشباك . فدأب على استعارة الكتب الدينية من الأمير المذكور. وسواء أكانت هذه الكتب قد رققت قلبه الرقيق من الأصل ، أم أنه كان ينفذ تعليمات سرية من مباحث أمن الدولة ، فى إحدى مراحل لعبة القط و الفأرالدائرة بين الطرفين ، فإنه أعطى لأخوة الأمير حق التحكم فى تسكين إخوانهم ، وزاد لهم الوقت المخصص لنزهة الفناء ، وسمح لهم بشراء وتخزين أجولة من الأرز والمكرونة وعلب الصلصة ، وصرح لهم باستخدام زنزانة مهجورة كمطبخ ، وبحيازة السكاكين والأكواب الزجاجية

والسخانات الكهربائية والمراتب الاسفنجية ، وساعدهم على ترويج مشغولاتهم الخشبية من لعب أطفال ومساند للمصاحف وبيعها لزوار السجن .

لم يكن شرف وحده هو الذى اهتم بتتبع هذه الظواهر . فقد تابعها توكل أيضا باهتمام رجل الأعمال الذى يبحث عن فرصة للاستثمار. وتضاعف اهتمامه عندما بدأت تحركات الشيخ عصام .

فلم ينقضى على انتقال شرف إلى عنبر الملكية سوى أسبوعين عندما انطلقت بعد العشاء ، والنشرتين الإسلامية والمحلية ، أصوات التهليل ، والتكبيرمن الطابق الثانى المخصص للملتحين . ومن الزنزانة التى تعلو شرف مباشرة ، دوى صوت جهورى ينادى كافة المسجونين طالبا منهم أن يصلوا لله شاكرين . لماذا ؟ لأن الشيخ عصام تخلى عن أفكار "الاخوان المسلمين" واعتنق أفكار "الجهاد" . وتبع ذلك آيات من القرآن عن الذين اهتدوا وآمنوا ، وأطباق صغيرة من الأرز باللبن أعدت على عجل وساهم حارس الليل فى نقلها إلى المؤمنين وحدهم .

وفى الصباح انتقل الشيخ عصام بنمرته و حاجياته ، فى موكب من الأنصار ، إلى زنزانة أفكاره الجديدة

وسرعان ما عُرف السبب : فقد أفتى بعض الإخوان بأن الذين قتلوا جنود الأمن المركزى فى أسيوط يجب أن يتوبوا ويكفروا عن الجريمة فثارأنصار الجهاد ودارصراع أيديولوجى مكثف بين الجانبين أسفر عن عدد من الجرحى والمنتقلين

وبعد أسبوعين بالضبط وفى نفس الموعد، انطلق التهليل والتكبير من زنزانة جديدة فى الناحية المقابلة ودعا صوت جهورى إلى صلاة الشكر لأن الله أنار

فؤاد الشيخ عصام ، و هداه فتبين ضلال الفكر الذى اتبعه واهتدى إلى الفكر الحق . وتلى ذلك الأرز باللبن . وفى الصباح شوهد الشيخ عصام حاملا نمرته وحاجياته منتقلا إلى موقعه الجديد . وفى هذه المرة لم يُعرف السبب .

تكرر الأمر ذاته بعد أسبوعين بالتمام والكمال . وبعد أسبوعين آخرين انتقل الشيخ عصام إلى جماعة جديدة . وأصبح انتقال الشيخ عصام من جماعة إلى أخرى طقسا مألوفا مثل التمام اليومى وصيحات حراس السور الخارجى و أذان الصلاة ، تضبط الأحداث عليه فيقال مثلا : الزيارة أو الجلسة القادمة ستكون قبل أو بعد يوم كذا الذى سينتقل فيه الشيخ عصام .

مرة واحدة فقط انكسر فيه هذا الانتظام وتحرك الشيخ عصام فى غير الموعد المقرر و ذلك عندما إنتقل إلى صفوف جماعة "العزماوية" الذين يرفضون العمل على اعتبار أن الرزق من عند الله ومكتوب على الإنسان تماما مثل الموت ، أى أنه قضاء و قدر . بالإضافة إلى هذا كانوا يحرمون قتل الحشرات لأنها روح خلقها الله ولا يجوز قتلها بأى حال . لم يكن لدى الشيخ عصام اعتراض على الشق الخاص بالرزق . لكن شيئا أخر غيره كان مكتوبا عليه هو حساسية جلده الشديدة للحشرات ، قرصا و لسا . وتكفلت بعوضة واحدة فعصها بكفه قبل النوم فى إلقائه هو ونمرته إلى الطرقة بمجرد فتح الزنازين فى أول صباحية .

سعى توكل إلى التعرف بالشيخ عصام أثناء نزهة الفناء . استمع منه إلى عرض أيديولوجى مطول ، كان فيه غذاء أكيد لروحه وان لم يفهم منه شيئا . ولهذا السبب إستجاب عندما دعاه إلى صلاة مشتركة ، فى اليوم الوحيد الذى تتم فيه داخل العنبر : يوم الجمعة .

في الموعد المقرر توافدالنزلاء على فناء الطابق الأرضي في ملابس نظيفة مكوية (غسلها غير القادرين بأنفسهم على البلاط أسفل صنابير المياه بالدورة ثم طووها تحت النمر و ناموا فوقها) بينما غطى الريفيون منهم رؤوسهم بعمائم بيضاء ولفوا شيلانا من نفس اللون حول رقابهم . وبسط الجميع بطاطينهم على الأرض في انتظارالشيخ الذى أرسلته مصلحة السجون ليعتلى منبرا خشبيا وضع في نهاية العنبر ، ويطالبهم بإطاعة الله ورسوله وأولي الأمر (ابتداء بالدهشورى) .

استعد توكل للمناسبة فتوضأ على رءوس الأشهاد في الدورة و خرج منها إلى الطرقة والمياه تقطر من يديه ووجهه وصاح في ماكس ليحضر له المنشفة التي نسيها . كان ماكس في إحدى لحظاته التعيسة فقام شرف بالمهمة . جفف وجهه و ساعديه وولج زنزانته حيث ارتدى جلبابا نظيفا ثم خرج إلى الطرقة حاملا بطانيته و بدلا من أن يتخذ لنفسه مكانا بين الجالسين خطا فوقهم نحو الدرج وارتقاه إلى الطابق الثاني .

مر بالزنازين المفتوحة التي بدت منها صناديق الخضراوات والفاكهة والمعلبات وكسرات الخبز الجاف . ولج زنزانة واسعة ، أسدلت على حائطها الخلفي قطعة عريضة من القماش كتب عليها بخط جميل آية من القرآن الكريم : "وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله" ، صدق الله العظيم ، وغطيت أرضها بالبطاطين استعدادا لإقامة صلاة الجمعة على الأصول : نفس عدد الركعات و نفس البرنامج الذى يبدأ بالقرآن الكريم ثم الخطبة وفاتحة الكتاب، بل نفس الموضوع وهو الطاعة لله ورسوله وأولي الأمر (ابتداء بالأمير) .

بعد الصلاة أدار البصر في الوجوه المحيطة به : كانت من كل لون : متوترة بنظرات نارية ، مكتئبة ساهمة ، أو حائرة تساورها الشكوك . لكنهم

أصغوا جميعا عندما تحدث الأمير . كان شابا في منتصف عشرينياته ، غزير اللحية و الشارب ، بادي العصبية ، يغطي رأسه بعمامة بيضاء غريبة الشكل، تنعقد خلف رأسه ، و يتدلى طرفها فوق ظهره . قال إن درس اليوم هو تفسير آية "إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها و إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل " ، صدق الله العظيم .

وسرعان ما أثبت أن الآية ليست بالبساطة التي تبدو عليها و أن هناك أعماقا و أغوارا لا ينتبه إليها إلا صادقو الإيمان . على وجه التحديد : إن الجاهلية ليست فترة من التاريخ وإنما الجاهلية في كل عصر وهي موجودة الآن في كل بلاد المسلمين دون استثناء ؛ فالحكام العرب يحكمون بالقوانين الوضعية ، وإذا أرادت الشعوب أن تحتكم إلى شرع الله ، أودع المطالبون في السجون وقطعت رقابهم .

النتيجة ؟ ليس من حق الناس أن يسنوا قانونا ثم يلزموا الناس بالتحاكم إليه، ومن أراد أن يتحاكم إلي هذه القوانين الوضعية فليبحث له عن أرض غير أرض الله . أما الجماعة فقد حملت أمانة تطبيق الشريعة الإسلامية ولن تتورع عن تقطيع الرقاب حتى يتم ذلك .

تحسس توكل رقبته بيده لا خوفا عليها مما قد يصيبها في غمار النضال من أجل تطبيق الشريعة وإنما لأنه اطمأن على مصيرها . إذ تصور أن تطبيق الشريعة سيؤدي إلى الإفراج عن كل من حوكم وفقا للقانون القديم وفتح صفحة جديدة للجرائم التي سيرتكبها بعد ذلك .

كان في حاجة الآن إلى مزيد من التحديد الدقيق كي يتمكن من تخطيط حياته ، فرفع يده متجرئا على السؤال : متى تطبق ؟

ولم يكد يطمئن إلى أنه ليس هناك موعد محدد وأن ذلك يمكن أن يحدث فى أية لحظة حتى زعزعت الفقرة التالية فى الدرس رغبته فى الإبقاء على رقبته . فقد كانت عن المرأة التى حيرت الرجال منذ بدء الخليقة .

تحدث الأمير عن سلبيات عمل المرأة خارج البيت من أول الإختلاط بالرجال والتعرف بهم و التعطر لهم ، إلى الخلوة بهم وارتكاب الفاحشة . ثم قال أن البقاء فى البيت ليس سداحا مداحا ، فله آدابه وقواعده . وكان يملك فى جعبته ما يناسب المقام من أقوال منسوبة إلى الرسول وصحابته من أول : ‹علقوا السوط حتى يراه أهل البيت فإنه أدب لهم › إلى : ‹ لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها ولا تجد امرأة حلاوة الإيمان حتى تؤدى حق زوجها › .

ظهر الوجوم على وجوه الحاضرين إذ تذكروا نساءهم وسياطهم . وسارع الأمير إلى علاج الأمر مستعينا بجعبته : " يكون للرجل فى الجنة سبعمائة زوجة و يعطيه الله القدير من القدرة ما يمكنه من مجامعتهن جميعا كل يوم ، مرة فى الصباح و مرة فى المساء ، وتعود الزوجة بكرا فى كل مرة " . هنا كف توكل عن تحسس رقبته فلم يعد يعبأ بمصيرها .

أطلق توكل لحيته و حرص على الاشتراك فى صلاة الجمعة بانتظام بعد أن يتوضأ خصيصا ويخرج من المراحيض و المياه تقطر من وجهه ويديه وينادى على ماكس ليحضر له المنشفة التى نسيها ، ثم يرتدى جلبابا نظيفا ويرتقى السلم إلى الطابق الثانى وإلى زنزانة القتال من أجل منع الفتنة ، ليجلس فى وقار إلى جوار الشيخ عصام ثم يوجه سؤالا واحدا لا يتغير : متى تطبق؟

خلال ذلك كان الشيخ عصام منتظما فى مسيرته بين الجماعات الممثلة فى السجن من "التكفير و الهجرة " إلى " القطبيين " ، ومن "التبيين"إلى "الجماعة

الإسلامية " ، و من "الناجين من النار" إلى " الشوقيين "، متوقفا بين الحين والآخرفوق نمرة توكل (حيث توثقت علاقته بشرف) من أجل التقاط الأنفاس. ذلك أن الشيخ عصام ، بصفته من بني البشر ، كانت له رذائله و على رأسها التدخين الذى تحرمه الجماعات بمختلف أسمائها و اتجاهاتها .

الاسترخاء الذى مارسه الشيخ عصام فوق نمرة توكل كانت له مظاهره الأيديولوجية . ففى أحد المرات أسرلشرف فى تردد بما يساوره من شكوك : إذا كان الناس فى عهد الرسول استعملوا نقودا من شقاف الحجر ، فهل نفعل مثلهم و نتخلى عن إستخدام الجنيه من أجل التمسك بالسنة وبكل ما كان الرسول يفعله ؟

كان للمرأة ، بالطبع ، مكانها فى تساؤلاته : ألم تمارس سيدتنا عائشة الحكم والفقه ، و ألم يعط الإمام أبو حنيفة المرأة حق القضاء فى غير المسائل الجنائية ؟ وهل يقصد بالاختلاط المحرّم بين الرجال والنساء تواجدهم معا فى الجامعة و الأماكن العامة أم أنه لا يتحقق إلا عندما ينفرد رجل بامرأة و يلحق بهما الشيطان ؟

تساؤلات أخرى أكثر حميمية كانت تدور برأسه وقادته إلى الدكتور رمزى ، لا بصدد الأوزان والسرعات ، و إنما الهرمونات . فكيف يمكن التأثير فى لحيته التى لا تتجاوز بضع شعيرات أسفل الذقن وخط خفيف على الوجنتين ، كى ترقى إلى مصاف لحية الأميرالكثة التى تكاد تغطى صدره وتصل إلى بطنه؟

كان يلقى بكل تساؤلاته جانبا عندما يستعيد أمجاد الجماعة التى شارك فى صنعها :

- قررنا نعمل نفق فى عرض طريق صلاح سالم و نحشيه متفجرات . قعدنا نحفر شهر وحفرنا حوالى ١٢٠ متر . كنا عشرة لابسين لبس العمال . والقائد بتاعنا كان يقعد أول الطريق على كرسي لابس بدلة ضابط شرطة . لما حد يسألنا بتعملوا إيه يقوله إحنا بنحفر عشان المية و مرة يقول عشان المجارى أو التليفونات .

لكن اهتمامات الشيخ عصام كانت تتسع للكثير من أمور الدنيا ، يرويها مع سيجارة وسط حلقة متزايدة من المستمعين :

- إنتو عارفين مدير الليمان اتشال ليه ؟ أنا عرفت الحكاية النهارده من الزيارة . سنية وداد الرقاصة هى اللى شالته .

- و إيه اللى وداه عندها ؟

- هى اللي جتله . الظاهر اتمسكت فى خناقة ولا دعارة .. المهم فى يوم بص لقى وكيل مصلحة السجون بيكلمه و يقوله يخلي مدير فندق شيراتون يزورها بشكل إستثنائي . و ان الزيارة متوصى عليها من رئيس الوزراء . المأمور قال اللائحة تمنع . الوكيل قاله انت حر الراجل جايلك في السكة . جاله فقاله أنا معنديش مانع لكن اللايحة بتشترط تصريح من المصلحة وإذن من النيابة . يهديك يرضيك . حكّم راسه يمشى باللايحة . فمشوه هو كمان بيها : طلعوه معاش برتبة لوا .

نتيجة أخرى استخلصها وأمن عليها الجميع : الرقاصات هم اللى بيحكموا البلد .

بالإضافة إلى الأنباء المحلية و خلفياتها ، كان الشيخ عصام يحتفظ بأرشيف شامل لكبار موظفى وزارة الداخلية من أول من تاجر فى إنتاج السجون و زميله الذى خرج من الوزارة بعشرة ملايين من الجنيهات من

وضع اليد على الأراضي والثالث الذى كون شركة أمن ضمت أربعمائة من قيادات الشرطة ولم يدفع فيها مليما واحدا مكتفيا باسمه ، إلى من أعد مشروعا وهميا لإسكان الضباط ودفع من صندوق الشرطة ٤ ملايين جنيه ونصف لمكتب استشارى واشترى متر الأرض بسعر ٣٠ قرشا وباعه ب ٤٣ جنيها للضباط و ١٥٠ جنيها للمستثمرين ، وزميله الذى شارك بعدة ملايين في شركة صرافة وشركة تسفير عمالة للخارج وطبعا في شركة الأمن إياها ، والثالث الذى اختلف مع زميل له على عمولة صفقة سلاح فهاجم بيته بالصواريخ .

استجاب شرف بسرعة للشيخ عصام الذى كان وسيم الطلعة ، ذا هيئة أبوية، وعينين واسعتين صافيتين ، (عسليتين أيضا) . وكان الاستلطاف متبادلا، فأقدم الشيخ عصام على خطوة غير مسبوقة .

لم يكن الملتحون يعبأون بدعوة النزلاء إلى أفكارهم ومحاولة ضمهم لأنهم كانوا يعتبرون السجين شخصا مسلوب الإرادة و بالتالى لا تجوز دعوته . لكن الشيخ عصام لمس في شرف استعدادا للهداية ، ولما كان الله تعالى يهدى من يشاء ، فقد أعطاه اختبار القبول في التنظيم :

"بسم الله الرحمن الرحيم . استطلاع رأى . رجاء منك أخى الحبيب أن تكتب ورقة تحتوى على المعلومات الآتية : ١- الآفات و السلوكيات الخاطئة التى تعتقد أنها موجودة بيننا . ٢ - الموضوعات التربوية و السلوكيات التي تعتقد أنها موجودة بيننا. ٣ - الموضوعات التي تقترح أن نتناولها خلال المواعظ و النشرات والأنشطة الأخرى . ٤ - أسماء كتب الدقائق التى تملكها . ٥ - أجب على الأسئلة الآتية بلا أو نعم : هل لك قدرة على إلقاء

المواعظ ؟ هل تجيد التلاوة ؟ هل ختمت القرآن ؟ هل تحسن الخط ؟ هل لك قدرة على تجميع بعض الموضوعات التربوية من كتب الدقائق ؟

تذكير : الإجابة من السنن . التوقيع : لجنة التربية ."

كان هناك الكثير مما يدعو للإعجاب في سلوكيات الأخوة الملتحين : ذلك النظام الصارم الذى يسمح بانقضاء اليوم دون أن يشعر المرأ(تماما مثل أبي صليبة) : الاستيقاظ لصلاة الفجر ثم العودة للنوم حتى يحين موعد الخروج إلى الدورة و بعد ذلك التدريب على الكاراتيه والكونغ فو ثم المحاضرات الدينية وتحفيظ القرآن وبقية الصلوات الخمس فضلا عن الإضافات ؛ تعاونهم وتكافلهم و تضامنهم (الذى تجلى فى المطبخ المشترك العارم و صناديق الفاكهة الموسمية التى تصلهم بانتظام وتوزع فيما بينهم بالعدل والقسطاس) .

ومن ناحية أخرى لم يكن شرف ، المؤمن بالتعددية في الزى ، راضيا عن ملابسهم المتماثلة ، التي تساوى بين فقيرهم و غنيهم ، (فيما عدا تريننج لأحدهم و بنطلون وفانلة أيضا من اللون الأبيض لآخر) ، و لم يكن يملك كتابا واحدا من كتب الدقائق و لا كان يعرف المقصود بالكلمة و لم يكن قد ختم القرآن ولا كان يجيد التلاوة أوإلقاء المواعظ ولاكان يعرف شيئا عن الآفات والسلوكيات الخاطئة الموجودة بينهم : مرة واحدة فقط ، أثناء الزيارة ، لمح أحدهم يلتهم دجاجة بدلا من أن يحملها إلى زملائه ليتم توزيعها بالعدل ، ومرة أخرى وجد أحدهم يحاول أن يسبق الآخرين داخل الدورة بالقوة . ثم كان هناك الأمير الذى ظهرت عليه أعراض الجنون بعد تعرضه لتعذيب وحشى فى أقبية وزارة الداخلية فقرر أتباعه اختيار أمير غيره ولم يعجبه هذا القرار فحاول قتل الأمير الجديد .

وازن أشرف طويلا بين الإيجابيات و السلبيات و بعد تدبر و تفكير عميقين اتخذ قراره . وكان على وشك كتابة المطلوب عندما إستدعاه الرائد "إدكو" .

لم يكن هذا هو اسمه الحقيقي و إنما اسم شهرة . وكان طويل القامة رفيع الجسد أصفر الوجه ، يتميزبمشية مستهترة ، وشراسة وقسوة بالغتين . فلا يمر يوم أو يومين إلا و يضرب سجينا أو يوقع عليه عقوبة ما .

صرف إدكو الحارس الذى أحضر السجين الشاب و خاطبه وهو يقلب في ملف ذى غلاف وردى اللون :

– إنت بتعرف تقرا و تكتب ، مش كده ؟

رد الشاب بوجل : أنا أخدت الثانوية العامة يا سعادة الباشا .

– و دخلت الجامعة ؟ لا .. إنت في معهد تجاري .

أخرج ورقة من الملف و ناولها لأشرف : عارف الورقة دى ؟

تعرف شرف على خطه و الخطاب الذى كتبه للترزى . دوت القنابل فى معدته و أحس أنه على وشك أن يفعلها أمام الباشا الذى وجه إليه نظرة باردة كالثلج و أبرز ورقة أخرى ، رسمية هذه المرة ، مكتوبة على الآلة الكاتبة ومدموغة بشعار مصلحة السجون . ناولها له و طلب منه أن يقرأها بصوت مرتفع :

قرأ شرف : " بسؤال المسجون أنكر قيامه بأى شكوى وأنه لم يقع عليه أى ضررمن مأمور أو ضباط السجن وعلل إرسال هذه الشكوى بأن يكون أحد المسجونين يريد الإضرار به و تجزينه من العمل بالورشة فأرسل هذه الشكوى».

توقف شرف عن القراءة فصاح به إدكو : كمل .

أكمل : "تحريات المباحث : المسجون محكوم عليه بالحبس لمدة ٦ سنوات و٧ شهور فى جملة قضايا سرقات و قد ضبط فى ٢٥ .١١. ١٩٩٣ وبحوزته ٢ طربة

حشيش بعد عودته من جلسة نيابة . يعتبرمن المسجونين المنحرفين وله نشاط في الاتجار بالممنوعات داخل السجن وخاصة المواد المخدرة . و قد سبق أن أرسل شكاوى عديدة تبين عدم صحتها وتم تغريبه إلى ليمان طرة بالإضافة إلى أن السيد مأمور السجن و الضباط العاملين معه يتمتعون بسمعة طيبة " .

لم يجد شرف ضرورة لقراءة السطرين الأخيرين لكن الضابط وجه إليه نظرة صاعقة فواصل القراءة : " النتيجة : ثبت من الفحص عدم صحة ما جاء بالشكوى و أنه يهدف منها إلى النيل من الضباط الذين ضبطوه محرزا مادة مخدرة " .

قال الضابط: واحد زيك مستنى حكم إعدام مش يخليه في حاله ؟

- سعادتك أنا مقصدتش . أنا أصلي ..

- و كمان رايح تنضم للإرهابيين ...

هناوجد شرف لسانه : يا سعادة الباشا أنا ما انضميتش لحد .

- أمال بتقعد معاهم ليه ؟

- أنا مليش دعوة بيهم .

- و الشيخ عصام ؟

- ولا حاجة . إحنا صحاب . بندخن سوا .

- بس ؟ ولا بتعملواحاجات تانية ؟

أوضح سيادة الضابط إدكو ما يقصده بحركة من أصابعه احمر لها وجه الشاب البرئ .

- وبتقولوا إيه ؟

- مفيش . بيقول الشريعة سمحة . وكل زمان له احتياجاته . حاجات زى كده .

نهض إدكو و أدار المروحة بعيدا عنه و هو يقول :

– سيادة المأمور كان عاوز يحطك فى التأديب .

لكن أنا إتشفعتلك على أساس أنها أول مرة تخش السجن . و كمان سنك صغير .

– الله يخليك يا سعادة الباشا.

لكن رحمة الباشا لم تكن من أجل الفوز بدعاء نابع من القلب .

– بص . إحنا عارفين كل حاجة بتحصل فى السجن . مين اللى حشش ومين اللى بيبيع مخدرات و مين اللى اتسخمط . كل حاجة .

تماما مثل على بلبل الذى يرى بخرم مؤخرته .

إذن ما هو المطلوب ؟

خدمة بسيطة تتيح لأشرف التكفير عن ذنبه لها فوائد أخرى كثيرة : معاملة جيدة فى حالة الحكم عليه و الخروج بربع المدة على أساس التقرير الذى سيكتبه الضابط .

بالتحديد شوية معلومات .

الملتحين ؟

قال الضابط بغير إهتمام : لا . إنت خليك مع الشيخ عصام ولو عرفت حاجة مهمة إبقى قولنا عليها .

إذن ماذا ؟

– الدكتور رمزى . . متعرفش بيكتب إيه كل ليلة ؟

– لا يا باشا . هو محرص قوى على ورقه . مبيخليش حد يشوفه . وما يسيبوش بعيد عنه حتى لما يلعب رياضة أويروح الحمام . يكون لفه فى

كيس بلاستيك و يلف عليه القميص بتاعه و يخليهم قدام عينيه . ولماينام بيحطه تحت دماغه .

- أنا عاوزأعرف اللى فى الورق ده .

ما الذى يمنعه ؟

- سعادتك تقدر تفتشه و تاخده .

وفى الحال ندم على تهوره فقد رمقه إدكو بنظرته الباردة :

- لأ فكيك يا روح أمك .ثم أوضح فى إقتضاب : أنا مش عاوزه يحس بحاجة .

أصر شرف على تقديم عونه :

- سيادتك تقدر تفتش الزنزانة كلها أظنك بتدور على مخدرات وتاخد ورقه تقراه على مهلك و بعدين ترجعهوله .

- انت متعرفوش . دا شيطان . حيفهم على طول .

وجد شرف الشيخ عصام فى انتظاره عندما عاد إلى زنزانته فروى له الجزء الأول من لقائه مع إدكو الخاص بشكوى الترزى . وبالمقابل روى له الشيخ عصام تاريخ الضابط المسجل فى أرشيفه . فاسمه الحقيقى هو رشدى سلامة. وكان رئيسا لمباحث مركز إدكو برتبة نقيب عندما ذهب إليه تاجر ماشية كبير بتوصية . وبدون أية وثائق اتهم شقيقين من إحدى عائلات البلدة بأنهما استوليا منه على ٤٢ ألف جنيه فركب النقيب سيارته ومعه زمرة من رجال المباحث وأحضر أحد الأخوين إلى المركز. طلب منه رد النقود فأنكر أنه أخذ شيئا من المليونير فبدأت عملية إقناعه . وقبل أن يقتنع سقط فوق مكتب النقيب بعد أن نزفت

الدماء من فمه و أذنيه فنقلوه إلى مستشفى البلدة دون جدوى . فقد كان اقتناعه حاسما لا رجعة فيه .

أثار اقتناع المسكين أهالي البلدة فتجمعوا رجالا ونساء و صبية وزحفوا على المركز يريدون الثأر من النقيب الجلاد كما وصفوه وانتزعوا الباب الخارجي للمركز في محاولة لاقتحامه . ولم تفرقهم سوى طلقات الرصاص التى انهمرت عليهم من قوة المركزوصرعت أحدهم . هنا انفجرغضبهم فهاجموا كل الأبنية الحكومية : المخبز الآلي والسنترال ثم أشعلوا النارفى مبنى مجلس المدينة الذى يعانون من فساد رئيسه وهاجموا الفيلا الحكومية المخصصة لسكنه لكنه أفلح فى الهرب بسيارة هو و أسرته .

طبقا للتقليد المصرى ، لم تستمرانتفاضة إدكو طويلا إذ وصلت سيارات الأمن المركزى العملاقة ، تقل مئات من الجنودالمصابين بالأنيميا والضباط السمان المفتولى العضلات ، ببنادقهم ورشاشاتهم . وتحولت المدينة إلى ثكنة عسكرية تنطلق فى سمائها القنابل المسيلة للدموع لتسقط بين المنازل و على أسطح البيوت و تعبئ الجو بالغاز الحارق الملهب للجفون . ثم ظهر رجال مكافحة الشغب فى الشوارع المؤدية إلى قلب المدينة يمسكون بمن يضعه حظه العاثر فى طريقهم من شباب ورجال عزل فيوسعونهم ضربا ويحملونهم فى سيارات إلى المركز.

وكما يحدث في هذه الحالات ، ما أن انتهى إقناع أهالى البلدة ، حتى بدأ توزيع الجوائز و المكافآت ، فنقل النقيب رشدى إلى مصلحة السجون . كيف يمكن أن يكون العمل فى هذا المكان الكئيب مكافأة ؟ سؤال رد عليه الشيخ عصام بسؤال آخر على طريقة أهل ملوى : وما الذى يدعو خريج كلية الشرطة لأن يطلب العمل في مصلحة السجون ؟ بص مثلا للمسائل المالية .

المفروض إن للمسجون غيارين داخليين فى الشتا واتنين فى الصيف ، شفت حد بيستلمهم ؟ المفروض أيضا إن له كمية معينة من اللحم العدس والفول والجبن . والعيانين لهم بيض ولبن ولحم . كميات هائلة بتشتريها المصلحة ومحدش بيشوفها . الانتفاع من فوق لتحت .

مزق شرف استطلاع الرأى ، وتفرغ لدراسة المشكلة التي استعصت على إدكو . لم يستغرق طويلا فى البحث عن حل لها، إذ قدمه له الدكتور رمزى نفسه قبل أن ينتهى اليوم . فقبل التمام بنصف ساعة انتحى بالشاب جانبا وقال له وهو يناوله كيس البلاستيك والمفكرة : أنا داخل آخد دوش وعاوزك تاخد بالك من الحاجة دى . متخليش أى حد ياخدها منك أو يبص فيها .

تسارعت دقات قلب شرف وهو يفكر بسرعة : دش المرحاض لايستغرق أكثرمن عشر دقائق ، وأغلب نزلاء الزنزانة لم يخرجوا بعد إلى الفسحة . أين إذن يختلى بالأوراق ليلقى عليها نظرة ؟

أثبت شرف ما يتمتع به إدكو من فراسة . فقد حمل الكيس في يد وانطلق إلى المرحاض . تبين على الفور شبشب الدكتور رمزى أمام كابينة الإستحمام الأخيرة . ساعده الحظ فوجد الكابينة الأخيرة من الناحية الأخرى خالية فولجها واتخذ وضع قضاء الحاجة . فض محتويات الكيس و أقبل يتفحص محتوياته فى إطمئنان . فلو خرج الدكتور قبله سيقول له إنه اضطر لدخول المرحاض فأخذ الأوراق معه ، وتأخر به لأن ولادته كانت متعسرة أو مستفيضة ، حسب الحال .

طالعه المشط الذى يحرص عليه الدكتور رمزى من أجل تنظيم الشعيرات الباقية فوق رأسه ثم صورة فوتوغرافية ملونة لامرأة وطفلتين وصورة لكل طفلة على حدة . وأدرك شرف بذكائه الذى شحذته التطورات أن اهتمام إدكو موجه إلى بقية المحتويات فركز عليها : قصاصات صحف ومذكرات بخط اليد تتضمن

وقائع القضية المتهم فيها سعادة السفير ، قصاصة من صحيفة تشتمل على قائمة بممتلكات الدكتور ثابت محفوظ ، قصاصات تتضمن إعلانات عن أجهزة التكييف (طبعا. ليه لأ؟) و القرى السياحية (أجازة بعد انتهاء المحاكمة ؟ أو مشروع ؟) ، تصريحات لكبار المسئولين عن الاقتصاد والأمن ، تقاريرلهيئات أجنبية (له إتصالات) ، أسماء شركات أجنبية (ومصالح) ، مقالات بالفرنسية والإنجليزية عليها سطور مخططة وبجوارها تعليقات بالعربية (اهتمامات واسعة)، إحصائيات ودراسات وأرقام (علاقة بجهات أجنبيه؟ فى الغالب لأنه شخص محترم) ، مفكرة بها ما يشبه مذكرات شخصية أوخطاب طويل، بضع صفحات تحمل سطورا قصيرة على هيئة أبيات الشعر أو المسرحيات.

تعجب لما يمكن أن يثير إهتمام الضابط فى هذه الأشياء غير المترابطة ؟ وأخيرا فى لحظة تجلى خطر له أن الدكتور رمزى زميل له فى المهنة . احتار فى تحديد الجهة التى يعمل لحسابها ، فمن الواضح أنه لا يعمل لحساب السجن ولا لحساب اسرائيل التى يحتل جواسيسها زنازين معروفة. فلمن إذن ؟

بعد أربعة أيام نودى عليه للزيارة ، وإنتظر طويلا فى الردهة المؤدية إلى قاعتها إلى أن اتضح أن لبسا قد وقع فى الإسماء وأعيد إلى زنزانته . وخلال ذلك إلتقى به إدكو (الذى رتب الأمر كله لهذا الغرض) ليستمع إلى عرضه لمحتويات الأوراق على قدر استيعابه لها .

استمع إدكو فى هتمام ثم أعرب عن رغبته فى رؤيتها بنفسه لتصويرها ثم إعادتها إلى مكانها دون أن يشعر صاحبها . كيف يمكن تدبير ذلك دون أن يتسرب الشك إلى الدكتور ؟

قضى شرف ، هو وحضرة الضابط إدكو ، ليالى عديدة يفكران معا (من مكانين متباعدين) فى المشكلة دون جدوى إلى أن تكفل الملتحون بحلها .

(١٠٢)

أقرضني سامح إحدى قصص الألغازالبوليسية التي يحتفظ بمجموعة كبيرة منها ويشاركه مستر تامرقراءتها ، رغم أنها باللغة العربية -وموجهة للصغار. استلقيت فوق نمرتي و بدأت القراءة ، وإذا بي أسمع ضجة في الطرقة . خرجت من الزنزانة أستطلع الأمر فوجدت توكل محاطا بعدد من النزلاء وقد بدا الانفعال على وجوه الجميع . وعرفت أن وفدا من الطابق العلوى قد قابل سيادة الضابط إدكو وطلب منه تشغيل التليفزيون ليتمكن النزلاء من مشاهدة مباراة الدورى بين الأهلى والزمالك . ووافق إدكو على وضع التليفزيون في الطرقة وتأخيرالتمام ساعتين لهذا الغرض .

بحثت عن شحاتة و زغلول و أبلغتهما النبأ الذى انتشر بسرعة البرق . وخرج نزلاء الزنازين المجاورة إلى الطرقة وعلى وجوهم مظاهر الإنفعال والبهجة .وفوجئت بجارنا الطبيب يحزم وسطه بشال أحمر اللون و يرقص معلنا تأييده للأهلى .فصفقت له مشجعا . ورقص زغلول أيضا رغم أنه لا ينتمى لأى ناد .

لم أتمكن من معاودة القراءة ولا من عمل أى شيئ . وأخذت أدخل الزنزانة وأخرج منها بلا سبب .وفى إحدى المرات رأيت اللبنانى الذى يسكن الزنزانة المقابلة قادما من الزيارة . وكالعادة التف معارفه حوله يسألونه عن الأخبار ويتلقون تعليقاته الظريفة . و سمعته يقول أنه شهد ثلاثة من أمراء السنية يدخلون للمأمور، وفهم أنهم طلبوا مقابلته بخصوص موضوع التليفزيون .

استولى الوجوم على الجميع ، و تطلعت إلى الطابق الثانى بحثا عن الشيخ عصام لكنى لم أر له أثرا . وبعد قليل عرفنا من الدهشـــورى أن السنية إحتجـوا على تشغيل التليفزيون وطالبوا المأمور بالغاء قرار إدكو لكنه رفض .

قبل التمام بساعة ظهر أحد السجناء فى باب العنبر يحمل جهاز تليفزيون من طراز "جولدستار" الكورى . صفقنا له جميعا وساعدناه على وضع الجهاز مكان المنبر الخشبى الذى يعتليه خطيب الجمعة . كما عاوناه فى تثبيت الإيريال.

ظهر عدد إضافى من الحراس عند باب العنبر . وتجمع أغلب النزلاء فى الطرقة فوق بطاطينهم . لم يكن الدكتور رمزى بينهم ، فقد فضل البقاء فى الزنزانة و القراءة مما أكد لى أنه شخص غريب . لم يظهر الدكتور ثابت أيضا فلديه تليفزيون خاص به فى زنزانته . و لزم السنية زنازينهم وارتفعت منها أصوات قراءة القرآن .

كان الجو حارا مرتفع الرطوبة . ورغم ذلك بدا منظر السماء من خلال قضبان السقف رائعا . وتمنيت لو كان عبد الفتاح بجوارى . ثم نسيت كل شئ عندما بدأت المباراة التى سارت فى البداية ببطء و ملل إلى أن بدأ فريق الأهلى يسجل انتصاراته التى توجت بفوزه .

جمعنا بطاطيننا فى غاغة هائلة وكون نزلاء الطابق العلوى مظاهرة صعدت السلم تلوح بعلم أحمر وهم يهتفون للأهلى . والتف مؤيدوه و أنا منهم حول الطبيب الذى استأنف الرقص وهو يسخر من أنصار الزمالك .

بدأ التمام وانصرف الجميع إلى زنازينهم . كنا فى حالة غير طبيعية نضحك لأى سبب رغم الجو الخانق . إستعدنا وقائع المباراة عدة مرات وإمتد بيننا الحديث لساعة متأخرة و تطور إلى شجار بين عزت بدوى و أبو السباع الذى كشف عن تأييده للزمالك . وعجبت كيف أن رجلا فى سنه وخبرته بالحياة يعجز

عن اختيار الفريق الأفضل . وانقسمت الزنزانة إلى فريقين أيضا عدا مهندس الألومنيوم والدكتور رمزى . وتوتر الجو عندما هاجم أبو السباع حكم المباراة الأجنبى واتهمه بالتحيزللأهلى . وقال أن الزمالك يلعب جيدا - لكن كان هناك اتفاق سرى على أن يخرج الفريقان متعادلين دون نقاط استعدادا لمباراة الكأس ، و أن الأهلى خرق الاتفاق . أثارنا هذا الاتهام و أوشك عزت بيه أن يمسك بخناق أبو السباع لولا تدخل توكل .

لم يتبدد التوتر الذى خلقته المباراة فى الصباح .إنتظرنا الصحف فى لهفة لنقرأ التعليقات الرياضية . وكانت زنزانتنا تحصل على صحيفتين يوميتين بشكل منتظم واحدة لعزت بيه و الثانية للدكتور رمزى . وفى العاشرة وصلت الصحيفتان وكانت إحداهما تحمل فى صدر صفحتها الأولى عنوانا كبيرا: " ضربة أمنية كبرى " . قرأ لنا عزت بيه النبأ بصوت مرتفع : "فى مطاردة داخل جبل سمالوط بمحافظة المنيا لقى إثنا عشر إرهابيا مصرعهم وكانوا قد اشتركوا فى اغتيال عشرين مواطنا و رجل شرطة ، وعثر بحوزتهم على تسعة مسدسات وبنادق آلية ومائة وخمسين كيلو جراما من الديناميت و مائة من البارود الأسود و قنابل مجهزة للتفجير وكميات ضخمة من المسامير مختلفة الأحجام وعبوات فارغة معدة لملئها بالمواد المتفجرة وعدد من الدراجات البخارية وخرائط ورسوم كروكية لعدد من الأهداف والمنشآت الشرطية ".

انفرد كل من عزت بيه والدكتور رمزى بصحيفته وحاولت أن آخذ من الأخير الصفحة المخصصة لأخبار الرياضة لكنه رفض . كان يحب أن يمسك بالصحيفة كاملة ويقلب صفحاتها على مهل ويتوقف طويلا عند بعض الأخبار والإعلانات .

انتظرت حتى فرغ من القراءة و ناولنى الصحيفة . قرأت التعليقات الرياضية و لم أجد بها إشارة إلى اتفاق ما بين الناديين وإن كان أحد

المعلقين عدد بعض الفرص التى أضاعها لاعبو الزمالك دون مبرر . وكان إلى جانب التعليق نبأ عن نشاط السنية في محافظة المنيا . إذ اقتحم أربعة منهم بنك التنمية والائتمان الزراعى فى إحدى قرى مركز أبو قرقاص وأطلقوا الرصاص على أسقف و حوائط البنك لإرهاب الموظفين و العملاء الذين انبطحوا أرضا أسفل المكاتب ، ثم انتزعوا الخزينة وفروا بها داخل سيارة كانت تنتظرهم على مقربة .

أعجبتنى جرأتهم وذكرت الخبر لتوكل الذى غمغم : ولاد الجنية . بحثت عن الشيخ عصام في الطابور لأعرف إذا كان قد قرأ الخبر لكنى لم أره بين السنية الذين تجمعوا فى ركن الفناء وانهمكوا فى نقاشات حادة . ومالبثنا أن عرفنا أن سجينا بالطابق العلوى سب واحدا منهم أثناء نقاش حول تشغيل التليفزيون .

ظهر الشيخ عصام فى مدخل زنزانتنا مع أذان العصر . إنفلت داخلا وإنزوى في ركن توكل الذى لم يكن موجودا . كان منفعلا ، ورفض أن يجلس . انتقلت إلى جواره فأسر إلى أن أميرهم أصدر فتوى بإهدار دم ثلاثة من السجناء بينهم السجين الذى سب السني فى الصباح .

تطلعت إليه غير مصدق و قلت : جد ؟

قال : طبعا جد . كان لازم تشوف الأخوة و هم بيبوسوا إيده عشان يسمح لواحد منهم بشرف التنفيذ . حيدخل الجنة لو القتل تم بخمس طعنات ورا بعض .

خطر فى بالى على الفور أن أحاول الإتصال بادكو لأنقل إليه هذا الخبر الخطير . لكن السنية كانوا أسرع منى .

كنا نستعد للخروج إلى الفسحة حين سمعنا فجأة ضجة فى أحد الطوابق العليا و أصوات صياح و صفافير ثم أقدام تجرى . وصاح فينا الحارس أبو حسين على الفور :

- إرجع زنزانتك إنت و هو . بسرعة .

رأيته يدفع نزلاء الزنزانة المجاورة داخلها بما فيهم النوبتجى الذى كان غطى رأسه بطاقية حمراء . وكان بينهم صاحب فرن ضخم الجثة يمرمن فتحة الباب بصعوبة . وتابعت محاولات أبوحسين لإدخاله الزنزانة . و ضحكت وأنا أراه يكاد يحمله حملا ممسكا بفلقتى مؤخرته الضخمتين . جاء دورنا فدفعنا إلى الداخل و أحصى عددنا فى هرولة ثم أغلق علينا الباب دون أن يحفل بالرد على استفساراتنا و انتقل إلى الزنزانة التالية . وكان حارس آخر يقوم بالمثل على الناحية المقابلة .

إنصرف الحارسان بعد التمام فقفز توكل إلى شراعة الباب وهو يلف جسده و يثنى ركبتيه بحيث استقر فى فتحتها مستندا بظهره إلى جدار وبقدميه إلى الجدار الآخر الذى ركب فيه الباب . نادى على الحارس فلم يعبأ بالرد عليه . وقفت تحته وأحنيت رأسى لأضع عينى على النظارة . مددت إصبعى فأزحت غطاءها لكنى لم أر شيئا . كانت أصوات الصياح و الشتائم تصلنا بوضوح من الطابق العلوى لكننا لم نتمكن من تمييزها و تبين ما يجرى . ومالبث مساجين العنبر كله أن شاركوا فى الهيصة بالدق على الجدران والدلاء .

دوى فجأة صوت جهورى كالرعد فى مدخل العنبر غطى على الضجة : انتباه .

أدركنا أن ضابط العنبر أو المأمور وصل . ساد الصمت لحظات ثم علت الضجة من جديد . وسمعنا صوت أقدام تجرى على السلم . لمح توكل

الدهشورى فناداه لكن هذا - لم يحفل به . ورأيناه بعد قليل يتحدث مع نوبتجى الزنزانة المقابلة الذى تعلق بنافذة بابها مثل توكل ثم انصرف بسرعة .

صاح توكل فى النوبتجى يسأله عما حدث فقال أن جماعة من السنية هاجموا زنازين الطابق العلوى وانهالوا على سكانها ضربا بالأسلحة البيضاء والمطاوى وقطع الأخشاب وحنفيات المياه .

غمغم توكل فى إنفعال : ولاد الجنية .

نادى على ماكس ليشعل له سيجارة وعندما شرع الأخير فى قطعها نصفين صاح به أن يعطيها له صاحية .

ذكرت ما قاله لى الشيخ عصام و استمع لى توكل باهتمام ثم ردد :

– ولاد الجنية . يكونوا حيطبقوها .

لم أفهم ما يعنيه وأنصتنا لأصوات الصياح والضرب . ترددت صيحات الحراس وأوامرهم بوقف القتال دون جدوى . وفجأة دوى صوت بوق بطريقة معينة وعلق توكل :

– نفير الكبسة .

أضاف أبو السباع : الحراسة من حقها الوقت تضرب فى المليان .

دوت بضع طلقات قال توكل أنها خارج العنبر . توقفت الضجة لحظة ثم اشتعلت من جديد . انطلقنا نتكلم جميعا فى وقت واحد ونحن نحاول إستخلاص حقيقة ما يجرى . و تعب توكل من تعلقه بنافذة الباب فهبط وصعدت مكانه .

سألنى توكل من مجلسه فى الركن : شايف حاجة ؟

أجبت بالنفى . كان مجال رؤيتى يمتد من قاعدة السلم المؤدى إلى الطوابق العليا على يمينى حتى الحائط الذى تنتهى عنده الطرقة على يسارى .

وكانت المطرقة خالية وقد تناثرت فوق أرضها شباشب و أحذية وأكواب معدنية ومواسير حديدية . ولم أتمكن من رؤية شئ في طابق السنية الذى يعلونا . فلم يظهر منه سوى جانب من قضبان السور الحديدى الذى يحيط به .

سمعت توكل يقول : فاكر يا أبو السباع السنة اللى فاتت لما خطفوا ضابط وأخدوا سلاحه وحجزوه في زنزانة؟ دول ولاد جنية . قعدوا يتفاوضوا مع الإدارة طول الليل لغاية ما وافقت على كل اللى طلبوه .

قال أبو السباع : أنا حضرتهم في الليمان لما مسكوا السجن ومحدش قدر يعمل لهم حاجة لغاية ما جت القوات الخاصة اللى بتلبس أسود و رمت عليهم القنابل المسيلة للدموع . تعرف عملوا إيه ؟ ملوا جرادل مية و أول ما قنبلة تدخل الزنزانة يلقفوها على طول ويرموها فى المية فيطفوها .

غمغم توكل : ولاد جنية .

قال أبو السباع بأسف حقيقى : وفى الآخر سلّموا .

– تفتكر يحرقوا السجن ؟

قال توكل : دول يقدروا يعملوا أى حاجة .

علق سامح : يمكن عايزين يهربوا .

قال : مفيش حاجة تعصى عليهم . لما كنت فى سجن بني سويف الأمير بتاعهم هرب بمنتهى السهولة . تعرف عمل إيه ؟ لبس هدوم واحدة منقبة جابوهاله فى الزيارة وخرج مع الزوار .

جاءنا صوت غريب من خارج العنبر أخذ يعلو بالتدريج مقتربا منا . وتبينت فيه بعد لحظات صيحة جنود الأمن المركزى المعروفة : "هوه . هوه " . وتردد نباح كلاب ثم لمحت من طرف النافذة جنديا فى ملابس سوداء متحصنا بدرع بلاستيكى .

صحت : أهم وصلوا .

انتشر الجنود في الطرقة مكونين صفين متقابلين . و دوت إنفجارات عاصفة فوق رؤوسنا مباشرة وملأ الدخان العنبر . و تلا ذلك أصوات تكسير وتحطيم وإنهالت أكوام من الكتب والعلب المحفوظة والبطاطين و الأحذية وسط الطرقة .

التهبت جفوني و تابعت بعينين دامعتين حوالي عشرة من السنية يجرون بين صفي الجنود الذين انهالوا عليهم بالهراوات الكهربائية حتى وصلوا إلى نهاية الطرقة . أجبرهم الجنود على العودة فواصلوا الجرى والهراوات تنهال على رءوسهم وظهورهم كيفما اتفق . وقبل أن يصلوا إلى قاعدة السلم أمرهم الجنود بالجلوس على الأرض ووجوههم إلى الحائط واستأنفوا ضربهم ثم سحبوهم على الأرض والدماء تنزف منهم إلى خارج العنبر .

ظهرت مجموعة جديدة من السنية تجرى بين صفي الجنود . و تكررمعها ما جرى مع المجموعة الأولى . و أحصيت ست مجموعات مماثلة قبل أن يتوقف التأديب و يسود الهدوء . وفجأة سمعنا صوت فتح زنزانة في طابقنا ، وصاح صوت آمر : انتباه .

جذبني توكل إلى أسفل و صعد مكاني ثم هبط مصفر الوجه :

– تفتيش .

أخذ يقلب في حاجياته بسرعة و يتبادل الهمس مع ماكس بينما بدا التوتر على الدكتور رمزي وشحبت وجوه الآخرين . الوحيد الذي احتفظ برباطة جأشه هو مهندس الألومنيوم الذي لزم ركنه ودفن رأسه في المصحف كأن الأمر لا يعنيه . وضع توكل شيئا في فمه وإكتشفت بعد ذلك أنه نصف

موسى وضعه لصق خده . وناول ماكس أنبوبة رفيعة ملفوفة بورق السوليفان . وعلى الفور قرفص و فك الشورت الذى يرتديه وأنزل الكيلوت ودس الأنبوبة في مؤخرته .

راقبت الدكتور رمزى فى إهتمام . أخذ يتحسس كيسه البلاستيكى فى إرتباك ثم وضعه داخل بطانية طواها علي شكل وسادة وعاد فاستخرجه ودسه في صدره .

أرهفنا السمع للأصوات القادمة من الخارج . كانت تقترب منا إلى أن أصبحت عند الزنزانة المجاورة . وساد السكون بضع لحظات و فجأة إصطدم المفتاح بقفل بابنا و فتح في حركة واحدة ودوت الصيحة المعهودة : إنتباه .

اعتدلنا واقفين فوق نمرنا .كان الذى فتح الباب هو الشاويش عبد الغفار الذى اشتهر بشاويش التأديب إذ كان له تاريخ حافل بالاعتداء علي المسجونين وكان معه الشاويش بعجر وعدد آخر من الحراس لم نرهم من قبل . وخلفهم ظهر إدكو مختالا بمشيته المشهورة .

اقتحم الحراس الزنزانة في سرعة وانتشروا فى أرجائها يقلبون النمر ويرفعون البطاطين ويهزونها ثم يلقون بها جانبا و يبعثرون صناديق الطعام ثم يفتشون الأشخاص .

تطلعت ناحية إدكو لكنه تجاهلنى تماما و وقف فى مدخل الزنزانة يتابع ما يجرى ويده فى خاصرته .

. ناول الحارس الذى فتش نمرة توكل علبة شاى لعبد الغفار فقدمها هذا لإدكو الذى ألقى بها فى صندوق كرتون أحضره الحراس معهم . ولمحت الحارس يستدير بجسده ليحجب يديه عن نظر إدكو . ورأيته يعيد لتوكل

علبة الصفيح التي يحتفظ فيها بأقراصه ، ولاحظت أن هذه الحركة لم تغب عن عبد الغفار .

إنتقل الحارس بعد ذلك إلى ماكس ثم مستر تامر . و عندما أراد أن يأخذ صندوق سكرابل احتج صاحبه .

تدخل إدكو : متخفش عليه . حنحطه فى أماناتك . لما تيجى تخرج تبقى تاخده .

أشار بيده فوضع الحارس علبة سكرابل فى صندوق الكرتون . و أتبعها بالشطرنج ومروحة قاسم بيه التى تركها لمستر تامر وعلب الكبريت وصندوق الكولمان . .

احتج مستر تامر مرة أخرى فأوضح إدكو بلهجة ساخرة :

- التعليمات اللى عندنا إننا نمشى باللايحة . و لايحة السجون لا فيها سكرابل ولا فيها كولمان .

فقدنا طاولة خشبية تلقاها عزت بيه قبل أسبوع و تبعتها الكوتشينة وقصص الألغاز . ولم ينج سوى المصحف الذى كان يمسك به مهندس الألومنيوم .

جاء الدور على الدكتور رمزى . انحنى الحارس على نمرته و فتشها بدقة ثم اعتدل واقفا ومر بيديه على ذراعيه وسيقانه و ظهره . استخرج الكيس البلاستيكي من صدره و ناوله لإدكو .

قال الدكتور : دى أوراق شخصية .

تناول إدكو الكيس وألقى به في صندوق الكرتون دون أن يحفل بالرد .

قال الدكتور : دى مذكرات بكتبها عشان الدفاع بتاعى . اللايحة متمنعهاش .

رد إدكو دون أن ينظر إليه : اللى مش ضد اللايحة حنرجعه .

لم يستغرق تفتيش أبو السباع وأنا بعده غير دقائق ثم غادر الحراس الزنزانة . وانهمكنا فى إعادة ترتيب نمرنا وحاجياتنا التى تبعثرت فى أنحائها .

وعندما إنتهى تفتيش الطابق واطمأنينا إلى خروج الضابط والحراس صعد توكل إلى شراعة الباب ليأتى بآخر الأخبار . عرفنا أن المعركة التى دارت بين السنية و السجناء ، و بينهم و بين الحراس أسفرت عن ثلاثة من القتلى وحوالى المائة من المصابين و الجرحى .

كان نومنا قلقاً غير منتظم ضاعفت منه الحرارة والرطوبة . وعندما استيقظنا سأل عزت بيه صاحب العمارة عن سر التأوهات التى كانت تصدر منه أثناء النوم فقال أنه تعرض لكابوس . سأله عن طبيعة الكابوس قال بصوته الأخنف : كنت باحلم أنى نايم مع مراتى .

لم يفتحوا لتوكل كى يخرج قبلنا كالعادة . و تأخر فتح الزنازين فأخذنا ندق على الباب كى نذهب إلى المراحيض . وفتحوا علينا قبل الظهر بقليل . كان الحارس هو صبحى ذو الصوت المبحوح الذى لقيناه باسحب الفجل فى عنبر الميرى . وعرفنا منه أن بعض المصابين نقلوا فى الفجر إلى مستشفى القصر العينى كما نقل قادة السنية إلى عنبر التأديب ووضعوا فى زنازين منزوعة البلاط أغرقت بالمياه . أما الباقون فى العنبر فقد طبقت عليهم أقصى درجات التكدير فلم تفتح زنازينهم إلا واحدة واحدة و لمدة خمس دقائق فقط وأجبروا على إخراج نمرهم ووضعها فى الطرقة والبقاء على الأرض طول اليوم حتى موعد التمام كما منعت عنهم الأطعمة والزيارات وصودرت متعلقاتهم الشخصية ولم يسمح للواحد منهم بغير حذاء و منشفة .

شملت إجراءات تطبيق اللائحة منع بيع السكر في الكانتين حتى لا يستخدم في عمل الشاى في الزنازين لأن إشعال النار ممنوع . ولهذا السبب أيضا منع التدخين داخل الزنزانة ليلا كما حددت كمية السجائر التي يمكن شراؤها من الكانتين بحيث لا تزيد عن ثلاث علب في الأسبوع .

طلب عزت بيه من الحارس أن يذهب إلى الكانتين ليشترى سجائر لأن سجائره نفذت فأخبرنا أن الكانتين مغلق بسبب التكدير . وهنا وعده توكل بأن يحل له المشكلة بعد التمام . وأبرز توكل نفوذه . فلم تمض ساعتان إلا وأحضر له أبو حسين كوبا كبيرا من الشاى تناوله من نافذة الباب شربه باستمتاع دون أن يبالي بأحدمنا ولا حتى بماكس .

استدعى الدكتور رمزى لمقابلة إدكووعاد حاملا كيس أوراقه كيسه البلاستيكى . انزوى فوق نمرته وأخذ يتصفح محتويات الكيس إلى أن اطمأن على أوراقه .

سألته : كله تمام ؟

فوجئ بسؤالى وقال : آه ، تمام .

شعرت بلذة غريبة . كنت الوحيد بين النزلاء الذى يعرف ما حدث لأوراقه . وفكرت أن ذلك قد يعنى انتهاء مهمتى . ووجدتنى آسف على ذلك . انتظرت أن يستدعينى إدكو ليخطرنى بما يجب عمله . لكنه لم يفعل أبدا . فبعد يومين نقل إلى سجن قنا . وسمعنا أن لجنة تحقيق من مصلحة السجون إعتبرته مسئولا عما حدث لأنه سمح بتشغيل التليفزيون . دفعنى هذا إلى التفكير فى سبب تصرفه وعما إذا كان تعمده ليتمكن من وضع يده على أوراق الدكتور رمزى بطريقة لا تثير الشك .

علق توكل على نقل إدكو قائلا : الدور ع المأمور . تلاقيه الوقت بيرعش .

قال زكى عز : وهو ذنبه إيه ؟

أجاب توكل : هوَ المسئول عن الظبط والربط .

حل محل إدكو ضابط آخر برتبة رائد اشتهر بالقسوة وعرف باسم "خضرة " ؛ فقد كان له شعر مجعد بقصة وأظافر لامعة مصقولة منمقة ووجه يخلو من الشعر وصوت رفيع حاد . وكانت ملابسه العسكرية أنيقة والمدنية من أقمشة فاخرة وتنبعث منه دائما رائحة العطورالغالية . وعلق الدكتور رمزى على شخصيته قائلا أنه خجول و يخفى خجله بالصراخ و أوامر الضرب .

نفذ توكل وعده بعد التمام فبعث بحارس الليل إلى سجين بالطابق العلوى محكوم عليه بالإعدام فى قضية تجسس لإسرائيل يدعى مصطفى . وكان ينتظر تنفيذ الحكم منذ سبع سنوات و يتمتع بمجموعة من الإمتيازات تعطى للمحكومين بالإعدام و منها حصة مجانية من السجائر على حساب المصلحة. لم يكن يدخن فتاجر فيها و أصبح يبيع الخمس منها بسبع ارتفعت طبعا بسبب الظروف إلى تسع .

حرمنا من الطابور لمدة ثلاثة أيام و فى اليوم الرابع أبلغنا الضابط خضرة أننا سنخرج لمدة ربع ساعة فقط . و عندما هبطنا إلى الفناء فوجئنا بالمأمورجالسا فوق مقعد وضع فى الظل وقد مد ساقيه أمامه . كان يرتدى قميصًا كاكيا بكمين قصيرين على كتفيهما النجوم الدالة على رتبته ويغطى عينيه بنظارة شمسية من طراز " فريرى " ذى الزوايا الغريبة .

التفت المأمور ناحيتنا ثم أشار إلينا بغليونه أن نقترب . قادنا الحارس إليه وأدى التحية العسكرية .

تجاهله المأمور وخاطب الدكتور رمزى :

- إزيك يا رمزى . عاملين إيه ؟

كان لمخاطبة الدكتو رمزى باسمه الأول هكذا دون لقب الدكتور وقع غريب على أذنى . لكنه لم يهتم و سارع بالرد :

- تعبانين يا باشا . حنتخنق من قفلة الزنزانة طول النهار. الدنيا حر وعددنا كبير . ثم إحنا ملناش ذنب فى اللى حصل .

- السجن كده يا رمزى . الغلط يحط الكل .

قال الدكتور : سيادتك إحنا محرومين من كل حاجة . من لعب الرياضة ومن المكتبة و من الكانتين . مش عارفين نشرب كباية شاى . ولا عارفين نتسلى ..

- ليه ؟ مبتحكوش حكايات ؟

- حكينا لما قلنا يابس .

- مبتلعبوش حاجة ؟

- ماانتو أخدتم مننا كل حاجة فى التفتيش .. الشطرنج والطاولة .

- كان عندكوا كمان سكرابل . أنا وريتها للمدام و عجبتها خالص .

سارع مستر تامر قائلا : يا باشا اعتبرها بتاعت سيادتك . ع العموم أنا فى أول زيارة حابعت أجيب واحدة جديدة لسيادتك .

قال المأمور : المدام تعرف لغات وتحب تتسلى .

سكت لحظة كأنما نسى الموضوع الذى كنا نتحدث فيه ثم قال : العبوا استغماية . ونظر إلى فجأة ثم خاطبنى قائلا : مش إنت بتاع بطشة ؟

إندفعت الدماء إلى وجهى و أجبته : أيوه يا باشا .

سألنى : تعرف تلعب صلّح ؟

لم أصدق أذنى . كنا نلعب هذه اللعبة ونحن صغار فيقف أحدنا معطيا ظهره لنا ويغمض عينيه ويعقد ساعديه بحيث يبسط إحدى كفيه أسفل كتفه ثم ننهال على كفه بصفعاتنا و يتعين عليه أن يعرف من الذى ضربه .

قلت فى تردد : أعرف سعادتك .

انفجر ضاحكا و حرت : هل أضحك معه و على ماذا ؟ وخطر ببالى أنه يعرف بأمر علاقتى بادكو و انتظرت أن تبدر منه إشارة لكنه لم يفعل .

كف مرة واحدة عن الضحك وتحول للدكتور رمزى : إنت لسه عاوز تعمل مسرح ؟

قال الدكتور : ياريت .

قال المأمور : و مين اللى حيشترك معاك . كلهم هنا بهايم . و أشار بيده إشارة شملتنا جميعا بما فينا الدكتور .

فتح فمه ليرد فاستوقفه المأمور : لأ . مسرح لأ . وسكت لحظة ثم قال :

- على العموم أنا بفكر نعمل حفلة . عاوز أغير الجو اللى فى السجن . ستة أكتوبر داخل . و المصلحة عاوزانا نحتفل .

وفجأة فقد اهتمامه بالحديث وحدق فى حذائه . وقبل أن أحدد نوعه أشار للحارس كى يصرفنا قائلا : زود لهم الطابورنص ساعة .

إستدعى الدكتور لمقابلة المأمور بعد الظهر و غاب لديه حوالى الساعتين وعندما عاد بدا منفعلا .

قال : من بكره الطابور حيرجع زى الأول .

بدا الضيق على توكل الذى يمثل حلقة الصلة بيننا و بين إدارة السجن. سأله فى لهجة عدائية : و السكر و السجاير ؟

أجاب الدكتور : الراجل وعدني إن كل حاجة ترجع زى ما كانت لكن بالتدريج . بشرط نساعده فى الإحتفال بستة أكتوبر .

– نعمل إيه يعني ؟

– هو كان عاوز حد يغني . قلتله أبو السباع صوته يجنن . وكمان عاوز يعمل مسابقات فى الورش ويوزع جوائز من الترفيه . وحاجات زى كده .

قلت : نبطشى الزنزانة اللى جنبنا بيغنى صعيدى حلو .

– قلتله نعمل كمان مسرحية . الراجل مقالش لا. إنما قالى حتجيب ممثلين منين و عاوزين مخرج . قلتله أنا المخرج وحجيب الممثلين .

– إنت تعرف تخرج ؟

– شوية .

انطلقت التعليقات الساخرة . قال توكل مقلدا أغنية قديمة : مدام مخرج تنكر ليه ؟

وعلق رمضان بخبث : سبع صنايع .

لزم الدكتور الصمت ولم يستجب للاستفزازات . وبعد العشاء لجأ إلى أوراقه ثم وضعها جانبا و شرد . لاحظت أنه يتأمل وجوه زملائنا فى الزنزانة واحدا واحدا . ثم سألنى عن نزلاء زنزانة عبده والزنزانة التى كنت فيها فى عنبر الميرى . حكيت له عن الولد الفلسطينى الذى أعدموه عدة مرات وعن سامى عازر والصورة التى يحتفظ بها فى الإنجيل و حسن بكبورت والهرش

الذى عانى منه وبطشة وخلافه مع سوزوكى وعم جابرالذى دخل بالأتوبيس فى المحطة وسامبو الذى قتل زوج عشيقته وعم فوزى الذى قتل ابنة أخته ويقضى الوقت فى عمل عرائس على شكلها و هيئتها . وبلحة وزميله الذى بدأ حياته بسرقة علب الصلصة و مجاهد الذى نشرت الصحف قصته تحت عنوان ضاعت القيم و جاء الحقد .

كان يستمع إلى شاردا ثم انفعل فجأة وسألنى أن أصف له العرائس التى يصنعها عم فوزى و كيف يصنعها . قلت له أنه يجمع كل ما تقع عليه يديه من فضلات أثناء عمله فى الخدمة ، من خرق قماش وقش وورق جرائد وعلب كرتون . كل شئ وأحيانا يسرق القطن من العيادة . وإذا لم يجد قطنا حشا العروسة رمل .

قال : تعرف أرشميدس اللى قال وجدتها ؟

قلت : سمعت عنه .

قال : أنا كمان وجدتها .

-إيه هى ؟

– عمك فوزى . هو لسه هنا ؟

– أنا لسه شايفه من يومين . كان بينضف الحوش . ليه ؟

– كان بياخد وقت قد إيه فى عمل العروسة ؟

حاولت أن أتذكر : ليلة أو ليلتين . على حسب .

قال : تعرف أنافكرت فى إيه ؟ . عمرك شفت مسرح عرايس ؟

قلت أننى ذهبت مع تلاميذ المدرسة مرة من عدة سنوات إلى مسرح العرائس فى العتبة .

قال : نعمل واحد .

سألته فى استغراب : هنا ؟

قال فى حماس : أهو ورشة النجارة موجودة . وعندنا ترزية كمان . وعم فوزى . مش كان معاكم عامل صباغة ؟

قلت : أيوه . سامي عازر .

قال : المأموريجيبلنا القماش وإحنا نخيطه ونصبغه فى المطبخ بالألوان اللى تعجبنا . نقدر نلون الوشوش بأقلام الفلوماستر أو بهباب الحلل والطباشير . ويجيبلنا كمان قش وكرتون . نقدركمان نعمل حاجات كتير من الورق المفضض . و ناخد كذا بدلة من بدل العساكر والسجانة .

سكت وأمسك بورقة وقلم و كتب بضعة أسطر ثم وضع طرف القلم بين شفتيه و حدق فى السقف . وأخذت أتأمله شاعرا أنه غير طبيعى بالمرة .

التفت إلى وقال وهو يقرأ من الورقة : شوف يا سيدى . حنعوز اتنين تلاتة جدعان زيك يعرفوا يقروا كويس . و اتنين تلاتة تانين عشان يحركوا العرايس . ممكن واحد بس . وساعة منعرض ناخد كرسى والا اتنين من كراسى المعوقين اللى فى المستشفى و نركب كشافين والا تلاتة من كشافات الحراسة .

قلت : و مين اللى يخرج ؟ .

نظر إلى وقال : أنا . مش مالى عينك ؟

قلت . مش قصدى . إنت تعرف ؟

قال : مش قلتلك أنا كنت بأمثل فى المدرسة ؟

– هو اللى يمثل يقدر يخرج ؟

أجاب فى ضيق : أنا كمان اشتركت فى الإخراج .

تردد لحظة ثم أضاف : فى الكنيسة .

شرح لى أن كل الكنائس تحتفل بعيد القيامة قبل شم النسيم بتمثيل قيامة المسيح . فتظلم الكنيسة وتنشد التراتيل التى يرددها الكورس والحاضرون ثم يسود الصمت ويدق القسيس باب الهيكل خلفه عدة مرات بعنف قائلا : " افتحوا الأبواب ليدخل ملــك المجد ". وعلى الفور تفتح أبواب الهيكل وتضاء الكنيسة فى نفس اللحظة فتنطلق الزغاريد وتبدأ الأناشيد..

قسيس الكنيسة بتاعتنا فى بورسعيد كان عجوزو مدهول ، عمره ما عرف يخرّج المشهد مظبوط . ساعة مايخبّط و يزعق ويقول افتحوا الأبواب ليدخل ملك المجد يتهيأله أنه حيدخل حقيقى . فتجيله حالة ذهول وينسى يولع النور . أبويا الله يرحمه قاله ماتخلى رمزى يساعدك . بقيت أقف جنبه عشان أولع النور فى اللحظة المناسبة .

– وده يعملك مخرج ؟

قطب جبينه : لا . تقدر تقول مساعد مخرج .

شعرت أنه غضب فسكت .

القسم الثانى



(١٣)

أوراق رمزى بطرس نصيف

(القصاصات)

★★ فقرات تتخللها خطوط بقلم أحمر من عرض كبير بإحدى الصحف اليومية لمحاكمة قاسم بيه و زميلين له، أحدهما وكيل وزارة الصحة ، فى قضية الأغذية الفاسدة المستوردة :

.. . بعد أن واجه رئيس المحكمة المتهمين بالتهم الموجهة إليهم ، طلب الدفاع الإفراج عنهم بدعوى أنهم مرضى ومن علية القوم و طلب التأجيل .

رد الإدعاء بأن مبررات الدفاع واهية وعدم الإفراج من مصلحة مصرالتى تنتظرحكما رادعا . وطلب استمرار حبسهم خشية هروبهم خاصة و المنافذ كثيرة و بالاتصالات والنفوذ قد يتمكن بعضهم من الهرب إلى خارج البلاد .

.. . نودى على شهود الإثبات فتقدم ممثل الرقابة الإدارية . وبعد أن حلف اليمين سأله المدعى عن معلوماته فقرر أن المتهمين عرضوا عليه شيكا بمليون دولار مقبول الدفع يوضع باسمه فى أى بنك فى العالم .

سأله المدعى : وماذا كانوا يريدون منك ؟

- لفلفة الموضوع .

- ماذا تقصد ؟

- لازم أحكى الحكاية من الأول .

- تفضل .

- فى ٣٠ يناير ١٩٩١ وصلت إلى ميناء الأسكندرية سفينة بنمية اسمها ترويبيكا قادمة من أمريكا وعلى متنها ٨ رسائل من الكبدة عددها مائة ألف و ٣٨٥ كرتونة ، رسالة واحدة من الكلاوى بعدد ٤ آلاف و ٨٠٩ كرتونة . صرح لها بالدخول بعد عشرة أيام بضمان معامل وزارة الصحة بالأسكندرية ونقلت بالكامل فجر اليوم التالى إلى الثلاجات . بعد ثلاثة شهور وردت إلينا شكاوى تفيد احتواء هذه الوسائل على مادة B. C . B . السرطانية السامة . سحبت الرقابة عينات من الرسائل الباقية فى الثلاجتين وأرسلتها إلى معامل وزارة الصحة التى تعطلت فجأة . تحفظنا على الشحنة .لكنها تسربت إلى الأسواق .

سأله المدعى : وكيف تسربت ؟

هز كتفيه وضحك : سيادتك تعرف كيف تسير الأمور .

قال المدعى فى صرامة : لا .. أنا لا أعرف شيئا . ..

- إذن أنت لا تعيش فى هذه البلد .

- المتهم قرر فى التحقيقات أنه التزم بالمواصفات القياسية .

- المواصفات القياسية الخاصة بالكبدة المجمدة تنص على وجوب تخزينها فى درجة حرارة لا تزيد عن ٢٥ درجة مئوية تحت الصفر فى رطوبة نسبية لا تقل عن ٩٠ بالمائة على ألا تزيد فترة التخزين على أربعة شهور منذ بدء التجميد حتى فترة الاستهلاك . لكن فى فبراير أى بعد وصول الشحنة بأيام أرسل وزير الصناعة **مذكرة إلى كافة الإدارات تطلب مد فترة صلاحية الكبدة إلى ٧ شهور بدلا من ٤ !!**

- نودى على الشاهد الثانى فأدلى باسمه و حلف اليمين .

سأله المدعى : أنت مدير معمل أغذية بورسعيد التابع لوزارة الصحة؟

- كنت .

- قصدك إيه ؟

- المعمل تمت تصفيته وجرى توزيع العاملين به على المستشفيات .

- لماذا ؟

- لا أعرف .

- ماذا تعرف عن نشاط المعمل قبل التصفية ؟

- ضبط فى ثلاثة شهورأغذية فاسدة قيمتها تزيد على ٢ مليون جنيه . كما تم إعدام صفقة بن مطحون تقدر ب ٢٢٢ طنا وصلت قيمتها إلى مليونى جنيه .

- ما رأيك فى أن المعمل أفرج فى أغسطس ١٩٩٢ عن شحنة من اللحوم المجمدة مستوردة من ألمانيا تتكون من ٢٤ طنا قيمتها ٥٠ ألف جنيه وهى غير صالحة للاستهلاك الآدمى . وأنه أفرج عن أربعة آلاف طن من الأسماك المجمدة قيمتها ستة ملايين من الجنيهات و تبين من العبوات أنها منتهية الصلاحية . و أنه أفرج فى بداية ٩٢ عن خمسة أطنان شيكولاته باللوز باسم ناتوكا ثم اتضح إنها غير صالحة للاستهلاك إذ كان التاريخ الحقيقى للانتاج مختفيا أسفل البطاقة الملصقة عليها . كما أفرج عن رسالة لحوم فاسدة مستوردة من أيرلندا على أنها غذاء للكلاب وعبئت فى ٥٦٨٠ كرتونة وأخفيت بثلاجة ثم ظهرت فى الأسواق على أنهاصالحة للاستهلاك الآدمى .

- لا أعرف . وفيما يتعلق بغذاء الكلاب الأيرلندى فقد تنازل المستورد عن الكمية لوزارة التموين مقابل حفظ الموضوع و تولت الوزارة توزيعها على المجمعات .

– بصفتها غذاء للكلاب ؟

– كلاب إيه يا سعادة البيه . دى كانت بتتباع فى الأحياء الشعبية .

.. استدعت المحكمة شاهدا من معامل وزارة الصحة وبعد حلف اليمين سألته :

– ما هى قصة الجبن الفلمنك الهولندى" إيدام " ؟

– فى مارس ١٩٩٣رفضت معامل وزارة الصحة كل رسائل الجبن إيدام الهولندى التى يجلبها المتهم لتلوثها بميكروب الليستريا LISTERIA SP. العدو الأول لمنتجات الألبان و الذى عرفه العالم ١٩٨٥ عندما أدى إلى حالات وفاة جماعية فى الولايات المتحدة وسويسرا وفرنسا . تم استثناء رسالتين من الفحص والإفراج عنهما بسبب انقطاع المياه عن معامل التحاليل ببورسعيد رغم بقائهما لمدة ١٥يوما . ثم ضبطت الكمية بعد توريدها إلى معسكر الأمن المركزى فى بورسعيد و تسمم ١٠ آلاف جندى و تبين تواطؤ مسئول التغذية بالأمن المركزى . وحضر وفد من هولندة يمثل الشركة المنتجة وتأكد أن وسائل الكشف هى المتبعة عالميا . وتدخل الملحق التجارى الهولندى فاقترح أخذ عينات مكملة من الرسالة وتحليلها فى معامل محايدة وتدخل السفير الهولندى لدى وزير الصحة لدعم هذا الاقتراح .تم إعادة الفحص بواسطة خبيرة فرنسية من معهد باستير فأوصت برفض إحداها مع السماح بالافراج عن الرسائل الباقية . وللحق فان مديرية الصحة بالأسكندرية قدمت تقريرا بأن الأغلفة الخارجية للجبن وهى ما زالت داخل الحاويات بها بعض الفطر الأمر الذى يجعل فحصها دون جدوى بل كان المفروض ألا يسمح بدخولها أصلا.

وكان الشاهد التالى طبيبا متخصصا فى علوم التغذية وجه إليه الإدعاء السؤال التالى :

- ما معلوماتك عن ميكروب الليستريا ؟

- هو أخطر ميكروب فى عائلة تضم ست سلالات لأنه يسبب إجهاض السيدات نتيجة موت الأجنة كما يؤدى إلى التهابات حادة بأغشية المخ وإلى الإلتهاب السحائى و يتحمل درجات حرارة مرتفعة مثل درجة بسترة اللبن وينمو بمعدلات مرتفعة فى درجات الحرارة المنخفضة بالثلاجة و تستمر فترة حضانته من أسبوع إلى ستة أسابيع مما يصعب عملية اكتشافه . وإحتمالات علاج المرضى عند ظهور أعراض الإصابة شبه منعدمة لطول فترة حضانة الميكروب . ولأنه تخصص فى منتجات الألبان دون أن يغير خواصها الطبيعية فإن الأطفال وكبار السن أكثر الفئات تعرضا للإصابة به .

★★ قصاصة صحيفة تضم جانبا من كلمة الأدعاء في قضية قاسم بيه :

... فى نهاية الثمانينيات انخفضت أسعاراللحم البلدى بعد النجاح المذهل لمشروع إنتاج البتلو و كان آخرون منهم المتهم يستوردون لحوم التصنيع لزوم الهامبورجر واللحوم المصنعة المثلجة فانخفضت مبيعاتهم . وفجأة أصدر وزير التموين آنذاك قرارا بحظر استيراد اللحوم عدا المستخدمة فى التصنيع ثم امتنع وزير الزراعة عن تمويل مشروع البتلو فتوقف . هكذا خلا السوق للمتهم وصديقيه وإرتفعت كميات المستورد من اللحوم المخصصة للتصنيع و المحظور استخدامها مباشرة إلى الاف الأطنان وتسربت إلى الأسواق بأسعار زهيدة لا تزيد عن ٤ جنيهات للكيلو بينما ارتفعت أسعار اللحوم الحية إلى ثلاثة أضعاف ذلك .

من ناحية أخرى هاجمت مافيا المستوردين **المواصفات القياسية الجديدة** للسلع المستوردة والتى تشترط احتفاظها بنصف مدة صلاحيتها على

الأقل عند دخولها البلاد و أثاروا ضجة بدعوى أن هذه المواصفات تمثل قيدا على حرية التجارة الخارجية ونجحوا فى تعطيل تنفيذها . واستغلوا الفرصة فاستوردوا آلاف الأطنان من اللحوم و الدواجن والمواد الغذائية . وبعد ٦ شهور اكتشفت السلطات ان إعتراضات المستوردين لا تشكل سببا قويا لوقف المواصفات الجديدة كما أنها مطبقة فى دول العالم فأعادوا العمل بها!! .

★★ **سطور من مجلة إسبوعية بدون عنوان** : " ... هو الوحيد الذى يمتلك شركة مقرها فى شمال أوروبا مهمتها شراء و تجميع الكميات المختلفة من اللحوم المجمدة وما يطرح فى مزادات قوات حلف الأطلنطى قبل انتهاء صلاحيتها بأربعة شهور، فمدة صلاحية هذه اللحوم وفقا للمقاييس الأوروبية ٢٤ شهرا و بعد مرور ١٨ شهرا بدون استخدام تدخل المزاد الذى يحضره عدد من السماسرة . آخر مزاد رسا عليه بسعر ألف دولار للطن وتصل للمستهلك بسعر ٥ جنيه وربع جنيه للكيلو أى يكسب فى الطن ٢٨٨٦ وبالتالى مليونين و٨٨٦ ألف جنيه لكل ألف طن . وأقل رسالة يستوردها يبلغ وزنها ٢٠٠٠ طن (من أربعة آلاف شهريا) .

. . حصل على فرصة احتكار سوق اللحوم المجمدة و الانفراد بها منذ ثلاثة أعوام قبل إغلاق باب الاستيراد بوقت وجيز حين حصل على الأذونات الاستيرادية المجمدة وبعد أن انتهى من تنفيذها تم إغلاق باب الاستيراد ولم يفتح من جديد إلا بعد ان انتهى من تصريف كل بضاعته .

... يمتلك اسطول شاحنات بالثلاجات قيمته أكثر من ١٠ ملايين جنيه وثلاجة تسع ٤ آلاف طن فى دمياط ثمنها لا يقل عن ٥ مليون جنيه بخلاف شبكة موزعين تجار جملة فى مختلف أنحاء مصر .يبلغ حجم أعماله ٢٠٠مليون جنيه".

★★ قصاصة صغيرة من صحيفة يومية بعنوان : " براءة المتهمين الثلاثة فى قضية الأغذية الفاسدة " . **خط باللون الأحمر أمام السطور التالية :** ... بعد أن ثبت للمحكمة بالتقارير المعملية أن اللحوم ليست فاسدة أو مغشوشة بل صالحة للاستهلاك الآدمى و أن القيود الواردة بالمواصفات القياسية قد تم تخفيفها بناء على طلب القوات المسلحة و الفنادق السياحية و بعض شركات الطيران و كلها تعنى بصحة زبائنها " .

★★عدة قصاصات من الصحف وضع خط أحمر تحت عناوينها هي كالتالي : براءة محافظ المنوفية مما نسب إليه .. براءة محافظ الجيزة الأسبق مما نسب إليه . محكمة أمن الدولة العليا تقضى **براءة** المهندس "نبيل خضير" نائب رئيس هيئة المواصلات اللاسلكية و"رءوف غبور" وكيل شركة "إريكسون " السويدية من تهمة رشوة قدرها ربع مليون جنيه بعد أن أمضيا ٦ شهور محبوسين على ذمة القضية ... **برأت** محكمة أمن الدولة العليا "أحمد وفائى سعيد "و "محمود أبو الوفا " وكيل وزارة الإقتصاد و ١٢ تاجرا متهمين فى قضية رشوة ... **برأت** محمكة جنايات دمياط ٢٢ متهما فى قضية بنك دمياط الوطنى منهم رئيس مجلس إدارة البنك السابق و المدير العام و نائبه وجميع أعضاء مجلس الإدارة من تهمة تسهيل حصول ١٦ عميلا للبنك على قروض بدون ضمانات كافية .. .**برأت** محكمة أمن الدولة العليا برئاسة المستشار "سعيد العشماوى "الدكتور "ممدوح فخرى "مدير عام مستشفى الخليفة السابق الذى نسبت إليه تهمة إختلاس معدات وأدوية قيمتها ١٧٠ ألف دولار من المعونة الأمريكية لمشروع العناية المركزة للعيون .... **برأت** المحكمة نائب وزير الصناعة وعددا من وكلاء الوزارة فى قضية الرشوة الكبرى ... .**برأت** المحكمة ١٥ من كبار مسئولى البنوك اتهموا بتسهيل استيلاء "محى الدين ترك "على ٥٥ مليون جنيه من البنوك دون ضمانات .

★★ قصاصة من مجلة بعنوان : ممتلكات حوت الأسمنت الدكتورثابت محفوظ رئيس المكتب الحكومي لتوزيع الأسمنت :

فدان و ١٥قيراط بمنطقة كبريت بالسويس عليها فيلا سكنية قيمتها نصف مليون جنيه ، ٢١٨ فدانا بسرابيوم بالإسماعيلية عليها فيللا سكنية قيمتها مليون و ٣٤٧ ألف جنيه ، ٦٣ فدان بمركز كفرالدوار، ٣٧ فدان بنفس المنطقة، ٥٤ فدان أرض زراعية بالزقازيق ، فيللا بنفس الناحية بها تشوينات رخام ، ١٦٠٠م بالعاشر من رمضان عليها مبان ، ٦٠٠ متر مربع بجمعية صحراء الأهرام بجوارمدينة ٦ أكتوبر ، العقار ٢٦ شارع الشهيد عبد المنعم حافظ بمصر الجديدة، العقاررقم ٢٥ شارع عمر بن الخطاب بمصر الجديدة ، العقار رقم ٢٠ شارع ٢٣ بالمقطم ، العقاررقم ١شارع عبد القادر المربى مصر الجديدة ، العقار ٦٣شارع بيروت بمصر الجديدة ، الدور الحادى عشر بعمارة لولؤة جليم و يضم ٨ شقق ، فيللا رقم ١ شارع بلبيس بالعجمي ، العقار رقم ٤ شارع سامى رؤوف بالأسكندرية ، شقة بالدور الرابع بالعقار رقم ١٩ بالمقطم ، شقتان بعمارة زهرة جليم ، الشقة رقم ٦٧ بلؤلؤة جليم ، شقة بالطابق الثالث عشر بعمارة رقم ٣٧٣بشارع الجيش بالأسكندرية ، عدد من السيارات هى فولكس موديل ١٩٩٣ ، فولكس موديل ٩٠ ، مرسيدس ٢٣٠موديل ١٩٨٠ ، هوندا سيفيك موديل ٩٠ ، شيروكي موديل ٩١ ، مرسيدس ٥٠٠بالتليفون ، أموال سائلة نحو مليونين و٢٠١ ألف جنيه .

إضافة بخط اليد : لغز أزمة الأسمنت ؟ الانتاج المحلى أكثر بكثيرمن الإستهلاك ومع ذلك نستورد . والمستوردون يحتكرون السوق و يتحكمون فى الأسعار يرفعونها عن طريق التخزين و اصطناع الأزمات فتصل أحيانا إلى الضعف ، وتفوق أرباحهم أرباح المخدرات و أكثرهم لواءات شرطة سابقين

يتنازل بعضهم عن ترخيصه مقابل مائة ألف جنيه و يحصل المتنازل له على ربح لا يقل عن خمسين ألف جنيه فى الشهر .

★★ قصاصة من صحيفة مصرية : " كشفت وول ستريت جورنال فى يوليو١٩٩٤ أن كبير المحلفين بولاية أطلنطا اتهم شركة لوكهيد و اثنين من كبار الموظفين السابقين بارسال أموال تجاوزت المليون دولار إلى مصرية عملت كاستشارية للشركة فى مصر و كانت عضوا بمجلس الشعب وذلك مقابل مساعدة الشركة فى صفقة مبيعات لمصر شملت ثلاث طائرات شحن قدرت قيمتها ب ٧٩ مليون دولار . وقال الاتهام أن النائبة السابقة والتى تقوم بنشاط نسائى واسع وتتحدث باسم مصر فى المؤتمرات الدولية الخاصة بالسكان ، أنشأت شركة مصرية وضعتها تحت الإدارة الصورية لزوجها الموظف الكبير لإخفاء الأموال التى حصلت عليها شملت عمولات ب ٦٠٠ ألف دولار أى ٢ مليون جنيه مصرى مقابل كل طائرة مباعة إلى مصر" .

★★ قصاصتان من صحيفة يومية في تاريخين متباعدين :

الأولى عن حريق هائل فى مصانع الشركة الشرقية للدخان والسجائر (قطاع عام) التهم طابقا كاملا من مخازن الشركة وكميات ضخمة من السجائر المصرية المغلفة ومن التبغ و قدرت الخسائر بمبلغ عشرة ملايين من الجنيهات . و الثانية عن إفتتاح خطى إنتاج جديدين لسجائر" مارلبورو" بنفس الشركة وكلمة لوزير الصناعة أشاد فيها بدور رجل الأعمال مصطفي البليدى و السفير الأمريكى فى إنجاح المشروع .

★★ قصاصة من صحيفة مصرية بعنوان نهب ٢٢ مليون دولار:

... " أجبرت الجهات القانونية والرقابية رئيس شركة قابضة على رد مبالغ تتجاوز ٢٢ مليون دولار حصل عليها بالتعاون مع وكيل أول وزارة و رؤساء

عدد من الشركات الأخرى من خلال عملية خصخصة و تقييم ١٩ شركة . وقد تبين أن ثروته تجاوزت ٦٠ مليون دولار" .

★★ إعلان كبير علي نصف صفحة من مجلة مصرية تتوسطه صورة لشاطئ ساحر تتناثر فوقه فيلات أنيقة وأسفل الصورة عنوان بخط كبير: الحق بالصفوة .. امتلك .

★★ قصاصتان من صحيفة مطويتان سويا . الأولي إعلان نصه:
"اضمن المستقبل لطفلك ، مدرسة ليدرز للغات ،لأول مرة في مصر نظام التعليم الأميركي بثلاث لغات : الإنجليزية و الفرنسية و الألمانية إلى جانب العربية، إشراف دولى ، نموذج حى لأنشطة الحياة لمختلفة لتدريب الطفل عليها ، لكل طفل شجرة تحمل إسمه إلى الأبد ، ٥٠ ألف متر مربع حدائق بواقع ٥٠ مترا مربعا لكل طفل " .

والثانية من صفحة الحوادث في صحيفة يومية : " توفى الطفل عيد أحمد كامل بمؤسسة الأحداث الضالين ببولاق الدكرور بعد إصابته بحالة صرع أودت بحياته وتبين أن الفئران إلتهمت أجزاء كبيرة من وجهه وصدره . قرر مدير المؤسسة أمام النيابة أن نظام المؤسسة يمنع قبول الأطفال الضالين المصابين بحالة الصرع إلا أن إدارة تصنيف الأحداث بالأزبكية لا تقوم بالكشف الطبى الدقيق على الأطفال عند تصنيفهم و تكتفى بالكشف الظاهرى فلا يكتشف المسئولون بالمؤسسة أمراض الأطفال إلا متأخرا أما بالنسبة لوجود القطط والفئران فهو أمر عادى لأن المؤسسة توجد في منطقة عشوائية و قريبة من مصرف صحى و سوق خضراوات " .

★★ صفحة بالالة الكاتبة يعلوها العنوان التالي بخط اليد :
" من التقرير القومى المصرى عن البيئة لسنة ٩٢ " : . تبلغ عدد حالات الوفاة

بمصر نتيجة الأمراض المنقولة عن طريق المياه الملوثة ٩٠ ألفا فى العام وذلك طبقا للإحصائيات الرسمية المسجلة لدى منظمة الصحة العالمية . يتلقى النهر فى العام ٣١٢ مليون متر مكعب من السموم عبارة عن نفايات و كيماويات ٣٣٠ مصنعا و الصرف الزراعى المحمل بآثار المبيدات و الأسمدة الكيماوية (فى عام ٩١ ثلاثة ملايين و نصف مليون طن أسمدة و ٢٠ ألف طن مبيدات وجدت طريقها فى نهاية الأمر إلى المصارف و منها إلى النهر ثم الأراضى الزراعية مرة أخرى) و الصرف من محطات الكهرباء و القوى و محطات معالجة المجارى . هذه السموم تلقى في النيل مباشرة و تنتقل إلى قنوات الرى . وعلى سطح النهر تسبح وابورات النقل و البواخر السياحية و العوامات والكازينوهات والفنادق وورد النيل والقمامة والحيوانات النافقة ونفايات المستشفيات وغبارالأسمنت . وتنتقل أخطار هذه الملوثات أيضا إلى مياه الشرب فبعضها يلقى فى نقاط قريبة من مأخذ مياه الشرب ، و الطرق التقليدية فى التنقية لا تقضى على كل أنواع الملوثات ، فالعضوية منها تتفاعل أحيانا مع الكلور المستخدم فى التعقيم منتجة مواد كربوهدراتية كربونية من مسببات السرطان " .

★★ قصاصة من صحيفة يومية بها تصريح لوزير الصحة :

"مصر خالية من الأمراض المعدية؛ وحالات القئ و الإسهال التى ظهرت في بعض المناطق مجرد حالات فردية وتمت السيطرة عليها تماما . أما الحالات التى ظهرت مؤخرا فى الفيوم ووصلت إلى ٩٠ حالة فسببها يرجع إلى **أن مياه الشرب تصل في فناطيس تستغل في نفس الوقت في عمليات الصرف الصحي . و قد اتخذت الوزارة عدة إجراءات لمنع انتشار المرض أهمها استخدام عربات فناطيس خاصة لنقل مياه الشرب فقط** وزيادة نسبة الكلور" .

** **سطور بخط اليد** : الأرض الزراعية تشبعت بالمبيدات و الأسمدة وأصبحت في خطر . والحل هو تشجيع استخدام المخصبات الطبيعية . يمكن بسهولة الاستغناء عن المبيدات الحشرية التى تلوث طعامنا و تصيب الالاف بالتسمم بالتعاون و تنفيذ قانون رى البرسيم بعد الأول من شهر مايو لأن ذلك يقضي على آفات القطن دون حاجة للمقاومة الكيماوية أو اليدوية مع جمع اللوز الأخضر و الجاف من أحطاب القطن بعد الإنتهاء من جنى المحصول مباشرة أو التخلص منه بالحرق ، وإستهلاك حطب القطن قبل بداية أبريل ، مما يحول دون حدوث إصابة بديدان اللوز القرنفلية .ثم التخلص من شجيرات الكركديه والتيل والباميا الخطمية و الجوت بعد انتهاء موسم زراعتها و عدم تركها بالأرض للعام التالى لأنها المصدر الرئيسي لديدان اللّوز الشوكية .

ثم سطرين منفصلين تحتهما خط: **لا بد من إلغاء الزراعة المحمية لخطورتها علي الزراعة وإلغاء إستعمال مياه الصرف الزراعي في تغذية المزارع السمكية .**

** **نص إعلان بإحدي الصحف بعنوان ثلاثون عاما من النجاحات و التقدم و التنمية** : " تحتفل شركة أمريكانا الكويتية للأغذية بمرور ثلاثين عاما عام ٩٤ على تأسيسها ، تميزت بالنمو والتطور المتواصلين . فقد أصبحت الأولى فى تصنيع اللحوم و الكيك و تسويقهما وفى خدمة مطاعم الوجبات السريعة فهى التى أدخلت مطاعم الويمبى البريطانية ودجاج كنتاكى التى باعت حتى الآن ثلث مليار من قطع الدجاج فى العالم العربى من مسقط إلى القاهرة فى ١٩٧٣ والبيتزا هت فى ١٩٧٩و سبارو الإيطالية وهارديز الأمريكية للهمبورجر و دجاج تيكا بخلطتها الشهيرة و توابلها الشرقية وأيس كريم باسكن روبنز (٦٠٠ نوع ب ٣١ نكهة لذيذة مختلفة يوميا) وحلويات الصمدى اللبنانية

الشرقية وبانيلا سويس المتخصصة فى صنع و بيع الخبز الأوروبى و الحلويات والشكولاتة السويسرية مساهمة بذلك فى توفير الخيارات المتنوعة أمام المستهلك، ومصنع لحوم ينتج الهامبورجر و النقانق و المرتديلا و الكفتة مضيفة بذلك بعدا جديدا إلى النمط الغذائى العربى .و مصنعا آخرا لانتاج الكيك على أنواعه من السويس رول إلى الباوند كيك والمينى رول والكرواسان والكوكيز وباعت منها فى نهاية ٩٣ ما يزيد عن ١٠٨ مليون قطعة بالمنطقة العربية . وفى ١٩٩٠ أنشأت بالتعاون مع " فارم فريتز " العالمية شركة كويتية مصرية هولندية متخصصة بتصنيع البطاطس المصرية الشهيرة تهدف إلى تغطية الأسواق العربية والخليجية. فى ٨١ أنشأت شركة "بيفى "و أول مصنع ينتج اللحوم المعلبة ، ومصنع "جلفا " للمياه المعدنية ، و فى ٩١ أدخلت إلى مصر "كادبرى" أشهر اسم فى صناعة الشكولاتة ، و شركات لانتاج الدواجن و جدودها ، و سلسلة محلات " فاشن واى " لتسويق الأزياء العالمية ، و شركة " حدائق كاليفورنيا " فى دبى لإنتاج البقول المعلبة و خاصة الفول ، وفى ٩٢ أحضرت إلى مائدة المستهلك العربى ماركة " كتش أب هاينز " الشهيرة " .

★★ سطور بخط اليد و إشارة إلي أنها منقولة من كتاب باسم صناعة الجوع " (للبريطانيين فرانسيس مور لابى وجوزيف كولينز، ١٩٨٠ ، ترجمة أحمد حسان) : ...العالم يجوع ليشبع الغرب لحما : تعتبر شريحة اللحم الطبق المفضل الذى يشيع جوا من البهجة فى الجزء الثرى من العالم . فمنذ الحرب العالمية الثانية تضاعف استهلاك اللحوم فى الدول الغربية ثلاثة أضعاف . ولا يتخيل أحد أن ماشية أوروبا الغربية تلتهم خبز أفريقيا . كيف ؟ تسيطر احتكارات أوروبا الغربية على ٢٢ مليون هكتار من الأراضى الزراعية فى البلدان النامية لإستثمارها فى انتاج العلف لماشيةالغرب . وبذلك

تحرم شعوب العالم الثالث من زراعة المحاصيل الغذائية التي تكفيها . ويكسب الغرب كل عام ٢٥ ألف مليون دولار نظير صادراته من الغذاء لإطعام ألف مليون نسمة في العالم الثالث .

... روبرت تسفاريتوس رئيس شركة **أميركان فودز شير** المتعددة الجنسية ذات الأساس السويدي (التي اكتشفت أن للكلب ثلاث مراحل حياتية لكل منها أنواع مختلفة من أطعمة الكلاب "تصنعها الشركة بشكل ملائم») :" أي شخص يقول لنا أننا نذهب لأثيوبيا لكي نساعد تلك المخلوقات البائسة كاذب .. إننا نبحث عن مواقع لإمداد أوروبا بالخضراوات و لعلنا نفضل بلدانا مثل مصر".

... هناك شركات تحتكر المحاصيل الزراعية و المواد الأولية في العالم الثالث وتحصل عليها بأبخس الأثمان . خذ مثلا شركة **نسلة** التي تصنع الشكولاته السويسرية الفاخرة : إنها لا تملك شجرة كاكاو واحدة ، ولا بقرة حلوبا واحدة ، لكنها تحتكر شراء الكاكاو واللبن والبن في عدة بلاد نامية و تدين مزارعي هذه البلدان مهما أعطوها من محاصيل . ويباع البن المحمص في أسواق الدول المنتجة بعشرة دولارات للكيلو بينما سعر البن الأخضر هو دولار واحد فقط للكيلو . فأين تذهب الدولارات التسع؟

... تحارب شركات المياه الغازية العالمية الانتاج المحلي من العصائر الطبيعية والأعشاب في الدول النامية كيما تروج هي مشروباتها الخالية من الفيتامينات والعديمة الفائدة . هل تصدق مثلا أنك لا تستطيع أن تحصل على كوب من عصير البرتقال في البرازيل مع أنها من أكبر الدول المصدرة للبرتقال ؟ وأن كوب عصيرالبرتقال الطبيعي في مصريبلغ ثمنه ثلاثة أضعاف ثمن زجاجة من المياه الملونة بطعم البرتقال : سكر وماء ومواد غازية و مكسبات لون ورائحة مسببة للسرطان ، و كذلك الأمر بالنسبة للألبان .

....المجاعات ليست غضبا من الله و ليس سببها الجفاف أو كسل السكان وخيبتهم . البلاد الجائعة في آسيا و أفريقيا كانت غنية في يوم ما ثم هبطها المستعمر الأوروبي وفرض على سكانها الضرائب من أجل تغطية نفقات الإدارة والجيش الإستعماريين . وعندما عجزوا عن دفعها أجبرهم على أن يتخلوا عن المحاصيل الغذائية المحلية ليركزوا على محاصيل تصدير تخدم صناعاته مثل الكاكاو و المطاط و الفول السوداني و القطن وأعطاهم مقابلها نقودا سددوا منها الضرائب واشتروا بما تبقى البضائع التى أحضرها لهم أى عادت إليه نقوده !

...الخدعة الأمريكية الكبرى اسمها السوبرماركت . فهو يعطى انطباعا بالوفرة والتنوع الهائل في السلع . فى الولايات المتحدة تسيطرخمسون شركة كبرى على صناعة الغذاء . إنهم يبيعون تحت مئات الأسماء التجارية المختلفة فلو وضعوا أسماءهم الحقيقية على السلع لأدرك الناس الحقيقة . ثمانية بالمائة فقط مما يبيعه السوبر ماركت منتجات طازجة (فواكه خضراوات بيض) الباقى مر خلال الآلات اللامعة للشركات التى تشترى ٩٠ بالمائة من الغذاء المزروع للإستخدام المحلى فى الولايات المتحدة لتقوم بتصنيعه . فلماذا تبيع بضع أوقيات من البطاطس الخام إذا كان بإمكانها أن تجففها و تعيد بلها ثم تلقى عليها بعض المواد المضافة و تقطعها إلى أجزاء متطابقة ثم تقليها جيدا و ترش عليها بعض مكسبات الطعم و تعبئها فى علب من الصفيح أو أكياس من البلاستيك ؟ و ذلك كله بتكلفة تزيد عشرات المرات على تكلفة البطاطس الأصلى المسكين .

إن التليفزيون يستطيع إقناعك بأن تنفق أكثر مما يجب على الحلوى واللبان والبسكويت والزيوت والمشروبات الغازية .

ملحوظة بخط اليد علي هامش الفقرة السابقة : سوق المشروبات الغازية المصرى أصبح حكرا على البيبسى والكوكا بعد تصفية القطاع العام .

★★ سطور بخط اليد بعنوان من يحكم العالم ؟ : خمسمائة شركة عالمية كبرى متعددة الجنسية حققت تريليونان دولار زيادة فى أصولها عام ١٩٩٥ بالنسبة للعام السابق وارتفعت إيراداتها تريليونا وأرباحها ٢٤ مليارا . زادت الإيرادات من سنة إلى آخرى بنسبة ١١بالمائة والأرباح بنسبة ١٤ بالمائة ولم تزد العمالة إلا بنسبة ١ ونصف بالمائة متحررة من نفقات كثيرة لأنها تستغنى عن الجيش والشرطة والقضاء بلجوئها للتحكيم . مشغولة بالدمج والاستيلاء والمضاربة أكثر من الإستثمار فى الانتاج وسوف تصطدم فى النهاية ببطء نمو الأسواق لانتشار البطالة والفقر واتجاه الطبقات الوسطى للحد من الاستهلاك لمواجهة احتمال فقدان الدخل أعلنت صراحة أن نسبة الربح التى تحققها فى البلدان النامية ٢٤ بالمائة على رأسها خمس وعشرون شركة هى : شل (انحليزية هولندية ، بترول) فورد (أمريكية ، سيارات) جنرال موتورز (أمريكية ،سيارات)إكسون (أمريكية ، بترول) كوكاكولا ،آى بى إم (أمريكية ، كمبيوتر) بريتش بتروليوم (بريطانية ، بترول) نسلة (سويسرية، أغذية) أونيليفر (بريطانية هولندية ، أغذية) اسيا براون بوفرى (سويسرية سويدية ، كهربائيات) فيليبس (هولندية ، الكترونيات) ألكاتل ألثوم (فرنسية ، اتصالات) موبيل (أمريكية ، بترول) فيات (إيطالية ، سيارات) سيمنز (ألمانية ، كهربائيات) هانسون (بريطانية ، متنوعة) فولكسفاجون (ألمانية ، سيارات)إلف أكويتان (فرنسية ، بترول) ميتسوبيشى (يابانية ،تجارة)

جنرال إليكتريك (أمريكية ، متنوعة) ميتسوبيشى الكهربائية (يابانية إلكترونيات) نيوزكوربوريشن (استرالية ، صحف و تليفزيون) فيروزى مونتيديسون (إيطالية، متنوعة) باير (ألمانية ، كيماويات) روش (سويسرية ، أدوية) .

★★ ملحوظتان بخط اليد علي هامش القصاصة السابقة :

٢٥ بالمئة من إجمالى التجارة العالمية هو مبادلات بين شركات تتبع شركة كبرى واحدة ، و ٥٢ بالمئة أخرى بين الشركات متعددة الجنسية أى أن هذه الشركات تسيطرفعليا على أكثر من نصف حجم التجارة الدولية مما يتيح لها تحديد أسعار السلع المتبادلة بين الشركة الأم و فروعها و تحديد أسعار المواد الخام (المثال التقليدى هو الموز المنتج فى أمريكا الوسطى حيث يباع فى جواتيمالا مثلا بحوالى ٨ فى المائة من ثمن بيعه فى نيويورك والفارق يذهب إلى شركات دولية النشاط عاملة فى مجالات النقل والتأمين والإعلان والتسويق والدعاية والأعمال المصرفية وبصفة عامة لا تحصل الدول النامية من تصديرها للمواد الأولية إلا على ١٠ بالمائة من الثمن الذى تباع به فى الدول الصناعية المتقدمة أما المنتجات المصنعة فى الدول النامية فلا تحصل منها هذه سوى على ١٣ بالمائة من الثمن المدفوع فيها فى الدول المتقدمة ويذهب الفرق فى الثمن إلى الشركات الدولية .

...إذا كتبت أسماء الصناع فى مجال السيارات الذين يرتبطون بمشروعات مشتركة أو بإتفاقيات فى التصميم أو الأبحاث أو إنتاج المكونات أو التجميع الكامل أو التوزيع أو التسويق لمنتج واحد أو عدد من المنتجات فى أى مكان فى العالم ، سيتحول المربع إلى شبكة من الخطوط المتداخلة غير المفهومة . إنها نفس القصة فى الكمبيوتر و الطيران و الأدوية و الدفاع .

★★ **قصاصة مرفقة بالقصاصة السابقة** : تتنازع مجموعة تتألف من سبعة إلى عشرة تكتلات دولية السوق العالمية للمشروبات غير الكحولية : الشاى والبن والمشروبات الغازية و تكمن قوتها فى قدرتها على التحكم فى أكبر عدد ممكن من الحلقات التى تؤلف سلسلة تسويق منتجاتها إبتداء من المزارع حتى متاجر البيع تمتص و تشترى الشركات المنافسة ..تخرج الشركات الأصغر من المنافسة بسبب نقص السيولة و ضآلة التمويل المصرفي مما يمنعها من تنظيم حملات الترويج لإيصال منتجاتها إلى رفوف المتاجر . إيرادات التبغ هى التى سمحت لشركة **فيليب موريس** (مارلبورو) برصد المبالغ للترويج لبيرة ميلر التى تحتل المرتبة الثانية فى السوق الأمريكية المنتجات الإستوائية الثلاثة وهى الكاكاو والبن و الشاى ، تحت سيطرة شركات تجارية عملاقة أبرزها الشركات اليابانية وشركة كارنيل ثم مجموعة الشركات عبر الوطنية : **يونيليفر** البريطانية الهولاندية التى تعتبر منذ عدة عقود أكبر موزع عالمى للشاى (ليبتون وبروك بوند) ، ونستلة ، **كوكاكولا ، فيليب موريس ، بروكتر/ جامبل** .

..إحتكار الكاكاو فى يد شركات **نستلة وفيليب موريس وهيرشي ومارس وكادبوري شويبس** التى تمثل مجتمعة أربعة أخماس الإنتاج الدولي من الشكولاتة . إلتهمت **نستلة** فى ١٩٨٤ شركة **كارنيشن** عملاق الحليب الأمريكى (٢٠٠ منتج) التى كانت الأولى فى سوق الكاكاو سريع الذوبان .

... الماء العادى أكبر عدو للشركات و خاصة الكوكاكولا (٩٧ بالمئة من سكان العالم يشربون مـــاء الحنفية) .

..مع إلغاء الضوابط على الأسواق و تحريرالإقتصاد اللذين يشقان طريقهما فى العالم فإن آفاق التسويق أصبحت وردية تماما . فقد إنهارالأعداء القدامى

وألغى مجلس التعاون الخليجى نفسه الحظر المفروض على **الكوكاكولا** فى ١٩٩١عقب تحرير الكويت . ويفخر مدير الكوكاكولا بأنهاستصبح بحلول عام ٢٠٠٠ فى متناول جميع سكان هذا الكوكب البالغ عددهم ستة مليارات شخص . وهى تسيطر الآن على ٤٦ بالمئة من السوق و تبذل جهدها للسيطرة على كل سلسلة التسويق فتدخل إلى سوق المطاعم السريعة التى توسعت بشدة . فشركة **مكدونالد** التى بلغ رقم أعمالها ٧ مليار دولار فى ١٩٩١ لا توزع سوى كوكا وفانتا وسبرايت وتمثل مبيعاتها ٢٠ بالمئة من رقم أعمالها . بينما تملك **بيبسي** مراكز الطعام السريع مثل **بيتزاهت، كنتاكي فرايد شيكن** حيث لا يقدم غير **البيبسي** .و أدى نجاح كوكا و بيبسى إلى توحيد و تطبيع الاستهلاك على المستوى العالمى و إبعاد المشروبات المحلية و القومية .

..إرتفعت أرباح " **يونيليفر** " عام ١٩٩٤إلى أكثر من ثلاثة مليارات ونصف المليار دولار رغم الإتهامات التى وجهت لمسحوق التنظيف " **برسيل** " (بسبب احتوائه على مواد كيماوية تلحق أضرارا فادحة بالإنسان) و أفشلت طرحه فى بعض الأسواق الأوروبية . وهى تسوق منتجاتها فى الشرق الأوسط عن طريق شركتى ليفر وليبتونزفى السعودية اللتين تملكهما شركة بن زقر السعودية وتملك يونيليفر أربعين بالمئة من ليفر المختصة بالمنتجات الشخصية و٤٩ بالمئة من ليبتونز المختصة بالأغذية . تشكلت يونيليفر قبل ٦٢ عاما من إندماج شركةالصابون البريطانية ليفر وشركة الزبدة النباتية مارجرين يونيون الهولندية . وتمتلك حاليا ما يزيد عن ٥٠٠ شركة فى ٧٥ بلدا و عددا كبيرا من العلامات التجارية المشهورة مثل **برسيل وليبتون واليزابيث آردن وكالفن كلاين.**

★★ صفحة من مجلة تايم الأمريكية تتوسطها صورة لزحام الاف الحجاج المسلمين أثناء طوافهم حول الكعبة التي تحولت في الصورة إلي صندوق كبير من زجاجات الكوكاكولا .

★★ سطور بخط اليد : ديزنى إشترت شبكة إيه بى سى الأمريكية للتليفزيون ، جنرال الكتريك إشترت شبكة إن بى سى ، وستنجهاوس إشترت شبكة سى بى إس ، ميكروسوفت إشترت إم إس إن بى سى وقبل ذلك إشترت سى إن إن مترو جولدين ماير سنة ١٩٨٦ بمبلغ مليار دولار وإشترت مجلة تايم سنة ١٩٨٩ شركة إخوان وارنر للسينما (إستفاد حاملى أسهم وارنر بينما إستدانت تايم ١١ مليار دولار فتخلت عن أجزاء من الشركة الجديدة لشبكة معقدة من الشركات جلبت لها عدة مليارات لكن قيدت أصولها ، و أخيرا إندمجت تايم / وارنر مع محطة سى إن إن الشهيرة و أصبحت تايم / وارنر / تيرنر أضخم مؤسسة ميديا فى أمريكا والعالم بمبيعات تصل إلى ٢١ مليار دولار. دفع جيرى ليفين رئيس تايم وارنر فى شراء سى إن إن ١٧٨ مليون سهم من أسهم المؤسسة تساوى أكثر من سبعة مليارات دولار . وأصبحت المؤسسة الجديدة تضم تايم / وارنر وشركات السينما والتليفزيون التابعة لها (بما فيها وارنر برودرز ، إتش بى أو، سينيماكس) و النشر (تايم ، كتاب الجيب وارنر ، كتاب نادى الشهر ، وكتب ليتل براون) و الموسيقى (أتلانتيك وإلكترا) ثم سى إن إن ، تى بى إس ، تى ن تى ومجموعة هائلة من الأفلام وحوالى ٢٨،٥٠٠ برنامج تليفزيونى . ماذا يريد تيرنر ؟ غالبا رفع أسعار أسهم شركته بشكل مصطنع، عن طريق بيع أصولها وتخفيض الديون والتكاليف . فى ١٩٩٢ أدمجت تايم

وارنر شركة الكابل التابعة لها مع الأخرى التابعة لوارنر وإتش بى أو فى شركة جديدة باسم وارنر إنترتينمينت ثم باعت ربع الشركة الجديدة لشركة يو إس وست مقابل مليارين و نصف مليار دولار .

يعتقد ليفين إن الإندماجات التى قام بها تتيح منفذا لمنتجاته . ما تحقق على الفور هو فصل ألف من العاملين فى سى إن إن لضغط الإنفاق .

خريطة الإمبراطورية الجديدة : (تايم) **مجلات** : تايم ، بيبول ، سبورتس اليستريتور، لايف، فورتشن ، مونى و٢٠ مجلة أخرى . **كتب** : كتاب نادى الشهر ، ليتل براون ، وارنر ، أوكسمور هاوس ، سانست . (وارنر بروذرز) **تسجيلات** : وارنر برذرز ريكوردز ، أتلانتيك جروب ، إليكترا ، وارنر شابل ميوزيك ، وارنر ميوزيك انترناشنال . **تليفزيون** ، شبكة ، الفيديو المنزلى ، للسلع الإستهلاكية و شركات أخرى . (إتش بى أو) : سينيماكس . تايم وارنر سبورتس و شركات أخرى . **تايم وارنر كابل** (حوالى ١٢ مليون مشترك) . **إستثمارات أخرى** : شبكة تليفزيون المحاكمات ، كوميدى سنترال، إى ! إنترتينمنت ، قناة ساجا ، (تيرنر) : **برمجة وإنتاج** : كاسل روك إنترتينمنت ، أفلام تيرنر ،مكتبة فيلمية تضم أفلام مترو و وارنز ، كارتون هانا باربيرا ، نيولاين سينما ، وغيرها . **هوم إنترتينمنت** : فيديو تيرنر العالمى ، تيرنر للنشر ، تيرنر للتجزئة ، وغيرها . **رياضة** : أتلانتا بريفز ، أتلانتا هوكس ، جودويل جيمز ، بطولة المصارعة العالمية . **الأنظمة المتعددة**: سى إن إن انترأكتيف ، تيرنر نيو ميديا و غيرها .

شركات الكابل : سى إن أن ، شبكة الكارتون ، هيدلاين نيوز ، ت ب س سوبر، ت ن ت ، سى إن إن انترناشينال ، تيرنر كلاسيك موفيز ، وسبع شركات أخرى .

إلى أي مدى يتيح تركيز هذه القوة الهائلة التلاعب بعقول ملايين البشر ؟

★★ فقرة من مقال بالفرنسية بغير عنوان : في الوقت الذي تستعين فيه ٥١ دولة أفريقية بحوالى ٨٠ ألف خبير أجنبي يحصلون على عوائد وأرباح ضخمة ، يوجد حوالي ٧٠ ألف خبيرأفريقي يساهمون في تقدم أوروبا .

.....في ١٩٨٧ كانت حوالى ثلث قوة العمل الأفريقية المتخصصة قد هاجرت إلى أوروبا وخسر السودان نسبة هامة من قوة عمله المتعلمة في تلك السنة وحدها : ١٧ في المائة من أطبائه و أطباء أسنانه ، ٢٠ بالمائة من أعضاء هيئات تدريس جامعاته ، ٣٠ في المائة من مهندسيه و ٤٥ بالمائة من مساحيه . وتؤدى هذه الهجرة إلى ما هو أكثر من تجريد أفريقيا من قوة العمل : إنها تقلل كذلك قدرتها على تدريب أجيال جديدة من الكوادر . ومما يدعو إلى السخرية أن هذه المهمة تعود أكثر فأكثر إلى الخبراء الأجانب الذين تستخدمهم البلدان الأفريقية بتكاليف ضخمة و أعداد ضخمة : فعددهم اليوم ٣٠ ألف أي أكثر بكثير من عددهم قبل أربعين سنة .

...ذكر البنك الدولى في ٨٤ أن الولايات المتحدة وفرت ٨٨٢ مليون دولار عام ١٩٨٣ وحده نتيجة هجرة العقول و المهارات إليها بينما خسرت الدول النامية و من بينها مصر ٣٢٠ مليون دولار هو ما أنفقته على تعليم و تربية هؤلاء الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة-فضلا عن خسارتها بفقد العناصر البشرية القادرة على الإنتاج و العمل . وكسبت كندا بين ألف مليون دولار و ألفين في الفترة من ١٩٦٧حتى ١٩٧٣ لنفس السبب و هو مبلغ يساوى عشرة أضعاف ما أعطته كندا من مساعدات للتعليم و التدريب في الدول النامية و هي مساعدات تصب مرة ثانية

لديها . و كسبت ثلاث دول هي الولايات المتحدة و كندا و إنجلترا خلال الفترة من ١٩٦١ و ١٩٧٢ مايزيد على ٤٤ ألف مليون دولار للسبب نفسه .

★★ سطور متفرقة من مقال في صحيفة مغربية بعنوان : الفرانكفونية : " ... يزعم أنصار الفرانكفونية أنها مجرد تنظيمات ثقافية تهدف إلى ترسيخ اللغة الفرنسية . أما الحقيقة فان أهدافها اقتصادية وسياسية فهي تطرح الفرنسية كبديل للغة الأم في أفريقيا . . تعني الفرانكفونية السكان الناطقين بالفرنسية أي خمسين مليون فرنسي + ١٢٠ مليون في القارات الخمس (٥٢ دولة) . . . في سنة ١٩٦٩ قال الشاعر السنغالي سنجور أن اللغة الفرنسية منتشرة في أفريقيا ليس فقط نتيجة استعمار فرنسا لدولها بل لتمتع هذه اللغة بحسنات خاصة جعلت منها ظاهرة عالمية : " الفرنسية هي الأرغونات الكبرى الأكثر عنوبة ، مثل إبراقات العاصفة . إن الكلمات الفرنسية تشع من ألف نار ، مثل شهب تضيء ليلنا " وبعد ذلك بعشرين عاما كان الرئيس الفرنسي ميتران أكثر واقعية : " الفرانكفونية ليست هي فقط اللغة الفرنسية . انها انتماء سياسي و اقتصادي و ثقافي ". .

......إذا كانت أفريقيا تعاني من التأخر و تموت من الجوع و من الأوبئة فإن السبب في ذلك هو الفرانكفونية فقد خلقت فرنسا و تساند نخبة في الحكم منفصلة تماما عن احتياجات السكان . هناك بلدان في القارة الأفريقية إذا لم يدفع فيها المكلفون أجور الموظفين في نهاية الشهر فإن المساعدة الفرنسية تأتي لذلك ، بدءا من الدرك و العسكريين و رجال الجمارك بل و الوزراء أنفسهم ، لأن أموال الخزانة حولت إلى حسابات بنكية في سويسرا . وإذا وقع أقل تحرك فإن الجيش الفرنسي موجود و كل قواعده العسكرية على أهبة الإستعداد للتدخل.

وقد اضطر الرئيس الفرنسي ميتران للإعتراف بالوجه الآخر للحضارة الفرنسية عندما قال : " كما كان لفرنسا الفضل في الأخذ بيد دول أفريقيا ودفعها على طريق التقدم والحضارة فإن **لأفريقيا أيضا دورها في إثراء فرنسا وفيما يتمتع به شعبها من رخاء ورقي** ". ولهذا تقاوم فرنسا إنشاء سوق أفريقية مشتركة لأنه سيضيع عليها فرصا كثيرة . فمنتجات أفريقيا الضخمة من المحاصيل و الخامات (أكبر احتياطي من اليورانيوم في النيجر و لهذا تهتم فرنسا بإبعاد القذافي عن تشاد) والأخشاب مازالت تشحن لأوروبا على سفن أوروبية حيث يعاد بيعها أو تصديرها للمشترين حتى ولو كانوا من نفس القارة ،الطيران بين الدول الأفريقية يتم عن طريق باريس و روما ، الإعلام و مجالات الخبرة المختلفة .

ملحوظة بخط اليد : المصالح الفرنسية في أفريقيا : وجود ربع مليون فرنسي ، تحكم القارة في طرق المواصلات الهامة للنفط و المواد الأولية اللازمة للصناعة الفرنسية ، تجربة الأسلحة و المعدات الحربية ، مبيعات الأسلحة، دفن النفايات النووية الضارة ، قواعد عسكرية في السنغال،الكوتدافوار ، الجابون ، جيبوتي ، أفريقيا الوسطى ، جزر رينيون ، استخدمت في التدخل العسكري الفرنسي في الجابون و زائير و تشاد و أخيرا رواندا (١٩٦٨، ١٩٧٥ ، ١٩٨٠ ، ١٩٨٣، ١٩٨٦ ، ١٩٩٠) .

★★ فقرة من مجلة عربية بعنوان صفحة من تقرير مقدم إلي كلينتون : " لقد اتخذت العديد من الدول في الشرق الأوسط و في مقدمتها مصر ، مفتاح الشرق الأوسط ، خطوات جادة في سبيل فتح أسواقها أمام الصادرات الأمريكية (بلغت ٢،٨ مليار دولار عام ١٩٩٣) بعد أن قامت بتصحيح

المسار الإقتصادى وإتباع سياسة الخصخصة و بذلك تم إزالة كافة العقبات والحواجز التى كانت موجودة فى العصور الماضية أمام حركة التجارة والإستثمارات الأمريكية فى المنطقة وأصبحت مصر أهم الأسواق للمنتجات الزراعية الأمريكية . كما أنها الدولة الوحيدة التى لم تتمسك بسياسة المقاطعة التى قادتها الجامعة العربية ضد إسرائيل . بل وأصدرت تشريعات من شأنها حماية الممتلكات الفنية والثقافية وبراءة الاختراعات . وبذلك تصبح مصرفرصة عظيمة لفتح أسواق جديدة فى منطقة الشرق الأوسط " .

★★ **ملحوظة بخط اليد** : قررالشيخ جاد الحق ، شيخ الأزهر ، فى رسالة إلى مجلس الشعب ، أن أحكام قانون الإصلاح الزراعى لسنة ٥٢ غير مقبولة شرعا و عليه فهو قانون باطل يقوم على قواعد فاسدة .

★★ **قصاصة صفراء قديمة ، من صحيفة مكسيكية بتاريخ أكتوبر ٨٣** : "تحدثت القديسة ماريا العذراء لطفل يتيم فى شيلى قائلة أنها تكره الماركسية و الاتحاد السوفييتى . وإنتشرت الرسالة فى أنحاء البلاد بسرعة و قد جاءت فى الوقت المناسب إذ يضاعف الدكتاتور بينوشيه حملاته المعادية للحزب الشيوعى الممنوع منذ سنة ٧٣ . فقد أعلن الراهب " لويس فيرنانديس " أن العذراء تحدثت إلى الطفل ميجيل أنجل بوبليت البالغ من العمر ١٥ سنة و الموجود تحت رعايته منذ عدة سنوات . وتكررظهورالعذراء و كان فى انتظارها آخر مرة مائة ألف مواطن شيلى اتجهوا منذ الصباح الباكر إلى قرية " فيلا أليمانا " ، وكان الأب الناطق باسم الطفل فى انتظارهم . و عندما لم تتمكن الجماهير من رؤية العذراء طلب الأب منهم أن ينظروا إلى الشمس ، فرآها بعضهم خضراء والبعض الآخر حمراء . و تمخض اللقاء عن لجنة لجمع التبرعات لصالح إنشاء

إذاعة حرةخاصة بالعذراء . و كانت العذراء قد ظهرت سنة ١٩١٧ لراعى برتغالى و تحدثت له عن روسيا القيصرية المهددة بالشيوعيين . وتكرر ظهورهافى البرتغال عام ١٩٤٢ فى بداية عهد الدكتاتور سالازار لتتحدث مرة أخرى ضد الاتحاد السوفييتى" .

★★ قصاصة من صحيفة سودانية في ديسمبر ٩١: فى جلسة مناقشة ورقة الإستراتيجية القومية تحدث الدكتور" عمر أحمد فضل الله " عن إيمانه بإمكانية الإستعانة بالجن السودانى المؤمن فى كافة مجالات التطور والنهضة . فطلب منه الفريق عمر البشير إعداد ورقة شاملة عن الجن .

★★ قصاصة من جريدة الشعب المصرية المتحدثة باسم التيار الإسلامي ، تتناول الحرب الدائرة في جنوب السودان بين حكومة البشير و المتمردين : "و قد روى لنا أكثر من فرد من قوات الدفاع الشعبى حكايات متعددة عن الكرامات الإلهية التى شاهدوها بأنفسهم فالبعض تحدث عن استجابة الله تعالى لدعاء المجاهدين بإنزال المطر ليرووا عطشهم ووقفه إذا كان يعوق سيرهم والبعض تحدث عن طيور كانت تنقض على الألغام التى تركها المتمردون لتفجرها " .

★★ فقرة من صحيفة أسبانية : أعلن الأب بيير بنوا الذى يعد من أكثر الشخصيات الدينية إحتراما وشعبية فى فرنسا ومن قادة حركات مكافحة العنصرية و معاداة السامية ان العرب لم يرتكبوا جرائم في حق اليهود بل ارتكبها هتلر الأوروبى وأضاف : " **عندما أردنا أن نكفر عن هذا الذنب قدمنا أسهل الحلول وهى طرد الفلسطنيين من أراضيهم كى يستقر فيها اليهود** " .

★★ قصاصة من صحيفة فرنسية قاصرة علي عنوان نبأ :

بيني غاوون رئيس مجموعة شركات " كور " الإسرائيلية الضخمةيقول : " ستكون لديناسوق تضم ٣٠٠ مليون مستهلك وستدخل عصرا جديدا ".

★★ سطور متفرقة من مقال بعنوان منطق الإنتاجية . الشيطاني بالطبعة العربية لجريدة موند ديبلوماتيك ،يوليو ١٩٩٤ : الأزمة التي يتخبط فيها النظام الرأسمالي الآن بعد عقدين من البذخ (١٩٥٥ – ١٩٧٥) يحاولون حلها على حساب العمال ...أن الأوان للتساؤل عما إذا كانت البطالة مرضا يتصل بطبيعة النظام الذى أصبح يغطى جميع بلدان الأرض .إن مثل هذا النظام المؤسس علي تراكم رأس المال يعتبر عبارات " الادخار " و"الاستثمارات " و" الأرباح " كلمات مفاتيح ، ويقيم بنيانه على علاقات ممتازة بين أصحاب الثروات .وفى مثل هذه الظروف ينبغى أن توجد البطالة للتحكم فى ضغوط التضخم و الحفاظ علي سوق عمل " طيعة " . فالعرض الزائد من اليد العاملة يمكن من جعل التخفيض في الأجور مقبولا بسهولة . ولم يحصل أبدا منذ الانهيار الإقتصادى فى الثلاثينيات أن كانت أرقام البطالة بمثل هذا الإرتفاع الرهيب فى العالم الغربى . ففى كل مكان يكثر الحديث عن إعادة الهيكلة و"استعادة القدرة علي المنافسة "و لو كان الثمن عشرات الآلاف من المطرودين .فى ألمانيا ١٩٩٤ نسبة البطالة ١٢في المائة وفي أسبانيا ربع القوة العاملة محرومة من العمل وفي إيطاليا يفخر رئيس شركة "أوليفيتى " بأنه تخلص منذ ١٩٨٩ من ٢٢٠٠٠ وظيفة من جملة ٦٠٠٠٠وهو يفكر بالإضافة إلى ذلك فى مواقع إنتاج بها أيد عاملة رخيصة مثل بنجلاديش و فيتنام ، ويشتكى رئيس مجلس أصحاب الأعمال الفرنسيين من أن بلاده تعيش بوسائل أكبر من إمكانياتها وهى تخسر

بذلك امتيازاتها التكنولوجية و تحرم من القدرة على مواجهة المستقبل أى المنافسة العالمية . بينما يتوقع لأوروبا عام ١٩٩٥عشرين مليون عاطل ربعهم بين ١٨ و ٢٥ سنة . وإجمالا إذا كانت الرأسمالية فى أزمة فإن الخطأ هوخطأ العمال . ففى نفس الوقت زادت معاملات أكبر شركتين عالميتين بين ١٩٨٢و ١٩٩٢ من ثلاثة مليارات دولار إلى الضعف . ومع ذلك لا تتردد هاتين الشركتين فى القيام بعمليات تسريح جماعى للعمال .

★★ سطور بخط اليد :

٥٠٠ مليون نسمة فى **دول الشمال** السبع الأكثر تقدما يستهلكون المواد الأولية التى يملكها ٤ مليار نسمة يعيشون الكفاف فى الجنوب.

النيجر أفقر دول العالم مع أنها ثانى منتج لليورانيوم فى العالم .

الحد الأدنى لأجر العامل الأميركى ٤ دولار فى الساعة أى ٣٢دولارا فى اليوم .

فى **الصومال** يموت خمسة آلاف طفل يوميا من الجوع و يضطر الأفارقة لأكل جذور و أوراق الشجر بينما يتكلف إطعام كلاب أمريكا سبعة مليارات دولا روتشترى لها أربطة عنق ب٧٥ مليون دولار و أدوية ٩٢ مليون ولعب وملابس خاصة بمليونين .

★★ مقتطف بخط اليد عن كتاب مقرضو النقود ل أنتونى سامبسون : " معدلات الفائدة المرتفعة أعطت مكاسب هائلة للبنوك من الحسابات الجارية للعملاء الصغار التى لاتدفع عنها البنوك أى فوائد "

★★ عدة صفحات من مجلة فورتشن الأمريكية بتاريخ ١٢أكتوبر ١٩٨٧ تضم قائمة بأغنى أغنياء العالم ومصادر ثرواتهم ، تبدأ

بـسلطان بروناى حسن بلقاية الذى تبلغ ثروته ٢٥ ملياردولار ويليه مباشرة **الملك فهد** ، ملك السعودية الذى تقدر ثروته بمبلغ ٢٠ مليار دولار . ويليه بين الأغنياء العرب **الشيخ جابر الصباح** أمير الكويت (٥ مليار دولار) . و يأتى المصرى **عثمان أحمد عثمان** فى ذيل القائمة بمليار ونصف مليار دولار .

★★ بيانات بخط اليد عن شركات الأدوية العاملة في مصر، صفحات منتزعة من كتاب عن صندوق النقد الدولي وأخري من مجلة تضم قائمة بشركات القطاع العام المعروضة للبيع ، قائمة بالشركات التي أممت في الستينيات، أرقام عن توزيع الدخل القومي وبيانات أخري من تقريرين للبنك الدولي عن الوضع الاقتصادي في مصر .

★★ سطور بخط اليد : " يا رفيقى الحاضر هنا ، ما من أحد حملك على الفرار و لست مسئولا عن ذلك . لقد بنيت سلامك بكثرة ما سددت بالملاط ، كما تفعل حيوانات "السّرف" ، جميع منافذ النور . لقد تقوقعت فى طمأنينتك البرجوازية ، فى رتابتك ، فى طقوس حياتك الريفية الخانعة، رفعت هذا السور المصطنع فى وجه الرياح والمد والنجوم . إنك لا تريد الإنشغال بالمعضلات الكبرى ، كلفت نفسك ما يكفيها عناء لكى تنسى وضعك كإنسان " . " **أنطوان سانت أكسوبرى** " ، "أرض البشر" .

(١٤)

أوراق رمزى بطرس نصيف

(مسودة لمذكرة الدفاع)

لو أن أحدا ذكر لى أنى سأنام ذات يوم على أرض زنزانة كهذه لكنت ضحكت . أنا أضحك الآن عندما عندما أتأمل الأمر . فلم يكن هناك فى أى مرحلة من حياتى ما يوحى بنهاية كهذه ، إذا كانت هى حقا النهاية ! .
فأنا ولدت في أسرة مستريحة ، أبى كان موظفا كبيرا فى وزارة المالية يحتفظ بعدة أطقم من الملابس خاصة بالمناسبات و الفصول المختلفة . كنا نسكن فى شبرا بشقة كبيرة من خمس غرف بواحدة من العمارت المتينة ذات المداخل الرحبة التى بنيت فى الأربعينيات أو الثلاثينيات . وكانت لدينا شقة فى الأسكندرية نقضى بها شهور الصيف . وأحيانا نذهب إلى أهل جدتى لأمى في بورسعيد الذين كانوا يعيشون فى فيلا كبيرة تابعة لشركة القناة . فقد كان جدى من كبار موظفيها .

كنت الإبن الأكبر على بنتين . واحدة منهما الأن فى كندا والثانية فى استراليا . لا بد أن طفولتى كانت عادية فأنا لا أذكر منها بوضوح سوى زيارة القسيس التى كان يقوم بها لمنزلنا مرة فى الشهر يباركنى خلالها بأن يرسم الصليب على وجهى وهو يتمتم شيئا ما بالقبطية ثم يضيف بالعربية : العدرا تحميك يا بنى .

أذكر أيضا بوضوح صالة شقتنا والحائط الذى يتصدره تقويم جمعية المحبة القبطية ، بصورة ملونة للمسيح و آية كل يوم . و أسفلها محراب

صغير به أيقونة العذراء و تحتها شموع مضاءة بصفة مستمرة . كما أذكر الأعياد التي كنا نذهب فيها إلى الكنيسة ونطوف حول المذبح في موكب يحمل أيقونة قيامة المسيح . والصلوات التي نختمها بالدعاء للبابا و جمال عبدالناصر.

أحسب أن الدعاء لعبد الناصر كان من قبيل الشعائر الرسمية فقد كان الأقباط متحفظين إزاء عبد الناصر . الأسباب عديدة . منها أن كثيرين منهم كانوا منضمين إلى الأحزاب السياسية التي ألغاها وحرمها كما أن مجلس قيادة الثورة لم يكن به قبطي واحد فيما بعد أصبح عبد الناصر بطل مراهقتي أثناء العدوان الثلاثي في ٥٦ ، يوم اخترق القاهرة في سيارة مكشوفة من بيته في مصر الجديدة إلى الجامع الأزهر و اعتلى منبره وقال للعالم " سنقاتل و لن نستسلم " . استولى على يومها شعور بالاعتزاز والكبرياء رغم أن أبي بدا مهموما ومتجهما و لم أعرف منحى تفكيره ... على العموم أبي كان دائما متجهما . على الأقل في البيت .فعندمايأخذني في نزهة تنبسط أساريره و يضحك .. أمي أيضا كانت متكدرة . و أظن أن الأموربينهما لم تكن على ما يرام ..

***

كان أبي يصحبني في العصارى إلى صيدلية أو أجزخانة كما كانت تسمى قريبة من منزلنا في شبرا . كان صاحبها صديقا له يجلس بطربوشه الأحمر خلف مكتب صغيرفوق قاعدة خشبية ، يحيط بسطحه سياج من القضبان الخشبية الدقيقة المتجاورة بارتفاع شبر ، وخلفه مصراع زجاجي معتم تتوسطه جمجمة و عظمتان ، ويعطيني قطع من حلوى الربسوس السوداء التي

كانت تنتج أيامها بأشكال مختلفة : على هيئة غليون صغيرأو حبل أو مربعات أو دوائر متتالية فى حجم النصف ريال تتوسطها حمصة ملونة . ويجلس أبى على أحد المقاعد المصفوفة أمام المكتب ويبدءان النقاش حول الأحداث السياسية والمعارف المشتركين . ويتبادلان تعليقات غامضة تتخللها نظرات لها مغزى إذا ما ولجت الصيدلية إمرأة جميلة خصوصا إذا كانت تغطى وجهها بالبرقع ذى الأسطوانة النحاسية فوق الأنف ، وتلف جسدها بالملاءة السوداء فى إحكام طاوية طرفها تحت إبطها .

..الصيدلى هو ابن أخت صاحب الصيدلية : شاب بدين أصلع الرأس يرتدى عوينات طبية سميكة ، يعمل من خلف حاجز زجاجى دهن بطلاء أبيض لا يكشف عما يدورخلفه ، تتوسطه فتحة تسمح بتبادل الحديث مع الزبون و قراءة الروشتة قبل الاختفاء فى الداخل لتحضير الدواء .

كنا ما زلنا فى عصر تحضير الدواء قبل أن تتحول الأدوية إلى حبوب ملونة والصيدلى إلى بائع بقالة كل مهمته هو أن يتناول الدواء من الرف و يقبض النقود.
أثارتنى هذه المهنة منذ الطفولة و حلمت بأن أصير مثل ذلك الصيدلى الذى يقوم بأعمال غامضة مهمة خلف الزجاج المعتم بينما زبائنه ينتظرون .

***

كنا نلتقى فى الصيدلية أحيانا بصديق للصيدلى : شاب فى العشرين من عمره يدعى "نسيم غبريال " . كان وسيما أنيقا و مصدرا لكل جديد مبهر : يحكى لأبى وصديقه مايقرأه فى الصحف الأجنبية عن فضائح الملك ، ويحمل معه دائما أشياء مثيرة جديدة علينا ، مستوردة من أمريكا ، يعرضهاللبيع : سلاسل مفاتيح متصلة بنماذج لحيوانات تتألف من قطع منفصلة ذات ألوان خلابة يمكن فكها بسهولة لكن إعادة تركيبها تحتاج إلى

مهارة ، كرافتات فاخرة عريضة ذات ألوان باهرة وبطانة داخلية من الحرير الأبيض وأشياء من هذا القبيل . وكان هو أيضا الذى أبلغنا ذات مرة بأن مشروبا جديدا سينزل إلى الأسواق باسم بيبسى كولا لينافس الكوكا بزجاجة أكبرحجما بنفس الثمن وهو قرشين و نصف .

***

أتذكر أيضا بواب منزلنا الذى كانت له ابنة فى سنى تدعى توحيدة . كنت أحب اللعب معها فى مدخل المنزل . ولم تكن أمى ترحب بذلك ويبدو أن البواب التحق بأحد المصانع فى شبرا الخيمة ، إذ بدأ يخرج فى الصباح حاملارغيفا من الخبز فى منديل ولا يعود قبل المغرب . وقامت زوجته بعمله . كانت سمراء ، فارعة القوام ، ترتدى دائما ملابس نظيفة ، شديدة الاعتزاز بنفسها ، تعتنى بنظافة ملابسها ومظهرها وترفض القيام بأى عمل داخل الشقق مثل الكنس أوالمسح معلنة أنها سيدة منزل مثل بقية السكان وليست خادمة . وتتهرب من تلبية طلبات السكان بحجج مختلفة أو تغلق على نفسها باب غرفتها الكائنة أسفل السلم ولا ترد على نداءاتهم . ونشأ صراع عنيف بينها وبين أمى التي قررت التوقف عن دفع القروش العشرة التى كان يعطيها كل ساكن للبواب . وأذكر أن شجارا نشب بينهما مرة ، وأهانتها أمى فردت عليها بوقاحة . وحرم على اللعب مع توحيدة فحزنت جدا .

أغرب ما فى الأمر انى لا أذكر جيدا شكل توحيدة على عكس أمها . و أتذكريوم عدت من المدرسة واسترقت النظر إلى غرفتها فرأيتها ممددة على مرتبة فوق الأرض . وعرفت أنها مريضة .ثم رأيتها بعد أيام و هالنى منظرها . كانت شاحبة الوجه شديدة الهزال محنية القامة . و فى نفس اليوم صعدت

إلي شقتنا وشاهدتها تقبل قدم أمي و تعتذر لهاشم تأخذ منها بعض النقود وأصابني هذا المشهد بحزن عميق

***

في المدرسة كنت متفوقا .انضممت إلى جماعة المسرح واشتركت في إخراج مسرحية لشكسبير أظن أنها هاملت و أخرى لموليير نسيت إسمها . أحببت المسرح جدا حتى أني في الجامعة ألفت مسرحية عن العدوان الثلاثي لا أذكر منها شيئا . انتقلت من مدرسة "الفرير" إلى شبرا الثانوية . أذكر تلميذا معي في الفصل نسيت اسمه أعطاني مرة درسا تذكرته عندما دخلت السجن وساعدتني الذكرى على تحمل التجربة .كان أكبر مني ربما بسنة ، ضئيل الحجم، مدمن قراءة . و أظن أنه درس الفلسفة بعد ذلك . وفي يوم كنا وحدنافي معمل الفيزياء . ووقع مني إناء زجاجي فانكسر . وعلى عجل دفعت الزجاج بقدمي لأخفيه أسفل دولاب . رأيته يبتسم في سخرية وقال لي : لن تصبح رجلا إلا إذا تعلمت كيف تتحمل مسئولية أفعالك .

لم أفهم وقتها ما يعنيه بالضبط ؛ فقد كنت في العاشرة من عمرى على ما أظن . لا أعرف أين هوالآن . على العموم كنت مبسوطا في المدرسة . فقط درس الدين كان يشعرني بالحرج . فقد كان الفصل ينقسم ساعتها إلى قسمين ويتجه القسم الأصغر وأصحابه – وأنا منهم – مطأطئ الرؤوس كاللصوص إلى قاعة خاصة حاملين الأناجيل .ونحن نحاول إبعادها عن أنظار زملائنا المسلمين..

في السنتين الأخيرتين من المدرسة الثانوية توطدت العلاقة بيني وبين تلميذ اسمه سمير صبحي يقطن فيلا قديمة من طابقين قريبة من منزلنا . وكانت له أخت تدعى سارة تكبره بسنة . سمراء دقيقة الحجم جميلة العينين . كان جو

بيتهما مختلفا عن بيتي . به قدر أكبر من التحرر . وعن طريقهما تعرفت بابن خالتهما لبيب و صديقه حلمي الذي أصبح من أعز أصدقائي .

***

التحقت بكلية الصيدلة . وسافر سمير للدراسة في الخارج . ودخلت سارة وحلمي ولبيب كلية الطب . كنا نلتقي يوميا : أخرج من الكلية في شارع القصر العيني ويخرجون هم من المستشفـــى و نجلس في مقهى شعبي صغير في " المنيرة " نشرب الشاي أو القرفة ثم نعود كل إلى كليته. وخلال ذلك كانت تدور المناقشات الحامية بيننا . . حول كل شئ . القصص والأفلام و الموسيقى . لم نكن نهتم كثيرا بالسياسة (ربما بسبب الجو البوليسي الذي ساد الجامعة والبلاد كلها) رغم المناقشات الواسعة التي دارت بين الأقباط حول التأميمات لأنها شملت أوقاف الكنيسة . لكننا تحمسنا للميثاق الوطني عندما نص على حق كل مواطن في الرعاية الصحية وأن العلاج والدواء يجب ألا يكونا سلعة وإنما حقا مكفولا غير مشروط بثمن مادي وفي متناول كل مواطن في كل ركن من الوطن .

لم تكن هذه بالطبع آراء أهلنا . أبي مثلا كان ساخطا لأن التأميمات شملت الوكالة التجارية التي كونها صديقه صاحب الصيدلية بالإشتراك مع الشاب نسيم غبريال والتي احتكرت تمثيل عدد من شركات الأدوية والعطور الأمريكية .

***

كانت سارة أكثرنا جرأة في المناقشات التي تمس التقاليد . أطلقنا عليها اسم الدكتورة درية شفيق التي اشتهرت في الخمسينيات بدفاعها عن حقوق المرأة . كانت تطرح تساؤلات من قبيل لماذا لا تكون هناك امرأة بين

القسس ؟ ثم تقول أن المرأة في نظر الكنيسة دون منزلة الرجل لأنها غير مؤتمنة على أسرار الدين و على رأسها سر إقامة القداس . فهي مثل أمها حواء قابلة للانجرار إلى الخطيئة ، ناقصة عقل ودين كما قال المسلمون بعد ذلك . هذا بالرغم من أن الأناجيل الأربعة لا تضم كلمة واحدة تفرق بين المرأة والرجل ، فلم تكن العلاقة بين الاثنين ضمن رسالة المسيح التي كرسها للفقراء والعبيد . بعكس بولس الرسول ، المؤسس الحقيقي للديانة المسيحية . فهو يقول في إحدى رسائله التي تقرأ أثناء عقد الزواج : " أيها النساء اخضعن لرجالكن كما للرب لأن الرجل رأس المرأة، كما المسيح رأس الكنيسة" .

كنا نسألها في سخرية . وليه كده يادكتورة ؟ فتقول أن أمراء الكنيسة طوعوا التعاليم الأصلية لظروف إجتماعية حطت من شأن المرأة و علت من دور الرجل لأنهم وجدوا مصلحة في ذلك .

كنا نلتقي أحيانا في نهاية اليوم و نذهب إلى منزلها ونتجمع في غرفتها . نأكل أي شئ ونذاكر قليلا و نسمع الموسيقى الكلاسيكية . كنت سعيدا بهذا الجو الذي يختلف عن جو منزلي حيث أبي المتجهم و أمي المتكدرة . . شيئا فشيئا وجدت نفسي أفكر فيها طول الوقت . و قدرت أني وقعت في غرامها . ولم يكن عندي شك في أنها تبادلني مشاعري . كانت تنظر إلي بعينيها الجميلتين اللامعتين نظرات طويلة . و عندما كنا نعزف على البيان سويا كانت تترك يدها أحيانا فوق يدي . و لم يخطر ببالي مطلقا أن حلمي يحبها هو الآخر إلى أن فوجئت بهما يبلغاني بعزمهما على الزواج بعد التخرج مباشرة . أعتقد أنها أقوى صدمة تلقيتها في حياتي .

***

تزوج حلمي من سارة ، وأقاما في منزلها . وتخرجت أنا فأخذت أبحث عن عمل. كان غبريال قد آفاق من صدمة التأميم و اشترى صيدليتين فالتحقت بإحداهما . وكنت أخرج منها إلى منزلهما مباشرة . و نسهر الثلاثة نثرثر وندخل في نقاشات ملتهبة أو نسمع رحمانينوف وبرامز أو أشترك أنا وسارة في العزف على البيان . لم يخطر لي أبدا أن أسألها لماذا فضلت حلمي على . اعتبرت اختيارها لحلمي منطقيا فهو أكثرمني وسامة و خفة دم ، وأبوه طبيب كبير و سيخلفه في العيادة . قنعت بأن أراها كل يوم وألبي طلباتها . وأدركت هي مدى نفوذها على .كانت تمتحني أحيانـا . فتتمطى كالقطة وتقول أنها ترغب في أكل كباب أبو شقرة . و بسرعة البرق أكون في الطريق إلى محله في القصر العيني لأحضر لها طلبها . وكان حلمي يذاكر للماجستير فنخرج وحدنا ونذهب إلى نادى السينما . و كثيرا ما كانت ترتمي إلى جوارى على الأريكة وتنهمك في القراءة و تستند برأسها على كتفي .

لم أتحمل الموقف ففكرت في السفر.كانت هناك أسباب أخرى بالطبع . فقد ضبط غبريال في محاولة تهريب مبلغ ضخم من العملات الأجنبية للخارج ودخل السجن بينما وضعت أملاكه ومنها الصيدلية تحت الحراسة . وفي ظل الإدارة الحكومية الجديدة بدأت تتداعى . فلم يهتم أحد بإمدادها بالبضاعة فضلا عما كانت تشكو منه البلاد كلها من نقص دائم في الأدوية الأجنبية بعد التأميم . وأصبح العمل بها يبعث على الملل . وفي نفس الوقت كنت أحلم بالحياة الرغدة وأهوى جمع المعلومات عن السيارات الجديدة . وأواظب على قراءة مجلة "بلاى بوى " لما بها من صور الموديلات الجديدة من الفتيات والسيارات . وكان الجو حولي وسط الأقباط مشحونا بهاجس الهجرة . فتأميم الأوقاف أثار غضب البابا كيرلس وعداء الكنيسة . وشاعت قصة مؤداها أن البابا كيرلس

زار عبد الناصر فى الحلم و توعده قائلا : ابعد يدك عن أملاك الرب . فاستيقظ عبد الناصر مريضا . وطلب أن يأتى كيرلس لزيارته فرفض واضطر أن يذهب هو إليه . ألبسه البابا أبيضا فى أبيض ومسح عليه بالزيت المقدس فشفى . وبعدها تبرع عبد الناصر لبناء البطريكية الجديدة فى العباسية .

أيا كان نصيب هذه القصة من الصحة ، فإن بناء البطريركية الجديدة لم يخفف من قلق الشعب القبطى . كان الأغنياء الذين تعرضوا للتأميم أو يخشونه يغذون هذا القلق و يهاجرون بالمئات . وإزداد المعدل بعد النكسة فى ٦٧ إذ بدا المستقبل أمام الجميع غير مضمون . و خيم على البلاد جو ثقيل من الكآبة .

***

عبد الناصر كان مهتما ببناء دولة عصرية . وكانت أمامه فرصة ذهبية للقضاء على التمييز بين المسلمين و المسيحيين . لكنه لم يفعل . بناء الكنائس مقيد بقانون يعود إلى أيام الخلافة العثمانية . مادة التاريخ فى المدارس تتجاهل الحضارة القبطية . أى مسلم الأبواب مفتوحة أمامه ليصبح وزيرا أوسفيرا أومحافظا أو حتى مأمور مركز بينما هناك قانون غير مكتوب يضع القيود فى وجه الأقباط .. مثلا بالنسبة لدخول كليات بعينها مثل الشرطة والكليات العسكرية ثم مدارس المعلمين.. و مع ذلك يقال أن هناك مساواة وأن مصر بلد التسامح إلخ .

***

تقدمت للعمل فى فرع بيروت لإحدى شركات الدواء الإنجليزية .كانت صناعة الدواء تزدهر بسرعة وشركاتها الكبرى تدفع مرتبا ت أعلى من المرتبات التى

تدفعها شركات النفط قبلونى وسافرت على الفور.كانت بيروت فى عزها . مدينة أنيقة . قطعة من أوروبا أو "باريس الشرق " كما كانوا يقولون . أحدث موديلات السيارات . مقاهى الروشة الواحد إلى جوار الأخر. كل شئ نظيف وله لمسة فينيس . فى الصيف زحام السواح العرب وترش الملح مينزلش أصبحت عندى سيارة و مسكن جميل فى حى الظريف الراقى . ولم أشعر بالغربة . وخيل إلى أنى تمكنت من القضاء على شبح سارة . و بعد علاقتين عابرتين : واحدة بفتاة انجليزية و الأخرى بواحدة لبنانية ، تزوجت قريبة لإحدى زميلاتى اللبنانيات . فتاة مرحة واجتماعية و من عائلة معروفة.

بعد سنتين تلقيت عرضا من شركة سويسرية منافسة اسمها "كوش " لوظيفة إدارية أعلى . كان العرض مغريا ، فالشركات السويسرية تفضل دائما السويسريين فى المناصب الإدارية العليا . و كان عقدى ينص على أن أقضى ثلاثة شهور فى" بازل" لأتعرف على إمبراطورية كوش ثم أتولى إدارة أحد فروعها فى الخارج و كان الراتب كبيرا بالنسبة لسنى . كما أن عبد الناصر كان قد مات ، فتقطعت بشكل ما الخيوط التى بقيت بينى وبين مصر .

***

.. ذهبت لعمل مقابلة في بازل BASLE بسويسرا و فوجئت بأن لديهم ملفا كاملاعنى . بعد ذلك اكتشفت أن بازل تضم ملفات كاملة عن رجالات الدواء فى العالم و المصريين منهم : كل شئ عنهم : هواياتهم و أمزجتهم الخاصة وأسرارهم الحميمة و هو أمر طبيعى لأن مصر كانت تشترى كيماويات وخامات دوائية كل سنة بمائتى مليون جنيه ، و أدوية بمائة مليون جنيه

كانت المقابلة صعبة . استقبلنى رجل بارد بعينين ضيقتين و فم مقوس مثل

رقم ٨ . قدم إلى بعض المقتطفات من المجلات وطلب منى أن أقرأها و أعلق عليها تعليقا فوريا .

الفقرة الأولى كانت للفيلسوف الألمانى نيتشة NIETZSCHE يقول فيها أن أخلاق التجاريست سوى صورة محسنة من أخلاق القراصنة . علقت على هذه الفقرة بقولى إن نيتشه فيلسوف لايعرف شيئا عن الحياة الحقيقية فلم يكن من المعقول أن أوافق على كلامه . كما أنى لم أكن فكرت فى هذا الموضوع من قبل . أبديت تعليقا مماثلا على الفقرة الثانية وكانت لفيلسوف آخر هو أوجست ببل AUGUST BEBEL يقول فيها أن كل أشكال البيزنيس تقوم على الغش و الخداع . وقبل أن يناولنى الفقرة التالية سألنى فجأة : ما هو رأيك فى النظام الرأسمالى ؟ أجبته على الفور : له عيوبه ولكنى لم أجد بعد أفضل منه . وكنت صادقا فى ذلك القول .

ودون أن تتغير ملامحه عاد يسألنى : وقال . و الإشتراكى ؟ أجبته على الفور. له محاسنه لكنى لم أجد أسوأ منه . وكنت أيضا صادقا فى القول .

كان هذا السؤال فيما يبدو توطئة لما جاء بعد ذلك . فقد كانت الفقرة التى حملتها فى يدى من مقال طويل عن مصر فى مجلة أمريكية ، بمناسبة وفاة عبد الناصر . وكانت تسخر من مصر و جمال عبد الناصر الذى ، على حد قولها، قاد بلاده إلى الهاوية بسلسلة من القرارات الخاطئة بدأت بالتأميمات التى قام بها فى مطلع الستينات . هنا ألفيت نفسى فى موقف صعب ولم أدر ماذا أقول . كنت عاجزا عن تأييدالمجلة فى سخريتها ، رغم أنى كنت أوافقها لدرجة ما على انتقادها لسياسة التأميمات والدكتاتورية . وأنقذنى الرجل من حيرتى بأن قال إنه لا يطلب منى تعليقا وإنما الإجابة على السؤال التالى لنفترض أنك أصبحت مسئولا عن فرع كبير للشركة فى

أحد البلاد ، وحدثت به إضطرابات سياسية هددت مصالحنا ، فما هوالتصرف الذى تقترحه ؟

كانت لحظة صعبة لكنى تخلصت ببراعة . قلت له أنى سأقترح الالتزام بالوقوف إلى جانب الحق .

إجابة دبلوماسية . لا أعرف إذا كانت هى التى أدت إلى تعيينى . المهم أنهم أعطونى الوظيفة و عندما انتهت الشهور الثلاثة فوجئت بهم يستكملون تدريبى فى كافة الأقسام مثل الإدارة المالية والأدوية و الصناعة و التحليل والتغليف و الشحن .

استأجرت منزلا جميلا بحديقة في ضاحية راقية من بازل وانضمت زوجتي إليّ. إستمتعنا بحياتنا: تنس و حفلات و عطلات نهاية الأسبوع فى الجبال بل بدأت أتلقى دروسا فى الطيران بينما كان راتبى فى ازدياد . و كنا نقضى عطلاتنا فى لبنان إلى أن نشبت الحرب الأهلية فصرنا نقضيها فى أماكن مختلفة من العالم .

***

بعد ثلاث سنوات بدأت أشعر بالرغبة فى الحركة . ضقت بجو سويسرا الرمادى و بالسحابة الكثيفة من الأدخنة التى تغطى سماء بازل منبعثة من مصانع كوش و"روش" و غيرهما . طلبت منهم أن يجدوا لى عملا فى الخارج فعهدوا إلى أن أقوم بمسح شامل لسوق أمريكا الجنوبية (٢٠٠ مليون شخص يقل دخل الواحد منهم الشهرى عن ٦٠ دولارا و عشرة ملايين عاطل) استغرق منى تسع سنوات سافرت خلالها إلى كل بلدانهاو معي زوجتي . وكانت سعيدة بالسفر و مستوى الحياة كما ان لبنان كانت تفترسها الحرب الأهلية .

لقد حضرت عن قرب أهم الأحداث التى شهدتها أمريكا اللاتينية فى العقدين الماضيين فلم تنقطع صلتى بهذه القارة بعد ان انتهيت من مهمتى . بدأت بشيلى وحضرت قتل رئيسها الليندى فى سبتمبر ٧٣ ، و بعد ثلاثة عشرة سنة رأيت المتظاهرين فى بناما يجرون دمية من القش فى ملابس عسكرية تمثل رئيسها نوريجا NORIEGA ويغزونها فى مؤخرتها بعصا خشبية . شاهدت القسس يقودون المظاهرات التى ترفع شعارات ثورية وتهتف باسم فيدل كاسترو. لمست كيف تحارب الولايات المتحدة بارونات المخدرات لتنفرد هى بسوقها ! كنت فى كراكاس عاصمة فنزويلا فى ١٩٨٩ عندما فرض عليها صندوق النقد الدولى خطة تقشف رفعت أسعار الطاقة بنسبة ٨٠ بالمائة و المواصلات بنسبة ٥٠ بالمائة فثار الأهالى وخرجوا إلى الشوارع وشاهدتهم ينهبون المحلات التجارية بينما العسكريون المدربون على حرب العصابات يحصدونهم بالمدافع الرشاشة . رأيت اسرائيل تزود سوموزا سفاح نيكاراجوا بالسلاح و الخبرة ، و حكام الأكوادور الدمويين بطائرات كافير ، وتدرب فرق الموت التى اغتالت ٤٠ ألف مواطن فى سلفادور ، كما تدرب الكتيبة رقم ٣١٦ التى قامت بعمل مماثل فى هندوراس ، و رأيتها تتولى الحراسة الخاصة لنوريجا بارون المخدرات ثم تشترك مع السعوديين فى تمويل و دعم الكونترا المناهضة لحكومة نيكاراجوا الشرعية .

والأهم أنى رأيت كيف تعمل كوش و الشركات الدولية .

***

فى الماضى كانت شركات البيزنيس تقصر نشاطها على مجالات ضيقة محددة . صناع الصلب ينتجون صلبا ، تجار التجزئة للملابس يبيعون الملابس للجمهور. وعندما كانت شركة ترغب فى التوسع ، كانت تفعل ذلك فى مجالها ،

فيبتكر صناع الصلب عمليات تصنيع جديدة ، ويزيدون طاقتهم الإنتاجية ويتوسع باعة الملابس فى الموديلات والتصميمات . أويفتتحون حوانيت جديدة .و بالطبع كان البعض يتوسعون عن طريق ابتياع المنافسين . ثم كان هناك أولئك الذين سعوا إلى بناء عمليات متكاملة بأن يمتلكوا مصادر المواد الخام لصناعاتهم ونشاطهم ، والتسهيلات الانتاجية و منافذ التوزيع والبيع . فمثلا كان صناع الغذاء يتملكون المزارع من ناحية و سلاسل حوانيت البقالة من ناحية أخرى أو العكس · تمتلك سلسلة لحوانيت البقالة مصانع التعليب أو مصانع الغذاء .

ثم تجمعت عوامل عديدة لوقف هذا النوع من النمو أوتقييده .و خاصة القوانين المعادية للاحتكارات التى وضعها الرئيس الأمريكى روزفلت فى الثلاثينيات لانعاش الإقتصاد . حدت هذه القوانين من توسع الشركة فى مجالها . لكن رجال البيزينيس لا يملون البحث عن مصدر جديد للربح بأى ثمن . ويزعم فلاسفتهم أن هذه الخاصية بالذات هى المسئولة عن التقدم الحضارى . و سرعان ما إبتكروا مفهوما جديدا يسمح بتوسع لا حد له .

كلمة السرالجديدة كانت التنويع . فبوسع أى شركة قابضة أن تمتلك أى عدد من الشركات العاملة فى مجالات متباينة دون أن تخرق القوانين المعادية للاحتكار. فولكس فاجن مثلا دخلت مجال اللحوم ، و نستلة ضمت المخللات إلى اللبن و الشيكولاتة . هذا المفهوم عبد الطريق لظهور و نمو شركات عملاقة متعددة النشاط و الجنسيات ذات إمكانيات هائلة . هل يتصورأحد أن جنرال موتورز مثلا دخلها أكبر من دخل سويسرا ؟ . فى الأصل كانت الفكرة سليمة و معقولة و مفيدة للبيزينيس و الجمهور . فالإدارة المركزية غالبا ما أدت إلى تحسين الأداء وتخفيض التكاليف . كانت الشركة

الكبيرة تحصل على الشركات الأخرى مقابل أسعار جيدة ثم تديرها من أجل توفير المزيد و الأفضل من السلع أوالخدمات لمزيد من الناس بأسعار أقل. لكن بالتدريج أصبحت عمليات الضم والإلحاق غاية فى ذاتها . وظهر متخصصون فى الدمج يصنعون الملايين ... زوجوا فياتFIAT لستروين CI-TROEN و دوجلاس للطائرات DOUGHAS لمكدونل MCDONNELL وبيجو لرينو . فعن طريق ضم مزيد من الشركات ، أمكن للشركة الأم أن تجعل بيانات موازنتها تعكس نموا مطردا و هائلا . والنتيجة أن ترتفع أسعار أسهمها ارتفاعا هائلا . و هنا اكتشفت الشركات التنويعية أنها تستطيع الحصول على شركا ت جديدة بمبادلة أسهمها بأسهم تلك الشركات . فاذا لم تتوفر لديها أسهم كافية ، استعانت بإصدارات جديدة ، ذات أسعار أعلى بفضل المحاسبين و سماسرة البورصة . فاذا فشل السهم وحده فى الإغراء ، قامت السيولة ، المقترضة فى غالبية الأحيان ، بالدور .

بالطبع يصعب على المواطن العادى فهم ذلك . أنا نفسى لم أفهم ما يحدث حولى إلا بعد مدة . كانت عملية مثل القرصنة . يشترون الشركات الناجحة بأسهم يصدرونها خصيصا تكون قيمتها مرتفعة بتأثير الدعاية المحيطة بالعملية ، ثم يجردون الشركات من السيولة النقدية والأرصدة الصلبة . هكذا اختفت المليارات . و فقد المدخرون الصغار كل ما كان لديهم. فى أمريكا بالذات ، كان بوسع أى شخص أن يشترى بنكا دون أن يستثمر مليما واحد من نقوده . فهو يستطيع أن يقترض المبلغ كله من مؤسسات مالية ضخمة ، مستخدما البنك الذى يريد شراءه نفسه على أنه الضامن الوحيد . وعندما يصبح مسيطرا على البنك ، ، يقترض منه ما يكفى لسداد القرض، فضلا عن مبلغ آخر يمكن أن يبتاع به بنكا ثانيا . و يمكن تكرار العملية

إلى ما لا نهاية . عدة بنوك أخرى و بعد ذلك تأييد مرشح للرئاسة ثم يصبح وزيرا للمالية أو يأخذ مكافأته بأن يلغى الرئيس الجديد بعض الضرائب أو يعطيه عقدا بسيطا لتزويد القوات الأمريكية المحاربة فى مكان ما ، فيتنام أو الخليج ، بزجاجات المياه .

***

عرفت كل هذا بالطبع من خلال العمل مع كوش ورؤيتها وهى تلتهم السوق و الشركات الأخرى . وبالذات عندما تعرضت كوش نفسها للالتهام على يد شركة التليفون والتلغراف الدولية الأمريكية ITT آى تى تى . فقد اختارتنى الإدارة عضوا فى فريق العمل الذى تولى دراسة الاندماج .

هذه الشركة هى ثامن أكبر شركة أمريكية من حيث المبيعات ، تستخدم حوالى نصف مليون موظف ، نصفهم فى أوروبا . أخذت بعد الحرب عشرات الملايين من الدولارات من الحكومة الأمريكية تعويضا عن تدمير المصانع والمعدات التى كانت تملكها فى ألمانيا النازية . نكتة حقيقية . فالشركة زودت هتلر بمصانع الأسلحة التى قتل بها الجنود الأمريكيين وخلال الحرب ضربت الطائرات الأمريكية مصانع السلاح الألمانية . و عندما إنتهت الحرب أعطتها الحكومة الأمريكية عشرات الملايين من الدولارات تعويضا عن هذه المصانع!! المهم أنها تضخمت بسرعة مذهلة فى الستينيات نتيجة ازدهار سوق البورصة فى أعقاب تسريع الحرب الفيتنامية . و بلغت ذروتها فى ١٩٧٢عندما إبتلعت آفيس AVIS لتأجير السيارات التى كانت تملك أكثر من مائة ألف سيارة وتعمل فى مائة بلد . ... وشركات أخرى تشترك فى أنها تحقق أرباحا : كلية إدارة ، مدرسة سكرتارية ، شركات تأمين ، شركة باركينج سيارات ثم موتيلات ، وشركة لإعلانات السيارات ثم شركة نشر

وبعدها شركة إذاعة . مخابز وأخشاب وأدوات كهربائية وطفايات حريق و بناء منازل وأدوات تجميل و مصابيح ومضخات وأجزاء سيـــارات وأغذية . إمبراطورية تمتد من طعام الكلاب إلى الترانزيستورات ومن كريم الوجه إلى التليفونات . زبائنها و موظفوها يمكن أن يتم التأمين عليهم من المهد إلى اللحد بواسطة شركة التأمين التابعة لآى تى تى ، و يقودون سيارات مستأجرة منها ، تقلهم من منازل بنتها آى تى تى إلى فندق تملكه آى تى تى .

فقبل سنوات ، التفتت آى تى تى إلى صناعة الفنادق التى كانت تحقق مكاسب ضخمة . لم تتمكن من شراء الهوليداى إن وسبقتها شركة الطيران الأمريكية TWA إلى الهيلتون . وهنا عثرت على فندق صغير فى إحدى الولايات الأمريكية باسم شيراتون فاشترته ووضعت خطة خمسية لإقامة شبكة فنادق فى ٣٨ بلد . نوع جديد من الفنادق وقتها لا توجد بها مشكلة لغة لأن عامليها يتحدثون الإنجليزية ولا نقد لأن كل شئ ببطاقات الإئتمان (تملك الشيراتون حصة فى بطاقة DINERS CLUB) ولا مشكلة نقل لأن أفيس تنتظر فى الردهة . عادة ليست هناك ضرورة لمغادرة الفندق ، فداخله توجد الحوانيت و مكاتب الطيران والمكتبات و بواسطة قرص التليفون يمكن للنزيل أن يشاهدالفيلم الذى يريده وهو فى فراشه كما أن الفلكلور المحلى متوفر فى مشاربها مثل النارجيلة مثلا أو قدرة الفول . لم تكن فى الواقع عملية مربحة و هى الآن تفضل أن يبنى الآخرون الفنادق بينماتتولى هى الإدارة وتضع اسمها .

ولأن آى تى تى كانت تبحث دائما عن الشركات الرابحة لتستولى على سيولتها فقد وقع بصرهاعلى كوش . وفى نفس اللحظة بدأت متاعبها .

كانت آى تى بى قد اشترت أكبر شركة مخابز أمريكية فى ١٩٦٨ . مقابل ٢٧٩ مليون دولار. وهى شركة ضخمة حقا يتنوع انتاجها بين شيبس البطاطس والبومبونى و الكيماويات . وكانت مشهورة بدعاية تليفزيونية تقدمها عن منتج لها يدعى بالخبز الأعجوبة wonder bread : يصور أطفالا ينمون بقفزات بعد أن يأكلوا الخبز الثمين .

فى أمريكا جهاز حكومى يتولى مكافحة عمليات الاحتكارفى التجارة والصناعة وكان هذا الجهاز يجمع المعلومات عن آى تى تى فى محاولة لإثبات انطباق القانون على نشاطها . فشرع يستقصى حقيقة المزاعم التى تروجها شركة المخابز فى إعلاناتها وفى مارس ١٩٧١ أعلنت لجنة التجارة الفيدرالية أنها مزاعم كاذبة وأن الخبزالعجيب لا يحتوى على غير المواد الموجودة فى الخبز العادى فماذا كانت النتيجة ؟ هل أغلقوا الشركة أو فرضوا عليها غرامة ؟ أبدا . انتهى الموضوع بأن وقعت الشركة على تعهد بإصلاح هذا الخطأ . وفقط .

جهاز مكافحة الاحتكار يبدو مبعثا للإعجاب كنموذج للديموقراطية الأمريكية. وشاهد على أن الرأسمالية تملك القدرة على تصحيح عيوبها . لكن الأجهزة الأمريكية لم تكن أبدا عنيفة كما تبدو . والمواجهات الجريئة للحكومة مع البيزنيس دائما ماكانت تذوى بشكل غامض فالإدارة الأمريكية مدينة له دائما . كان الرئيس كينيدى KENNEDY الذى أحيط بدعاية واسعة أعطته شعبية فى العالم كله ، من أشد أنصار الاحتكارات وكذلك أخوه روبرت الذى كان يشغل منصب المدعى العام ، وكان الأخير فى صراع دائم مع LEE LOEVINGER رئيس جهاز مكافحة الاحتكارالذى أصبح هو نفسه بعد ذلك مستشارا لآى تى تى !! فلم تعجز آى تى تى أوالشركات المماثلة عن

شراء أجدع جدع . اختار جونسون بعد ذلك -رئيسا جديدا للجهاز هو البروفسور DTURNER DONAL الذى وضع كتابا مشهورا ضد الاحتكارات لكنه أصبح أيضا مستشارا لآى تى تى . و دعا وزير ماليته JOHN CONNally صراحة إلى أن تتبنى الحكومة سياسة الاندماج بدلا من مكافحته . وهى السياسة التى اتبعها نيكسون بعد ذلك ..

انتهت مشكلة شركة المخابز . و استؤنفت الإتصالات لبيع كوش . وبدأنا نستعد للحدث القادم . وفجأة فى مارس ١٩٧٢ ، نشرصحفى أميركى كبيرفى الواشنجتون بوست هو JACK ANDERSON مقالين أعلن فيهما عن وثائق سرية لآى تى تى تبين أنها خططت فى ١٩٧٠ لوقف انتخاب SALVADOR ALLENDEرئيس CHILE الماركسى . و أنها عملت بشكل منتظم مع وكالة المخابرات الأمريكية لخلق فوضى اقتصادية فى شيلى . كيف ؟ تقوم البنوك بتأخيرالقروض وتتأخر الشركات فى إنفاق النقود و يجرى الضغط على بنوك الادخار ومؤسسات الائتمان لتغلق أبوابها ويتم سحب المعونة الفنية وفى نفس الوقت تتضاعف القروض الموجهة إلى المؤسسة العسكرية الشيلية . ليس هذا فقط و إنما شجعت الشركة على قيام انقلاب عسكرى و عرض رئيسها الذى ساهم من قبل بمبالغ طائلة فى إنجاح الرئيس نيكسون ، عرض ، من خلال مدير الوكالة جون مككون (الذى أصبح بعدها بسنة مديرا ل . آى تى تى !! !) ، تقديم مبلغ من سبعة أرقام للبيت الأبيض لهذا الغرض .

كان المقالان كافيين لإثارة البلبلة ولأن تهبط أسعار أسهم آى تى تى وتتوقف المفاوضات من جديد . لم يكن المقالان بالطبع ناتجين عن حسن نية ولا تعبيرا عن إخلاص للمبادئ . فهذا شئ لا يعرفه الغرب . حتى ما حدث بعد

ذلك بسنة بالضبط (فى مارس ٧٣) ، عندما كون الكونجرس لجنة برئاسة سناتور اسمه CHURCH للتحقيق فى عمليات المخابرات الأمريكية ، وأحدثت ضجة كبرى أيامها عندما أذاعت قوائم بأسماء عملاء المخابرات الأمريكية فى البلدان المختلفة و منها مصر . على ماأذكر رئيس تحرير صحيفة يومية و محرر كبير فى صحيفة أخرى . هذا غير كبار المسئولين . ويلغت الفضيحة ذروتها عندما ظهر مككون أما م اللجنة ليشهد بأنه انتقل من رئاسة السى آى إيه إلى أى تى تى فى ١٩٦٥ وظل يعمل فى وكالة المخابرات الأمريكية سرا فى منصب مستشار . وأنه ناقش الإنتخابات الشيلية مع خليفته فى رئاسة المخابرات الأمريكية RICHARD HELMS و فيما بعد اجتمع به و بكيسينجر KISSINGER ليعرض المساعدة فى إسقاط ألليندى .

المهم فشلت محاولة شراء كوش . وخرجت من التجربة بزاد من المعلومات الثمينة . تبينت مثلا أن هناك مجموعة من الأسماء تدور فى الحلبة الدولية مثل أوراق الكوتشينة .كأنما هناك قائمة من خمسين اسما يتم منها اختيار وزراء خارجية الدول الغربية و وزراء الدفاع و قادة حلف الأطلنطى و ممثلى الدول الأعضاء فيه ومندوبيهم فى الأمم المتحدة و مجلس الأمن ورؤساء الشركات الدولية العملاقة و البنوك إلخ . نفس الأسماء تتكرر دائما ويتم تغييرها على طريقة لعبة الكراسى الموسيقية .بول هنرى سباك PAUL HENRI SPAAK، النائب السابق لرئيس وزراء بلجيكا أصبح مديرا لشركة أى تى تى و منهاإلى حلف الأطلنطى أوالعكس لا أذكر EUGENE BLACK الرئيس السابق للبنك الدولى ، الذى قاد معركة السد العالى ضد مصر ، أصبح رئيسا لأى تى تى ومثله المدير السابق لوكالة

المخابرات الأمريكية JOHN M CCON ، وروجرز ، ماكنمارا ، روكفلر ، والتر مانديل شولتز وهيج ..كلهم ..كلهم ...

***

. ...كنت قد بدأت العمل فى قسم الخامات BULK VITAMINS . لم نكن نبيع حبوبا وكبسولات وإنما أطنانا من الفيتامينات والكيماويات لفروع الشركة والزبائن الخارجيين الذين يصنعون الحبوب ، أو أطنانا من فيتامينات أ ، د ، و H، لتوضع فى الدقيق أو المارجرين ، وفيتامين ج للمشروبات الغازية والبيرة والنبيذ أو للعلب المحفوظة واللحوم الطازجة ، أوكل الفيتامينات فى الغذاء الحيواني . وكانت كوش وحدها هى التى تنتج كل الفيتامينات المعروفة ، وعددها يصل إلى عشرين فيتامينا .

إنتاج الفيتامينات يكلف كثيرا . لهذاكانت أغلب الشركات الأخرى التى تنتج واحدا أو اثنين من هذه الفيتامينات ، تفضل أن تحصل عليها جاهزة منا بأسعار منخفضة وتقوم بتعبئتها وبيعها تحت إسمها ، بدلا من إنتاجها بنفسها .وهذا ما كان يحدث طول الوقت . فخلال عملى مع الشركة أغلقت خمس شركات مصانعها واشترت منا . وبذلك تمكنت كوش من احتكار السوق والتلاعب بالأسعار كما تشاء .

كنا نجمع المنتجين الرئيسيين للفيتامينات و الكيماويات فى بازل و نناقش معهم الأسعار ونتفق على سعر موحد . وبذلك تختفى المنافسة و تفرض على المستهلكين أسعارتحقق للمنتجين أرباحا هائلة . فيتامين ح Hمثلا يتكلف انتاج الكيلو منه نصف دولار لكنه يباع بعشرة دولارات ! والكيلو من فيتامين ب٢ يتكلف دولارين ويباع ب٣٢ دولارا ! فيتامين ج يتكلف دولارا واحدا للكيلو ويباع بستة !! ومن خبرتى عرفت أنه من الممكن تقدير حجم الطلب على منتج معين فى

السنوات القادمة . و عندئذ يحدد سقف للإنتاج يكون أقل قليلا من الإحتياجات العالمية بحيث تبقى الأسعار عالية حتى ولو أدى هذا إلى ألا تعمل المصانع بكافة طاقتها .

فى النهاية يجد المستهلك نفسه مجبرا على الشراء بالسعر المطروح . فإذا جرؤت شركة على تحدى هذا السعر يمكن قتلها عن طريق تخفيض الأسعار إلى مستوى يؤدى إلى إفلاسها ثم إعادة رفعها مرة ثانية .و بعد ذلك يأتى دور المنافذ. فيمكن الضغط على كيماويى الجملةالذين يحققون جانبا كبيرا من دخلهم من هذه المنتجات . وهؤلاء يملكون وسائل الضغط على الصيدليات . وهذه بدورها تتكفل بالأطباء . فاذا وصف طبيب لمريضه دواء منافسا منخفض الثمن ، أبلغته الصيدلية أن الدواء غير متوفر فيتوقف عن وصفه .

لم تكن هذه هى كل الحيل فى جعبة كوش . فلديها وسيلة أخرى تكشف أكذوبة حرية المنافسة : تتفق مع أهم المستهلكين على أن يشتروا كافة احتياجاتهم أو على الأقل تسعين بالمائة منها من كوش مقابل أن يستعيدوا - سرا -فى نهاية كل عام ٦ أو ١٠ بالمائة من حجم مشترياتهم "مكافأة على الإخلاص ".بحيث لا يدرى المنافسون بهذا التخفيض و إلا نافسوا بعمل تخفيض مماثل . و أطلقت كوش على هذه الوسيلة اسم "عقود الإخلاص FIDEL-ITY" ، و زعمت أنها تهدف لتوفير الأمان للعملاء .

***

توجد بالطبع فى سويسرا قوانين تكفل حرية المنافسة لكن سويسرا ككل الدول الرأسمالية الغربية ، دولة منافقة . من يطبق هذه القوانين ضد شركة عملاقة يمتد نفوذهافى كل مكان و تأوى أبناء الساسة و واضعى القوانين و منفذيها ، ترعى الفن و الموسيقى و تتبرع للقضايا الهامة وإسرائيل؟ بازل

نفسها كانت مدينة لكوش بالكثير . فهي تستجلب الفرق الموسيقية لتعزف لمواطني بازل و هي تستخدم آلاف من سكان المدينة .كما أنها مدينة لها أيضا بسحابة الدخان التي تغطي سماء المدينة و تتحمل المسئولية عن ارتفاع نسبة الإصابة بالسرطان بين سكانها .

هل توقف جشع كوش عند هذا الحد ؟ أبدا . هنا يأتي دورالفروع المنتشرة في أنحاء العالم . فهي تبيع لفرعها في إنجلترا الكيلو الخام من مسحوق ليبريوم LIBRIUM بثمن ٣٧٠ جنيه استرليني بينما يمكن شراؤه في إيطاليا بتسعة جنيهات (و الفاليوم VALIUMب ٩٢٢ جنيه سترليني مقابل عشرين في إيطاليا) ! السبب هو أن ايطاليا لم تكن بها حماية لبراءات الإختراع و بالتالي يتألف ثمن المنتج من التكلفة الحقيقية زائد ربح بسيط .

ولكي تتفادى دفع الضرائب أقامت فرعا في مونتفديو بالأوروجواي حيث لا توجد ضرائب على أية أرباح تحققها و حيث لا يوجد لها أيضاوحدات إنتاجية . ويتم تحويل الزبائن في مختلف أنحاء العالم إلى شركة مونتفيديو : فإذا كان المنتج يتكلف مثلا ثمانية جنيهات للكيلو و السعر العالمي عشرين فإن الزبون يشترى من فرع مونتفديو بعشرين بينما تتقاضى كوش بازل من كوش مونتفديو ثمانية جنيهات و نصف جنيه للكيلو ، و بذلك تبدو أنها حققت نصف جنيه ربحا في الكيلو بينما تكون كوش مونتفديو قد حصلت على الجزء الرئيسي من الربح و هو ١١ جنيها و نصف جنيه .

***

- كنا نحن المديرون الصغار ، نجتمع برئيس الشركة في قاعة اجتماعات تتسع لألفين من الجالسين بناطحة سحاب عملاقة من الزجاج و الرخام الإيطالي الفاخر ترتفع ٢٨ طابقا . قاعة دائرية تتوسطها منصة مرتفعة تحيط بها صفوف

من المقاعد المغطاة بلون كوش المميز و هو الأحمر الدموى . و عندما ندخل نجد أنفسنا كأننا فى قاعة رقص ملكية غارقة فى الأضواء الساطعة التى ما تلبث أن تخفت بينما يأخذ الرئيس، الدكتور لاندر ، مكانه على المنصة . و ما أن يبدأ الحديث حتى نكون جالسين في ظلام دامس بينما هو وحده يقف في دائرة من الضوء الساطع القادم من كشافات في السقف . دائما نفس الحديث : " حققوا مزيدا من النقود لكوش " . " لم نبتكر شيئا جديدا منذ وقت طويل " . "نحن نحتاج إلى مزيد من المنتجات ووسائل جديدة لكسب مزيد من النقود " .

مزيد من النقود لماذا ولأى هدف؟ تزعم كوش أنها تسعى وراء الربح من أجل دعم البحث العلمي . وهو زعم منافق أيضا .فالبحث لدى كوش هو نوع من الإستثمار . سيقول البعض : وماذا فى ذلك ؟ إنه استثمار مفيد للإنسانية . و هو منطق يمكن قبوله . سوى أن أبحاث كوش التى تنفق عليها الملايين لا تعبأ بتطوير عقاقير فعالة للأمراض المستعصية و إنما تركز على العقاقير الرائجة ، التى غالبا ما لا تكون لها فائدة علمية محققة .

لقد وضعت منظمة الصحة العالمية قائمة للأدوية الأساسية الضرورية و تضم ٢٠٠ دواء فقط رخيصة الثمن . لكن السوق به عشرات الألوف من الأدوية و تنفق الشركات ٢٠ بالمائة من المبيعات لإقناع الأطباء بأفضلية منتجاتها ومن ناحية أخرى فإن ما تنفقه الهند على الدواء يكفي لمد المياه النقية إلى سكان الريف أى لإجتثاث أمراض الدوسنطاريا و الكوليرا و التيفويد والإسهال التى تلتهم أكبر نصيب من الدواء .

لنأخذ حالة طفل أصيب بالإسهال في قرية من قرى الصعيد . غالبا ما يكون السبب هو الماء الملوث أو زجاجات الرضاعة الملوثة . ستذهب أمه إلى أقرب صيدلية فيوصى البائع عادة بالمضادات الحيوية : تتراسكلين وكلورا مفينيكول

وواحد أو أكثر من مضادات الإسهال مثل الميكسافورم MEXAFORM . لكن في بريطانيا مثلا لا يمكن وصف التراسكلين TETRACYCLINE لحالة إسهال إلا إذا شخصت على أنها كوليرا . و لا يمكن إعطاؤه لطفل تحت ١٢ سنة بحال واستحالة للرضع لأنه يمكن أن يعوق النموونكوين الأسنان .كما أن الكلورامفينيكول chloramphenicol لايعطى إلا للتيفود والعدوى الشديدة التى فشلت المضادات الحيوية الأخرى في علاجها لأنه يمكن أن يسبب أمراضا فى الدم .أما الميكسافورم فغير موجود في السوق البريطانيةإذثبت أن عنصره الأساسى الكليوكينول CLIOQUINOLيسبب دمارا لا يمكن علاجه للجهاز العصبى . نفس الشئ ينطبق على مضادات مثل ستربتوميسين -STREP TOMYCINE و نيوماسين NEOMYCINE و سلفوناميد SULPHONAMIDE . مات ملايين الأطفال فى العالم قبل أن يقتنع الجميع بأن أعظم مضاد حيوى فى العالم لن ينقذ الطفل بل ربما قتله لأنه يدمر البكتيريا الطبيعية فى الإمعاء لكن الأم تستطيع إنقاذه بكوب ماء مغلى و ملعقة من السكر و ملء أصبعين من الملح .

أغلب الأدوية المتاحة لا قيمة لها . و المستوردون و الصيادلة فى بلدان العالم الثالث يفضلون التعامل فى الأدوية الأجنبية الغالية و لا يحفلون بتوفير الأدوية الأساسية الرخيصة بسبب هامش الربح الضئيل . روش مثلا ، المنافس الأكبر لكوش ، تبيع بنجاح ريدوكسون REDOXON فى المكسيك : الميكسيكيون يستطيعون الحصول على حاجتهم من فيتامين ج بشراء البرتقال و هو أرخص عشر مرات ! كما تبيع هناك أيضا باكتريم BACTRIM بثمن مائة بيضة للعشرين قرصا و نفس العقارمتوفر بإسم آخر من إنتاج شركة أخرى بأقل من نصف الثمن .لكن الناس تقبل على الأول بسبب الدعاية .

سعر كبسولة التتراسيكلين فى الفيليبين أعلى ٨ مرات من سعرها فى الولايات المتحدة . غريبة . مش كده ؟ المفروض العكس . لكن هذه هى الحقيقة .الفقراء يدفعون أكثر . .

تزعم النشرة المرفقة بدواء تنتجه شركة جلاكسو البريطانية، موجهة إلى المهن الطبية ، أنه . " يمكن أن يشجع عمليات النمو ، و ينشط الطاقة البدنية و اليقظة والحالة الصحية العامة " . لكن الشركة لا توزعه في بريطانيا و إنما على حد تعبير مديرها . " فى بلاد معينة عبر البحار حيث تختلف المفاهيم الطبية والعلاجية لدى الأطباء و الصيادلة و الجمهور عن مفاهيمنا" !!

اختلاف المفاهيم . أى أنه يمكن إقناع أى فلاح فى بلد متخلف مثل بلدنا بأن يشترى دواء معينا إذا قلت له أنه يقوى "العصب" . وهى كلمة لا معنى لها طبيا .

منذ أكثر من عشر سنوات أعلنت شركة ميرك MERCK الأمريكية خطة إنتاج جاء بها : " هدفنا الوصول إلى ٧٥ بالمئة من نصيب السوق .. ويمكننا الحصول على نتائج بارزة بالتأثير في السوق " . ما معنى التأثير في السوق ؟ تقول الخطة أيضا بصريح العبارة : " الخطر الرئيسي على البيع هو أن تقوم حكومة ما بحظر استيراد أحد مستحضراتنا ...لهذا يجب الإحتفاظ بعلاقات جيدة مع المسئولين فى وزارات الصحة و التجارة لضمان استيراد منتجاتنا " .

لقد رأيت فقرا شديدا فى العالم و رأيت الناس عاجزين عن شراء الفيتامينات والأدوية . ورأيت كيف أن كوش عندما سمعت بنبأ انتشار وباء أنفلونزا فى الهند بدلا من أن تنتج كميات أكبر من فيتامين ج و تخفض السعر ، قللت حجم الكميات الذاهبة إلى السوق و زادت الأسعار . وفى نفس الوقت لم تطور شركة

واحدة دواء جديد للتدرن الرئوى منذ عام ١٩٦٦ بسبب اعتقادها أن هذا المرض لا يصيب البلدان المتقدمة و بالتالى لا يدر علاجه ربحا !

عشرون عاما تقريبا من العمل مع كوش كشفت لى الحقيقة المرة . ليس عن كوش وحدها وإنما عن عالم الدواء العالمى أيضا . وبينت لى ما كنت أجهله ولا يخطرلى على بال : إن نفاق الغرب لا حد له ! (الم تصدر الأمم المتحدة التى يسيطرون عليها ١٩٢ قرارا ضد إسرائيل لم تنفذ منها واحدا بينما يرغموننا نحن على التنفيذ بكل احترام؟)

هل يعرف أحد ان حكومات إنجلترا وفرنسا وسويسرا تعفى صادراتا الأدوية من الرقابة على السلامة والنوعية والجودة وهى الرقابة المفروضة محليا على أى دواء جديد قبل الترخيص بتوزيعه؟ وأن هيئة الغذاء و الدواء فى أمريكا تسمح بتصديرالأدوية التى انتهى تاريخ مفعولها أو غيرمسجلة نهائيا تحت عنوان " استقصاء " ..لتجربتها على الشعوب الأخرى ؟

ولا يقف الأمر عند هذا الحد . . فدواء لوموتيل LOMOTILمثلا المضاد للإسهال يستخدم فى أمريكا تحت تحذيرات مشددة بالنسبة للجرعة لأن تجاوزها ولو بقدر طفيف يؤدى للوفاة ، لكنهم صدروه إلى السودان فى عبوات كتب عليها "هذا الدواء استعمله رواد الفضاء فى رحلات جيمنى و أبولو " ، ويمكن إستخدامه للأطفال من عمر عام واحد !! المضاد الحيوى كلوروميستسين CHLOR OMYCTICI NE منع فى أمريكا وبيع فى المكسيك و تسبب فى وفاة ٢٠ ألف شخص . عقار ديبوبروفيرا DEPO - PROVERA لمنع الحمل منع فى أمريكا بسبب إحداثه تشوهات فى الأجنه وأمراض سرطانية لحيوانات المختبر لكنه ما زال يباع فى ٧٠ دولة من العالم الثالث .

أذكرانى حضرت مؤتمرا للسكان فى طوكيو عام ١٩٧٧ ، ووقف مندوب الوكالة الأمريكية للتنمية يدافع عن حبوب لمنع الحمل ثبت أنها تؤدى إلى تضخم الثدى . قال بكل صفاقة إن هذه الحبوب ، تجعل ثدى المرأة أكثر جمالا وتفيد الجميع بما فى ذلك صانعى الأحجام الكبيرة من السوتيانات !

لو أحصيت الأدوية الضارة التى تباع فى بلادنا أو البلاد المماثلة لنا بينما هى محرمة فى بلدها الأصلى سأحتاج إلى كشكول كامل ... عقار رونيسترول الذى ثبت أنه يعيق النمو فى الأطفال يباع فى البرازيل على أنه فاتح لشهية الأطفال . دهان فراميكرون FRAMYCORT من شركة فيزون FISONS يحتوى على نيوميسين سلفات NEOMYCIN SULPHATE فى بنجلاديش لكنه فى بريطانيا يحتوى على FRMYCETIN SULPHATE فراميستين سلفات بسبب الاثار الجانبية الخطيرة للنيوميسين .. .فاليوم روش الذى توزعه فى تايلاند لا يحمل التحذيرات و الاثار الجانبية الموجودة على الدواء الذى توزعه فى أوروبا أو أمريكا . .عقار بتنيلان BETNILAN من جلاسكو GLAXO الموزع فى بنجلاديش تؤكد نشرته أنه فعال فى علاج الروماتويد RHEUMATOID لكنها لا تشمل التحذير الذى يوزع فى بريطانيا عن ضرورة إستخدام أقل جرعة ممكنة وأن الجرعات يجب تخفيفها بالتدريج . الأكثر من هذا أن الجرعة الموصوفة فى بريطانيا تتراوح بين نصف ملجم و اثنين يوميا وهى فى بنجلاديش ثلاثة ملجم . ..مبيد الفوسفيل الممنوع دوليا سمح بتصديره إلى مصر و تسبب سنة ١٩٧١ فى نفوق ١٣٠٠ جاموسة !! .. القائمة طويلة .

***

هناك أكثر من عشرين ألف شخص يموتون سنويا فى العالم الثالث من جراء استخدام المبيدات الحشرية التى لم يعد الغرب يستخدمها على نطاق واسع.

جهل السكان هوالسبب كما يقال ؟ أبدا . بدليل هذه القصة التى وقعت في مصر دونا عن أي بلاد الدنيا .

في ١٩٧٨ ، و كنت وقتهافي فنزويلا ، أعلنت مجلة دير شبيجيل الألمانية أن شركة سيبا جايجى CIBA GEIGY السويسرية للأدوية ، قامت بتجربة المبيد الحشرى "جاليكرون GALYCRONE على أطفال وشبان مصريين بعد أن ثبت أنه يسبب أمراضا سرطانية لفئران التجارب و أن تقريرا أمريكيا سجل ظهور نزيف دموى في بول الفلاحين في نفس اليوم الذى استخدم فيه المبيد . وفي أعقاب نشر النبأ أصدرت الشركة بيانا اعترفت فيه بأن " بعض الأطفال المصريين أصيبوا بالسرطان نتيجة استخدام مبيد جاليكرون عام ١٩٧٦ " . وكان رد فعل السلطات المصرية مضحكا فقد أعلنت وزارة الصحة أنها لا تسمح باجراء تجارب على أى مواطن تعرض حياته للخطر ، و أن تجارب استخدام الجليكرون كانت على دودة القطن و ليس على المواطنين ! و نفت أن تكون أية آثار ظهرت على المواطنين و الأدهى من ذلك أنها دافعت عن المبيد وأكدت أن الأبحاث الجديدة عليه أكدت خلوه من الآثار الضارة على الحيوان والإنسان و لهذا أعيد تسجيله في قائمة المبيدات المسموح بتداولها في مصر . أما ممثل الشركة في القاهرة فاعترف بأن المبيد سبب "بعض المتاعب الصحية " للأطفال المصريين بسبب جريهم في الحقول وراء طائرات الرش و نفى أن تكون حدثت إصابات سرطانية .

من ساعتها بدأت أتساءل : الأمراض و التشوهات الخلقية التى أصابت الأبرياء من ملايين الفقراء في أفريقيا و آسيا نتيجة التجارب الكيماوية التى تقوم بها الشركات الغربية ، كيف تعوض ؟

***

كنت أتردد على القاهرة عندما تسمح الظروف .أى أكون فى طريقى من بلد إلى آخر. هناك شئ مثير فى أن يفطرالواحد فى أمستردام ثم يمكنه بعد ذلك أن يتناول طعام الغذاء في فندق سميراميس وسط القاهرة . وجئت خصيصا مرتين : الأولى عندما مرض أبي و أشرف على الموت . و الثانية عندما ماتت أمي بعده مباشرة . . وكانت المناظر التى تطالعنى تملأنى بالأسى والنفور ويصدمني وسط البلد بالقبح والتراب . أذكر حانوتا كبيرا للأحذية على ناصية شارعي شريف وقصر النيل تفنن في عمل ديكور لواجهته فأحاطها بحدوة هائلة سوداء اللون من الخشب أو الكاوتشوك لا أدرى . كانت بشعة . وعندمابدأ الإنفتاح أملت أن يؤدى إلى تنشيط الإقتصاد و تحديث البلد .

على العموم أنا كنت أعيش فى أماكن مشابهة أثناء تنقلى فى أمريكا اللاتينية . فلم أشعر بالغربة أبدا . وخصوصا عندما استقر بى الأمرفي المكسيك ..كنت اقترحت على الشركة إقامة مصنع فيها للإستفادة من تخفيض العملة وضآلة الأجور فعرضوا على أن أتولى المهمة .قضيت فيها تسع سنوات من ٨٢ حتى حرب الخليج . أعتبرها أهم فترة فى حياتى . .

***

... المكسيك أمم و لغات .. . قرابة التسعين مليونا . . وعاصمتها ستصبح قريبا أكبر مدن العالم ، يسكنها الآن ١٦ مليون أو أكثر . الزحام والمواصلات والضجة والوجوه المتجهمة . .كل شئ يشعرك أنك في القاهرة . الأهرامات . نعم .عندهم أهراماتهم ..والقصورالجديدة التى يملكها أهل البيزنيس ومهربو المخدرات والمتقاعدون من الساسة وقادة الشرطة ، بينما تتكوم عائلات مكونة من خمسة أشخاص وأكثر في غرفة واحدة . ثلث سكان العاصمة بهذا الشكل .

والتلوث ..كل يوم ١١ ألف طن من العادم في الهواء . إذا خرجت من السيارة لبضع دقائق يسود قميصي ووجهي . الشوارع الجانبية حية ومزدحمة طول الوقت . . .حوانيت الميكانيكية و السمكرية في كل مكان . جوادث السيارات كل يوم . عشش الصفيح . كأنك في القاهرة . فارق واحد يتضح على الفور. فعلى عكس القاهرة المؤدبة المستكينة ، المظاهرات هناك كل يوم . مظاهرات تهتف لكاسترو أو للحمر وهم السكان الأصليين ، ومظاهرات ضد الجوع وضد الإعتقالات .

المكسيك أيضا جنة للسائح الذي معه دولارات . في سنة ٧٦ خفضت الحكومة قيمة العملة إلى النصف لسداد ٢٠ مليار دولار سبق أن استدانتها من أجل التنمية .الفكرة أن التخفيض سيؤدى إلى تخفيض قيمة الصادرات بالنسبة للدولاروبالتالي زيادة حجمها . ومن حصيلتها يمكن تسديد الديون . هذه هي وجهة نظر صندوق النقد و أنصار التخفيض . أما الواقع فمختلف . المضحك هو أن الديون التي تم التخفيض بزعم تسديدها جاء أغلبها من أمريكا و تولى رجال الحكومة والصناعة تهريبها إلى أمريكا مرة أخرى في صورة استثمارات خاصة لهم دون تنمية أو دياولو.

في البداية نزلنا في شقة فندقية كبيرة كانت تكلفني أقل من عشر دولارات في اليوم . ثم ابتعت (أو على الأصح ابتاعت لي الشركة) شقة كبيرة في الطابق السابع عشر من مبنى جديث وأصبح لدى ثلاث غرف نوم و صالتا استقبال وثلاث حمامات و غرفة للخادمة وحمام لها ومطبخ و مصعدان يصلان مباشرة إلى شقتي . كان أغلب السكان الآخرين من الدبلوماسيين ورجال الأعمال مثلى وأثثنا منزلنا مثلهم من حانوت مخصص للصفوة . لا بد من أن يدق الواحد جرسا و يتم فحصه أولا من خلال عين سحرية قبل أن يسمحوا له

بالدخول و الشراء . وكان عندنا طباخ و خادمات وسيارة "موستانج" لها سقف من الفينيل . وقررنا أن الوقت قد حان لإنجاب الأطفال . أحببت المعيشة هناك وأن يكون لدى منزل كبير وسيارة بسائقها وأن ألعب الجولف و أمارس رياضة القوارب . وتجاهلت عن عمد البون الشاسع بين حياتي و حياة الأهالي .

كانت سعادتنا مرتبطة بقبول النظام الإجتماعي الذى نعيش داخله . و فى ذلك الوقت لم أهتم بالتفكير فى عدالته . كان مرتبى الرسمى مثلا فى ارتفاع مستمر ومع ذلك كنت أحصل على أكثر منه بكثير .كنت أقبض راتبا مضاعفا فى يونيو وثلاثة أضعاف في ديسمبر .و الهدف من ذلك هو مكافأة العاملين من خلف ظهر زملائهم . فالجميع كانوا يعرفون بشكل رسمى أن لهذه الوظيفة مثلا راتب شهرى معين لكنهم لا يعرفون كم عدد المرات التي يتقاضى فيها الموظف هذا الراتب . و هذا المبدأ هو المطبق فى دفع رواتب العاملين فى الخارج لكن بهدف آخر هو الإبقاء على المستوى المنخفض للأجورفي البلدان النامية . فعندما اتفقت مع الشركة على مستوى راتبى كمدير فى المكسيك ، قامت بتحديد المقدار الذى سيدفع لى فعلابها والمقدار الذى سيوضع لى بحسابى السويسرى فى بازل. ثم أخطرت المحاسب المكسيكي بالمبلغ الذى سيدفع لى فى المكسيك وحدها وهو الذى سأعلنه و أسدد عنه الضرائب . أما المبلغ الموجود فى البنك السويسرى فلن يعلن عنه فى سويسرا ولن أسدد عنه أية ضرائب فى أى مكان .

أرادت كوش أن تخفى عن العاملين المحليين لديها في البلاد الأخرى مقدارما يحصل عليه زملاؤهم العاملون بعقود أجنبية .فالفارق بين ما كنت أتقاضاه وبين ما يتقاضاه الكيمائى المكسيكي الذى يعمل عندى يبدو فى الظاهر الفارق الطبيعي بين وظيفته و وظيفة المدير . فلو أدركوا أنى فى الواقع أتقاضى ضعف ذلك المبلغ وأنه يمثل قيمة السوق الغربية الحقيقية لهذه الوظيفة لحدثت

ثورة لأنهم يحملون نفس مؤهلاتي بالضبط .النساء اللاتي كن يعملن في قسم التغليف و التعبئة كن يتقاضين مقابل العمل من الثامنة صباحاإلى الخامسة بعدالظهر أقل مما أعطيه لخادماتي .

***

نجحت . المكسيك بها كتلة رئيسية من السكان لا تملك قوة شرائية وتعيش على حافة الفقر . و مع ذلك تمكنت خلال ثلاث سنوات من تحقيق مبيعات مقادرها ١٥مليون فرنك سويسري و كان لدي مائتا موظف .

في البداية كنت مثل السواح تماما . رحلات في أنحاء البلاد حيث الطبيعة الوحشية المتنوعة . ذهبت إلى ACAPULCO التي حولتها قروض البنك الدولي من قرية صيادين إلى جنة سياحية للأثرياء حيث يمكن للواحد في فندق البريزيدنتي IL PRESIDENTI أن يشرب كأسا من النبيذ وهو داخل حمام السباحة .تفرجت على مصارعة الثيران وجربت رياضة تسلق الجبال .. استمتعت بألوان الطعام و الفنون .. الأسماك المشوية في ورق الموز . التورتيلا وفاكهة البابايا و الموسيقى الشعبية ولوحات ريفيرا و سيكورس العملاقة وآثار حضارة الأزتيك الرفيعة في وسط البلاد والمايا في جنوبها . شعب المايا ، من الشعوب المتميزة في تاريخ البشرية . قبل الميلاد بخمسمائة سنة كان أبناؤه يعرفون الكتابة ولديهم تقويم وكانت مدنهم تقوم على مجتمعات منظمة على درجة عالية من التكنولوجيا و العمارة و النحت و الرسم و التجارة .

شيئا فشيئا ازددت معرفة بالتاريخ المأساوي لهذا البلد الجميل . في سنة ١٥٢٠ غزاه الأسبان ونجحوا خلال عقد واحد في تدمير ثلاث حضارات متجاورة : الأزتيك و المايا والإنكا . وتم ذلك تحت راية المسيح مثلما تم الفتح العربي لمصر تحت رايةالإسلام . أقنعوا الأهالي بمسيح أشقر.وظهرت العذراء

لأحد الهنود وطلبت أن تبنى لها كنيسة في مكان ظهورها وطبعت صورتها على رداثه . و لم يبخل سفاح الغزو الإسبانى كورتيز بالتبرعات لبناء كنيسة سانت فرانسيس لتصبح مركز نشر الكاثوليكية في أمريكا بينما كان يقود ، بوحشية نادرة المثال ، عملية نهب الذهب المكوم فى المعابد . فلم يكن المساكين من أبناء هذه الحضارات يعرفون له فائدة عملية . . التاريخ غريب حقا . . فوق أكوام من الجثث وأنهارمن الدماء ولدت الحضارة الرأسمالية .. فقد ساهم هذا الذهب في تمويل رحلات استكشافية و حملات استعمارية و ابتكارات صناعية ..ودامت السيطرة الأسبانية ثلاثة قرون وهذا وجه شبه أيضا معنا . فقد جثم الأتراك على صدورنا نفس المدة وحوالى نفس التاريخ . وقبلهم مكث الصليبيون الأوروبيون نفس المدة .

.. أوجه الشبه كثيرة كما قلت . في العاصمة يوجد هرم CUICUILC0 المستديرالذى بنى منذ أربعة آلاف سنة . وفى مدينة CHOLULA المقدسة أكبر هرم في العالم وهو في حقيقته عبارة عن سبعة أهرامات فوق بعضها بنيت فوق بعضها فى عصور مختلفة . لكن التاريخ الحديث لبلدينا حافل بأوجه التماثل أيضا ، من الثورات الفاشلة حتى صندوق النقد الدولى .

. في سنوات مراهقتى رأيت فيلما أمريكيا باسم "فيفا زاباتا" . كان EMI-LIANO ZAPATA أحد الذين تزعموا فلاحى المكسيك فى عشرينات هذا القرن . هاجموا الأغنياء وصادروا أراضيهم ثم وزعوها على المعدمين . .الآن فى المطاعم الفاخرة و الحفلات يأكل الميكسيكيون المحترمون على صوت موسيقى شعبية تعزفها فرقة من العواجيز يرتدى أفرادها الملابس الشهيرة التى كانت تميز زاباتا ورجاله : رداء أبيض اللون من سترة على شكل القميص وسروال يربط بخيط عند خاصرة القدم أوالكاحل وقبعة عريضة من القش لها

قمة مخروطية وشريط من الطلقات النارية فوق الصدر أو شريطين متعانقين فوق البطن و أخيرا البندقية الخشبية القديمة . هذا هو ما تبقى من الثورة .

أما صندوق النقد الدولى فله قصة أخرى .

***

فى الولايات المجاورة للعاصمة المكسيكية رأيت مشهدا نادرا يتكرركل شتاء: بلايين الفراشات تهاجرمن الولايات المتحدة وكندا بحثا عن الدفء والطعام فتستقر وسط المكسيك . وتختفى الأشجار تحت كثافة جموعها و غالبا ما تنقصف أغصانها نتيجة ذلك . وعندما يأتى الربيع تعود إلى مواطنها بعد أن تترك بيضها فوق الأشجارليفقس ويتغذى على راحته .

هذا هوالدور الذى تقوم به المكسيك بالنسبة لجيرانها الأغنياء فى الشمال على مدارالعام . لقد تحولت الزراعة من الانتاج المحلى (الذرة والقمح) إلى الانتاج من أجل التصدير (البصل والخيار والطماطم والأسبرجس والفراولة) . والنتيجة أن المكسيك تجد نفسها مضطرة للاستدانة من أجل الحصول على القمح والذرة لأن الناس لا يمكن أن تغمس الجبن بالفراولة (التى تعجز عن شرائها لارتفاع سعرها) . وتكتمل الدائرة الخبيثة إذا عرفنا أن ٥٦ بالمائة من الفواكه و الخضراوات المنتجة للتصدير فى أمريكا الوسطى تلقى حرفيا فى الزبالة لأنها إما تواجه سوقا متخمة فى الولايات المتحدة أو لا تستوفى المعايير الجمالية للمستهلكين هناك ! كما أن الأرض التى يحصل عليها المستثمرون بثمن رخيص يستخدمونها بصورة رخيصة تؤدى إلى استنزافها باستخدام مدمر للرى والمبيدات . لكن الشركات الزراعية تدرك أن بامكانها الانتقال إلى أراضى جديدة أو حتى إلى بلد آخر حيث يمكن بدأ العملية برمتها من جديد !

***

في وادى ثامورا رأيت مشهدا مثيرا من نوع آخر . في البلدة التي تحمل هذا الاسم مائة ألف من السكان و تأتي آلاف أخرى إلى الوادى بحثا عن عمل و ينامون في الطرقات حيث تمثل نفقات المواصلات بالنسبة للبعض ٣٠ بالمائة من الأجر اليومي إذا وجدوا عملا . ويعيش أكثر من ثلاثة أرباع السكان في أحياء من الكرتون تطوق البلدة بعرض نصف ميل بلا مرافق صحية ولا مياه جارية والقليل من الكهرباء . وهناك أيضا قصور يملكها مليونيرات الفراولة .

شاهدت خمسة الاف باحث عن العمل محتشدين من الخامسة صباحا بجوارمحطة القطار . وفي حراسة عسكريين مسلحين بالبنادق نصف الآلية كانوا ينتظرون مجئ مندوبي الشركات في الشاحنات لينتقوا بضع مئات من العمال يتقاضون أقل من الحد الأدنى القانوني للأجر و هو ثلاثة دولارات يوميا . ويقنع النساء و الأطفال بثلثي هذا المبلغ .

***

رغم مظاهر الفقر الشديد المحيطة بي كانت هناك أيضا مظاهر ازدهار اقتصادى لا ينكر لم أرها في كوبا أو دول الكتلة السوفييتية التي مررت بهافي زيارات عابرة . فالواردات الأجنبية في كل مكان . نجحت الخطة الأمريكية التي رعاها البنك الدولي لخلق طبقة متوسطة متلهفة على شراء الواردات . من أمريكا بالطبع . انهالت القروض من البنوك التي تجمعت فيها أموال النفط العربي بعد ٧٣ ، وصار البنك الدولي في كل مناسبة يستشهد بالمكسيك ليدلل على نجاح مفهومه للتنمية .أما الأزمة التي ظهرت سنة ٧٦ فقد حلتها الحكومة كما ذكرت من قبل بتخفيض العملة . لهذا فان ما حدث عام

١٩٨٢ جاء مفاجأة . . أعلنت المكسيك فجأة ودون مقدمات عجزها عن تسديد ديونها الخارجية لأكثر من ٥٠٠ بنك .

قضيت يوم الإعلان كله بمكتبي ، ولم أغادره إلافى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى . كنا نتدارس تأثير القرار على عمليات الشركة فى المكسيك ، وظل المركز الرئيسى فى بازل على اتصال بنا . كان هناك قلق عظيم بسبب ضخامة استثماراتنا كما كنا نريد أن نعرف كيف نستفيد . وما لبث الاطمئنان أن عادإلينا . فقد تقدمت أمريكا بخطة تقوم على تكرارالروشتة السابقة التى أودت باقتصاد المكسيك : تخفيض مجمل قيمة الديون مقابل التزام المكسيك بالعودة لتسديدها عن طريقين : الأول هو الاقتراض من جديد والثانى بيع الموارد المحلية أى الصناعات و الأراضى والغابات ، بأثمان زهيدة للمستثمرين الأجانب و المحليين .

تدفقت الإستثمارات مرة أخرى . وخرجنا من هذه العملية بنصيب الأسد إذ اشترينا عديد من شركات الدواء الصغيرة والصيدليات بل وبعض مؤسسات العلف الحيوانى و شركات أخرى بأثمان زهيدة للغاية . كنت أبعث بتلكس إلى بازل ذاكرا مواصفات الشركة المعروضة للبيع . وكان الرد دائما كلمة واحدة : اشتر .

طبعا لم نعبأ بالمظاهرات التى عمت البلاد . اليسار تحرك ورفع شعار "لا لبيع المؤسسات العامة " . . وتجمعت قواه خلف مرشح واحد للرئاسة كان معروفا بعدائه لسياسة الخصخصة و أوشك على الإنتصار فى إنتخابات ٨٨ . لكن النتيجة زيفت و جاء إلى الحكم منافسه ساليناس . كان معروفا بأنه من رجال الصندوق . وكان شديد الدهاء . لم يستخدم تعبير الخصخصة و إنما ابتكر تعبيرا جديدا هو " فك الشركات " . و تمت هذه العملية بهدوء شديد . .

شهدت فترة ساليناس ازدياد نفوذ تجار ومهربي المخدرات وأصبحت المكسيك منتجا كبيرا للماريجوانا والهيروين ، عصابات كبرى تخصصت في الترويج والتهريب معتمدة على رشوة رجال الشرطة و الجيش والحكومة . كان التهريب يتم بواسطة مركبات عسكرية خاصة بالقوات البحرية المكسيكية تدعمها مدفعية مضادة للطائرات . وبلغت ثروة ساليناس ٥٠٠ مليون دولار في بنوك الخارج ، طبعا مبلغ صغير بالمقاييس المصرية . كما قلت أوجه الشبه معنا كثيرة ..

***

انفجرت فقاعة الازدهار في ١٩٩٤ .و للمرة الثالثة أعلنت المكسيك عجزها عن تسديد ديونها . و أجرت تخفيضا جديدا للعملة . وفي لحظة واحدة ارتفعت قيمة الدولارات لدى المستثمر الأجنبي إذ بدأت أسعار السلع المكسيكية بالدولار تنخفض يوما بعد يوم . وفي نفس الوقت إرتفعت أسعار نفس السلع بالبيسو ، العملة المحلية ، دون أن تتحرك الأجور .

كنت قد عدت إلى مصر فتابعت منها التطورات . سارعت الولايات المتحدة بترتيب صفقة إنقاذ من عدة قروض بلغت خمسين مليارا من الدولارات قدمتها هي وصندوق النقد الدولي و بنوك أخرى مقابل أن تودع المكسيك كل عائداتها من النفط و المنتجات البتروكيماوية لدى البنك الإحتياطي الفيدرالي في نيويورك تحت السيطرة الفعلية للولايات المتحدة بحيث تصادر فورا إذا توقفت عن سداد ديونها . فضلا عن تقرير اسبوعي مفصل عن الوضع الإقتصادي تقدمه المكسيك للدائنين . مع الإلتزام بتقليص الانفاق على الخدمات الإجتماعية والصحية وغيرها .

علقت صحيفة "الموند ديبلوماتيك" الفرنسية على هذه العملية بقولها :
خمسون مليارا من الدولارات مقابل الاستيلاء على تسعين مليون إنسان أى على آلاف الملايين من ساعات العمل المعروضة فى سوق أقرب إلى أسواق الرقيق .

***

.. حرب الخليج دراما أخرى لا تقل عن الزلازل الطبيعية والاقتصادية التى عصفت بالمكسيك . كشفت لى عقم الوضع العربى كما أكدت لى نفاق الغرب.. ربما لايعرف الكثيرعن وحشية صدام حسين وساديته والجرائم التى ارتكبها في حق العراقيين ، العرب منهم و الأكراد . في سنة ٧٩ وفى إجتماع لزملائه في قيادة حزب البعث أمسك برأس صديقه عدنان و جعل يخبطه فى الحائط حتى تفجر منه الدم . لقد رأيت جانبا من هذا الاجتماع فى فيلم فيديو أذاعته سى إن إن : صدام فى بذلة بيضاء جالسا خلف منصة مرتفعة مطلا على قاعة امتلأت بالجالسين وينادى اسما وراء اسم فيصيح الواحد منهم : "والله العظيم أنا مو خاين سيدى " . لكنهم يقتادونه للإعدام.. . فى السنة التى جرت فيها انتخابات الرئاسة المكسيكية ضرب ٧٠ ألف مواطن فى بلدة كردية بقذائف مدفعية محشوة بغاز سيانيد الهيدروجين القاتل . هذه عينة فقط من جرائمه لكن ما فعله الأمريكان بالعراق كان أشبه بفيلم من أفلام الرعب . مائة ألف طلعة جوية على بغــــداد والمدن الرئيسية أعادت العراق إلى عهد ما قبل التصنيع ..حطموا عن عمد البنية التحتية للاقتصاد العراقى .. نظام توليد الطاقة الكهربائية ومصافى النفط والمصانع الكبرى والطرق والجسور وخطوط التليفون والتلغراف .. جملة الخسائر التى أحدثوها قدرت بأكثر من ٢٠٠ مليار دولار.

عندما انتهت الحرب وعادت الكويت لأهلها قررت أنا العودة إلى مصر . كانت الفكرة تراودنى منذ بعض الوقت . وسبق أن طلبت من كوش بحث إمكانية نقلى إلى مصر . كان الرد وقتها سلبيا بسبب صغرحجم عمليتها هناك. إذ كانت صناعة الدواء الوطنية توفر٩٢ بالمائة من احتياجات الإستهلاك المحلى . وفى سنة ١٩٩٠ وقع ما يشبه الإنقلاب فى حياة كوش الداخلية مبعثه أن أكثر من سبعين بلدا بدأت تنفذ برامج خصخصة و تبيع مؤسسات دولة بمقدار ١٨٥مليون دولار (نتيجة أعباء ديون القطاع العام و٢٠ سنة من الإدارة الفاشلة) . . وبدأت كوش تخطط لتوسيع عملياتها .خلال ذلك تضاعف شعورى بالملل وعدم الاستقرار . مللت الحديث طول الوقت بالإنجليزية والأسبانية ومع زوجتى بالفرنسية . و لم تعد مباريات الجولف تغرينى ولا تغيير السيارة . كنت أعيش فى أعلى مستوى أنا وأسرتى . لا ينقصنى شئ . ومع ذلك وجدتنى أتطلع حولى فى غربة كاملة . بالرغم من "روزالينا " .

روزالينا كانت سكرتيرتى ، سمراء خمرية ذات ملامح اسبانية . كانت قصيرة القامة ممتلئة الجسم ، تبرزالجوبات القصيرة جمال فخذيها . وعندما كنت أمر بها وهى جالسة خلف مكتبها كنت ألمح دائما كيلوتها الأبيض . وربما كان ذلك هو السبب فى العلاقة التى نشأت بيننا ، و ربما كان الأمر راجعا إلى البرودة التى تسللت إلى فراشى الزوجى . لكن المؤكد أنى أغرمت بها بعض الوقت . أعجبنى فيها حيويتها وسرعة انفعالها وتلويحها بيديها أثناء الحديث (على العكس من زوجتى البيضاء الرصينة) . وكانت تعيش بمفردها مع طفل من زوج سابق .

ربما كنت أمر بما يسمى بأزمة منتصف العمر أوبغم الإنجاز . أيا كان الأمر فقد أخذ الاكتئاب يستولى على كلما تأملت فيما يجرى حولى . وجدت أن

أمريكا اللاتينية تقف على حافة الهاوية بسبب الظلم والاستغلال . . تبينت أن فقر الأغلبية الساحقة من الناس ضروري كي تتمكن أقلية قليلة من ممارسة التبذير. فحتى يزيد البعض استهلاكهم لا بد أن يخفض الكثيرون منه . ولكي يلتزم هؤلاء بالحدود المرسومة لهم تقوم الأقلية بتكديس الأسلحة الحربية وتتصدى للفقراء .

رأيت الناس في الأرجنتين ، وهي من أكبر الدول المنتجة للحوم في العالم ، يعجزون عن تذوق اللحم ، ومن النادر أن يحصل الأرجنتيني العادي على كوب من اللبن أو قطعة من الجبن . السبب أن الأرجنتين في حاجة إلى تصدير اللحوم لدفع ما عليها من ديون (لم يستفد منها هذا الأرجنتيني العادي) ولذلك يتجه مربو الماشية إلى التسمين والتصدير ويذهب اللحم مباشرة إلى مصانع التجهيز العملاقة ليظهر بعد ذلك على شكل أقراص في محلات "مكدونالد" أو علب تحمل صورة البقرة في شبرا.

الناس الآن لا يعملون ليعيشوا بل هم يعيشون ليعملوا مثل شغالة النمل . هناك ناس يعملون أكثر لأنهم لا يستطيعون توفير احتياجاتهم . وكما هو الحال في مصر ، يقوم غالبية سكان أمريكا اللاتينية بعملين في وقت واحد، و أحيانا ثلاثة ، فليست أمامهم وسيلة أخرى للخلاص من الجوع .

الوقت يتناقص وثمنه في تزايد مستمر . أصبح يباع و يؤجر. لكن من هو سيد الوقت ؟ إن السيارة والتليفزيون والفيديو والكمبيوتر والتليفون المحمول وغيرها من أدوات الرفاهية التي ابتكرت لربح الوقت أو تبديده أصبحت تتحكم فيه . فالسيارة تحتل حيزا مكانيا في المدن وتستهلك وقت الإنسان ، إنها نظريا تفيد في إقتصاد الوقت لكنها في الواقع تستنفذه . ذلك أن جزءا هاما من الوقت المخصص للعمل يستخدم في تسديد ثمن الانتقال إلى

مكان العمل وهذا الانتقال يتطلب المزيد من الوقت بسبب تعطل حركة السير.

تعلمت في باراغواي أن الفلاح أقل قيمة من البقرة وفي البرازيل أن الذي يزرع الأرض لا يملكها والذي يملكها لا يزرعها . أدركت لماذا يهجر القرويون حقولهم وينزحون إلى المدن .

عاصمة المكسيك تشهد سنويا زيادة تقدربنصف مليون ساكن . وبحلول نهاية القرن ستصبح مع العاصمة البرازيلية أكبر مدينتين في العالم. المدن الكبيرة في جنوب الكوكب صورة للمدن الكبيرة في شماله لكنها صورة مشوهة . فعواصم أمريكا اللاتينية لاتعرف الممر الخاص بالدراجات ولا الهدوء أو الهواء النقي . الأرجنتين مثلا تنتج الوقود الخالي من الرصاص لتصدره إلى الخارج وتبقى على الوقود السام للاستهلاك الداخلي . كم عانيت في المكسيك من عوادم السيارات ؟ كنت أحيانا أعجز فعليا عن التنفس في الشارع لأن خمسة ملايين سيارة تغطي المدينة بسحابة من الغبار . نفس الشئ في ساو باولو عاصمة البرازيل و سنتياجو عاصمة شيلي اللتين تنافستا عام ١٩٨٩ على لقب أكثر المدن تلوثا في العالم .

المجتمع الإستهلاكي يبتلع الناس و يجبرهم على الاستهلاك بينما يقدم لهم التليفزيون دروسا في العنف . هكذايمكن أن يعيش المعدمون بعيدا عن الميسورين لكهم يطلون عليهم يوميا من خلال الشاشة الصغيرة التي تعرض فجورالاستهلاك الفاحش وفي نفس الوقت تلقنهم كيف يشقون طريقهم في الحياة برصاص السلاح .

العنف الذي يشهده الشارع ليس إلا امتدادا للعنف على الشاشة . فالتجول في شوارع أمريكا اللاتينية أصبح خطرا لكن البقاء في البيت أخطر. المدينة

سجن فمن لم يكن سجين الفاقة فهو سجين الخوف، من يملك شيئا مهما كانت تفاهته يشعر أنه مهدد ويخشى أن يصبح ضحية لاعتداء ما ، أما من يملك الكثير فيعيش منعزلا فى أبراج الأمان ، تلك العمارات و المجمعات السكنية الضخمة المزودة بكاميرات المراقبة و الحراس المسلحين والتى تنتشر الآن فى أنحاء بلادنا .

لم تعد للإنسان أية قيمة . اختفت نغمة رعاية الأطفال بعد أن تخلت الدولة عن دور الرعاية استجابة لتعليمات صندوق النقد الدولى . أصبح التخلص من الأطفال الزائدين ، أطفال الشوارع الفقراء والعمال والمهمشين ، يتم بواسطة الجوع والرصاص : فهم ليسوا صالحين للمجتمع والتعليم حق الذين يستطيعون دفع ثمنه أما من لا يستطيعون فليس لهم الحق فى الوجود . فى جواتيمالا اغتالت الشرطة أكثر من أربعين طفلا من المتسولين والذين كانوا يعبثون فى صناديق القمامة وقد عثر على جثثهم مشوهة مفقودة العيون مبتورة الآذان ومدفونة مع الفضلات . وعندما انتشرت ظاهرة أطفال الشوارع فى البرازيل تشكلت فرق إعدام من رجال شرطة سابقين ومهربى مخدرات طاردتهم مثل الكلاب الضالة وقتلت منهم ٤٥٧ طفلا عام ١٩٨٩ وارتفع الرقم فى ١٩٩٣ إلى أربعة أطفال يوميا .

بلدان عديدة فى أمريكا اللاتينية ألغت عقوبة الإعدام . لكنه يمارس بها يوميا لحماية حق الملكية . ففي بيونس ايرس أواسط ١٩٩٠ أطلق مهندس النار على طفلين سرقا راديو سيارته . و علق أهم صحفى أرجنتينى على الحادث فى برنامج تليفزيونى قائلا : لو كنت مكانه لفعلت الشئ نفسه .

فى فبراير ١٩٩١ حل وباء الكوليرا بمدينة ليما عاصمة بيرو ، و ذهب ضحيته المئات فى أيام قليلة إذ كانت المستشفيات تفتقر إلى الأمصال والملح

لأن الاجراءات الاقتصادية الصارمة التي فرضها صندوق النقد الدولي أتت على ماتبقى من خدمة الصحة العمومية .

في بوليفيا لا يتوفر ماء للشرب بالقرى ، بينما يلمع الديش فوق أسطح المنازل . وفي شيلي تعلن الإحصائيات باعتزاز عن تضاعف الإنتاج الغذائي وتعلن في الوقت نفسه عن تضاعف أعداد ضحايا الجوع .

سقطت حواجز الحماية التي شيدتها دول أمريكا اللاتينية في الماضي .اليوم تبيع الدولة المؤسسات العامة مقابل لا شئ أوأقل من لا شئ . إنها تسلم المفاتيح وكل ما تبقى إلى المحتكرين الدوليين: عدة مئات من الشركات و البنوك العالمية التي تملك القدرة على التلاعب بالناس وأموالهم ، بينما تتحول هذه الدول إلى أسواق حرة . أما التكنوقراطية الدولية فتحاول إقناع الناس بأن تحرير السوق هو سر تحقيق الثروة .إذا كان الأمركذلك فعلا فلماذا لا تطبقه البلدان الغنية التي تنصح به ؟ ذلك أن السوق ليس حرا على الإطلاق في فرنسا وألمانيا وكندا بل والولايات المتحدة نفسها .

***

تكررت المناقشات الحادة بيني وبين زوجتي التي تابعت في قلق انسحابي داخل نفسي في السنوات الأخيرة وتعليقاتي الساخرة والانتقادية على التطورات السياسية و خاصة كل ما له علاقة بكوش والشركات العالمية أو السياسة الغربية والأمريكية بوجه خاص . مرة قرأت عليها تقريرا موجها من كوش إلى مساهميها جاء فيه أن الشركة تغلبت على كافة الأساليب التي استخدمتها الحكومات لتشجيع صناعة الدواء الوطنية وإعاقة الصناعة الأجنبية ، بما في ذلك الضرائب والتعرفة الجمركية والنسب و قيود النقد والدعم والتأميمات . تطلعت إلى في دهشة عندما أبديت سخطي . حاولت أن

أشرح لها أن كوش صارت مصدرخطر على استقلال أى بلد . فنفوذها أقوى من الحكومات وهى غير مسئولة أمام أية جهة فى أى مكان . و هى تتحكم فى أموال هائلة ويوسعها أن تنقل ما تشاء من هذه الأموال من أى بلد وإليه . الأرباح يمكن تصويرها على أنها خسائر ، والأصول تباع ، كل هذا دون أن يعرف أحد أو يتبينه بسبب السرية المضروبة على حساباتها .كيف يمكن لأى حكومة أن تتحكم أو تيسطرعلى كيان مثل هذا يشبه سمك الجيلى : موجود فى كل مكان و ليس موجودا فى أى مكان ؟ أعدت على سمعها ما اقترحه أحد المدراء من ضرورة التفكير فى شراء أو إستئجاربعض الدول الأفريقية الغنية بالموارد الطبيعية طالما أن حكوماتها عاجزة عن حل مشاكلها . قالت لى يومها أن كل هذا لا يعنينا فى شئ طالما أن كوش تكفل لنا حياة آمنة .

لزمت الصمت . كان هذا يحدث دائما كلما تبادلنا الحديث . أول خلاف حاد نشأ بيننا بعد سنوات قليلة من زواجنا ..كنا نتحدث عن الحرب الأهلية اللبنانية . وأزعجتنى الكراهية التى ظهرت فى صوتها عندما جاء ذكر المسلمين والفلسطينيين . قلت لها أن اللبنانيين بكل طوائفهم مسئولين عما حدث فى بلادهم . غضبت منى . حرصت بعد ذلك على تجنب الموضوعات التى تثيرها . لكن هذا لم يحل المشكلة . مع الزمن أدركت أنه يستحيل أن يتقاسم اثنان الحياة دون أن يتمكن كل منهما من عرض آرائه ، و دون أن يتجادلا بشأنها .

مرة كانت تريد شراء كاميرا فيديو أحدث من التى عندنا فحدثتها عن ضحايا الجوع فى بنجلاديش والصومال ورددت على سمعها أقوال القديس فرانسيس الأسيسى بأن الإنسان الذى لا يحتاج إلى شئ يملك كل شىء . وأن الخطوة الأولى فى اكتشاف الإنسان لنفسه هي أن يفك ارتباطه بالأشياء . دار بيننا

نقاش إنتهى بأن صاحت فىّ : أنت لا يعجبك شئ ولا أحد ؟ ومن يومها انقطع كل خيط بيننا . .

***

لا أريد أن أحمل زوجتي المسئولية الكاملة عن فشل علاقتنا . فهى فى نهاية الأمر محكومة بظروف نشأتها . و ربما يكمن الخطأ فى أنى توهمت أن ارتباطى بها سيشفيني من سارة . فأنا لم انقطع عن التفكير فيها . كانت قد انتقلت مع زوجها إلى انجلترا فى بداية الثمانينيات . وظللنا على اتصال بواسطة الكروت التقليدية فى المناسبات و الأعياد . لكنى لم أحاول الإلتقاء بها .

***

جاءنى الفرج أخيرا و وافقت إدارة بازل على نقلى . كانت مصر قد وقعت على اتفاقيات الجات و مضت خطوات واسعة فى تطبيق الخصخصة والشراكة الأمريكية والأوروبية الأمر الذى فتح آفاقا وردية أمام شركة مثل كوش .

فى السابق كانت الشركات الأجنبية تتمتع باحتكار براءات اختراع الأدوية الجديدة لمدة لاتزيد عن عشر سنوات تستطيع الشركات المصرية بعدها القيام بتصنيع هذه الأدوية لحسابها . ومدت الاتفاقية التى وقعت عليها مصر هذه المدة إلى عشرين سنة .

فى البداية تصورت أن مصرتعرضت لضغوط أرغمتها على التوقيع . فالآثار المترتبة عليها خطيرة للغاية وأهمها ارتفاع الأسعارإلى خمس وست أضعاف مستواها الحالى مما يقضى على الصناعة المحلية أما الأجنبية فيمكنها أن تخفض الأسعارلبعض الوقت وتعوض الأمربعشرات الطرق . ثم تبين لى أن الأمر أعمق من ذلك .

فالإتفاقية تعطي مصرفترة سماح مدتها عشرسنوات قبل أن يبدأ تطبيق إجراءات حماية براءات الاختراع الأجنبية . والمقصود أن تستغل هذه الفترة في الإستعداد للمستقبل بالتجديد والإحلال والأبحاث و الابتكار . وإذا بي أقرأ في الصحف تصريحات لبعض المسئولين يدعون فيها إلى التنازل عن هذه المدة الآن بحجة جذب الإستثمارات الأجنبية !

غباء أم عمالة ؟ تأكد لي أن النخبة الحاكمة في مصر لا تفكرفي المستقبل على الإطلاق . كان أمامي مثال كندا : طبقت الجات فورا فسيطرت الشركات العالمية على تسعين بالمائة من مبيعات الدواء في كندا مقابل عشرة بالمئة فقط للشركات الكندية التي تخصصت في انتاج الأدوية بأسمائها الكميائية ذات النوعية العالية والتكلفة المعقولة وتلبى ٣٠ بالمئة من احتياجات المواطنين من الدواء الرخيص . أصبح لصنّعي الأدوية ذات الأسماء التجارية الشهيرة و منهم كوش الحق في تقاضي أسعار احتكارية لمدة عشرين عاما .انتهى النظام الذى كان يوفر منافسة سعرية وارتفعت أسعارالأدوية إلى خمسة أضعاف خلال عام واحد. و قدرالإخصائيون أن الكنديين سيتكلفون نتيجة ذلك ما بين سبعة وعشرة مليارات دولار خلال فترة ال١٥ سنة المقبلة بينما تضخ أرباح هائلة في جيوب الشركات العالمية المملوكة للأجانب .

في بازل كان مدراء كوش يفركون أيديهم في سعادة : فمصر الآن تستهلك أدوية بمقدار مليارين و نصف مليار جنيه . ومع الجات سيرتفع هذا الرقم إلى ١٣ مليارا . عسل بالنسبة لكوش . المضحك في الأمر أن الاختيار وقع على لأتولى إدارة فرعها في مصر . ألم أكن أسعى للانتقال إليها ؟

الباقي كان متوقعا . رفضت زوجتي العودة معي إلى مصر بحجة الإرهاب الذى يتعرض له المسيحيون . وكنت أنا قد وصلت إلى حالة لم أعد

أعياً بها بأى شئ فى سبيل العودة . فاتفقنا على أن أذهب وحدى بينما تنتقل هى و إبنتينا إلى لبنان ليعيشوا مع أهلها . اتفاق أشبه بالإنفصال .

***

كانت أختى الصغرى قد تخلصت من شقة العائلة فى شبرا . و أقمت فى الهيلتون إلى أن وجدت لى الشركة شقة مفروشة فاخرة بمنطقة المهندسين. وخلال ذلك كنت أتعرف على مهل على البلد الذى لم تسمح لى زياراتى الخاطفة بتبين ما وقع به من تغيرات ..

سمعت من قبل الكثير عن نتائج الانفتاح .. ثم أنا قادم من بلد عالم ثالث لا يختلف كثيرا عن مصر . . الطبقة الوسطى فيه ما أن تكتسب بعض المال حتى تكتشف أنها لا تستطيع الحياة دون سيارة . و مع ذلك هالتنى صورالفساد والضياع .وانتشار المخدرات .. صور شبان زى الورد فى صفحة الوفيات كل يوم .. لفت نظرى بالذات الوضع الصحى والدوائى . . حقن البنج التى تذهب بالمريض ، المستشفيات غير المرخصة ، الأدوية المغشوشة وأكياس الدم الملوثة . الليزر الذى يسبب العمى و الطبيب الذى يسرق الكلية..

بحثت عبثا عن شجر البانسيانا الذى كان يغطى شوارع كثيرة فى العباسية والظاهر وشبرا و الجيزة . رأيت أكياس القمامة فى كل مكان : فوق الأرصفة وأمام الفيلات وبين السيارات . ورجال تتدلى من صدورهم سلاسل ذهبية يخوضون فى القمامة ليشتروا من الصيدلية سبراى ضد الذباب والبعوض و أدوية ضد الإسهال . أدهشنى انتشار الصيدليات فى كل شارع . رأيت سيارات من كافة الماركات و الأنواع يقودها شبان صغار أو رجال ونساء سمان فى طريقهم إلى الطبيب للعلاج من السكر أو الضغط المرتفع . لاحظت بذاءة المبانى والدكاكين . واختفاء اللغة العربية من أسماء الحوانيت .

الثراء الفاحش والفقرالبين . اللسان المعوج في محاولة للتشبه بالأجانب و أبناء الذوات . الإهمال والركاكة واللكلكة و الهلفطة . الأنيميا وسوء التغذية .إنعدام القواعد الصحية البسيطة التي تربينا على مراعاتها و التي كنا نقرأها في صبانا على ظهور كراسات الدراسة .الأكاذيب في الصحف و على الشاشة . الخداع دون رقيب . انعدام الكرامة الوطنية . التعصب . الأنانية المطلقة .

بعد أسبوع طالعت في صفحة الوفيات نعي نسيم غبريال . فوجئت بالمربعات التي أفردت له على عدة صفحات و عدة أيام و الأوصاف التي أسبغت على تاجر الشنطة و مهرب العملة السابق وأقلها : رجل الأعمال والصناعة ، ابن مصر ، فخر كل مصري ، فقيد الوطن . لكن المفاجأة الكبرى تمثلت في حجم نشاطه والشركات والمؤسسات التي يرأسها أويتولى رئاستها إخوته و أقاربه . شركة للفنادق يرأسها ابن أخته ، شركة تأمين ، وأخرى للسياحة وثالثة لليموزين ، شركة أدوية ، شركة لصناعة فلاتر السيارات ، العالمية للاستيراد والتصدير ، ملابس جاهزة يرأسها ابن عمه ، محلات نيوكلوزث ، مكتب هندسة ، شركة للمقاولات والتنمية العقارية ، دعاية وإعلان ، تجارة سيارات ، شحن جوى و بحرى ، أدوات صحية ، تجارة عالمية في المناطق الحرة . و بعد هذه الشركات جاء أفراد الجوقة المناسبة : محاسب قانوني ، مكتب محاماة ، مهندس استشاري ، جراح ، مدير مستشفى ، معمل تحاليل طبية ، كير سيرفيس للأمن ، مدرسة لغات ، فنادق عائمة ، مجوهرات .

المجموعة الأخرى من إعلانات النعي بدأت بمفاجأة : المهندس عبد الحكيم عبد الناصر . وأكدت لي البقية مدى ما وصل إليه من نفوذ . بنك القاهرة باركليز ، بنك أميريكان اكسبريس ، البنك المصرى الأمريكي ، فنادق كونستا

العالمية (لأن المدير العام لفندق القاهرة ابن أخته) ، نيسان مصر، سوزوكي ايجبت و مودرن موتورز ، كيا موتورز ايجبت و آشيا موتورز، إيجبت كار ، توكيل رينو ، جنرال موتورز، المصرية الكورية للخدمات والصيانة ، منصور شيفروليه ، شركات إتدكو و إتكو و إفكو و ناتكو وإيكو وإمكو وإركو ، جمعيتا مستثمري مدينتي العاشرمن رمضان والسادات ، كوكاكولا ، أكتوبر فارما للأدوية ، سترو مصر ، أرت لاين للإعلان ، إسو ، موبيكا ، ديكوراما ، لونا للعطور و المكياج ، شركة المعارض الدولية ، شركات سياحة ، بلاستيك ، سيراميك ، تسويق ، توكيلات أدوية و سيارات ، كريازى .

و تلا ذلك كله نعى الأئمة والكنيسة و على رأسها البابا شنودة الذى رأس صلاة الجنان، الوزراء ، المحافظون ، مراكز البحوث ،أعضاء مجلسي الشعب والشورى ، رؤساء وأساتذة الجامعات ، رؤساء المجالس المحلية و الصحف والمجلات والأحزاب ، مديرو الأمن ، الكتاب و الصحفيون ، الهيئات القضائية، السفراء ، الغرف التجارية ، رئيس اتحاد الصناعات ، رؤساء النقابات المهنية والعمالية ، المهندسون ، الأطباء ،المحامون ،البنوك ،القوات المسلحة ، الشرطة .

أدركت فعلا كم تغيرت البلد .

***

بحثت عن لبيب .. الوحيد الذى بقى من فترة الصبا . وجدته قد استقر فى بلدته بقنا حيث افتتح عيادة . وعلمت منه فى التليفون أن سارة فى مصر. جاءت وحدها فى زيارة لأهلها . ذهبت لرؤيتها .وقفت أمام باب الفيلا القديمة مضطربا و قلبى يدق فى قوة . ثم دفعته ودخلت و صعدت بضع درجات إلى باب خشبى . فوجئت بصورة ملونة للعذراء ملصقة فوقه و إلى جوارها لوحة

خطية صغيرة برسم الله محبة .. فتحت لى . صدمنى وجه ذو بشرة كابية، وجسم بدين ، وشعر أسود فاحم لكنه لا يتماشى مع التجاعيد والجيوب المنتفخة تحت العينين اللتين فقدتا لمعانهما . صافحتنى يد سمينة مكرمشة غير تلك الرقيقة التى كانت تعزف البيانو ..

تعمدت أن تجلسنى بحيث يسقط ضوء النافذة على وجهى وتبقى هى فى الظل . تبادلنا حديثا متقطعا عن أولادنا ، حديثا بلا حماس . تأملت الغرفة : الأثاث القديم ، تقويم جمعية المحبة القبطية ، بصورة ملونة للمسيح وآية اليوم . غادرتنى لتحضر القهوة فتابعتها بنظرى ؛ صارت لها مؤخرة عريضة حاولت إخفاءها أسفل جوبة واسعة تصل إلى قدميها . لمحت فى ركن الغرفة محرابا صغيرا به أيقونة العذراء و تحتها شمعة كهربائية مضاءة وكتاب مفتوح . نهضت و تقدمت منه . كان الكتاب مفتوحا على صفحة بها سطور من رسالة للقديس بولس : "يزيّن نواتهن بلباس الحشمة مع ورع وتعقل لا بضفائر أو ذهب أو لآلىء أو ملابس كثيرة الثمن بل كما يليق بنساء متعاهدات بتقوى الله." ونحن نشرب القهوة كنت أتأمل ملابسها المتواضعة مثل ملابس الراهبات و هى التى كانت تتفنن فى زينتها . درية شفيق انهزمت . . . . .

***

ذهبت لزيارة لبيب : أخذت الطائرة إلى الأقصر ، ثم سيارة بيجو مكدسة بالفلاحين . بعد ساعة كنت أمام منزله .. صف مرضى من المدخل وعلى الدرج حتى غرفة الكشف . صف آخر من المقاعد عليه مرضى آخرون . نساء يحملن أطفالهن . الجدران القذرة تزينها تقاويم لامعة من شركات الأدوية الكبرى . عرض جذاب لعلب لبن الأطفال الصناعى فوق رف تحت النافذة . صورة الأطفال الأصحاء الذين يطلون من العلب نقيض الأطفال المرضى الباكين . لبيب تضاعف

حجمه .عادي . الشعر الأبيض عادي . التجاعيد أيضاعادية . لكن النظرة البليدة الميتة في عينيه فاجأتني . حتى فكرت أنه يتعاطى مخدرا ما . يبدو غيرمتأثر ومتماسك . استقبلني بحرارة ثم تجاهلني فجأة ليرحب بشاب أنيق أحضر له رزمة من الروشتات تحمل اسمه . فهمت من حديثهما أنه طبعها له خصيصا . ثم رأيته يعطيه نشرات خاصة بشركة أدوية ألمانية .أدركت الموقف. فالشاب كما أكد لي لبيب بعد ذلك مندوب الشركة . والروشتات "خدمة خاصة" للأطباء تقدمها الشركة بالإضافة إلى أنها وسيلة لمراقبة ما يصفه للمرضى ففيما بعد يذهب المندوب إلى الصيدلية و يفحص الروشتات .. وبعد ذلك تصل الهدايا . . من الثلاجة إلى السيارة و نفقات السفر لحضور مؤتمر علمي مزعوم لكنه دعاية للشركة . طبعا إلى جانب عشرة بالمائة عمولة من الصيدلية .

لاحظت أنه يكتب المضادات الحيوية بسهولة شديدة ولا يهتم بفحص نتائج التحليلات التي يأتي بها المرضى . عندما علقت على ذلك قال لي أن كل نتائج معامل التحليل في المستشفيات الحكومية والمعامل الخاصة صورية .وأن الشخص لن يخسر شيئا إذا كان سليما وأخذ مضادا حيويا . قلت له أن هذا خطأ . فهذا الشخص لن يستجيب بعد ذلك للمضاد الحيوي عندما يمرض فعلا .

لم أكن أبالغ . فالإستخدام العشوائي للمضادات الحيوية قد قضى على أثرها و أنتج أمراضا متعددة المقاومة تقهر أقوى المضادات وبعضها ليس له علاج .والبعض الآخر تحول إلى أوبئة عابرة للحدود مثل الشركات العالمية تماما !! الطبيب في أمريكا اللاتينية يفعل مثل لبيب تماما: يصف المضاد الحيوي لكل شئ من الصداع إلى انغراز الأظافر في اللحم . إنها تبلع وتمـــص وتدهن بها الجروح وتطعم للدجاج و الأبقار من أجل التسمين وخصوصا في الولايات المتحدة . لقد رأيت في السنغال أقراص المضادات

الحيوية تباع في الأسواق ويعتقد الناس أن حبة ملونة أو اثنتين يمكن أن تكفيا للشفاء ولا أحد يعبأ بتصحيح هذه المعلومات وإقناعهم بأن النتيجة في هذه الحالة ستكون مضاعفة المرض و تطوره إلى شكل يستعصى على العلاج .

لم يجادلني لبيب . وبدا رافضا للمناقشة أو التفكير فيما قلته أوغير مبال به . قال لي : أنت تتكلم كخواجة . تسعة وتسعين في المائة من الأمراض في مصر سببها عدم نظافة الشارع والأكل . عند طلوع النهار في الريف تجد الشعب المصرى نائما أمام المستشفيات . نحن هنا نشرب مخلفات الإنسان والحيوان والأسماك الميتة الطافية على وجه المياه ... لكن لا أحد يفعل شيئا لعلاج هذا . فماذا أستطيع أنا أن أفعل ؟ أنا مضطر للمسايرة وفي النهاية أنا معرض للقتل على يد أصحاب الدقون . هل تذكر مجدى فام ؟ دخلوا عليه منذ شهرفي وضح النهار وقتلوه .

طلب منى أن أنتظره نصف ساعة نصعد بعدها لرؤية زوجته وأولاده . وقفت قرب النافذة أتأمل الطريق . نساءمحجبات ومنقبات يسرن في صمت . فلاح يتحامل على نفسه حاملا كيسا من البلاستيك ملئ بالأدوية ..فيتامينات ونوفالجين لن تفيده شئيا . أبواق السيارات التي تزحف بين الناس والحيوانات أسفل عاصفة من التراب . حانوت كتب على واجهته لافتة باللون الأحمر : "فاميلي شوب" . ضحكت . جاءني صوت لبيب من خلفي .. قال أنه أعد لي غرفة بعيدة عن ضجة الشارع . أجبته بأني لن أبيت و أني سأعودإلى القاهرة بقطار المساء .

***

تسلمت عملي في مكتب فاخر غير بعيد عن منزلي . أصص النباتات تحف بالمدخل و فوق الدرج المؤدى إلي مكتبي مباشرة . ربما لتخفي أكوام القمامة في الشارع . استقبلني المدير السابق الذى أصبح الآن نائبا لي . شاب مهذب أنيق، يدعى ماجد عبود . من النوع الذى يوجد دائما في أروقة الشركات والبنوك الأجنبية والفنادق الكبرى في العالم الثالث والذى وجدت منه الكثيرين في مصر . طموح لا يقف شئ في طريقه . تلقى تعليما أجنبيا سطحيا . عرض عليّ عمليات الشركة وخطط الإنتاج .

كوش مصر كانت في وضع ممتاز . و تستولي على حصة ثابتة من سوق الدواء بأسعار مجزية للغاية . و يرجع الفضل في هذا إلى القانون رقم ٣٤ . هل يتصور أحد أن ٦٠ بالمئة من ثمن الدواء في مصر يذهب إلى الموزع والمستورد ؟ ذلك كله بفضل القانون المذكور . كانت التأميمات الناصرية قد ألغت الوكالات الأجنبية وحتمت أن يتم استيراد الدواء و الخامات عن طريق هيئة تابعة للقطاع العام و بذلك أمكن توفير الدواء بسعر رخيص رغم طبعا السلبيات المعروفة التي ترجع إلى البيروقراطية و الغباء و التي أدت إلي عدم توفر بعض الأدوية . القانون ٣٤ الذى صدر مع الإنفتاح ألغي هذا الوضع واشترط أن يتم استيراد الأدوية و الخامات عن طريق الوكلاء أو فروع الشركات الأجنبية في مصر وبأسعار يتفق عليها من خلال مظاريف و عطاءات وهمية . الشركات الأجنبية حققت مكاسب هائلة من هذا القانون . شركة هوكست الألمانية (التي تساهم دولة الكويت بأكثر من ٢٤ في المائة من أسهمها) حققت في سنة واحدة ربحا صافيا في صنفين فقط من الدواء مقداره مليون و ٢٠٠ ألف جنيه . شركة أجنبية خالصة هي سكويب الأمريكية كان رأسمالها المدفوع ٥،٧ مليون دولار بلغت مبيعاتها في ٥ سنوات نحو ٥٥ مليون جنيه . كيف ؟ يكفي

أن تتولى توريد الخامات و الكيماويات للقطاع العام بأسعار تزيد أحيانا ٣٠ ضعفا عن السعر الأصلي . وتصل هذه المواد قبل انتهاء صلاحيتها بعدة شهور أوبعد انتهاء الصلاحية . وطبعا لا يتكلم أحد فالثمن مدفوع . أو تطرح أدوية حرمت منظمة الصحة العالمية استخدامها لتتخلص من المخزون المتراكم لديها بدلا من إعدامه .. أوأدوية تحت التجربة ولا تستطيع الشركة التى أنتجتها أن تجربها فى أمريكا أو أوروبا إلا على الحيوانات الراقية المكلفة مثل الشمبانزى .

هناك طبعا هيئة للرقابة على الأدوية وظيفتها التأكد من مطابقة الدواء للمواصفات العلمية .. لكن التعليمات تأتي للهيئة من أعلى بتغيير نتائج التحليل لتصبح مطابقة للمواصفات . رئيس الهيئة عضو مجلس إدارة شركة أدوية وعضو جمعية عمومية لشركة أخرى كما أنه عضو فى لجنة البت لشراء المواد الخام بشركة قطاع عام . أى أنه البائع و المشترى والحكم بينهما !..هناك أيضا العمولات والهدايا التى تبدأ من : السيارة ، تعيين أبناء كبار المسئولين ،عقود لكبار الموظفين بالعمل في وظائف مستشار بعد التقاعد ..والنتيجة أن كوش والشركات الأجنبية الأخرى تستطيع أن تحدد نسب الإتفاقات المشتركة ، وأسعار البيع ، و تعدل كما تشاء شروط منح الامتيازات والرخص لصالحها . عشت هذا كله من قبل فى المكسيك دون أن أتورط فيه تماما لأنى كنت بعيدا عن هذا الجانب من الإدارة . أما هنا فقد صرت مسئولا عن كل شئ . .

***

عندما كان ماجد عبود يتولى الإدارة ، قامت الشركة بتصنيع شراب لعلاج متاعب الجهاز الهضمى فى مصنعها بالأميرية . وأرسلته إلى هيئة الرقابة الدوائية للتحليل وبيان مدى مطابقته للمواصفات . وكشفت نتائج التحليل أن جميع العينات من ستة تشغيلات غير مطابقة للمواصفات مما يعنى عدم

صلاحيتها وضرورة إعدامها . ويبدو أن المسئولين عن التحليل كانوا يضغطون من أجل الحصول على علاوة للرواتب الشهرية التى يتقاضونها منا ، فجاءت نتيجتهم صحيحة ! .

وقررت الشركة إجراء تغيير فى تركيب الدواء لتفادى العيوب وفعلا تم حذف أربع مواد من تركيبه و أضيفت مواد أخرى ثم أرسلت عينات جديدة إلى الهيئة . واكتشفت أن ماجد أرسل العينات بنفس أرقام التشغيلات السابقة . وأدركت على الفور بحكم خبرتى ما ينتويه . طرح المستحضر الأول فى السوق عندما نحصل على الموافقة على المستحضر الجديد طالما أن أرقام التشغيل واحدة.

اعترضت على هذا التصرف بحجة لا أخلاقيته وتعارضه مع القواعد الملزمة لعملنا فتطلع إلى فى دهشة . قال لى بصراحة أن بازل لن تعترض بل على العكس . أفهمنى أن هذا هو ما تريده بازل . طبعا كنت أعرف . أنا نفسى لم أعترض على تصرفات مماثلة فى المكسيك . لكنى وجدت نفسى عاجزا عن التصديق عليها فى مصر .

أصررت على موقفى ، و أمرت بإعدام التشغيلات السابقة . وتلقيت فاكسا من بازل يقر تصرفى بلهجة جافة . وحرص الفاكس فى نهايته على أن يذكرنى بأن بعض القواعد الملزمة فى أوروبا تتعارض أحيانا مع التقاليد المحلية أو اسلوب الحياة فى بلد مثل مصر !!.

***

عرض على ماجد خطة الإنتاج ففوجئت بأن أغلبها أدوية سعال و مقويات . قلت له متعالما : أنت تعرف أن هذا كلام فارغ . فهذه ليست أدوية حقيقية . إنها مثل شربة الحاج محمود . لم يكن قد سمع عن هذه الشربة المعجزة

التى كانت تباع فى الموالد و القرى . قلت : شركة الدواء الحقيقية ملزمة بأن تقدم للسوق علاجات فعلية لأهم الأمراض المستعصية الموجودة . البلهارسيا ، السرطان ، الالتهاب الكبدى الوبائى ، الدوسنتاريا ، التيفود . إلخ. جمع لى الشاب نشرات الشركات الأخرى و اكتشفت أن السوق المصرى به ١٨٠ دواء للسعال و ٢٨٠ من المقويات . وفى هذه الأثناء قرأت فى الصحف أن حريقا نشب فى مديرية الشئون الصحية بأسوان و التى تخزن فيها كميات من أدوية التوسيفان والكودافين و أن التحقيق أسفر عن تلف ثلاثة آلاف زجاجة منها أما ما تبقى سليما من الزجاجات فكان ممتلئا بشراب الكركديه !! وفهمت أخيرا السبب فى اهتمام كوش والشركات الأخرى بأدوية السعال التى تحولت إلى أدوية مزاج ولم أدهش عندما جاء فاكس من بازل : لا يمكن لكوش أن تتجاهل سوقا هامة ومجزية مثل سوق السعال والمقويات.

***

الجزء الباقى من خطة الإنتاج كان مخصصا لتعبئة المبيدات التى تنتجها كوش . وعندما درست الأرقام التى عرضها على ماجد اكتشفت أن فى مصر مافيا تربح من استيراد المبيدات ٢٠ مليون دولار سنويا بعد أن قامت بتهريب ١٢مبيدا محرمة دوليا رخيصة الثمن لكن قاتلة و خاصة للأطفال . لم يكن بين منتجات كوش المصدرة إلينا واحدة من هذه المبيدات المحرمة لكن هذا لم يكن مبررا لأن تحتل مكان الصدارة فى نشاطها .

العالم كله أصبح يدرك أن استخدام المبيدات لم يؤد إلا إلى مضاعفة الحشرات والآفات ١٧ ضعفا . النظافة التامة داخل وخارج المنزل تمنع توالد الحشرات . كنت أبتسم فى ألم و أنا أرى جزارا يرش اللحم بمبيد ضد

الذباب أو بائع عصير يرش دكانه لنفس الغرض . أو عندما أشاهد فى التليفزيون إعلانا عن المبيد ذى القوة الرباعية أو الخماسية وأعرف أن الناس ستهرع لشرائه لتتخلص من الصراصير والذباب و الناموس و تقرب المسافة بينها و بين المرض الذى ستنفق عليه من الجهد والمال أضعاف أضعاف ما يتطلبه تنظيف المنزل و المنوروالسطح والتخلص من القمامة وإصلاح شبكات الصرف .

***

المشكلة أفدح فى الزراعة .إستمعت مرة فى التليفزيون إلى دكتور ومدير لمعهد التغذية يؤكد أن بقايا الرش على المحصول تزول بعمليات التقشير والغسيل قبل التناول و أنه بذلك يتم التخلص نهائيا من بقايا المبيدات و ما تبقى يكون غير ضار بالمرة . عرفت فورا أنه يعمل مندوبا لشركة مبيدات لأنه كان يكذب .

لا الغسيل ولا الطهى ولا الغلى يقضى على بقايا المبيد التى تعسكر فى لب الثمرة وتضمن لآكلها التسمم والسرطان وتشويهات المواليد والعقم . فى قضية الأغذية الفاسدة استعان المتهم الأول (وهو موجود معى فى الزنزانة الآن و أنا أكتب هذا الكلام) بوزيرالصحة كشاهد نفى . و أمام المحكمة أبدى الوزيرتعجبه من القول بمسئولية الأغذية الملوثة عن أمراض عديدة متسائلا فى عهر : أين هى الإصابات التى تؤيد هذا الكلام ؟

هذا الوزير ، وهو الآخر دكتور ، يعرف الحقيقة جيدا . فى حالة المبيدات فان التعرض لجرعات قليلة (عن طريق الأنف والفم والجلد) لا يحدث أثرا مباشرا وإنما تتراكم الاثار فى أماكن معينة كالمخ و الكبد والرئة حتى تأتى جرعة مؤثرة يمكن أن تؤدى إلى الشلل و الموت . نفس الشئ فى حالة

الأغذية الملوثة . علبة لبن لطفل بهاكميات ضئيلة من عنصر الستورنشيوم المشع تعنى بالقطع إصابته بالسرطان بعد عشرين سنة .

فقط فى حالة تلوث الثمار، وخاصة العصيرية ، بالزئبق و الرصاص ، عن طريق مياه الرى ، يمكن التخلص بسهولة من آثارهما بتناول كوب من اللبن عقب تناول أى طعام أو فاكهة من هذا النوع حيث يقوم كالسيوم اللبن بطرد هذه العناصر وإخراجها من الجسم . لكن من ضمن أن اللبن نفسه غير ملوث ؟ وهل يستطيع الفقراء تحمل سعره ؟

***

كان هناك مشروع قديم لدى كوش لإقامة مصنع لاستخلاص العطور النباتية فى مسطرد . ذهبت لزيارة المنطقة التى تغذى القاهرة بالخضراوات وتقع بجوارترعة الشابورة . فوجئت بالقمامة تفرش الطريق هضابا وبأن الترعة التى تروى الحقول عبارة عن مستنقع قذر كريه الرائحة ملئ بجميع أنواع القمامة من علب الصفيح والبلاستيك إلى مخلفات الإنسان والحيوان ومصانع البوتاجاز والبلاستيك والصباغة . رأيت المواسير تخرج من جدران مصنع وتصب فى قلب الماء . ورأيت المخلفات قد سدت المجرى المائى وارتفعت إلى مستوى الماء بما حملته من مواد بترولية أزوتية و شحوم اختلطت بالطين . كانت المياه التى تروى حقول الطعام تتسرب بصعوبة و قد سبح عليها زيت أسود مختلطا بألوان الصباغة . و ملأت الجو رائحة الصابون والبوتاسيوم .

تباع محاصيل هذه الحقول من الخضراوات فى سوق مسطرد و روض الفرج و لا يدرك الفلاحون أنهم يصدرون السم فهم يأكلون منه أيضا . و فيما بعد تابعت تحليلات أجرتها مراكز بحثية عديدة على مجموعة من الخضراوات ، أثبتت أن نسبة الرصاص وصلت إلى ٣٦٧٠ ضعفا فى البصل الأخضر تليه

الكسبرة و الفجل ثم الملوخية و سجلت الملوخية أعلى نسبة فى الكادميوم يليها الفجل و الجرجير . إمتصاص الرصاص لدى الأطفال يفوق كثيرا مثيله لدى الكبار و يسبب الأنيميا و التأخر العقلى ، أما الكادميوم فيؤثر على الكلى ويسبب الإجهاض . مأساة حقيقية لأن هذا طعام الفقراء . كنت أكتئب عندما أرى الغلابة فى ميدان رمسيس أو العتبة يتزاحمون حول العربات التى تبيع الطعمية المقلية فى زيت أسود أو الكبدة التى تتجمع فيها كل السموم التى تدخل الجسم . و سرعان ما انتقلت المشكلة إلى ساحتى .

***

اكتشفت بعد فترة أنى عمليا لا آكل شيئا . أنا من المغرمين بالأكل الصحى : السلاطة الخضراء والفواكه والأسماك . ما رأيته فى مسطرد صد نفسى عن كل أنواع الخضراوات و الفاكهة . بالإضافة إلى ذلك كنت أعلم تأثير المبيدات التى ترش بغير حساب فى كافة مراحل الزراعة . و المواد الكيماوية الشبيهة بالهرمونات التى تؤدى إلى زيادة حجمها وتبكير تلوينها ونضجها . وكان بوسعى أن أتصور دورتها فى طعام الماشية و بالتالى إمتنعت عن اللحوم الحمراء والألبان ومنتجاتها . وكنت قد عرفت من معارفى أن اللبن المتداول غالبا ما يكون ملوثا بالميكروبات الضارة مثل ميكروب الحمى المالطية والسل و التهاب الزور والحمى القرمزية وأن المصانع تضيف الفورمالين الذى يستخدم فى حفظ الجثث إلى الجبن كما تستخدم ماء الأوكسجين لحفظه . وكانت لدى شكوكى بشأن اللحوم والأجبان المستوردة (وقد تأكدت فيما بعد أثناء وجودى فى السجن) فتجنبتها . وأتبعتها بالدواجن عندما علمت ما يفعله مربو الدواجن من تسمينها بالهرمونات . و حل الدورأخيرا على الأسماك عندما أطلعت على درجة التلوث التى وصلت إليها مياه النيل فضلا عن البحر

الأبيض(الصرف الصحى) و البحيرات . فى حالة مركب واحد هو الديلدرين، والذى يتواجد في المخلفات الصناعية ، فان وجبة من السمك كل يومين تعني خطر الإصابة بالسرطان بنسبة واحد إلى مائة . إتجهت إلى النشويات التى كنت أتجنبها دائما ففوجئت بتلوث الدقيق وبأن أصحاب المصانع يبيضون الأرز بتراب البلاط . تجنبت أيضا مياه الشرب لما اكتشفته بها من كائنات دقيقة وشوائب و نسب عالية من الكلور الذى يضاف إليها عشوائيا، و لم أطمئن للمياه المعبأة في زجاجات والتى توصف بأنها طبيعية أى جوفية . فمن يضمن لى أن مياه الصرف لم تتسلل إليها ؟ كما امتنعت عن تناول المياه الغازية من كولا و غيرها لأنى أعرف أكثر من غيرى مضارها . ولم يبق أمامى فى النهاية سوى أن أقوم كل يوم بغلى كميات كبيرة من المياه أحملها معي أينما ذهبت .

تأكدت أن الإنسان فى مصر لم يعد يساوى أية قيمة . وتعجبت لشعب يدمر نفسه بنفسه أو يتفرج بلا مبالاة علي الدمار الذى يلحقه به الآخرون . حمدت الرب لأن إبنتّى لم ترافقانى وان كنت لا أضمن أن الحال ليس من بعضه فى لبنان ، بل ربما كان أخطر .

***

بدأت متاعبى الحقيقية عندما قررت كوش بناء مصنع فى مدينة ٦ اكتوبر لمكسبات الرائحة لتستفيد من الامتيازات الممنوحة للمستثمرين الأجانب: الأسعار الرمزية للأرض و الإعفاء من الضرائب حوالي عشر سنوات فضلا عن الأجور المنخفضة إلخ . هناك أكثر من ٣٠٠ مادة كيماوية تضاف إلى طعامناو تجعله أكثر جاذبية من حيث اللون أو الطعم أو الرائحة دون أن تضيف إليه أية قيمة غذائية بل تمثل خطرا على صحة الإنسان و تؤدى إلى

تشـوه الأجنة . ولا يقـتـصـر الأمـر على الطعـام و إنما يمـتـد إلى الأدوية ومستحضرات التجميل مثل أحمر الشفاه و معجون الأسنان والحلويات و خاصة الحلويات الشعبية كحلوى الموالد و غزل البنات و الشربات و المربات و الجيلى . الشكولاتة مثلا: يستخدم فى صناعتها لون صناعى تناوله يمكن أن يؤدى إلى تسـمم الكبد . والبيانات المسجلة على أى كيس لا رقـابة عليـهـا ولا تمثل أى معلومة محددة بالنسبة للمستهلك الجاهل . و تجنى الشركات من وراء ذلك مكاسب هائلة وإلا ما كانت إحداهاترصد لمسابقة تليفزيونية جوائز مقدارها مائة ألف جنيه .

عندمـا عكفت على دراسـة المشروع انتابنى القلق . اكتشفت أن المصنع مخصص لانتاج مـادة التريكلوروفـينول TRICHLOROPHENOL . وكـنـت أعـرف أن ألمانيـا و هولندة و انجلتـرا أغلقت المصـانع التى تنتج هذه المادة بسبب خطورتها . فهى إذا تعرضت لحـرارة عالية تنتج واحـدا من أخطر السمـوم على الإنسان هو DIOXIN . وهو أقـوى من السيـانيد السـام بسبعين ألف مرة . لكن الأمر لم يكن قاصرا على ذلك .

فقد تبينت أن رقم الإنتاج المستهدف هو خمسين طنا فى الأسبوع . و هو رقم كبير جدا بالنسبة لتجارة الروائح . وهنا تذكرت أن التريكلوروفـينول عنصرأساسى فى تركيب ما يسمى بالعامل البرتقالى الذى يستخدم فى صناعة الأسمدة والمبيدات و ثبت ضرره على صحة الإنسان فسحب من السوق فى أغلب البلدان الأوروبية . وكان المقرر أن يتم شحن الكمية المنتجة إلى مصنع تملكه شركة تابعة لكوش فى الولايات المتحدة ومنها طبعا إلى أى مكان أخر.

تذكـرت الكوارث التى تحـدث كل يوم فى العـالم الثـالث . فى مطلع الثمانينيات وقعت أسوأ كارثة صناعية عرفها التاريخ قبل حادث تشيرنوبيل .

ففى مدينة "بهوبال " الهنديةمات حوالى عشرة آلاف شخص نتيجة استنشاق غاز ثانى أكسيد الميثيل السام المتسرب من أحد مصانع المبيدات الحشرية التابعة لشركة" يونيون كاربيد " الأمريكية ،وتعرض ما يقرب من نصف مليون شخص اخرين لأضرار صحية جسيمة مازالوا يعانون من آثارها حتى الآن .

ويظهر كل يوم ضحايا جدد أصيبوا بأمراض فى الرئة والسرطان والعيون . ومما يزيد من معاناة هؤلاء البطء الشديدالمتعمد فى إجراءات المحاكم الهندية التى تنظر طلبات التعويضات التى يتقدمون بها .

تابعت وقتها وصف الصحف للكارثة . كيف سقطت الطيور من السماء أو هوت ميتة من أعشاشها ، و ترنحت الكلا ب والقطط كالسكارى قبل أن تسقط على جانبها ميتة والدماء تتدفق من أفواهها وآذانها و مؤخراتها . وشاهدت على شاشة التليفزيون آلاف الأشخاص في أسمال بالية يترنحون في الشوارع بعيون حمراء كالدم يمسكون بطونهم ويتوقفون بين الحين و الآخر ليفرغوا ما في أجوافهم ثم يسقطون على الأرض .

ثبت من التحقيقات بعد ذلك أن أكثر الدول الغربية تحرم إنتاج هذا الغازعلى أراضيها وأن المصنع الهندى توأم من حيث التصميم لمصنع الشركة المقام فى أمريكا . لكنه لا يحتوى على أى من أجهزة الأمن و الحماية المتقدمةالتى زود بهاالمصنع الأمريكى .

لم تجد الشركة من تبرير لما حدث سوى تصريح لرئيسها فى التليفزيون قال فيه : "ان الرأسمالية تعنى التقدم . و التقدم قد يؤدى أحيانا إلى بعض المضايقات " . وأتذكر أنى وقتها أقنعت نفسى بصحة هذا الزعم .

***

في أول أسبوع بعد عودتي إلى مصر قمت بزيارة سريعة للأسكندرية عبر الطريق الصحراوي . وعندما مررت بمنطقة العامرية شاهدت مصنعا لشركة أمريكية ينتج البطاريات الجافة و ترتفع فوقه سحابة سوداء من الأدخنة . وتساءلت في أسى بيني وبين نفسي عن إجراءات الأمان المتبعة ومدى تزويد العمال بالملابس الضرورية و المعدات اللازمة .

لم يكن في استطاعتي وقف مشروع المكسبات في مدينة ٦ أكتوبر الذي تكلف أكثر من مائة وخمسين مليونا من الدولارات (على فكرة ! كوش لم تتكلف شيئا . أخذت قرضا بالمبلغ من بنوك القطاع العام المصرية) ولا رغبت في ذلك . كل ما في الأمرأني عاهدت نفسي على الاهتمام بإجراءات الأمان . واسترحت عندما تبينت أن المصنع صممه مهندس سويسرى . كما أني تصورت أن البناء سيكون من مسئولياتي المباشرة .

بازل كان لها رأى آخر . فقد طلبت مني تشكيل إدارة خاصة يعهد برئاستها لنائبي تتولى متابعة العمل في بناء المصنع ، كي أتفرغ أنا لالتهام شركات القطاع العام المعروضة للبيع . وعندما أوشك العمل على الانتهاء جاء المهندس السويسرى في زيارة تفقدية و أسر لي منفعلا أن المصنع لم يشيد طبقا لرسوماته إذ جرى التوفير في إجراءات الأمان التي حددها والتي تتكلف عدة ملايين من الدولارات .

اتصلت ببازل على الفور وجاءني رد فاتر بوعد النظرفي الأمر . ولحظت أن ماجد عبود يتجنبني واستمر العمل في المرحلة الأخيرة من البناء كأنما لم يحدث شئ .

فكرت في الإستقالة . ثم قررت القتال . حررت خطابا إلى كل من وزارتي الصناعة والصحة المصريتين أخطرهما فيه بانتهاء العمل في بناء المصنع

وبضرورة حضور مندوبين عنهما للتأكد من سلامة إجراءا ت الأمن المتبعة . لم يعبأ أحد بالرد على . فكتبت إلى الصحف بخطابات غفل عن التوقيع تعرض الموضوع . ونشرت إحدى صحف المعارضة تحقيقا عن المصنع . وهنا تحركت وزارة الصناعة وزارتنا لجنة ثلاثية من كبارموظفيها أبدت حزما غريبا أدهشني وأسعدني . . وكان القرار بوقف ترخيص البناء مالم تستوفى إجراءات الأمان الواردة في التصميمات الأولية .

استرحت . شعرت أن مجهودي أثمر . وهنا ظهر اللواء محسن فهمي في الصورة .

***

... عندما كنت أدرس ملف شركات القطاع العام المعروضة للبيع ، كان يعاونني في ذلك ضابط شرطة سابق ، في حوالي الستين من عمره ، يرأس إدارة الأمن ، هو اللواء محسن فهمي .

كانت مهامه متشعبة تمتد من حماية أسرارالشركة وتأمين مكاتبها ومبانيها ضد التخريب و العمليات الإرهابية إلى إمداد الإدارة بما تحتاج إليه من معلومات . كان يحتفظ بملفات تفصيلية عن شركات الدواء العاملة في مصر و خاصة المصرية ، و عن كبار العاملين بها . وعندما أقول تفصيلية أقصد مثلا أدق المعلومات الشخصية : دخل الشخص واحتياجاته الفعلية وعلاقته بزوجته وأولاده و إمكانية شرائه و عاداته فيما يتعلق بالجنس أو اللهو . بل كنت أشك في أنه يحتفظ بتسجيلات صوتية لبعض كبار المسئولين تكفي لادانتهم و الضغط عليهم . لكني لم أحاول التأكد من ذلك كأنما أردت أن أعفي نفسي من المسئولية عن الأمر كله ..

لم يكن هذا الأمر بالجديد على ففي المكسيك كانت لدينا ملفات مماثلة . لكن ملفات محسن فهمي أصابتني بصدمة . ربما كنت في أعماقي أتمنى أن تكون الصورة مختلفة في بلدى . و بدلا من ذلك طالعت صورة مؤسية لقادة الاقتصاد والبلد . أبسط وصف لهم أنهم يتميزون بالدناءة و الخسة . مثلا رئيس مجلس إدارة قد الدنيا ، حاصل على درجة الدكتوراة ، يتفنن في إعداد قوائم بمستلزمات منزله من أرز وبيض ولحم بحيث تتوزع الرشوة المطلوبة على أشياء عديدة صغيرة القيمة . وأخر يسرق الملاعق الفضية من الطائرات و ثالث مليونيرمن كبارالصحفيين يبعث بابنته لتصرف منا مجانا روشتة أدوية لا يتجاوز ثمنها سبعين جنيها. ورابع من كبار رجال الدولة يفرض إبنه شريكا على المشروعات الناجحة . وخامس يتعمد تخريب مصنع ناجح ، لصالح منافس أجنبي ، مقابل رحلة استجمام في أوروبا . كيف يكون وضعنا ونحن نعلم كل ذلك عن رؤساء الشركات المباعة وفرصتنا في تحديد الثمن الذى نشترى به مقابل هدية صغيرة للمسئول أو بمجرد الإشارة لمعلوماتنا عنه ؟

***

ما أقدمنا عليه يمكن أن يطلق عليه وصف المذبحة . بدأنا ندرس شراء مصنع أقامته إحدى شركات القطاع العام لتصنيع الأمبولات المعقمة . كان أول مصنع من نوعه في مصر . وجاءت لجنة من بازل قررت أن المصنع غير مطابق للمواصفات من حيث مستوى العمالة والنظافة والتعقيم . و مع ذلك أمرت بازل بشرائه و تحويله من الإنتاج إلى مجرد مقر لتغليف المنتج الذى تصنعه في سنغافورة . وفقدت مصر فرصة في التقدم على طريق التصنيع . وكان من الممكن علاج الأمر بتطوير العمالة أو حتى استبدالها بغيرها و تجديد أجهزة التعقيم و فرض شروط صحية صارمة .

تكررت مهزلة المكسيك . وتوالت الفاكسات من بازل : اشتر . و وردت التعليمات بتسريح العمالة بأى طريقة . فبدأنا نعرض على العمال التقاعد مقابل خمسة عشر ألفا من الجنيهات . ووافق أغلبهم لأنهم كانوا فى حاجة ماسة للمبلغ .

وتوجت جهودنا باصطياد أكبر شركة أدوية فى مصر لا تقل قيمتها فى السوق عن مائتى مليون جنيه . لكننا تمكنا ، بوسائل اللواء محسن فهمى ، من الحصول عليها بسبعين مليونا . و على الفورطرحت الأرض الواسعة التى تشغلها مصانع الشركة و مكتبها فى الأميرية للبيع كأرض للبناء ، وقدر العائد المنتظر بعشرة أضعاف هذا المبلغ . و شرعنا فى نقل المصنع إلى مدينة العاشر من رمضان مستفيدين من الإعفاءات والتسهيلات المقدمة للمشروعات الجديدة .

***

عقب أن زارتنا لجنة وزارة الصناعة استمر العمل فى تشطيب البناء بمصنع المكسبات كأنما لم يحدث شئ . ولم يتخذ ماجد أى إجراء لتنفيذ الاتفاق الذى توصلنا إليه . وبدأت أشعر بشئ غريب فى تصرفات اللواء محسن فهمى معى . ضبطته أكثرمن مرة يتأملنى بامعان . كما يتأمل القط الفأر. كانت لعينيه حدقتان صفراوان بعثت نظرتهما الرعدة فى أوصالى .

أكثر من مرة شعرت أن أحدا دخل شقتى فى غيابى وعبث بمحتوياتها . فى البداية شككت فى السفرجى والشغالة الفليبينية اللذين ينفردان بالشقة طول النهار . ثم اتجهت شكوكى ناحية أخرى عندما اكتشفت أيضا أن أحدا يعبث بمحتويات مكتبى فى الإدارة . وفى أحد الأيام سقطت منى سماعة التليفون

على الأرض وتحطمت وعندما رفعت الحطام تبينت جهازا صغيرا للتسجيل مثبتا فى بوق الإرسال . أيقنت عل الفور أن محسن فهمى يسعى ورائى .

فى هذه اللحظة انفجرت قضية الرشوة : ألقت الشرطة القبض على ماجدعبود بتهمة عرض رشوة مقدارها مليونين من الجنيهات على رئيس لجنة وزارة الصناعة من أجل التجاوزعن إجراءات الأمان . وبعد أسبوع فوجئت بالقبض على وتوجيه الاتهام نفسه إلى . وعرفت أن ماجد عبود زعم أنه كان ينفذ أوامرى واستشهد بمحسن فهمى الذى قدم خطابا موجها منى إلى رئيس اللجنة يشير إلى ما تم الإتفاق عليه بيننا بخصوص إجراءات الأمان . كما قدم تسجيلا تليفونيا لحوار بيني و بين رئيس اللجنة حول إطارى كاوتشوك . كان هذا قد ذكر لى أنه يجد صعوبة فى الحصول على نوع معين من الإطارات لعربته الفولكس فتطوعت لتزويده بهما دون مقابل . لكن النيابة أصرت على أن عجلتى الكاوتشوك سيم أو شفرة للمليونين .

فيما بعد استطعت أن ألم خيوط ما حدث . فالمبادرة التى قام بها ماجد بوحى من تعليمات عامة من بازل ، اصطدمت بجشع رئيس اللجنة الذى أراد الاستئثار بالمبلغ . واشتم زميلاه الرائحة فواجهاه طالبين نصيبهما و عندما رفض أبلغا الشرطة نكاية فيه . و تفتقت عبقرية محسن فهمى عن طريقة لاستغلال الموقف من أجل التخلص منى . وبالفعل أصدرت كوش قرارا بفصلى بتهمة تجاوز حدود مسئولياتى باتخاذ إجراء – تقصد الرشوة – يتعارض مع المبادئ الأخلاقية التى تلتزمها الشركة ، مما أساء إلى سمعتها

***

طبعا لن أتركهم فى حالهم ..وسأقاتل حتى النهاية .. لكن مصيرى الشخصى لم يعد يقلقنى كثيرا . ..فترة السجن أتاحت لى فرصة للتفكير والقراءة . وتحقيق حلم قديم من أحلامى هو كتابة المسرحيات .و التمعن فى تجاربى . وفى أحوال البلد و أحوال العالم . أعرف أنى أقف على حافة هوة قد تطيح بى شخصيا ..لكنى أرى بلدى و أفريقيا كلها بل وأغلب الشعوب السيئة الحظ تقف فعلا على حافة هاوية حقيقية .

..أحيانا أشك فى أنى ضحية أوهامى ومشاكلى الشخصية وفشلى فى علاقتى بزوجتى .. أو ببساطة ضحية أزمة منتصف العمر. أوربما كنت طبقا لاتهام زوجتى مغرورا يتوهم أنه قادر على إصلاح الكون .. ربما .. .

وأعرف أنى لن أتمكن من تغيير شئ . فالأمر أخطر من أن يقوم شخص واحد أوحتى جماعة أو حزب واحد بذلك . .

ومع ذلك لا أستطيع أن أتجاهل ما يحدث .

ملحوظة : سلم مأمور السجن هذه الأوراق إلى مندوب خاص من وزارة الداخلية سلمها بدوره فى اليوم التالى إلى اللواء محسن فهمى، مدير الأمن بالفرع الإقليمى لشركة كوش العالمية .

(١٥)

عرض العرائس الذى أقيم بمناسبة
ذكرى الانتصار العظيم فى حرب أكتوبر ١٩٧٣
أعده و أخرجه الدكتور رمزى بطرس نصيف

فناء عنبر الملكية مساء . المسجونون يفترشون الأرض فوق بطاطينهم فى ضجة و انفعال . ليس بينهم واحد من أصحاب اللحى الذين تابع بعضهم العرض من شراعات زنازينهم المغلقة فى الطابق الثانى . ظهورالجالسين إلى بوابة العنبر و وجوههم نحو الحائط المقابل حيث انتصبت مائدة غطت البطاطين سطحها و قوائمها لتخفى المساجين الذين سيتولون أمرالعرائس . كشافان كهربائيان معلقان فى السقف . ستارة من البطاطين تمتد بين الجدارين بعرض الفناء فوق المائدة بحيث تخفى مدخلى الزنزانتين الأخيرتين المتقابلتين اللتين تكونان مع خلفية المائدة كواليس المسرح . ميكروفون خلف المائدة .

الصف الأول من المتفرجين يتكون من مقاعد يشغلها المأمور فى الوسط يحيط به ضباط السجن . (أثار هذا الوضع نقاشا حادا من قبل إذ احتج رمزى بأن المسجونين لن يتمكنوا من مشاهدة المسرح وأعلن المأمور أنه من المستحيل أن يجلس هو وضباطه فوق الأرض إلى جوار المسجونين وفى النهاية تم الإتفاق على تعلية المسرح بصناديق خشبية أحضرت من ورشة النجارة ، صفت متجاورة

ورفعت مائدة المنصة فوقها) . خلفهم مباشرة كبار الشخصيات من المسجونين : بينهم الدكتور ثابت ومستر تامر و عزت بيه والنوباتجية البارزين . الحراس يحيطون بالقاعة وقد جلس بعضهم فوق البطاطين بينما ظل الآخرون واقفين تحسبا للطوارىء بناء على تعليمات المأمور .

الدكتور رمزى يتقدم إلى الميكروفون فيقع الضوء المبهرعلى وجهه.. المسجونون يلزمون الهدوء .

د. رمـــــزى : فكرة هذا العرض آتية من بورسعيد ،

لا أقصد أنها مستوردة ،

فنحن نتحدث عن بورسعيد قبل أن تصبح حرة .

و في الحقيقة قبل زمان بعيد ،

عندما قامت ثورة ١٩١٩ ضد الاحتلال الانجليزى .

فقد تصادف أن حل عيد الفصح مع عيد شم النسيم ،

في نفس اليوم ،

فشارك مسلمو بورسعيد أقباطها الاحتفال ،

و رفعوا جميعا شعار الهلال و الصليب ،

ثم أعدوا تمثالا من الخشب للجنرال الانجليزى الشهير اللنبى ،

وأحرقوه .

ومن يومها ،

في كل عيد لشم النسيم ،

يفطر البورسعيديون بكعكة من الخبز تتوسطها بيضة مشوية ملونة ،

و يتغدون بالفسيخ و البصل الأخضر ،

و يحلّون باليوسفى و البرتقال .

ثم يصنعون تماثيل من الكرتون و القش ،

تحمل جميعها اسم الجنرال الانجليزى ،

لكنها تمثل شخصيات مختلفة ،

من الباشا والمرابى و الخواجا ،

إلى إيدن ودى موليه و بن جوريون ،

موشيه دايان وجونسون و جونسون ،

من السمسار و صاحب الدشداشة ،

إلى المواطنين الجشعين ،

من تجاروأطباء وملاك مساكن و مهربين .

وفى المساء يقيمون مسرحا كهذا

ينصبون فوقه التماثيل ،

ثم يقومون بعملية تشهير .

يتراجع رمزي و يختفي خلف الستائر . تنفرج الستارةالتي إلي اليمين عن صف من القبور الكرتونية . ينهض من خلفها ثلاثة أشخاص في ملابس عسكرية يتقدمون إلي المنصة . الثلاثة هم أشرف ، و سامح ، و صبري .

أصحاب القبور

في صوت واحد

هذا هو ما جاء بنا ...

نحن أربعين ألف قتيل ،

سقطنا في حروب ٤٨ و٥٦ و ٦٧ و ٧٣ .

تاركين آباء وأمهات و زوجات و أطفال ،

وخططا طموحة للمستقبل .

واحد منهم : أنا الجندى إبراهيم زيدان ،

أصبت في بطني ،

و خرجت أحشائي أمام عيني .

لكني تحاملت على نفسي ،

و ظللت أقاتل حتى استشهدت .

واحد آخر : أنا النقيب إبراهيم الدسوقي .

في يوم ٢٢ أكتوبر ظهرت لنا ثلاث دبابات في طريق سرابيوم ،

و خلفها سبعون دبابة أخرى .

كان لا بد من تدمير الدبابات الثلاث لمنع تقدم السبعين .

وكنا شعلة من الحماس .

فقمت بتلغيم جسدي ،

وهجمت على دبابة المقدمة .

احتضنتهابجسدي ،

وانفجرنا نحن الاثنين .

ثـالـــث : اسمي لاقيمة له ،

فلم يعن أحد بإحصاء عددنا

أو تسجيل أسمائنا .

نحن عدة مئات من الأسرى .

فى ٥٦ و ٦٧ ،

أجبرنا الإسرائيليون على حفر قبورنا

ثم أوقفونا على حوافها ،

وأمطرونا بالرصاص .

أما أنتم ،

فتجاهلتمونا كلية ،

عندما عقدتم اتفاقيات السلام ،

و تبادلتم الزيارات و الأنخاب .

رغم أن الصحف الإسرائيلية لم تخف الجريمة ،

التى تتنافى مع كل المواثيق الدولية .

ينسحب العسكريون الثلاثة و يختفون خلف شواهد القبور ثم يعودون فوق مقاعد متحركة .

معوق ١ : أنا المقدم حسين الشاذلى .

كلفت بمهمة تعطيل الدبابات الإسرائيلية عند الثغرة .

نجحت فى إيقاف رتل منها ،

ومنع تقدمها .

وكان أن أصابتنى قذيفة من طائرة ،

إصابة مباشرة .

و نتج عن الإصابة شلل نصفى فى الجانب الأيمن ،

ولم أعد قادرا على الحركة .

معوق ٢ : أنا الجندى عيد طه ،

من قرية بتمة ، قليوبية

اشتركت في العبور يوم ٦ أكتوبر .

و في يوم ٧ كلفوني بزرع ألغام على بعد عشرة أمتار من شرق القناة

و قبل فجر يوم ٨ نجحنا في تحويل المنطقة إلى قطعة من جهنم .

وفي يوم ١١ أصبت .

و كانت النتيجة شلل نصفي في العمود الفقرى .

و أصبحت و أنا في الواحدة و العشرين ،

أعيش فوق كرسي متحرك .

و كانت مكافأة الدولة لي ١٨٠٠ جنيه و عشرون قرشا ،

أنفقتها على علاج أمي من الضغط .

معوق ٣ : اسمي خلف قلدس،

من قرية شطورة بطهطا ، سوهاج .

أصبت عند العبور بشلل نصفي أقعدني ،

و حرمني من الزواج و الحياة الطبيعية .

و بعد علاج سبع سنوات ،

وصلت إلى جمعية "الوفاء و الأمل " ،

إحدى الجمعيات التى تعهدت برعاية ٦١ألف معاق،

هو عددنا الإجمالى .

وكنا قدسمعنا عن التبرعات التى جمعتها باسمنا ولصالحنا،

و منها مليونين من الجنيهات تبرع بها ثرى عربى ،

من أجل شراء سيارات مجهزة لنا .

و عمارة قدمها مقاول طيب القلب ، .

لتوزع شققها علينا .

لكن المسئولين عن الجمعية أنكروا معرفتهم بالأمر .

و عندما أثرنا الموضوع فى اجتماع مع السيدة الرئيسة ،

استشاطت غضبا .

و بعد أيام طردوا أربعة منا فى الفجر .

ذهبنا إلى رئاسة الجمهورية و شكونا لطوب الأرض ،

فوضعونا فى مركز تأهيل تابع للجيش .

وبعد سنة و نصف قرر المركز طردنا ،

بحجة إخلاء أماكن لمصابى العراق فى الحرب الإيرانية .

الجميـــع : عندما أصبنا ،

لم نشعر بأى ندم .

كنا نؤمن بأننا نؤدى واجبنا .

لكننا الآن نتساءل :

من أجل أى شئ كانت تضحياتنا ؟

ينسحبون ثم يعودون بعد أن إستبدلوا ملابسهم بأفرولات عمالية يتقدمون من المنصة .

جماعة العمال : كالعادة أخطأتم في أرقام الضحايا ،

ونسيتمونا كشأنكم في كل مرة .

نحن أيضا سقطنا في المعركة ،

رغم أننا لم نكن خلف المدافع أو فوق الدبابات .

نحن ستة آلاف عامل ،

استشهدنا أثناء بناء حائط الصواريخ ،

الذي انطلقت منه قوارب العبور .

من حقنا أيضا أن نتساءل :

من أجل أي شئ كانت تضحياتنا ؟

يتراجع العمال و يختفون وراء الستارة . تنفرج الستارة التي إلي اليسار عن مجموعة من العرائس صفراء اللون تمثل صورا كاريكاتيرية لشخصيات مصرية مختلفة : رجالية ونسائية . تنضم إليها مجموعة جديدة صغيرة العدد يتميز بعضها بألوان الأعلام الأمريكية والإسرائيلية ، بينما اكتسي البعض الآخر بالملابس العربية الخليجية . يتعرف المسجونون علي بعض العرائس التي تمثل شخصيات مصرية.

أصوات من القاعة : رئيس الوزراء !

وزير الداخلية !

وزير الإعلام !

الشيخ قرداوى !

الدكتور !

الحوت !

لهلوبة !

جماعة العرائس : سؤال مشروع وإن كان غريبا بعض الشئ ،

والإجابة عليه ليس هناك أبسط منها .

إنكم ضحيتم بأنفسكم من أجل الوطن بالطبع،

و حياة حرة كريمة لأولادكم و أحفادكم .

ينهض ثلاثة من المتفرجين ، من نزلاء العنبر ، من أماكن مختلفة بالقاعة، ويخاطبون العرائس . .

جماعة المتفرجين : نحن لم نذهب إلى الحرب ،

ولم نتعرض لشئ من أهوالها .

لم يمت منا أحد ،

و لم نفقد عينا أو ساقا أو يدا .

و لا حتى شردنا من منازلنا ، .

أو هجرنا إلى أماكن بعيدة عن القتال .

لكننا دفعنا ثمن الأسلحة :

ثمن الهزيمة و النصر،

ولم نعرف بعد الحياة الحرة الكريمة التى

تتحدثون عنها . .

الأسعار ترتفع كل يوم ،

وكل من لديه يزاد حتى يصبح لديه وفرا .

ويؤخذ ممن يفتقرون حتى الذى بين أيديهم .

والآن يقال لنا ، أن كل وحد منا مدين بألف

دولار ،

لبلاد أجنبية لا نعرفها

وكل طفل سننجبه ،

سيخرج إلى الدنيا موسوما بالرقم المخيف

والعلامة المقدسة .

وهناك خطة وضعها صندوق البنك الدولى ،

لتحصيل هذا الدين ،

تقولون لنا أنها مضبوطة وسليمة ،

لأن الذى وضعها هو مواطننا المشكور ،

عبد الشكور .

جماعة العرائس الصفراء : نحن الذين اقترضنا ،

بضع عشرات من المليارات ،

٦٢ مليارا بالتحديد انخفضت إلى ٤٦ مليارا

(مكافأة لنا على الخدمة فى حرب الخليج) ،

ليست بالكثيرة عليكم ،

و على بلد خرجت من حربين مدمرة ،

و عانت من الاشتراكية .

لم نقترض بلا سبب و إنما من أجلكم ،

ومن أجل غد مشرق لنا جميعا ،

كما قال رئيس الوزراء فى إحدى خطبه .

متفرج ١ : من أجلنا ؟

الكل يعرف أن عشرة بالمائة من حجم القروض الأجنبية ،

تدخل جيوبكم ،

بطريقة مشروعة تماما ،

فى صورة عمولة و أتعاب مهنية .

وتعود ستون بالمائة من القروض مرة أخرى إلى البلد المقرض ،

بطريقة مشروعة تماما ،

فى صورة دراسات جدوى و خبراء .

بينما نتحمل نحن سداد كامل القرض و فوائده .

متفرج ٢ : البنك الدولى نفسه الذى تتمسحون دائما بذكراه ،

أعلن أن أرصدتكم من عمولات القروض ،

المودعة فى بنوك سويسرا و الولايات المتحدة ،

لا تقل عن ستة مليارات من الدولارات .

متفرج ٣ : وفقا لبيانات الأمم المتحدة ،

بلغ دخل مصر فى الثمانينيات ١٤٠ مليار دولار ،

بينها قرابة خمسين مليارا من تحويلات المصريين فى الخارج ،

و ٢٥ مليارا من المساعدات الأمريكية و غيرها ،

و ٢٢ مليارا مساعدات عربية معظمها لا يرد .

ثروة ضخمة لم تتوفر لأى بلد فى العالم النامى ،
كان يمكنها أن تحدث معجزة .
على الأقل تعفيكم من الاقتراض ،
و تعفينا من السداد .

عروســة صفراء ١ : مهلا مهلا يا إخواننا .

الأرقام و الإحصائيات هى لعبتنا ،
ولا أحد يعرف مثلنا كم هى مضللة .
إنكم تجاهلتم أن البنية الأساسية كانت مدمرة .
كما تجاهلتم ارتفاع الأسعار العالمية ،
والنفقات العسكرية اللازمة للدفاع عن شرف الوطن.

متفـــــــــرج ١ : ضد من ؟

عروســة صفـراء ٢ : يمكننى أن أجيب على هذا السؤال .

فأنا قائد عسكرى ،
أى رجل استراتيجى ،
مثلما كان المرحوم السادات .
الأمر واضح كالشمس ،
وتجاهله يكون إما بسبب الغباء ،
أو عدم الانتماء .
فسلامنا مع إسرائيل لا يعنى أن الأخطار انتهت.
إستقرار منطقة الخليج مثلا أمر حيوى للعالم كله.

لأن الغرب يحصل منها على ٩٠ بالمئة من
احتياجاته البترولية .
هنا يكمن دور مصر و مسئوليتها .
هكذا قال المشير أبو غزالة
وهو استراتيجى مثلنا :

عروسة صفراء ٢ : ثم إن اسرائيل لا يوثق بها .
ويجب أن نكون دائما على استعداد للمفاجئات.

عروسة بألوان

العلم الإسرائيلى : أنت تجعلنى أضحك !
أى مفاجآت تتحدث عنها !
الجميع يدركون الآن ان المستقبل لنا .
أما أنتم فقد ضيعتم الفرص التى سنحت لكم
فى ٧٣ ،
حققتم لحظة من الأداء العسكرى و التضامن ،
لم تحدث من قبل و لن تتكرر من بعد .
كان بوسعكم أيامها أن تجبرونا على قبول أشياء
كثيرة .
لكن رب إسرائيل الذى لا يتخلى عنها ،
بعث إلينا بأنور السادات ،
رئيسكم ورب عائلتكم ،

القروى بحق و حقيق .

و فى ٨٢ ،

نجح الفلسطينيون فى احتجازنا عدة أشهر فى لبنان .

و كانت فرصتكم لو عملتم على الجبهات المختلفة .

لكنكم أضعتموها .

ليس هذا فقط ..

دول عربية عديدة منها مصر،

كان لديها صورة كاملة عن مخطط الغزو،

بعد أن وافقت واشنطون على العملية .

و عندما قدم المندوب السوفييتى فى مجلس الأمن مشروع قرار ضدنا ،

كان مندوب لبنان هو الذى عارضه ،

مؤكدا أن الغزو الإسرائيلي شأن لبنانى داخلى !

فى يوم واحد ألقينا على بيروت كمية من القنابل العنقودية والفوسفورية،

تعادل مرة ونصف قنبلة هيروشيما الذرية .

و أسفرت العملية كلها عن ٧٠ ألف قتيل و ١٦ ألف جريح ،

من الفلسطينيين و اللبنانيين بالطبع .

لكن الأسهل لديكم من التصدى لنا ،

هو أن تحاربوا بعضكم بعضا ،

أو أن تقاتلوا إخوانكم في الدين .

و بينما الفتن و الخلافات تمزقكم ،

والديون تستنزفكم ،

يتوافد علينا المهاجرون ،

وتلوح إسرائيل الكبرى في الأفق .

عروسة صفراء٢ : الله جل شأنه كان معنا دائما .

فلا تنسوا أن مصر ورد ذكرها بالقرآن الكريم .

لقد مر علينا كثير من الغزاة .

وكانوا يبقون مئات السنين ،

ثم يحملون عصيهم و يرحلون ،

بعد أن يصيبهم الضجر .

متفرج ٢ : ما ذكره المحترم لا يؤكد غير شئ واحد ،

هو أننا شعب من فاقدى الهمة متبلدى الإحساس .

أفضل مثلا أخر،

إذا كنت تريد حقا التدليل على أننا نخرج دائما

كالشعرة من العجين .

في سنة ١٩٥٦ ، أعلن جمال عبد الناصر تأميم قناة

السويس ،

فعادت إلى أصحابها ،

الذين فقدوا ١٢٠ ألف رجل فى حفرها ،

لصالح الأوروبيين المتطلعين إلى الشرق ،

الذين سرعان ما تحالفوا ،

وبالاتفاق مع صنيعتهم إسرائيل ،

انقضوا على بورسعيد ،

و ظلوا يقصفونها سبعة أيام من البر والبحر و الجو،

ثم اقتحموها بالخديعة ،

وحصدوا أهلها حصدا .

سبعة آلاف قتيل سقطوا فى يوم واحد .

ولم يتوقف القتل ،

إلى أن وجه السوفييت إنذارهم الشهير ،

وتحت ضغط الرأى العام العالمى ،

اضطر المعتدون للإنسحاب .

و ظلت القناة مصرية .

عروسة صفراء ٣ : إنه مثال على الحمق والتهور وقصر النظر ،

و على الغوغائية و الشعبوية .

لماذا تتجاهل المرة التى تلتها ؟

عندما أغلق مضيق تيران ،

و جاء الإسرائيليون وحدهم ، مسنودين بالأمريكان ،

بخطة أجيد إعدادها ،

واستغلت نقاط الضعف عندنا ؟

عروسة إسرائيلية ٢ : أشتم هنا روائح العداء للسلام،

الذى عملنا من أجله دائما ،

ووضعنا أسسه فى كامب ديفيد و أوسلو و مدريد،

و هو ما قدره المجتمع الدولى عاليا ،

فقدم جائزته لبيجين ،

ورابين وبيريز .

متفـــــــرج ٣ : الجائزة تذهب للسفاحين والقتلة

و مخطمى أذرع الأطفال ،

الذين يعلنون بأعلى صوت ،

ومن فوق منابرهم الديموقراطية :

" أفضل عربى هو الميت " .

عروسة اسرائيلية ١ : ليس هناك ما يدعو للإنكار ،

فرب اسرائيل لا يعرف الرحمة .

الأعداء مصيرهم واحد ،

كبارا كانوا أم صغارا ،

عسكريين أم مدنيين .

عروسة اسرائيلية ٢ : كانت الشاحنة تقل مصريين فى جلاليب بيضاء،

وعندما أطلقت رشاشى عليهم حدث أمر غريب .

فـقد ظلوا واقـفـيـن كـأن الرصـاص يدخـــل من

جانب،

ويخرج من الجانب الآخر ،

دون أن يثقب بطونهم ،

بينما كانت الدماء تتدفق من جوانب الشاحنة

بكميات كبيرة جدا .

كان ذلك لغزا كبيرا في نظري ،

إلى أن فهمت السبب .

فلأن الشاحنة كانت مكدسة لأقصى حد ،

لم يكن هناك مكان للسقوط على الأرض .

كل من مات ،

مات واقفا .

متفــــــرج ١ : أي سلام هذا الذي يتحدثون عنه ؟

وهم مازالوا يحتلون الأراضي العربية .

و إذا تركوا بعضا منها ،

فبشروط المنتصر المتغطرس ،

المؤيد من المجتمع الدولي :

متفــــــرج ٢ : مناطق منزوعة السلاح ،

في أراضي المعتدى عليه ،

فوقها محطات إنذار يديرها الأمريكيون

متفــــــرج ٣ : حرمان الفلسطينيين من حقهم في دولة مستقلة ،

و من حق مهاجريهم في العودة إلى وطنهم .

متفرج ١ : إجبار الأردنيين على تأجير أراضيهم لإسرائيل ،

و على الالتزام بعدم استقبال قوات عربية دون موافقتها ،

أو السماح بنشاط سياسي قد تعتبره خطرا عليها .

متفرج ٢ : أى سلام هذا الذى يتحدثون عنه ؟

وهم يحتفظون بمائتى رأس نووى ،

موجهة إلى العواصم العربية ،

تحت سمع المجتمع الدولى وبصره .

ويطوّرون الصواريخ ،

و يعقدون الإتفاقيات العسكرية والأحلاف ،

مع عتاولة الغرب و الشرق .

متفرج ٣ : ويلقنون تلاميذ المدارس أن أرضهم

تمتد من النيل إلى الفرات ،

بما فى ذلك منطقة خيبر السعودية .

عروسة اسرائيلية ١ : أمركم و الله عجب .

فأنتم تريدون أن تحرمونا من حقنا التاريخى فى أرضنا ،

أرض التورراة ،

الذى التزمت به الولايات المتحدة الأمريكية ،

والبنوك العالمية .

متفرج ١ : حديث التاريخ و البنوك شائق للغاية .

ولا بأس من فتح بعض صفحاته .

فى ٤ يوليو ١٩٠٢ تناول الزعيم الصهيونى هرتزل طعام

الغداء في لندن ،

على مائدة اليهودى روتشيلد ،

– الذى مول مصرفه قبل ربع قرن ،

شراء الحكومة البريطانية لنصف أسهم قناة السويس –

وعرض عليه مشروعا لتوطين اليهود في أوغندة ،

التي كانت توصف بلؤلؤة الإمبراطورية البريطانية .

وفى حدود علمي فإن اسم أوغندة لم يرد في التوراة .

و عندما رفض الإنجليز التنازل عن لؤلؤتهم ، اتجه الصهيوني ناحية أخرى .

حضر إلى مصر في ٢٣ مارس ١٩٠٢ ،

يحمل مشروعا لتوطينهم في سيناء ،

عرضه على بطرس باشا غالي رئيس الوزراء (و جد الأمين العام للأمم المتحدة) .

و طبقا للتقاليد العريقة ،

رحب الباشا بالمشروع الصهيوني .

لكن سيده الإنجليزى كرومر لم يوافق (فأسرته كانت تملك بنك بارينج منافس روتشيلد) .

هكذا كان حظ الفلسطينيين السئ .

متفرج ٢ : قالوا أن فلسطين أرض بلا شعب ،

وأن الرب منح أرضها لليهود ،

وتجاهل الجميع أن فلسطين كان بها عام ١٩٤٧ ،

أى قبل إنشاء دولة اسرائيل مباشرة ،

مليـون وربع مليـون من السكان (بينهم ٦٠٠ ألف يهـودى فقط) ،

وان اسرائيل قامت بتفريغ الأرض من العرب ،

بالطرد والترويع والمذابح

(فى ١٩٤٨ دمرت ٣٨٥ قرية من مجموع ٤٧٥ قرية عربية)،

و بينما تجلب المستوطنين من كافة أنحاء العالم ،

ترفض عودة السكان الأصليين ،

طبقا لقرارات الأمم المتحدة .

هكذا كان حظ الفلسطينيين السئ .

متفرج ٣ : حظ الصهاينة كان رائعا ،

بفضل رعاية ربهم ،

ليس أبانا الذى فى السماوات ،

وإنما ذلك الساكن فى أقبية البنوك ،

ببلاد الشيت SHIT .

عروسة أمريكية ١ : الغمز و اللمز ضار للغاية ،

وبالمثل الإهانة .

الحقائق معروفة لا نداريها أو نخفيها .

وقـد أوضـحـهـا الرئيس السـابق نيكسـون فى أخـر كتبه:

« التزاماتنا نحو إسرائيل عميقة جدا

أخلاقية في الأساس .

حقا إن الإسرائيليين هم الذين اعتدوا وضموا أراضي ،

لكن العودة إلي الحدود السابقة مستحيلة .

بمثل ما يستحيل عودة الفلسطينيين الذين غادروا البلاد في ٤٨

(فهم وأبناؤهم يبلغون ٣ مليون نسمة ،

وهو رقم كفيل بتغيير الوضع الديموغرافي)

أما اليهود الذين استوطنوا الأرض المحتلة ،

فيجب أن يعودوا إلي اسرائيل ،

مع منحهم تعويضات مناسبة بالطبع !

يمكن الضغط علي السعودية ودول الخليج واليابان لتقديمها »

هكذا تحدث نيكسون قبل أن يموت .

متفـــــرج ١ : صاحب الأرض الذى أرغم علي تركها ،

لا يحق له العودة إليها .

أما اليهودى الروسى الذى ولد هو وأبوه في سيبريا ،

فله كل الحق فيها !!

إنها عدالة بلاد الشيت .

العروسة الأمريكية

الســابقـــة : الحق أنى لم أشهد مثل هذا الجحود من قبل ،

خـاصــة وأن الشــعب المصــرى يعـيش على المعـونة

الأمريكيـــة .

متفرج ٢ : فضلا عن قلة الأدب و الوقاحة ، فان ما ذكرته يجافى الحقيقة .

الشعب الأمريكى هو الذى يعيش على المعونة المصرية !

لندع جانبا أن حكومتنا الأمينة الذكية ،

تودع فى بنككم الفيدرالى ،

كافة إحتياطياتنا من الدولارات ،

وهى تزيد على ١٢ مليارا منها ،

و تستثمرفائدة هذا المبلغ التى تتجاوز ٥٠٠ مليون دولار،

فى سندات خزانتكم ،

أى تدعم الاقتصاد الأميركى

بأن تحبس لديكم مبلغا ضخما ،

هو ثمرة عمل وكدح ملايين المصريين ،

بدلا من أن تستخدمه فى شراء الديون،

أو المشروعات التى تستوعب العاطلين .

سندع ذلك جانبا و نناقشك بلغة الأرقام :

فى العشرين سنة الأخيرة (من ٧٤ إلى ٩٤) ،

قدمت أمريكا لمصر مساعدات إقتصادية وصلت إلى حوالى ٢٠ مليار دولار،

و يعود ٦٠ بالمئة من هذه المعونةإليكم فى شكل صادرات سلعية و خبراء ونقل.

و بلغت قيمة الصادرات الأمريكية لمصر ٢٩٢٠ مليون دولار عام ١٩٩٣ ،

وهناك ٢٠٠ شركة أمريكية لها مكاتب بمصر ،

بخلاف ١٨٠٠ شركة لها وكلاء مصريون ،

و ٥٠ شركة مشتركة تنتج سلعا متنوعة :

من بطاريات السيارات ، والجرارات ، إلى احتياجات المكاتب ،

توجه إنتاجها للسوق المحلية و الخارج .

و أغلب هذه الشركات ، حسب كلامكم ، تحقق أرباحا ملائمة .

متفرج ٣ : أغلب هذه السلع لم نكن نستخدمها ولسنا في حاجة حقيقية إليها،

لكننا سرعان ما نألفها ولا نستطيع الاستغناء عنها،

رغم أنها قد تكون مميتة لنا .

يحضرني الآن ما نشرته "الواشنطون بوست" في ديسمبر ١٩٧٦ .

فبدلا من إعدام المبيدات المحظور استخدامها عندكم ،

تشتريها حكومتكم من منتجيها ،

ثم تشحنها إلى بلاد العالم الثالث ،

فأنتم رغم كل حديث عن التقدم و التحضر و الغنى ،

لا تتورعون عن بيع أمهاتكم ، إذا كان ثمة ربح .

العروسة الأمريكية

السابقة : المحترم نسي شيئا هاما .

فعلى رأس هذه السلع التي وصفها بأنها زائدة عن الحاجة ،

القمح الذي يصنع منه الخبز .

متفرج ١ : أبدا لم أنس .

لقد كنا فى عام ١٩٩٦٠ ننتج ثلاثة أرغفة من كل أربعة ،

ونستورد الرابع .

ومنذ عشر سنوات أصبحنا نستورد ثلاثة أرغفة ،

وننتج الرابع .

بالطبع هناك عومل كثيرة أوصلتنا إلى هذا الوضع ،

لكن لا يمكنكم أن تدعوا البراءة الخالصة فى الأمر .

فأنتم تحققون دائما فائضا من القمح .

وليس أمامكم سوى أن تحرقوه أوتغرقون به السوق ،

فتنخفض الأسعار .

لكن عبقريتكم فى الابتكار أوصلتكم إلى طريق ثالث .

فالتكلفة الإنتاجية فى بلادنا منخفضة ،

ولهذا تشجعوننا ، أنتم والبنك – اللى بيساعد ويدى – ،

والصندوق المفتوح للأحباب ،

ورجالاتهما المخلصين ، من أمثال عبد الشكور،

على الانصراف عن زراعة الحبوب ،

إلى الفراولة و الخيار الشيك ،

و بقية المحاصيل التى يحتاج إليها مواطنوكم المرفهين ،

كى تصلكم بسعر معقول : أرخص مما لو زرعتموه بأنفسكم ،

ى أن نأخذ منكم حاجتنا من القمح ،
ملات محلية توجه لتمويل مشروعات محلية .
عبارة أخرى لدعم القطاع الخاص ،
حتى يتمكن من استيراد سلع أمريكية .
هكذا تعود الدولارات فى النهاية إليكم

متفرج ٢ : نحن نستورد سنويا ماقيمته ١٥٠ مليون دولار من القمح .
و يتولى إنجاز هذه العملية الذهبية ،
مكتب خاص فى باريس تأسس سنة ١٩٧٦،
و كان أول رئيس له هو الدكتور القيسونى ،
مهندس البناء الإشتراكى ، ثم مقاول الانفتاح .
و خلفه الدكتور السايح ثم مصطفى خليل الشهير .
و يأخذ المكتب عمولة قدرها ٤ بالمائة على واردات القمح ،
أى ٦٠ مليون دولارا كل سنة !
ويرتفع هذا المبلغ بالطبع كلما ارتفع ما ندفعه لأردب القمح المستورد ،
هكذا يمكننا أن نفهم سر"الأسعار العالمية "التى لا تكف عن الارتفاع ،
بالنسبة لنا وحدنا !!
و بينما لا تبخل حكومتنا الكريمة على الفلاح الأميركى
بخمسين جنيها فى الأردب ،
تصر على ألا يحصل الفلاح المصرى علىَ أكثر من ١٨ جنيه

والسبب واضح لكل عين بصيرة ،

ويد طويلة .

عروسة أمريكية ٢ : لا شأن لى بالماضى البعيد ،

ولا بالتفاصيل .

فأنا رجل استراتيجى ،

الصديق هنرى ،

كما وصفنى المرحوم رئيسكم .

رغم أن ملعبى يمتد بين أطراف المعمورة ،

فإن منطقتكم هى التى صنعت مجدى .

كما أمدتنى بأمتع اللحظات فى حياتى .

لحظات من الضحك !

لقد بدأت علاقتى بها منذ سنوات طويلة ،

عندما كنت مستشارا لبنك "تشيز مانهاتن"

البنك العتيد الذى يملكه روكفلر ،

بابا البنوك الأمريكية وولى نعمتى .

وكان هذا البنك هو الذى يتحكم فى البترول العربى ،

ويسيطر تماما على الموقف ، بعد أن طُرِح عبد الناصر أرضا ،

بالضربة القاضية .

لكن لم تمض سنة على وفاة ناصر ،

حتى بدا النظام الرأسمالى كله على وشك الانهيار.

تخلت الولايات المتحدة عن تعهدها بتحويل الدولار إلى ذهب ،

ولم يعد الدولار مسنودا باحتياطى من الذهب ،

فانهار سعره بشدة ،

لكن النجدة جاءت على الفور .

من أين ؟

من بلد الحرم الشريف ، مهد النبى العظيم ،

عليه ألف صلاة وسلام .

فقد اندفع السعوديون إلى بنوكنا ،

يضعون فيها الودائع باسم الحكومة ،

ويشترون سنداتها غير القابلة للتسويق ،

و يقدمون القروض لبلاد مثل الفليبين ،

كى تشترى منتجاتنا .

لكن الأزمة لم تنفرج تماما ،

وجاء عام ١٩٧٣ بعجز فى ميزان المدفوعات الأمريكية ،

لأول مرة منذ مائة سنة .

و تدنى سعر الدولار.

كنت وقتها مستشارا للرئيس الأمريكى ،

وغارقا لأذنى فى مشكلة اسرائيل .

وفى إحدى اللحضات النادرة التى تتجلى فيها أعقد

الأمور في جلاء ناصع ،

تبينت طريقي بوضوح ،

فيما يشبه الوحي الذى كان ينزل على نبيكم الكريم :

ضربة القرن الكفيلة بحل كل المشاكل :

ذهبت إلى السادات (الذى نعرفه جيدا من زمان)،

و أبديت له يأسى من أى حل ما لم يقم بتسخين الموقف .

لست أزعم أنى المسئول عن قيام حرب اكتوبر ،

فهذا يكون منى منتهى الغباء .

عبقرية أى استراتيجي ليست في تدبير الأحداث ،

وإنما في التأثير فيها و احتوائها عند وقوعها .

و هو ما فعلته بالضبط .

فلم نسمح للقوات المصرية بغير عبور قناة السويس ،

وهو ما كان ضروريا من أجل فتحها ، إعادة تشغيلها .

وشجعنا صديقنا الملك فيصل ، طيب الله ثراه ،

على فرض حظر البترول ورفع سعره ،

فتضاعف في أسابيع قليلة سبع مرات ،

وسعد العرب البلهاء ،

الذين يضعون فوق رؤوسهم ،

موانع الذكاء ،

فقد امتلأت جيوبهم بالدولارات .

لكنها لم تستقر فيها سوى ثوان .

فبفضل جشع البدو و تخلفهم ،

سرعان ما انتقلت إلينا على يد الساحر روكفلر ،

الذى تولى توظيفها على الفور .

وخلال ذلك كنت أمارس سياستى الموسومة ،

بالخطوة خطوة

(و هوعلى فكرة اسم رقصة أمريكية) ،

و هدفها كان ملاعبة السادات .

وكان اللعب لذيذا للغاية ،

فقبل أن يجلس فى حِجْر كارتر ،

كان قد عرف حِجْر العبد لله .

تنازل عن شروطه فى التسوية الشاملة ،

و انسحاب إسرائيل إلى خطوط ماقبل سبعة وستين .

و فى أسوان ، التزم أمامى بإمداد إسرائيل بالبترول ،

و إبرام الصلح معها ،

وإخراج السوفييت من معادلة الشرق الأوسط ،

و الأهم إلغاء سيطرة الدولة على التجارة الخارجية ،

و السماح للمصريين بتكوين وكالات تجارية .

لكن الحق يعرف لأهله ،

فلولا سذاجة المصريين وبلاهتهم ، ما حققت شيئا .

و كان السادات يفهمهم جيدا (أليس واحدا منهم ؟)

و يعرف كيف يخاطبهم و يضحك على ذقونهم

و بخبرة تجارية عريقة منذ كان نائبا لرئيس الجمهورية،

(عندما كان يتولى إدارة مصالح أمير الكويت) ،

يبيع لهم أى شئ .

مرة يقول أن السوفييت امتنعوا عن تعويض السلاح ،

كما لو كانت الحرب نيابة عنهم أولحسابهم ،

ورغم أنهم زودوا الطيران المصرى بسرب ميج ٢٣ ،

قبل أن تحصل عليه دول حلف وارسو(فأتيح لنا التعرف على هذه الطائرة الخارقة)

ومرة يقول إن السلاح السوفييتى ، الذى حقق لهم النصر،

متخلف و يجب استبداله بآخر من الغرب ،

الذى يدفع العمولة .

وبدلا من ثلاثةأرباع مليون جنيه مصرى للميج ٢١،

دفع الهبل بين ٦ و ٨ مليون دولارللفانتوم الأمريكية ،

ومئات الألوف من الدولارات لخبراء عسكريين ،

مكان الخبراء السوفييت ،

الذين كانت موسكو تتحمل رواتبهم بالكامل .

و مرة ثالثة يجعلهم يستقبلون نيكسون استقبال الفاتحين ،

بعد أن رفضه العالم كله بما فى ذلك الشعب الأمريكى نفسه ،

متناسين الجسر الجوى الذى قتل الآلاف منهم قبل سنة واحدة فقط .

ثم جعلهم يقبلون أن يكون هناك راع واحد للخصمين .

وصدق الهبل أننا يمكن أن نكون حكما عادلا بينهم و بين إسرائيل ،

وأننا يمكن أن نمدهم بسلاح لمحاربتها فى يوم من الأيام .

والنتيجة بالطبع هى محادثات السلام التى أخرجتكم من الصراع ،

و قضت إلى الأبد على حلمكم بالوحدة ،

و مكنت لنا الأقدام .

عروسة أمريكية ٣ : أنا البابا ،

ليس بابا الفاتيكان ، ولا الأسكندرية ،

بل أخطر : دافيد روكفلر ،

أو الصديق دافيد ،

بابا البنوك الأمريكية كلها ،

وملك نيويورك .

دخل جدى السجن متهما باغتصاب شابة صغيرة .

و كوّن أبى ملايينه من قطعة أرض اغتصبتها شركة صغيرة من الهنود الحمر ،

ثم اكتشف بها بترولا اغتصبه لنفسه .

واحد من محاميه تولى ترتيب أوضاع ألمانيا بعد الحرب الثانية،

وآخر وضع سياسة أمريكا البترولية ،

وثالث وضع مشروع البنك الدولى و الصندوق .

تميزت فى هارفارد HARVARD بشئ واحد هو جمع الخنافس ،

ومازالت هوايتى إلى اليوم

(أحيانا أتساءل عما إذا كانت هذه الهواية تعود إلى أن الجعران المصرى قد استخدم علامة على أقدم شكل للنقود ، لأنه كما يرى تلامذة فرويد ، ارتبط بعملية الإخراج، أى الشيئ) .

تعلمت منذ الصغر أن الدولة الأمريكية بكل أجهزتها ،

قد وجدت لخدمتى ،

فنحن الذين ندفع قبل انتخابات ساكن البيت الأبيض،

ونحن الذين نقبض بعدها .

عندما أممت إيران البترول فى عهد مُصدّق ،

كانت المخابرات الأمريكية هى التى أسقطته .

وبالنتيجة وُضعت كل عوائد النفط الإيرانى فى بنك تشيز مانهاتن ،

وأصبحتُ المستشار السياسى والاقتصادى للشاه .

وعندما أوشك موبوتوعلى السقوط فى أوائل السبعينيات ،

سخّر كيسينجر قوات مصرية و مغربية لإنقاذه،

فارتفعت أسهم البنك و أسهم شركة الموارد المعدنية فى الكونجو(التى تقدر نسبة أرباحها السنوية ب٤٠٠ فى المائة و تملك أسرتنا نصيبا كبيرا منها) .

ترددت على مصر بعد تولية السادات ١٣ مرة .

رجل دمه خفيف ،

يشاركنى حب الفخفخة و كراهية الشيوعية .

و قبل حرب أكتوبر بأسبوعين فتح لى قلبه على مصراعيه .

(بعد أن فتح لى بلاده كلها على مصراعيها و أمر كل الجهات بأن تضع تحت يدى أى بيانات أطلبها فأطلعت خلال اسبوعين على كل شاردة و واردة من أمور الاقتصاد المصرى تصوروا !)

قال لى بالحرف أن كيسينجر لا تهمه المشاكل و هى باردة ، عاوزها سخنة و مستوية للحل !

كأننى لم أكن أعلم !

وقال لى بالحرف أن مصر وضعت نفسها مع المفلسين،

و آن لها أن تكون مع الأغنياء .

ثم تطرقنا للخطوات العملية ،

للقروض والعمولات و الحسابات ،

و قررنا فتح فرع فى مصر للبنك .

عروسة أمريكية ١ : ضربة القرن الحقيقية هى ما حدث فى الخليج .

حقا إن ثمان سنوات من الحرب الإيرانية العراقية ،

قد أنهكت البلدين ،

(عبقرى العراق شنها ولديه فوائض مالية مقدارها ٣٥ مليار دولار وخرج منها بعد ثماني بسنوات بديون خارجية ٤٢ مليار دولار و إجمالا كلفته الحرب ٢٠٠ مليار دولار)

واستنزفت قدرا كبيرا من أموال العرب ،

لكننا كنا محتاجين للمسة تشطيب أخيرة ،

تلم الشرق الأوسط كله فى جيبنا .

أبلغت سفيرتنا صدام أننا لن نعارض إذا أخذ الكويت .

وصدقها ،

فاجتاحتها قواته فى ٢ أغسطس ١٩٩٠.

فى اليوم التالى اتصلنا بمبارك،

و ذكرناه بالمعونة و الديون ، و بالبنك الدولى و صندوق النقد، .

وفى اليوم الذى بعده أدانت الحكومة المصرية الغزو .

وكانت النتيجة أن رفض صدام حضور مؤتمر جدة ،

الذى كـان مـقـدرا له بحث النزاع والوصـول إلى حل سلمى .

ثم جاءت الخطوة الثانية .

أوصلنا للملك بوسائلنا الخاصة صورا للقمر الصناعى ،

أثبتت أن الجيش العراقى يتحرك نحو حدود بلاده .

لم يكتشف المسكين أن الصور ملعوب بها .

فالقوات التى ظهرت فى الصورة لم تكن تتحرك ،

إنما كانت تحفر لنفسها خنادق دفاعية .

وكنا قد أزلنا من الصورة أثر البلدوزرات التى تقوم بالحفر.

هكذا فى ٦ أغسطس طلب منا رسميا ،

أن تدخل قواتنا بلاده للدفاع عنها .

وكانت الطائرات جاهزة .

فى نفس اليوم غادرت هناجرها ، لتستقر بعد ١٥ ساعة طيران فى الظهران ،

ومنها إلى قاعدة تومريت فى سلطنة عُمان .

هكذا بدأت عملية درع الصحراء و هدفها المعلن هو ردع العراقيين .

أما هدفها الخفى فهو التحضير للعاصفة .

فى ١٦ اكتوبر كان أمام جيمس بيكروزير الخارجية تقدير موقف حاسم :

"تحرير الكويت لم يعد بذى أهمية و ليس سوى مجرد ذريعة .

المطلوب هو تدمير البنية الأساسية للعراق ،

و إخراجه من معادلة الشرق الأوسط ،

أو بالأصح إدخاله إليها ..

لكن هذا الهدف سيحبط لو انسحب العراق من الكويت ، من تلقاء نفسه .

لهذا يجب أن تتوخى السياسة الأمريكية ثلاثة أهداف :

استفزاز صدام بطرق مختلفة تجعله يرفض الانسحاب ،

رفض أى مساومة قديعرضها ،

وإحباط أى خطة للسلام قد تساعده على الخروج سليما من مأزقه " .

وفى ٢٩ نوفمبر أعطت الأمم المتحدة الضوء الأخضر لإجلاء العراق من الكويت

ما لم ينسحب حتى ١٥ يناير .

و بينما كان الوسطاء يهرولون بين عواصم العالم للحيلولة دون المذبحة،

وعلى رأسهم السوفييت المساكين ،

الذين كانوا يحاولون انقاذ هيبتهم الضائعة ،

ودولتهم المحتضرة ،

كنا قد حشدنا آلة حرب جهنمية :

غطت الأساطيل الحربية مياه الخليج و البحر الأحمر،

وازدحمت مطارات الخليج بالمقاتلات و القاذفات و الناقلات ،

سكاي هوك و تورنادو و ميراج و بوما و سوبر بوما،

وفوقها أقمار التجسس والأواكس والأوروا ،

أعاجيب تكنولوجية أنفقنا عليها مليارات المليارات ،

تسجل كل حرف وكلمة وحركة يقوم بها صدام بالليل أو بالنهار

و على طريق التابلاين الشهير ،

تقدمت أكبر أرمادا برية في التاريخ :

أكثر من نصف مليون جندى ،

على رأسهم بضع آلاف سعودى و مصرى و سورى لزوم التمويه .

و بعد ساعتين من منتصف ليلة ١٥ يناير ،

انطلقت عاصفة الصحراء .

وخلال الشهر التالى دمرنا العراق و أعدناه إلى عصر ماقبل الثورة الصناعية ،

ولم يستغرق الغزو البرى غير أربعة أيام ،

تم خلالها إبادة القوات العراقية فى الكويت .

و دفع العرب البلهاء كلفة هذا كله .

عام من الانتصارات ، توجت بإنهيار الاتحاد السوفييتى

بعد شهور ،

دون حرب أودياولو ،

ثم مؤتمر مدريد الذى وضع الخطط ،

لجنى الثمار .

متفرج ٣ : عملية رائعة دون شك .

قبل عشرين سنة لم يكن فى استطاعتكم إرسال جندى واحد ،

إلى أى مكان فى المنطقة .

فشبح عبد الناصر كان ما يزال حيا .

وقبل خمس سنوات لم تكن لديكم قوات أمامية فى منطقة الخليج .

أما اليوم فهناك أكثر من ٢٠٠ طائرة مقاتلة ،

تجثم فى مجموعة من القواعد الجوية فى عدد من البلدان ،

على رأسها مصر ،

ووجود بحرى قوى طوال الوقت و مقر قيادته فى البحرين ،

و لواء كامل مقيم فى الكويت ،

عتاد مخزون فى قطر،

والفاتورة يسددها العرب .

متفـــرج ١ : الكويت المسكينة ،

التى كانت ترفض دائما أى تحالف أجنبى ،

أصبحت تحت الحماية الأمريكية الدائمة ،

و ملتزمة بانجاح سياستكم فى المنطقة و دعمها .

و بتوقيع عقود تجارية مع شركاتكم بعشرة مليارات من الدولارات .

و بعد أن أضاعت ١١ مليار دولار ، خصصتها للتسلح بين ٧٢ و ٩٠ ،

عادت اليوم تخصص مبلغا أكبر للسنوات العشر القادمة .

متفـــرج٢ : و خفض الأردن الرسوم الجمركية على السيارات الأمريكية ،

لتشجيع استيرادها وتمكينها من منافسة أخواتها اليابانية و الروسية ،

لكن نسبة التخفيض لم تعجب الولايات المتحدة ،

واضطر الأردن لأن يجرى تخفيضا آخر بمقدار النصف،

فكافأته الحكومة الأمريكية بمساعدات عينية قيمتها ٤٠٠مليون دولار ،

آلات مصانع و موتورات ، أو حتى أغذية و أدوية ؟

أبدا ! لا أكثر من ٥٠ ألف سيارة فورد (سعر الواحدة

٩٠٠٠ دولار) ،

تبيعها الحكومة الأردنية لموظفيها مقابل أقساط تسدد على عشر سنوات .

متفــــرج ٢ : والإمارات المتحدة ،

فرض عليها أن تشترى أسلحة لا تحتاجها ،

بثمانية عشرألف مليون دولار .

متفــــــرج ١ : أكثر من سبعين مليار دولار أهدرت في حرب الخليج .

كم مصنع و جامعة ومزرعة و مستشفى يمكن إنشاؤها بهذا المبلغ؟

إن تحصين جميع أطفال العالم ضد المرض لن يتكلف سوى مليارين ونصف مليار دولار في السنة .

ملياران و نصف مليار دولار سنويا لإنقاذ حياة ثمانية ملايين طفل في السنة .

عروسة أمريكية ١ : أنت تضحكني .

لقد بددتم ثروة من أكبر الثورات التى أتيحت في التاريخ لأمة من الأمم ،

كما قال هيكل ، أحد كتابكم الكبار.

في عشر سنوات فقط ،

أضعتم ألف و خمسمائة مليار دولار ،

ثلثها تجمد في مشروعات ضخمة ، مدنية و عسكرية ،

تولاها مقاولون من عندنا ،

ليس هناك احتياج ملح لها .

و الثلث الثاني في مشتريات سلاح ،

لم تستخدموه ولا تعرفون كيف تفعلون .

والباقي ما زال يدور بمعرفة البنوك الأمريكية و الغربية .

عروسة أمريكية ٢ : في سنة واحدة هي ١٩٨٥ كانت الاستثمارات

العربية الفردية ،

في مجال الخيول فقط ،

ببريطانيا فقط ،

مليار دولار.

عروسة اسرائيلية ١ : البنوك العالمية تدور فيها الآن :

١١٢ مليار من أموال مصريين ،

٧٤ مليار دولار من أموال جزائريين ،

٦٥ مليار من أموال سوريين ،

٤٣٠ مليار دولار من أموال سعوديين ،

عروسة في

ثيــــاب خليجية : حقا إن اسمي على رأس قائمة أغنياء العالم ،

أو كان قبل حرب الخليج .

ومع ذلك يقولون أن رقم ثروتي غير معروف ،

لأنه لا فرق بينها و بين الخزانة العامة للمملكة .

وهو تعليل مضحك للغاية ،

طالما أنه ليس هناك وجه للتفرقة بين الاثنين .

متفـــرج ٢ : لست أجده مضحكا على الإطلاق ،

فما يعلمه الجميع أن بلادكم الصحراوية لم تنتج حتى الآن غير النفط،

و فى حقول النفط يعمل ٢٥ ألف عامل ،

كل واحد منهم ينتج ما قيمته ٢،٦ مليون دولار فى السنة.

هكذا يمكننا معرفة حجم الثروة بالضبط ،

و أصحابها الحقيقيين .

العروسة الخليجية

الســـابقـة : لم أكن أتصور أن الأفكار الشيوعية ما تزال تعشش فى أدمغة البعض ،

بعد السقوط المدوى لقلاعها .

على أى حال فليس هذا موضوعى .

ما أردت قوله هو معاتبة صديقى كيسينجر ،

على لهجته الجارحة .

وأستشهد بصديق آخر، هو المرحوم فيلى برانت الألمانى، الذى قال بالحرف :

"ان الأموال التي أودعها السعوديون في البنوك الغربية والأمريكية ،

تساوى إيجاد فرص عمل لحوالى مليون شخص في البلدان الصناعية سنويا على مدى السنوات من ١٩٧٣ إلى ١٩٧٧ " .

لقد كنا نحن الذين رفعنا سعر النفط وكدسنا هذه الأموال،

كما اعترف صديقى كيسينجر .

وعندما لم يعد الغرب قادرا على مجاراة الارتفاع في أسعار النفط ،

اتفقنا مع ريجان على إغراق السوق العالمى به ،

مما أدى إلى تدهور أسعاره ،

وانهيار احتياطى الاتحاد السوفييتى من العملات الأجنبية .

وخسرالعرب نتيجة ذلك ستين مليار دولار سنة ١٩٨٦،

بينما وفرت الدول الصناعية مائة مليار .

وقد تحملنا هذه الخسائر راضين ،

لا عن بلاهة كما يقول الصديق كيسينجر ،

وإنما عن إقتناع وإيمان كاملين ،

بالعالم الحر ورسالته .

اشترينا معدات عسكرية بخمسمائة مليار في عشر سنوات،

دون أن يكون لدينا من يستطيع استخدامها ،

لا عن بلاهة وجهل كما يقول الصديق كيسينجر ،

وإنما عن فهم وإدراك عميقين ،

بأن التسليح يحتاج إلى تجديد يومي يتطلب نفقات باهظة ،

وأن الاتحاد السوفييتي لا يملك من ورائه بلدا مثل بلدنا،

بكعبتها و آبارها ،

وليس أمامه سوى أن يضغط حزام التقشف ،

أو يخرج من ميدان التنافس نهائيا ،

و هو ما حدث بالفعل .

أو تسمون هذا بلاهة ؟

و عندما أسفر مجنون العراق عن عدوانيته ،

وضعنا أرضنا وأموالنا رهن الصديق الأمريكي ،

حتى يسحق العسكرية العراقية ،

دون أن يتكلف شيئا ،

وخلال ذلك حصلنا على أحدث تكنولوجيا بمجهود بسيط ،

وزمن قياسي .

لم نكن في سذاجة الحالمين ،

الذين تصوروا أن الحصول على التكنولوجيا ،

يبدأ من الصفر ،

ويتدرج حتى إنتاج الصاروخ .

ولهذا جمعوا أموال الناس ،

وحرموهم من لذائذ الحياة ،

فى سبيل مستقبل فى علم الله .

فلماذا العذاب إذا كان بوسعنا أن نشترى الصاروخ نفسه جاهزا ؟

ولماذا نعرض نفسنا لأخطار القتال ،

إذا كان يمكن استئجارمن يفعل ذلك نيابة عنا ؟

نفس الرأى كان يعتنقه زعيمكم المحبوب ،

أنور السادات ،

عليه ألف رحمة ،

الذي أراد أن يعطي لكل مصرى الكترونة فى يده ،

ومات قبل أن يحقق هذا الهدف النبيل .

أما نحن ، فقد وفرنا لشعبنا الرفاهية ،

بأركانها الشرعية الثلاثة :

المسكن و الركوبة و الخادم ،

دون أن ننسى نبينا الكريم

فأنفقنا على توسيع حرمه و تجميل المنطقة المحيطة به ،

٢ مليار دولار فى السنوات القليلة الماضية .

متفــــرج ٣ : أرض جرداء ينتصب فوقها خيال مآتة ،

يحمل العين الالكترونية الفيديو ،

هذه هي الآن بلاد النفط الصحراوية .

المجتمع المتقدم ليس إنسانا زائد أجهزة ،

و إنما إنسان مضروب في أجهزة .

ها هو في خيمة مكيفة الهواء ،

و حوله " حيات " من الثلاجات و الفيديوهات و السيارات،

و أجهزة لا حصر لها ،

ليس بينها واحد من صنع بلده :

و لديه أيضا كمبيوتر يعمل باللغة العربية ،

متصل مباشرة بقاعات البورصة في نيويورك و لندن و طوكيو ،

حيث يتحدد سعر البرميل و اسم المشترى ،

و يستقر الثمن في خزائن البنوك الأوروبية و الأمريكية ،

بينما يذهب العائد إلى الجالس في البيداء ،

وعلى رأسه مانعة الذكاء .

رزق حلال دون مجهود ،

أو وجع دماغ .

و يمكن تجنب شبهة الربا بالحديث عن مشاركة أو مرابحة ،

و يمكن مضاعفة العائد بسهولة ،

بشراء الذهب و تكديسه ، ثم المضاربة عليه ،

ولا يحتاج الأمر إلا لقليل من الحظ ،

وشئ من الشطارة ،

و الحاسة المرهفة لاتجاه الريح .

لكن هذا كله لن ينفع ببصلة ،

أمام وحش اسمه التضخم .

سنة بعد سنة ،

يجد الجالس فى البيداء ،

أنه لم يعد قادرا على شراء كل ما يريد .

وتكون الثلاجات و الفيديوهات و السيارات ،

قد استهلكت ،

والجزية المدفوعة للكاوبوى ،

تضاعفت

(اقترضت السعودية غداة حرب الخليج أربعة آلاف و خمسمائة مليون دولار) .

سنة بعد سنة ،

سيجد نفسه مضطرا لأن يقتطع من أصل الوديعة ،

التى لا تسندها منشئات من أى نوع ،

يمكن أن تولّد مالا ،

كالمصانع و المعامل و المزارع .

إلى أن يأتى اليوم المنظور ،

الذى يحلم به جميع التعساء و المحرومين ،

وعابرى السبيل :

عندما تختفى العين الالكترونية للفيديو ،

ولا يبق غير خيال المائة !

متفـــــرج ١ : إنه خط واحد ،

الذى يمتد من الشمال إلى الجنوب ،

مارا بدوخة الصحراء .

ليس بخط طول أو عرض ،

ولا حتى نسب .

فما يجمع بين الملوك المجلّين ،

السلاطين والأمراء المُسخمطين ،

هو نشوتان :

واحدة للدم والثانية لماء الحياة .

فبعد ذبح الشاة ، وقتل الأب و الأم ،

يسلمون مؤخراتهم للأسياد .

وبعد أن جربوا السيد الإنجليزى و ابن عمه الأمريكى ،

يهرولون الآن إلى الإسرائيلى ،

الطالع فى المقدّر ،

عروسة خليجية ٢ : الصور الأدبية لا تعجبنى .

أفضل حديث الأرقام ،

فهو لغة واضحة ومفهومة من الكافة .

عندما يسألنى أحد عما أنجزت ،

أرد عليه فى إيجاز :

أنا أنفق يوميا ربع مليون دولار ،

لأنى أكسب ٥٠٠ دولار فى الدقيقة ،

الفضل يرجع لظروف نشأتى .

فأبى هو أول من أدخل جهاز الفحص بالأشعة إلى المملكة ،

و بسبب ذلك أصبح الطبيب الخاص للملك ،

و صار أخوه – عمى – القواد الخاص لصاحب الجلالة .

و بفضلهما خالطت أبناء الأمراء ، و تعلمت معهم .

درست فى كلية فيكتوريا الإنجليزية بالإسكندرية مع الملك حسين ،

وكنا نتعرض للضرب بالعصى إذا نطق أحدنا بكلمة عربية .

وفى جامعة كاليفورنيا أنجزت أولى صفقاتى .

كان الأمر سهلا للغاية .

مجرد عقد صلة بين أبوى اثنين من زملائى ،

أحدهما مصرى و الآخر ليبى .

و مقابل ذلك حصلت على مائتى جنيه أسترلينى ،

أول عمولة فى حياتى .

لكن البداية الحقيقية جاءت بعد ذلك ،

عندما استدعانى الأمير فيصل قبل أن يصبح ملكا ،

وسلمنى شيكا بمليون جنيه استرلينى ،

وكان المطلوب هو تزويد الملكيين فى اليمن بالسلاح الذى يقتل المصريين ،

وبعد ذلك انهالت عقود السلاح من نورثروب ولوكهيد .

وعمولة السلاح كما يعلم الجميع لا تقل عن خمسين بالمائة،

وصنعت الكثيرين ثروات طائلة .

ومنهم مصريون محترمون ،

كانت العلاقة مع السوفييت تقف فى طريقهم ،

لأن الكفار لم يكونوا يدفعون العمولة .

لكن نشاطى لم يقتصر على الأسلحة .

فأنا أتعامل فى كل شئ تقريبا ،

بما فى ذلك اللحم ،

الأبيض والأحمر .

وقد كان لى شرف ترتيب القرض اللازم لتجديد شبكة التليفونات المصرية ،

بالتعاون مع صديقى الدكتور مصطفى خليل .

فلى علاقات وطيدة بأكبر البنوك والشركات الصناعية ،

التى تحقق دائما نسبة ربح لا تقل عن ٢٤ بالمائة ،

وتحول من بلاد العالم الثالث ،

دولارين و ربع دولار مقابل كل دولار تستثمره .

لكن صديقي كيسينجر هنا ،

يعرف عن هذه الأمور أكثر مني ،

بحكم شركته المعروفة .

عروسة كيسينجر : لست أنكر أن شركتي لها علاقة وثيقة بأهم هذه المؤسسات ،

و قد كونتها سنة ١٩٨٢ من شخصيات بارزة معروفة لديكم جيدا .

أحدهم وليام روجرز ، وكيل الخارجية الأمريكية السابق ،

و صاحب المشروع الشهير .

و الثاني لورد كارينجتون ، وزير الخارجية البريطانية السابق ،

وسكرتير حلف الأطلنطي سابقا ،

و الثالث هو الجنرال سكوكروفت ، مستشار الأمن القومي للرئيس بوش ،

و أول من كان يقابل عندما يغادر فراشه كل صباح .

أما ماذا نبيع ، فالإجابة بسيطة للغاية :

تقييم للشئون الدولية قائم على معلومات دقيقة بالطبع .

أرقام و بيانات ، و إتصالات شخصية مهمة .

لدينا الآن ٣٠ زبون : من فولفو السويدية ،

إلى مونت أديسون الإيطالية .

بالإضافة إلى كوكاكولا و يونيون كاربيد الأمريكيتين .

الزبون منهم يدفع مابين مائة ألف دولار وأربعمائة ألف

فى السنة ،

مقابل بيانات شفاهية عن طريق التليفون ،

وأربعة أحاديث سنوية ،

مع شخصى المتواضع .

يجرى خلالها تحليل مخاطر الاستثمارات ،

ودراسة طرق حمايتها .

فهؤلاء العمالقة لم ينسوا أبدا درس السويس .

و شبح جمال عبد الناصر هو الكابوس الذى يؤرق منامهم ،

كل ليل .

متفرج ٢ : نحن أيضا لم ننس،

رغم ما بذلوا من محاولات .

لم نعد من السائجين ،

و لا نعتبره من الأنبياء المعصومين .

لكنه ابن مخلص لشعبنا ،

و كل الشعوب سيئة الحظ .

أراد لنفسه المجد ،

فوهب نفسه لأمته ،

و نذر حياته لخدمتها ،

في الظروف المتاحة ،

و على قدر ما استطاع .

كان حلمه عظيما ،

لكن الأشرار كمنوا له في الطريق .

كانوا مصممين على إيقافه بأى ثمن ،

و أخطأ هو في الاعتداد بالنفس ،

وفي الحسابات ، كما قال .

و دفعنا معه ثمنا فادحا ،

للتخلف و الشر .

و ما زلنا ندفع كل يوم و كل ساعة .

لكن صوته و صورته لن ينمحيا من قلوبنا .

متفرج ٣ : أسمعه الآن ،

و هو يعلن باسم الشعب ،

تأميم الشركة العالمية لقناة السويس ؛

وبوسعي أن استحضر النشوة ،

التي شعر بها كل مصري و عربي و أفريقي ،

بل وأبناء الشعوب البعيدة في آسيا وأمريكا اللاتينية

و كل المستعبدين المستذلين ،

و هم يسمعون بعودة القناة إلى أصحابها .

متفـــرج ١ : ما أقدم عليه جمال عبد الناصر ،

لم يكن إجراء عاطفيا .

كان يرى لمصر أحد مستقبلين :

إما أن تصبح سوقا للمصنوعات الأجنبية ،

فتظل بلدا تابعا و متخلفا ،

نهبا للأهواء و المصالح ،

يتسول أبناؤه الخفاة

فتات الأعمال ،

أو تتكفل بانتاج احتياجاتها ،

واحتياجات سوق عريضة تمتد من المحيط للخليج ،

فتلحق بركب التقدم ، و تحقق لأبنائها

المعيشة الكريمة الآمنة .

لكن الخيار الأخير لم يكن سهلا على الإطلاق ،

فهو يتطلب قاعدة متينة من الكهرباء ، و أموالا طائلة ، و صبرا .

جرب في البداية تشجيع أصحاب الأموال ،

لكن أبناء طلعت حرب قنعوا بالوكالات التجارية ،

باستيراد الشكولاتة و السجاير ،

وتعبئة الكوكاكولا .

و رأى عبد الناصر فى مشروع السد العالى فرصة العمر ،

لتوليد الكهرباء الضرورية .

وعندما سحب البنك الدولي عرض التمويل ،

التفت إلى القناة التي كانت تدر أرباحا ضخمة ،

تذهب إلى أحفاد نابليون و اللنبي و كيتشنر ،

تكفى لتمويل بناء السد .

فضلا عن كونها قناتنا .

عروسة صفراء ١ : كنت بين المسئولين الذين تحدث إليهم لأول مرة عن تأميم القناة .

و قد صفقنا له جميعا .

و أحلف على المصحف ،

أننا بكينا من التأثر .

متفــــــرج ٢ : أصدقك .

وإن لم تخنى الذاكرة ،

فأنت و أمثالك ، كنتم أول المصفقين فى ٥٢ و ٥٦ ،

و٥٨، ٥٩و٦٢،

وأول الباكين سنة ٦٧،

وعندما مات فى ٧٠ .

فأنتم سريعو التأثر .

و تتميزون بالإخلاص التام ،

للسيد الذى تخدمونه ،

و أنتم نجوم كل العصور ،

تسطعون على هذا الوجه من العملة ،

و عندما تُقلب على وجهها الآخر ،

تلمعون أكثر و أكثر .

رأيناكم مدافعين أشاوس عن الوطن ،

و منظرين لإشتراكيتنا الفريدة ،

على رأس الشركات المؤممة ،

ممسكين بمفاتيح السياسة و الاقتصاد و الإعلام ،

قاطفين الثمار و مستأثرين بالخيرات

(أفضل المساكن و حجوزات السيارات ،

و أغلى الأقمشة و الأجهزة ،

و أجمل النساء ،

و أحسن الفرص للأبناء) .

و في اللحظة المناسبة ،

كنتم على رأس الشركات المختلطة ،

و عملاء لشركات الغرب العملاقة ،

ووسطاء فى الصفقات إياها ،

ضامنين لأنفسكم مستويات خيالية من المعيشة ،

في بلد يعيش أكثر من ثلث أبنائه تحت خط الفقر ،

نصف مليون منهم يسكنون المقابر .

عروسة صفراء ٢ : لم نتصور أبداً أننا هنا اليوم،

لتسمع هجوماً حاقداً ،

على طليعة هذا البلد ،

من قادة ورجال أعمال .

متفـــــرج ٣ : أية أعمال تتحدثون عنها ؟

أنتم مجرد موزعين المنتجات الأجنبية بالعمولة ،

بعد أن أقنعتم المصريين السذج

انهم في حاجة إلى مياه ملونة بطعم الأناناس ،

فوط صحية تتشرب البلل من قبل أن يحدث ،

مزيل عرق و شامبو شعر يقاوم الصلع ،

معجون أسنان يمنع التسوس ،

موكيت يخنق الأنفاس،

منظفات فعالة ،

في القضاء عليهم .

لاكتويل I IIKE IT

متفـــرج ١ : رجال أعمال ؟

بل عملاء agents ،

زودتم سادتكم بالمعلومات الدقيقة ،

عن خبايا السوق ،

ثغرات القوانين ،

وأنواق المصريين .

حصلتم منهم على الرخصة ،

حق الإنتاج و التصنيع المحلى ،

للعطور و البخاخات و أحمر الشفاه ،

فوفرتم عليهم نفقات الانتقال و مخاطره ،

وحولتم إليهم الأرباح .

متفـــــرج ٢ : لوكنتم حقا من رجال الأعمال ،

لأنشأتم صناعة ،

عمرتم أراضى ،

دربتم عمالا ،

مولتم أبحاثا ،

كما فعل أسيادكم ،

فى مقتبل نهضتهم .

لكنكم تتبعون تقليد الآباء و الأجداد ،

الذين كانوا دائما من التابعين ،

خدما للفرس و اليونان و الرومان ،

ثم العرب و الترك و الكرد ،

الطليان و الأرمن ،

الفرنسيس و الإنجليز ،

وأخيرا الأمريكان و بني اسرائيل .

متفـــــرج ٣ : مازلت عاجزا عن الفهم .

لماذا تقترضون ، و نتحمل عبء السداد ،

ولدينا كل هذه الثروات ؟

طبقا لبيانات البنك الدولي في عام ٩٢ ،

فإن الأموال المصرية المهاجرة إلى الخارج ،

بما في ذلك ما تم تهريبه ،

تصل إلى ١١٠ مليار دولار أي ٣٧٥ مليار جنيه مصري .

ويؤكد الخبراء المصريون أن الرقم الحقيقي هو ١٢٠ مليار دولار،

أي ٤٠٠ مليار جنيه .

وهم يستشهدون بثروة اثنين فقط من رجال الأعمال الفارين ،

لا تقل حجم استثماراتهما في الخارج عن ٥٦ مليار دولار !

عروسة صفراء ٣ : هذه والله أخبار طيبة !

فمعناها أن بلادنا أصبحت غنية و متقدمة !

نمرة بين النمور الجديدة !

متفـــــرج ٣ : معك حق ،

فقد جعلتم من بلادنا " نمرة " .

في خلال عشرين سنة فقط ،

أصبح لدينا خمسون فردا فقط ،

تبلغ ثروة كل واحد منهم بين مائة و ٢٠٠ مليون دولار،

وإجمالا مليون شخص ،

جمعوا ثروات هائلة ،

بينهم عشرة آلاف مليونير ،

ولا أقل من عشرين ملياردير ،

يملك كل منهم ألف أرنب .

كيف ؟

بالتأكيد ليس من العمل الشريف ،

وإلا كان جميع العاملين قد اغتنوا .

متفرج ١ : من تقسيم و بيع الأراضى ،

من الرشاوى و العمولات ،

المقاولات والتوكيلات ،

المتاجرة بتسعير منتجات القطاع العام ،

و نهب القروض الأجنبية ،

من الحديد والأسمنت والسكر ،

اللحوم والأغذية الفاسدة ،

عمولات السلاح ،

و من تجارة العملة والمخدرات .

مال حرام و أصحابه أكلة مال حرام و أولاد حرام !

متفـــــرج ٢ : مليون فرد تستورد لهم الخنزيرة والتمساحة ،

و يدفـعون عـشرين جنيـهـا فى لهطة أيس كـريم أو زبادى ،

مستوردة لهم بالذات.

يقيمون الأفراح البانخة ،

ويدفعون ملايين الجنيهات فى شراء الشقق .

يملكون القصور فى كان وكاليفورنيا ،

واليخوت فى مونت كارلو و سان مارينو .

هم زبائن المطاعم الجديدة (يدفعون فى الوجبة الواحدة ٥٠٠ جنيه)،

والكباريهات والأندية ،

والفنادق الكبرى (تكسب سبعة منها ثلاثين مليون جنيه شهريا من الحفلات)،

و مكاتب الديكور و معارض الأثاث و السيارات ،

و المخدرات (في عـام ٩٢ اسـتـهلكت البـلاد ٢ طن هيروين قيمتها ٦٠٠ مليون جنيه).

متفـــــرج ٣ : راقصة واحدة تمتلك سيارة مصفحة ،

ثمنها ٢ مليون جنيه ..

عروسة لهلوبة : لم لسانك يا خويا ،

و احترم نفسك .

أنا لا باسرق و أسمسر ،

ولابتمسخط .

كل مليون عندى ،

عملته من عرق بطنى .

تحبوا أوريكو ؟

ياللا ياجدع ،

رقصنى ،

على واحدة ونص .

العرائس الصفراء

تهتز كالدراويش :مصريتنا... مصريتنا ..

حماها الله .

الله ... الله ..

متفـــــــرج ٣ :مليون ثرى ،

٢ مليون متعطل ،

و ٢ مليون شقة مغلقة .

متفـــــــرج ١ : مليون بنى آدم فى القاهرة وحدها يعيشون داخل عشش ،

جدرانها من ألواح الصفيح ،

و أسقفها من الكرتون والملابس القديمة ،

المجموعة من القمامة ،

و يدفعون ضرائب مثل بقية سكان المدينة .

عروسة صفراء

علي هيئة

إمرأة بنظارة

تمــــلأ وجهها : الحقيقة هذه المشكلة كما صرحت في التليفزيون ،

أوجدت أنماطا من البشر غير عادية ،

على قدر كبير من السلبية .

لا يشعرون بالانتماء ،

ولا يشاركون في التنمية .

عروسة صفراء بلحية

قصيرة مدببة : من دراستي لحالاتهم النفسية ،

وجدتها سيئة ،

فهم يحقدون على ساكني العمارات الفاخرة ،

و على المجتمع .

و منهم تتوالد عناصر الإرهاب .

متفـــــــرج ٢ : ثمن الشقة الواحدة في هذه العمارات

يمثل مرتب الوزير في نحو ٢٠٠ سنة ،

والمدير العام في نحو ٤٥٠ سنة ،

المرتب لا الدخل الحقيقي !

و الشاب حديث التخرج في نحو ألف و خمسمائة سنة

متفـــــــرج ٣ : أقل من ٢ فى المائة من مجموع السكان ،

ويستهلكون ٢٠ بالمائة من الكهرباء المخصصة للمنازل .

متفـــــــرج ١ : ٣ مليونْ طفل خارج المدارس ،

نراهم فى الورش ،

بعيون غائرة ، و أجسام هزيلة ،

تلطخهم الشحوم السوداء ،

يعجزون عن الفهم من الإعياء و نقص الإدراك ،

ينطقون لغة جديدة بكلمات مبتورة الأحرف ،

طليعة جيش من ١٥ مليون أمي ،

نستقبل بهم القرن الجديد .

متفـــــــرج ٢ : أطفال مقزمون ، مصابون بالأنيميا ،

وتضخم الكبد و التخلف العقلى .

وثلاثة أجيال قادمة ،

مضروبة في حيواناتها المنوية ،

ستلد أطفالا مشوهين .

متفـــــــرج ٣ : أكباد مريضة لنصف المصريين ،

منهم خمسة ملايين فلاح في خطر داهم

بعد أن لوثتم الطعام و الماء و الهواء .

متفـــــــرج ١ : شباب ضائع على النواصي ،

تفترسه المخدرات البيضاء .

هذا هو ما صنعتموه .

عروسة صفراء ٢ : فهمت الآن عم تتحدث سيادتك ،

فأنت تقصد العدل .

لكن العدل صفة من صفات الله لا يمكن لأحد أن يحققه

ربنا هو الذى يرتب الكون ،

و رزق ناس على ناس .

عروسة صفراء ٣ : أنت تتناسى يا محترم ما تحقق من إيجابيات :

التليفونات والمجارى والمدن ،

المزارع والمصانع الجديدة ،

الديموقراطية الرشيدة ،

وقنوات التليفزيون العديدة .

الرئيس نفسه أشاد أكثر من مرة ،

بالسواعد التى عملت فى إخلاص ،

وسهرت على مصالح البلد .

متفـــــرج ١ : نعم ، لقد رأيناكم ،

عندما وقعت الزلازل و السيول ،

و غرقت القرى و البيوت ،

عندما احترقت المصانع ،

واصطدمت القطارات و غرقت البواخر ،

عندما إنهار محصول القطن ،

واختلطت مياه الشواطئ بالخراء ،

تهرولون متخبطين ،

وتوشكون ، من التأثر ، على البكاء أمام الكاميرات ،

بينما تقبضون من تحت المائدة .

متفـــــرج ٢ : ٩٠٠ حالة تعذيب سنويا ،

تشمل الاعتداء الجنسي في المعتقلات وأقسام الشرطة ،

انتخابات مطبوخة ،

هذه هي ديموقراطيتكم .

متفـــــرج٣ : فيلات فاخرة من أموال الشعب لحفنة مليونيرات ،

بدلا من خمسمائة مصنع ،

يتكلف الواحد عشرين مليون جنيه ،

تكفي للقضاء على البطالة .

عروسة صفراء١ : كل فيلا من هذه الفيلات تحتاج لمن يحرسها و يخدم بها .

أليس هذا أفضل من المصانع التي تتكلف الملايين ؟

وتحتاج إلى التكنولوجيا ؟

يجب أن نتخلص من هذه النظرة الضيقة الموروثة من أيام الاشتراكية .

ياريت كان فيه مليون حوت في مصر كانوا شغلوا ال ٢٠ مليون شاب ،

أم تفضل أن ينفق هؤلاء المليونيرات أموالهم في أوروبا و

أمريكا

بعيدا عن القرّ ؟

عروسة صفراء٢ : لو كانت الظروف تسمح ،

كنا دعوناكم لزيارة مارينا ،

لؤلؤة الساحل الشمالي ،

التى بناها القطاع العام .

متفـــــرج ١ : لنرى كيف تروى الحدائق بمياه الشرب النقية ،

بكلفة ثلاثة ملايين جنيه في السنة ،

هى أموال الشعب ،

صاحب القطاع العام .

عروسة صفراء٣ : من العبث إنكار حجم المشاكل التى نعانيها .

فمازلنا فى عنق الزجاجة .

لعنة الله على من أدخلنا فيها .

عروسة صفراء٤ : كلما سمعت اسمه ،

أصبت بالإرتكاريا ،

رغم أنى جمعت المليون الأول ،

من تحت أنفه الغليظ ،

و فى ظل اشتراكيته المزعومة .

صحيح أن البذرة تكونت فى معسكرات الجيش الإنجليزى ،

و أينعت فى أرض الحرمين الشريفين ،

لكن الصعود الحقيقى جاء بعد عدوان ٥٦ ،

عندما تمت إعادة تعمير بورسعيد ،

ثم توسيع قناة السويس ،

الذى كسبت فيه مع شريك أمريكى مليونين .

ثم جاء السد العالى .

و كان دورى فيه هو نقل الصخور و ردمها .

لكنى أجدت الدعاية لنفسى ،

والإعلاميون الحاضرون هنا يشهدون على ذلك ،

فقد أطعمتهم بمافيه الكفاية .

وكانت النتيجة أن تصور الناس أننى أنا من بنى السد ،

و بفضل هذا كله استطعت أن أعبر محنة التأميمات ،

التى وقعت البلاد كلها ضحية لها ،

بسبب جنونه و حقده .

متفـــــــرج ٢ : التأميمات لم تكن اعتداء بل إنصاف .

الأراضى التى اغتصبها المماليك ،

أعاد محمد على توزيعها على الألبان و الأتراك ،

و من رضى عنهم من المصريين .

وهى التى ولدت مبانى وشركات وبنوك ،

أغلبها كان حكرا على الأجانب والمتمصرين ،

وخدمهم من أهل البلد الأصليين .

وقد رفضوا كل العروض و التسهيلات ،

التي قدمت لهم للمساهمة في تصنيع البلاد .

التأميمات إذن أعادت الحقوق إلى أصحابها .

العروسة السابقة : ما زلت مقتنعا بأن الجنون و الحقد ،

أعمياه عن كل شئ عدا ذاته ،

بعكس السادات الذي كان زعيما من نوع آخر ،

أضناه البحث عن الذات ،

و يعرف ربه في الخفاء أكثر مما في العلن .

رأيته يجلس على الأرض كعادة الفلاحين ،

يأكل هو و أفراد أسرته من طبق واحد فوق الطبلية ،

(صحيح أنهم كانوا يجلسون فوق موكيت بلجيكي فاخر ،

و أن الأمر كله كان للتصوير ،

و أن المدام رفضت الاشتراك في هذا التهريج ،

إلا أن الموقف يكشف لكم حقيقة ميوله و توجهاته) .

كان هو الذي ساعدني على الخروج من أخطر محنة واجهتها

عندما اشتركت في مقاولة إقامة قواعد الصواريخ ،

أثناء حرب الاستنزاف ،

وقصفت الطائرات الإسرائيلية عدة مواقع في آن واحد ،

فقتلت خمسمائة عامل مرة واحدة ،

ثم تبين أن الإسرائيليين حصلوا على خرائط هذه المواقع ،

من مكتبي ،

و عن طريق أحد أقاربي .

لكن الله ستر ،

ولولاه ماكنت أفلت برقبتي .

وفيما بعد ،

بعد أن نجح العبور في ٧٣ ،

و أحدث شارون ثغرته المشهورة ،

استدعاني السادات للقائه ،

و تصورت أني سأجده منهارا أمام ذلك التطور المفاجئ .

لكنه كان في قمة الإنتشاء ،

وهو يحدثني عن التعمير

(كانت اسرائيل تشترط البدء فورا في تعمير مدن القناة لتكون حاجزا إذا ما تجدد القتال) ،

و عن تحويل بورسعيد إلى مدينة حرة ،

تزدهر فيها المصانع الأجنبية دون قيود ،

عاهدا إلي بالمقاولة كلها .

و كانت المعونة الأمريكية جاهزة للتمويل

(تحية لزعيمة العالم التي وقفت إلى جانبنا في وقت الشدة)،

و سرعان ما امتلأت أسواق البلاد العطشى ،

بالسلع التى حرمت منها طويلا :

السفن أب و صابون كامى و شكولاتة نستلة ،

و الجبن الفرنسى ذى الرائحة النتنة .

كان نجاحى كاسحا ،

فأعطانى وزارة التعمير ،

ثم ضم لى وزارة الإسكان ،

يعنى أخذت مقاولة البلد كلها.

كنا نستقل الهليكوبتر ،

نحلق فى السماء و معنا الخرائط .

و كان بوسعى أن أضع إصبعى على أى مكان ،

و أفعل به ما أشاء .

و كانت تأتينا أفكارأخاذة حقا ،

مثل الأمن الغذائى ،

ومنع أكل اللحم لمدة شهر كامل !

أنشأت خلاله أكبر جسر جوى عرفه العالم ،

من الدواجن المجمدة .

و بعد الدواجن جاءت الأسماك .

ولاحظت أن الشركات الأجنبية فى المناطق الحرة ،

التى تنتج أحمر شفاه ، حاضنات أطفال ،

مناديل ورقية و كافيه ،

تعتمد على البنوك المصرية في التمويل ،

وتتمتع بإعفاءات من الضرائب و الجمارك ،

و تستغل أيدي عاملة رخيصة ،

وتصدر للخارج أرباحا بالملايين .

ورأيت أني أولى منها بالخير ،

فأصبحت إقامة الشركات لعبتي .

وتربع اسمي على رأس ٢٠٠ شركة ،

للمقاولات و الأحذية و السياحة ،

المياه الغازية والتوكيلات التجارية .

شركات خفيفة سريعة الربح ،

أقمتها بالتعاون مع النابهين ،

الذين يدينون بالفضل للقطاع العام ،

للتوريدات و السوق السوداء و شغل الباطن ،

والتحايل على قوانين النقد و الجمارك ،

للهزيمة و التعمير ،

و حضرات الضباط الأحرار ،

الثوار ،

و أهل الفن ،

أقصد التكنوقراط ،

الذين كونوا الثروات من البدلات و المخصصات و الامتيازات.

لم أضع فيها مليما واحدا من جيبي ،

إنما مولتها من بنوك القطاع العام وشركاته ،

وصناديق النقابات ،

و تأمينات العاملين و معاشاتهم ،

وحق الاستيلاء على أية أملاك عامة من أراضي و خلافه ،

يعني باختصار : عسل !

لكن حلقة واحدة كانت ناقصة .

عرفت أن بنكا أجنبيا حقق ربحا بمليون جنيه في أول س

من نشاطه ،

حوله كاملا إلى الخارج .

في حين أن الشركات تحقق أرباحها بعد عدة سنوات و تد

محبوسة داخل البلاد ،

محرومة من فرصة التوالد في البورصات .

هكذا انتقلت إلى إقامة البنوك

بنفس الطريقة ،

أي من أموال البنوك الأخرى ،

بعبارة أخـــرى : من دقنه وافتله .

و في شهور معدودة كان لي بنك في كل محافظة :

٢٣ بنك .

و خلال سنوات قليلة كانت أموال البلاد في يدي ،

كما كان الأمر معه ،

و مع محمد علي من قبله .

على أني لم أكن في غباء الاثنين :

اللذين حاولا حبسها في مشروعات ضخمة ،

يحدوها طموح أجوف ،

و تحتاج إلى سنوات طويلة قبل أن تؤتى أكلها ،

وهو ما يتنافى مع طبيعة البشر و أوامر الدين .

عروسة صفراء

بلحية كثيفة : ٢٠٠ شركة و ٢٣ بنك لجمع بضعة مليارات !

ياله من مجهود ،

لم أكن في حاجة إليه !

الجميع يعرفون الآن قصة جحا و الحلة .

ولابأس من أن أرويها من جديد ،

فالتكرار لايؤثرفى الجماد .

ذات يوم اقترض جحا حلة من إحدى جاراته .

بعد أيام ذهب إليها حاملا الحلة و طاسة صغيرة .

سألته الجـــارة : ما هذا يا جحا ؟

قال جحا: الحلة ولدت عندي ،

و بما أنك صاحبتها فأنت أحق الناس بخلفتها .

بالطبع أخذت الجارة الطاسة ،

و ألحفت على جحا أن يحتفظ بالحلة ، لعل و عسى .

ثم روت القصة لجيرانها.

و ذاعت معجزة جحا و أمانته بين الجيران ،

فتسابقوا يعرضون عليه حللهم ،

متوسلين أن يضعها لديه بعض الوقت ،

لعل شيئا من بركته يمسها ،

و تلد كسابقتها .

انتظروابضعة أيام ثم بدأوا يترددون عليه سائلين عن حللهم .

واكتشف أحدهم اختفاء حلته،

فقال له جحا أنها ماتت أثناء الوضع .

لم يكن صاحب الحلة من البلاهة ليصدق هذا الزعم .

صـــاح في جحـا : هو معقول أن الحلة تموت ؟

وكان رد جحا المفحم : هو معقول أنها تلد ؟

تذكرت هذه القصة في شهوري الأولى بالسعودية،

و أنا أعود منهكا بعد ساعات طويلة من الوقوف بائعا في حانوت ،

لأستغرق في النوم بعد نوزين كتشينة ،

مع زملائي في الشقة ،

يجري خلالهما الحديث حول موضوع واحد لا يتغير :

ماسيشترونه بمدخراتهم عند العودة النهائية إلى مصر .

كل منهم كان يحلم بأن يعيش بقية حياته كأصحاب النفط بالضبط :

شقة مجهزة من كله ، سيارة ،

ووديعة محترمة في البنك ،

يعفيه عائدها من عناء العمل .

وعندما أباح السادات ، رحمة الله عليه ،

الاستيراد بالعملة الأجنبية مباشرة ،

أصبح هناك طلب كبير على الدولار .

هنا واتتنى الفكرة .

بدأت أجمع الدولارات من المصريين في السعودية ،

و أبيعها لمن يحتاج إليها من المستوردين في مصر

كنت أشترى الدولارات بجنيهات مصرية

تدفع في مصر من خلال حسابات لى بالبنوك .

مضت الأمور على هذا المنوال بنجاح إلى أن واتتنى فكرة جديدة.

واحدة من الأفكار التى تغير مصائر الأمم و الشعوب .و الأفراد.

أن أكون أنا نفسى بنكا !

ليس هذا فقط ...

و إنما أيضا : بنك يأخذ ولا يعطى !

يعنى أخذ الدولارات دون أن أدفع شيئا مقابلها .

بدأت باللحية فأطلقتها ،

و حفظت عن ظهر قلب عدة آيات قرآنية .

و أصبحت من أنصار الاقتصاد الإسلامي ،

أبشر بالقضاء على الربا.

و إختلقت حديثا شريفا يساوى من أخذ الربا بمن زنا بأمه في الكعبة .

عرضت على أصحاب الأموال فائدة لا تقل عن ٢٤ بالمائة ،

فهرعوا إلى بأموالهم زرافات ووحدانا ،

دون أن يساورهم الشك ،

ووجدت بين أصحاب الفضيلة من أعلنوا أن هذه الفائدة ،

ليست فائدة و بذلك لا تعد من الربا ،

فاطمأنت قلوب المودعين المؤمنين .

وبدأت الملايين تتجمع لدى دون أن أدفع شيئا .

كيف ؟

الأمر جد بسيط ، كما سبق أن تبين جدا .

كنت أعطى الفائدة للمودع من وديعة المودع الذى بعده .

ثم واتتنى فكرة ذهبية أخرى :

أن أسترد هذه الفائدة من المودع دون أن يشعر!

كيف ؟

قمت بحملة إعلانية واسعة عن مشروعات ضخمة جديدة للمنتجات الغذائية،

و السلع الكهربائية المستوردة ،

هى فى الحقيقة مشروعات قائمة بالفعل ،

اشتريتها بما لدى من إيداعات ،

و أعدت بيع منتجاتها بزيادة فى السعر .

لمن فيما تعتقدون ؟

للمودعين أنفسهم ،

لأنهم عمليا الطبقة القادرة على شراء السلع الغالية ،

و الذين اشتروها – أى سلعهم – بالفعل ، للمرة الثانية !

و بذلك ضربت عدة عصافير بحجر واحد :

فقد أوهمت الجميع ان الأموال المودعة لدى تعمل بنشاط فى الإنتاج ،

وجذبت بذلك مودعين جدد .

ثم انى استعدت الفائدة التى أخذها المودعون من خلال السلع التى اشتروها .

بل و أجبرتهم أحيانا – عن طريق الإعلانات – على أن يشتروا سلعا ليسوا

فى حاجة إليها ،

على أن يخصم ثمنها – الذى أحدده على هواى – من ودائعهم ذاتها .

يعنى ، باختصار ، سخمطتهم !

عروسة صفراء ٥ : ياللعار!

ألا تخجل !

العروسة الملتحية : أنا لم أخدع أحدا و لم أرغم أحدا ،

كل ما فعلته كان فى الضوء .

بشهادة أصحاب الفضيلة و السيادة و السعادة ،

الذين نالهم من الحب جانب .

وإلا ما كانت الدولة كافئتنى ،

بأن حولتنى إلى شركة مساهمة ،

أملك أكثر من نصف أسهمها

(هى فى الحقيقة أموال المودعين) ،

مقابل أن أدفع لهم نقودهم على مدى عدة سنوات ،

يأخذون أغلبها سلعا مستوردة بأسعار مضاعفة .

متفـــــــرج ٣ : الحق كله معك .

لم يكن بإمكانك أن تجمع مدخرات الناس ،

لو لم يتواطأ الدكاترة المحترمون معك .

فبدلا من وضع الخطط لاستثمارها فى إقامة الصناعات

والتنمية ،

تعمدوا توفيرها للسماسرة والمغامرين والنصابين ،

من أبنائهم و أقاربهم و أذنابهم ،

بينما راحوا يقترضون من البنوك العالمية ،

التى دفعت الرشاوى بسخاء .

متفـــــــرج ١ : جملة القروض التى قدمتها بنوك القطاع العام الأربعة ،

للمحظوظين من رجال الأعمال عام ١٩٩٥ ،

بلغت ١٢ مليارجنيه ،

استخدمت فى المضاربات العقارية ،

و تمويل صفقات تجارية استهلاكية كالسيارات .

تصوروا لوكانت قدمتها للصناعة .

عروسة أمريكية : اسمي مكنامارا .

لا أحد يذكرني الآن ،

رغم أني كنت ذات يوم ملء السمع و البصر ،

مشهورا بنظرى الحاد ، عويناتى المعدنية ،

و شعرى الفضي .

كان شعارى أن كل مشكلة لها حل ،

أيا كانت إنسانيته ، أو أخلاقيته .

خرجت من جامعات الصفوة إلى شركة فورد ،

حيث بنيت سمعتى كرجل إدارة منقطع النظير ،

لهذا اختارنى كندى وزيرا للدفاع ، لأديرالحرب الفيتنامية .

لكنها تعسرت على ،

فانتقلت فى ١٩٦٨ إلى إدارة البنك الدولى ،

حيث حققت نجاحاتى .

كانت مهمتى الرئيسية فى التعامل مع نموذج التنمية ،

الذى اعتمدته بلدان العالم الثالث ،

ففضلا عن سذاجته و رومانسيته ،

لم يكن يواكب التطور العالمى ،

و بالتالى يتعارض مع مصالح الغرب .

فماذا يحدث لو تمكنت مصر و الهند و المكسيك ،

و غيرها من دول العالم الثالث ،

من بناء صناعتها الخاصة ؟

إذا أكلت و شربت و لبست من إنتاجها ؟

عكفت على دراسة الملف المصرى ،

فرأيت بثاقب نظرى ،

الهاوية التى كان يسير إليها المرحوم ناصر .

كانت سياسة التنمية التى اعتمدها تقوم على إحلال الواردات الاستهلاكية ،

(ثلاجة و بوتاجاز و سخان لكل مواطن فضلا عن سيارة لأبناء الصفوة) ،

أى على استيراد السلع الوسيطة و الآلات .

ولأن الادخار المحلى كان غير كاف لتمويل تلك الاحتياجات ،

ظهر العجز فى ميزان المدفوعات .

و عندما تورط في اليمن ،

واصطاده السعوديون على أرضها ،

اهتزت خطة التنمية ..

ثم إنهارت تماما عندما أوقعه الإسرائيليون ،

وبدأ الاقتراض من البنوك العالمية .

لكنه تم في أضيق الحدود .

وتفاقم الوضع بعد حرب أكتوبر ٧٣ ،

بينما تجمعت في البنوك العالمية أرصدة ضخمة

تبحث عن استثمار.

هنا جاء دوري ..

قمت بواجب الزيارة لمصر في ١٩٧٤،

بعد أن مهد روكفلر و كيسينجر الطريق .

وتحدثت مع حجازي عن سياسة الانفتاح .

وعندما أبدت مصر مرونة في محادثات فصل القوات ،

أبديت استعدادي لزيادة حجم الإقراض لها،

من ٣٠ مليون دولار إلى ٣٠٠ مليون دولار.

ورحب السذج :

وفي ١٩٧٧ ظهرت مشكلة سداد القروض ،

و أبدى صندوق النقد صرامة وحزما بالغين .

اجتمعت بالقيسوني ، .

(الذى كان هو نفسه ممثلاسابقا للصندوق فى الشرق الأوسط)

و عرضت عليه طلبات الصندوق فقبلها .

لكن الإتفاق باظ بسبب انتفاضة الحرامية .

ولم تمض شهور إلا وذهب السادات إلى كامب ديفيد ،

ثم وقع الصلح مع إسرائيل .

و كان لا بد من مكافأته .

فعقدنا اتفاقا ثانيا ، تدفقت القروض على أثره .

متفـــــرج ٢ : أنت حقا نجحت .

فقد أصبح البنك الآن وصيا على اقتصاد البلدان البائسة ،

لصالح الشركات العالمية العملاقة ،

يراقب المصروفات العامة و يتولى توزيع موارد الانفاق ،

أى يرأس مجالس الوزراء .

فعندما عجزت البلدان الفقيرة عن سداد ديونها للبنوك العالمية،

(التى فرضت فائدة أعلي بكثير من إجمالى المساعدات و القروض)

حل صندوقكم محل البنوك ،

و بدأ فى تحصيل فوائد الديون كوكيل عن الدائنين ،

عن طريق منح قروض جديدة ،

لإجراء ما سمي بالإصلاح الاقتصادى ،

و التكييف الهيكلي .

متفـــــرج٣ : طلبتم في البداية تخفيض الإنفاق الحكومي ،

و إطلاق حرية الأسعار أي ربطها بالأسعار العالمية ،

(أسعار عالمكم أنتم)

بعد إلغاء دعم الاستهلاك و المسكن ،

والمواصلات و المياه و الكهرباء .

أمور نقبلها لو أطلقتم أيضا حرية الأجور ،

أي ربطتموها بالأجور العالمية .

عروسة صفراء ١ : الكلام هنا يلقى على عواهنه ،

وإلا فليقل لي الجهابذة :

كيف يمكن أن تحل مثلا ندرة مشكلة المياه ،

إذا لم تُسعّرعلى نحو ملائم ،

يحفز المستهلكين إلى استخدامها بفاعلية أكثر؟

متفـــــرج ١ : غريبة !

أول مرة أسمع عن ندرة المياه .

فما أعرفه أن المرحوم أنور ،

من كثرة الفائض ،

عرض تزويد إسرائيل بما تحتاجه منها .

متفـــــرج ٢ : ثم طلبتم تخفيض قيمة الجنيه المصري ،

بحجة إنقاص الواردات الأجنبية .

متفـــــرج ٣ : صفقة رائعة لحساب الأجانب و عملائهم المحليين ،

الذين يكسبون سعرا أفضل لعملاتهم الأجنبية بزيادة الثلث

بينما ندفع نحن زيادة فى أعباء الديون بمقدار الثلث ،

و زيادة فى ثمن ما كنا نستورده بمقدار الثلث

(أى مسح المدخرات التى شقينا فى جمعها) .

متفـــــرج ١ : إلغاء الرسوم الجمركية على المستورد ،

للقضاء على ما تبقى من مصنوعات محلية .

متـــفرج ٢ : هيكلة الإنتاج لصالح التصدير،

أى توجيه الإنتاج لهدف التصدير لا لتلبية

احتياجات الشعب (فهذه سيتم تلبيتها بالمستورد) ،

من أجل توفير النقد الأجنبى لسداد الديون وفوائدها ،

ولتزويد الحكام بالسيارات والمكيفات و الفيديوهات .

عن طريقين لا ثالث لهما :

إما التخصص فى المشغولات الحرفية ،

مثل منتجات خان الخليلي ،

والمحاصيل الزراعية مثل الفراولة و الخيار الشيك .

وإما من خلال مصانع أجنبية (بالكامل أو بالمشاركة)،

فى العاشر من رمضان أوالسادس من اكتوبر،

تنتج السلع الوسيطة

أدوات كهربائية بطاريات منتجات ألومنيوم ،

أثاث ملابس جاهزة أدوات زينة سيراميك

مياه غازية لبان ألبان فواكه بناء سجاد ،

تجميع سيارات تصنيع لحوم فاسدة ،

مناديل ورق منظفات ،

معفاة من الضرائب و الرسوم ،

ومن تكاليف النقل و التأمين .

عروسة صفراء٢ : قيمة أي دولة الآن تقاس بمقدار ما تصدره ،

و يسرني أن أبلغكم بأننا طالبنا الأمريكان ،

في اجتماع لمجلس الوزراء المشترك ،

بفتح أسواقهم أمام الصادرات المصرية .

متفـــــرج ٣ : أى صادرات تتحدثون عنها ؟

إلا إذا كنتم تقصدون المنتجات

التي سيصنعونها بثمن رخيص لدينا !!!

متفـــــرج ١ : تصفية القطاع العام (الذي نهبوه و خربوه) ،

و بيعه في المزاد ،

أي الخصخصة والمصمصة

متفـــــرج ٢ : ٢١ شركة للصناعات الهندسية ١٤ للصناعات الكيماوية ،

١٧ للصناعات المعدنية ٢٢ الصناعات الغذائية ٧ للغزل والنسج ،

١٤ لتصنيع المنسوجات ٩ للأدوية ، ١٢ للنقل البحري ،

١٣ للتعدين و الحراريات ١٧ للمضارب والمطاحن ،

٢٢ للقطن والتجارة الدولية ١٦ لتوزيع الكهرباء ،

٢٣ للتشييد والتعمير ١٣ للأشغال واستصلاح الأراضى ،

١٤ للتنمية الزراعية ، ٢١ للإسكان والسياحة والسينما ،

وعشرات أخرى غيرها .

متفـــرج٣ : ٣١٤ شركة قيمتها –عند إنشائها– مائة مليار جنيه ،

أى مائةألف مليون جنيه ،

و بسعر السوق الآن ،

لا أقل من أربعة أضعاف أو خمسة ،

أى خمسمائة ألف مليون جنيه ،

أو خمسمائة مليار .

متفـــرج ١ : الحديد و الصلب الكابلات الكهربائيةالسجاد الغزل و النسج ،

الدلتا الصناعية (ايديال) العربية للراديو النصر للتليفزيون،

مصر للألومنيوم النصر للمعدات والتركيبات ،

كيما الأسمدة النصرللأجهزة الكهربائية راكتا للورق ،

الماكو للمحولات النصر للنقل الخفيف ،

قها فيليبس كولدير الغازات الصناعية ،

الخزف والصينى ترسانة الأسكندرية ،

أسمنت طرة أسمنت حلوان أسمنت العامرية ،

الأسكندرية للأسمنت الصناعية للمبيدات والأسمدة،

مصر للصناعات الكيماوية البويات والصناعات الكيماوية ،

العامة للصوامع و التخزين مطاحن مصر العليا ،

مطاحن شرق الدلتا مطاحن وسط وغرب الدلتا ،

مطاحن مصر الوسطى مطاحن شمال القاهرة ،

المصرية لتصنيع الأخشاب النصر للملابس و المنسوجات ،

العربية للغزل والنسيج الأسكندرية للغزل والنسيج ،

دمياط للغزل والنسيج المتحدة لتجارة المنسوجات ،

النصر للمنسوجات ستيا ، الدلتا للغزل و النسيج ،

مصر شبين الكوم للغزل المنسوجات الحديثة ،

العربية لتجارة المنسوجات بورسعيد لتصدير الأقطان ،

عمر أفندى صيدناوى شيكوريل بنزايون عدس ريفولى ،

بيع المصنوعات المصرية ،

متفــــــرج ٢ : العربية للتوكيلات الملاحية ميتالكو المالية ،

القناة للتوكيلات الملاحية الأسكندرية للحاويات،

دمياط للحاويات النصر للزجاج و البللور ،

مصر للزيوت و الصابون المصرية للنشا و الجلوكوز ،

الزيوت المستخلصة الشرقية للكتان بكفر الزيات للمبيدات ،

النيل للكبريت المصرية للصباغة و التجهيز النصر للمعدات والتركيبات ،

ممفيس للأدوية القاهرة للأدوية العربية للأدوية الأسكندرية

للأدوية ،

السويس للمناطق الحرة المجادى للإسكان و التنمية ،

أطلس للمقاولات التنمية المتحدة للإسكان ،

مصر للأسواق الحرة ،

متفـــــرج ٣ : الدواجن كرونا للحلويات الأهرام للمشروبات ،

مصر للألبان بسكومصر إدفينا، المعلبات ،

فنادق كوزموبوليتان فلسطين شهرزاد البرج كليوباترا النيل ،

شبرد، ميناهاوس منيل بالاس ماريوت الخيام ،

كتراكت أسوان ونتر بالاس هلنان رومانس أسكندرية إجوتيل الأقصر ،

أني أتون حتب توت أسوان أوبرى السويس إتاب الأقصر ،

بولمان سيسيل الأسكندرية الأقصر كلابشة أسوان ،

العلمين مينا الأقصر آمون اسوان سافوى الأقصرسان استيفانو،

بواخر ايزيس شهريار شهرزاد نفتيس ايزيس أوزوريس

هلنان دهب هلنان بورسيعيد كميت قرية مجاويش

مصر الجديدة للإسكان و التعمير مدينة نصر ،

الشرقية للدخان ،

متفـــــرج ١ : وبعد ذلك : الكهرباء والمياه والمجارى ،

النقل العام والمترو والسكة الحديد ،

الطيران و المطارات و الطرق ،

التليفونات والبريد ،

الجامعات والبنوك ،

قناة السويس والبترول ،

السد العالى ،

المصانع الحربية

الأهرامات

(التى بدأت إسرائيل تطالب بها) ،

أى كل ممتلكات الشعب المصرى .

متفـــــرج ٢ : كل ما حاربنا و ضحينا ،

من أجل إقامته و الدفاع عنه ،

فى ٥٦ و ٦٧ و ٧٣ ،

وكأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا .

عروسة صفراء ٣ : الحكومة لن تبيع سوى الشركات الخاسرة ،

التى تمثل عبئا على الاقتصاد الوطنى .

متفـــــرج ٣ : كاذب فى أصل وشك !

فأنتم تبيعون الشركات الرابحة بحجة أن أحدا لن يشترى الخاسرة !

وقد تعهدتم كتابة بأنكم ستستخدمون حصيلة البيع ،

لإصلاح الشركات الخاسرة فعلا

تمهيدا لبيعها !!!

متفـــــرج ١ : كذبة أخرى من ترسانة أكاذيبكم ،

تضحكون بها على الشعب الساذج :

"الهدف من البيع هو توسيع قاعدة الملكية للمصريين ،

الشركات الاستراتيجية لن تمس ،

الأجانب لن يسيطروا على اقتصادنا ،

لن يضار عامل واحد ،

المعاش المبكر هو إجراء لصالح العاملين " .

متفـــــرج ٢ : تعهدتم للصندوق فى خطاب النوايا التعيس ،

أن تتيحوا للأجانب فرصة تملك المشروعات الوطنية ،

والمشروعات ذات المنفعة العامة ،

كالطرق السريعة التليفونات المترو ،

الكهرباء المياه المجارى ،

لمدة ٩٩ عاما (على غرار قناة السويس) ،

يقومون خلالها بجباية الضرائب نيابة عن الحكومة ،

لتحصيل التكاليف و الأرباح ،

و تحويلها لا لخزانة الدولة وإنما لبلادهم فى الخارج .

متفـــــرج ٣ : تعهدتم أيضا بأن تعطوا الأجانب ،

ما بخلتم به على أبناء بلادكم و صناعاتها :

إعفاءات ضريبية و جمركية لمدة خمس عشرة سنة ،

و فرصة الاقتراض من البنوك المصرية .

متفـــــرج ١ : وأقسمتم على المصحف ،

أنكم ستساعدونهم على التخلص من ١٤٠ ألف عامل ،

بعد مهلة ٣ سنوات ،

بلعبة المعاش المبكر .

متفـــــرج٢ : تعهدتم أيضا بعدم المساس باحتياطياتنا من النقد الأجنبى ،

التى تكونت من ثمرة جهدنا و معاناتنا

(يدفع المواطن نصف دخله فى ضرائب مختلفة دون أن يشعر) .

١٨ مليارا من الدولارات ،

التزمتم بعدم استخدامها فى مشروعات إنتاجية أو حتى فى سداد الديون ،

و بإيداعها فى البنك الفيدرالى الأميركى ،

أى حبسها لصالح عدونا الأكبر .

متفرج ٣ : تعهدتم بإجراء تخفيض الجمارك بنسبة ٧٠ بالمائة خلال ٣ سنوات،

بينما حددت اتفاقية الجات هذا التخفيض بنسبة ١٠ فى المائة سنويا فقط

خلال عشر سنوات .

متفـــــرج ١ : التزمتم أمام ساداتكم بأن يقوم البنك الدولى وصندوقه ،

بمراجعة دورية لأداء الحكومة كل ثلاثة شهور .

متفـــــرج ٢ : هكذا اكتملت حلقات المؤامرة الجهنمية ،

التى بدأت مع نجاح أول خطة خمسية لتصنيع البلاد فى ١٩٦٥،

فبعد أن أغرقنا السعوديون فى مستنقع اليمن ،

استدرجنا الإسرائيليون إلى فخ ٦٧ ،

و تولى أنور و صحبه الباقى .

متفـــــرج ٣ : ما أشبه الليلة بالبارحة !

كلما تذكرت أن للخواجة مكتبا دائما فى وزارة الاقتصاد المصرية ،

بصفته ممثلا لهيئة صندوق النقد الدولية ،

خطرت لى صفحة مأساوية فى تاريخنا الحديث ،

بدأ معها تخلفنا المشين .

فبعد محاولات التحديث بالتصنيع و التعليم ،

التى قام بها محمد على ،

(فى نفس اللحظة التى بدأته فيها اليابان)،

و أجهضتها أساطيل الغرب ،

انصرف حفيده إسماعيل إلى التحديث بالقصور و التماثيل ،

فبدد ثروات البلاد فى سفه ،

ثم تحول إلى الاقتراض من أصدقائه الأوروبيين .

وعندما عجز عن السداد ،

أجبروه على إعلان الإفلاس ، .

وإنشاء هيئة أجنبية تتولى إعتصار الاقتصاد ،

لسداد الديون ، أسموها صندوق الدين ،

أقام ممثلاه فى المكتب الذى تحتله سيادتك ،

فمهدا الطريق لسبعين سنة من الاحتلال .

عروسة صفراء ١ : مهلا ، مهلا ، يا سادة !

شراء المستثمرين الأجانب للشركات المصرية ،

سيمدنا بالعملات الأجنبية التي تحتاجها التنمية .

متفـــــــرج ١ : الأجانب لن يدفعوا نقودا فى الشراء ،

بل سيشترون الديون الخارجيةللشركات بقيمة اسمية ،

ثم يحولون الدين إلى أسهم فى هذه الشركات ،

بقيمة تساوى أضعاف ما دفعوه لشراء الدين .

و بعد ذلك يحولون هذه الشركات

إلى إنتاج السلع الوسيطة إياها ،

بحيث يمكن تصدير *السلع* الرخيصة *للخارج* ،

واستيراد *السلع* المتكاملة غالية الثمن .

(ارتفعت الواردات الخارجية من ٨ ملياردولار عام ١٩٩١

إلى ١٤ مليار دولار عام ١٩٩٣

بزيادة بلغت ٨٠ بالمائة خلال عامين) ..

العروسة الصفراء

السـابقـة : شراء المستثمرين الأجانب للشركات المصرية ،

سيتبعه حتما تطوير إدارى و تكنولوجى،

ندخل به القرن الواحد و العشرين ،

مرفوعى الروس و القامات .

المتفرج السابق : أحلام العصافير،

وحجج اللصوص و المرتشين .

ستدخلون حقا القرن الواحد والعشرين،

وإنما فوق بطونكم منبطحين .

الشركات العالمية تحرص على أسرارها و خبراتها .

وهى تعمل وفق استراتيجية معروفة ،

تقوم على نشر عمليات إنتاج السلعة فى عدة بلدان ،

بحيث لا ينتج البلد الواحد غير حلقة واحدة أو أكثر،

من سلسلة إنتاج السلعة الواحدة .

حالة واحدة تتصرف فيها بكرم ،

عندما يتعلق الأمر بالصناعات الملوّثة للبيئة .

متفـرج ٢ : سأقرأ عليكم تقريرا داخليا للبنك الدولى ،

نشرته فى ٨ – ٢ – ١٩٩٢ مجلة الإيكونومست الإنجليزية

(التى يملك نصفها بنك روتشيلد إياه) .

يقول التقرير أن المصلحة الاقتصادية (لمن ؟)

تحتم نقل الصناعات الملوثة ،

مثل البطاريات الكهربائية و المبيدات ،

الحديد الزهر و الأسمنت و الاسبيستوس ،

إلى العالم الثالث .

ويسوق التقرير ثلاث حجج في هذا الشأن :

الأولي بالحرف : من الأفضل تلويث البلدان المنخفضة الأجور حيث أن تكاليف حماية البيئة بها منخفضة كذلك .

الثانية بالحرف : من الأفضل تلويث البلدان التي لم تتلوث بعد لأن ذلك يكلف أرخص في بداية الأمر .

الثالثة بالحرف : من الأفضل تلويث المناطق ذات مستويات المعيشة المنخفضة

حيث يكون لدى الناس على كل حال كثير من الهموم الأخرى.

ويضرب التقرير مثالا على الحجة الأخيرة قائلا بالحرف :

إذا كانت إحدى الصناعات الملوثة .

تؤدى إلى زيادة إحتمال الإصابة بسرطان البروستاتا ،

بنسبة واحد في المليون ،

فان القلق الناشئ عن ذلك سيكون بالبداهة ،

أشد بكثير في بلد يمتد فيه عمر الإنسان طويلا ،

(بلادهم هم طبعا)

من بلد يموت فيه ٢٠ بالمائة من الأطفال ،

قبل الخامسة من عمرهم

(بلادنا نحن بالطبع.)

متفــــرج٣ : كافة البلدان التى تعاملت مع الصندوق،

ونفذت روشتة المشئومة ،

تعرضت للفاجعة .

زادت الديون الخارجية ،

و هبط مستوى المعيشة و القوة الشرائية ،

وتدهورت الخدمات و الصناعات المحلية .

متفــــرج١ : أغرب ما فى الأمر أن الصندوق نفسه ،

يعترف بأن برامجه الإصلاحية لم تثمر ،

وأنها أدت إلى زيادة التضخم ،

وانخفاض معدلات النمو ،

لكن المرتشين الفاسدين يشيدون بدورها

فى إزالة "أسباب الخلل الاقتصادى" ،

ويؤكدون أنها أفضل وسيلة ،

لا لإذلال الجماهير وتمريغها فى التراب ،

وإبادة أكبر جزء من السكان ،

وإنما لتحسين مستوى معيشتها ،

وتحقيق رفاهيتها !

متفـــــرج ٢ : قوانين السوق التى يتم إجبار دول الجنوب على تطبيقها ،

هى نفسها التى أوجدت ٢٠ مليون عاطل و ٤٠ مليون فقير ،

فى الدول الغربية .

عروسة صفراء٣ : اقتصاد السوق هو اللى نادى به ربنا و نادت به الأديان .

وهو الكفيل بكسر الطوق ،

ليبدأ عصر الإنتاج الواسع القادر على غزو الأسواق العالمية،

حقا ستكون هناك قرارات صعبة فى مجال التعليم و الصحة

و التغذية ،

لكنه الطريق الوحيد للحاق بالنمور الأسيوية .

متفـــــرج ٣ : حديث النمور ينم عن جهل أو خداع .

فقد بدأت بنفس سياستنا فى إحلال الواردات .

لكنها على العكس منا ،

تمتعت بمساعدات أمريكية كريمة ،

فى صورة منح لا ترد ،

من أجل مواجهة الخطر الشيوعى ،

و لم تنشأ إلى جوارها إسرائيل ،

فلم تتعرض للعدوان أو الإستنزاف ،

و تجنبت الوقوع فى فخ المديونية .

وعلى العكس منا ،

طبقت نظاما صارما للنقد الأجنبى ،

فلم يسمح للأفراد بحيازته إلا مؤخرا ،

و أقامت الحواجز في وجه الواردات المنافسة للإنتاج المحلى

الذى مازال تصفه حتى الآن ملكا لقطاع عام ،

تسيطر عليه الحكومة بخطط خماسية و رباعية

(خلال ٢٥ سنة لم تستورد كوريا الجنوبية سيارة واحدة) .

النمور لم تنجح إلا لأنها لم تستسلم

لمفعول قوى السوق ، والحرية الاقتصادية .

متفـــــرج ١ : كما أنها ضحت بعديد من الأجيال ،

لا جيل واحد كما ألفتم انتقاد التجارب الإشتراكية .

فالمناطق الحرة التى أقامتها لتجهيز الصادرات ،

نجحت فى اجتذاب الاستثمارات الأجنبية ،

بسبب المزايا التى قدمتها :

عمالة منخفضة الأجرتضم الإناث و الأطفال ،

سبعة أيام عمل فى الأسبوع ،

حرمان من العطلات ،

ومن حق التنظيم و الإضراب ،

و من حد أدنى للأجور،

ومن حد الثمانى ساعات عمل ،

من التأمينات و المعاشات ،

و الخدمات الصحية و التعليمية ،

مما جعل الفرد فى ذعر دائم .

أهذا هو ما تريدونه لنا ؟

متفـــــرج ٢ : الواحد منا يستيقظ فى الصباح على منبه يابانى .

ويغسل وجهه بصابون فرنسى ،

ثم يحلق ذقنه بفرشاة صينية و ماكينة انجليزية ،

ويغسل أسنانه بمعجون أمريكى ،

ثم يتناول إفطارا من جبن دمياطى صنع فى الدنمارك ،

و يشرب شايا هنديا أو سيلانيا ،

بعد أن يضيف إليه لبنا جافا من فرنسا أو سويسرا ،

ثم يرتدى ملابس بسيطة : قميص أو بنطلون على المودة

القادمة ، مع الرخصة ، من فرنسا أو إيطاليا .

- و فى العمل يرتقى مصعدا بلچيكيا،

و يشرب فنجان قهوة برازيليا أو سفن أب و كوكاكولا ،

مع سيجارة مارلبورو أو روثمان ،

بعد أن يشغّل التكييف التايوانى أو اليابانى ،

ويتحدث فى تليفون سويدى .

ثم يبدأ العمل ، مستخدما قلما فرنسيا أو يابانيا ،

وورقا فنلنديا ،

وعند الظهر يذهب إلى الجمعية الفئوية ،

ليشترى سكرا كوبيا ، تونة تايلاندية ،

سردين أسباني و رنجة هولندية .

وفي طريق العودة إلى المنزل يأخذ خبزا مصنوعا بدقيق أمريكي ،

و منظفات فعالة بالماركة الأجنبية ،

ومصباحا بلجيكيا أو بولنديا ،

ودهانا استراليا لتلميع الأحذية،

و صلصة يونانية ، وأدوية سويسرية وإيطالية ،

و تتصدع رأسه و تتخرم أذنيه من نداءات للبيع أو للصلاة ،

من مكبرات صوت يابانية .

و يركب الأتوبيس الألماني الصنع ،

أو ميكروباسا يابانيا أو أمريكيا ،

دقت مساميره في العاشر من رمضان ،

ثم يشترى لابنه شكولاتة سويسرية ،

وعلى شاشة تليفزيون كورى ،

ركبت مفاتيحه في السادس من أكتوبر،

يتفرج على فيلم أميركي أو فرنسي .

وقبل أن ينام يسمع في نشرة الأخبار ، .

تصريحات المسئولين ،

تشيد بالصناعة المصرية ،

والانطلاقة الإنتاجية .

عروسة صفراء١ : الغباء هو الذى يشكك فى أربح صفقة ،

نقايض بها ما لدينا ،

الموقع الجغرافى ،

العمالة الرخيصة والسوق الواسعة ،

بالمستقبل .

متفــــــــرج٣ : أنتم فعلا تقايضون ما لدينا ،

بالمستقبل .

عروسة صفراء ٢ : الأعمى هو الذى يعجز عن الرؤية :

فالعالم الآن أصبح سوقا تصديرية كبيرة ،

و ستؤدى عملية السلام إلى ازدياد الاستثمار فى المنطقة ،

وتوسيع السوق الشرق أوسطية ،

وزيادة الاندماج بين دولها ،

بحيث تتشارك في الموارد المتاحة .

متفــــــرج ١ : أموال الخليج و نفطه ،

مياه النيل والأردن و اليرموك،

و الفرات و الليطانى ،

وكهرباء السد العالى .

عمالة مصر وفلسطين التعيسة .

متفــــــــرج ٢ : و تتولى إسرائيل المقاولة و السمسرة ،

فى مشروعات متكاملة ،

تقودها أمريكا ،

تعتمد على الموارد المتوفرة ،

من أموال و نفط و مياه و كهرباء ،

وعمالة تعيسة .

متفـــــرج ٣ : إن لم تعجبنا هذه السوق ، أمامنا واحدة غيرها ،

تضم البلاد المطلة على البحر المتوسط ،

جاهزة هى الأخرى ،

لاستغلال النفط و المياه و الكهرباء ،

والعمالة التعيسة ،

بقيادة فرنسا و ألمانيا ،

وقاعدتها إسرائيل أيضا .

متفـــــرج ١ : تحضرنى حكاية تناسب المقام ،

بطلاها اثنان من بلدياتنا ،

أحدهما بحراوى و الثانى ،كما هو متوقع ، صعيدى ،

قادهما البحث عن الرزق إلى الأدغال الأفريقية ،

وإلى الوقوع فى أسر قبيلة متوحشة .

وكان رئيس القبيلة لطيفا للغاية .

فقد خيرهما بين مصيرين :

إما "هونجا " و إما "قتلى ".

ومن إشارات يديه أدرك الأثنان المقصود بكلمة "هونجا " .

على الفور أعلن الصعيدى ، الذى يعتز بالشرف أكثر من الحياة ،

أنه يريد أن يكون من القتلى .

وكانت للبحراوى وجهة نظر أخرى .

بعد قليل من التدبر، قال :

– هونجا .

تأملهما رئيس القبيلة طويلا ثم أصدر أمره لأتباعه :

– الاثنين هونجا حتى القتلى !

عروسة أميركية : الجحود الذى تبدونه لا حدود له ،

فأنتم تنتقدون و تتهزأون ،

ولا يعجبكم العجب .

بينما تتوالدون كالأرانب ،

مما يقضى على كل فرصة فى التنمية .

متفـــــــرج ٢ : هذه هى نمرتكم الكبرى !

و لحسن الحظ أن شاهدا من أهله قد شهد .

يقول أحد مسئولى وكالتكم التنموية :

" إن استمرار الانفجار السكانى سيؤدى إلى ثورات،

و بدون أن نحاول معاونة بلدان العالم الثالث فى تحديد النسل،

ستثور شعوب العالم ضد الوجود التجارى الأميركى "

هكذا بوضوح ، و دون لف أو دوران .

رغم أن المنظمات التابعة للأمم المتحدة أكدت أكثر من مرة ،

أن العالم لا يشكو من نقص الغذاء ،

بقدر ما يعاني من سوء توزيعه .

و أنه قد يواجه كارثة إذا تقلص نموه السكاني ،

لأن الموارد الطبيعية لم تستغل حتى الآن بشكل كاف .

متفـــــرج ٣ : في عـام ١٩٨٤ تكدس في أوروبا الغـربيـة فـائض من المواد الغذائية

يكفي لملء مليون عربة ،

فوق خط حديدي طوله ١٥ ألف كيلومتر.

و بدلا من توزيع هذا الفائض على الأطفال النافقين ،

في تشاد و الصومال وأثيوبيا وبنجالاديش ،

جرى سحق الفواكه والخضراوات بالجرارات ،

و أتلفت الحبوب بالمواد الكيماوية .

متفـــــرج ١ : ما يشغل خبراءكم هو المحافظة على مستوى معيشة الغرب .

الفرد الأمريكي يستهلك من المواد الغذائية قدرما يستهلكه ٥٠٠ هندي .

وسكان الولايات المتحدة يستهلكون ثلث النفط العالمي ،

و ربع الحبوب و نصف الفوسفات ،

مع أنهم لا يزيدون عن ستة بالمائة من مجموع سكان الأرض.

عروسة صفراء ٣ : هناك الكثير من المبالغات والمغالطات ،

فيما قيل هنا .

و أخطاء فادحة أيضا .

فأنا و زملائي من رجال الأعمال المصريين الأمريكيين ،

كنا نتصور أن يجرى تكريمنا لا التشهير بنا .

فرغم أن أغلبنا خضعوا للتأميم فى السابق ،

وهاجروا منذ ثلاثين عاما ،

فإننا لم نحمل أى غضاضة ،

و هرعنا جميعا للاستثمار فى مصر ،

عندما أصبحت الفرصة مواتية ،

ذلك أننا نحبها ، أى مصر ، من أعماق القلب .

وانى أنتهز هذه الفرصة لأستحث ،

كل رجال الأعمال المصريين فى الخارج على العودة .

ففضلا عن الارتباط القومي و العاطفى ،

فإن العائد المالى مغر ، لا يقل عن عشرين بالمائة

(بينما لا يزيد فى أوروبا و أمريكا عن ثلاثة بالمائة) ،

وذلك بفضل المناخ الاقتصادى و السوق المفتوحة على البهلى.

عروسة صفراء ٤ : كلام مضبوط جربته .

كان الأمر ميسرا للغاية ،

لم يتطلب سوى عدة ملايين من الجنيهات لا الدولارات ،

تقاسمها بعض الوزراء و رؤساء القطاع العام ،

وكبار الصحفيين ، دون أن أنسى الشاشة الصغيرة .

ولذلك أمكنني أن أستولى على محصول القطن ،

وعندما تحقق له أحسن سعر فى بورصات العالم ،

قمت بتصديره .

ولأنى أحب مصر ،

و أشفق على أبنائها و عمالها ،

رتبت فى نفس الوقت الأمر ،

فاستوردت لهم قطن أمريكا الرخيص .

صحيح أنه لا يصلح لمغازلنا فانهارت و أغلق أغلبها ،

لكن ثمن التكنولوجيا ليس بخسا ،

ولا توجد جراحة بدون ألم .

عروسة صفراء ٥ : وأنا قمت عن طريق شبكة الأقمار الصناعية ،

ولصالح شركة أمريكية ،

بعمل مسح للأراضى المصرية ،

يمكنها من التنبؤ بكمية المحاصيل قبل الحصاد بمدة كافية .

و بذلك يمكن تحديد مساحات التخزين ،

وسياسات التسعير و التمويل ،

أى السيطرة على الوضع الزراعى .

عروسة صفراء ٦ : أنا عبقرى آخر ،

مصرى أميركى أو أميركى مصرى ،

كما تشاءون .

كل نبضة من نبضات قلبى تنادى بحب بلدى ،

مصر يعنى .

متفـــــرج ٢ : تانى !

عروسة صفراء ٦ : حاربت مرتين و كنت ضابطا مقاتلا فى حرب اكتوبر العظيمة .

و عندما أغرقت السيول ذخيرة الجيش الثالث ،

كنت أنا الذى قمت بإصلاحها فى مواقعها .

و بعد الحرب قمت بمفردى بإطالة أعمار صواريخ سام ،

عندما قطع عنا الروس الملاعين صواريخ الدفاع الجوى .

قدمت لمصر خلاصة فكرى .

ثم هاجرت إلى أمريكا ،

و أعطيتها هى الأخرى خلاصة فكرى .

أنا الذى قمت باختراع نظام "الدفع الآلى" للجيش الأمريكى.

واخترعت لهم نظام الدفع الهيدرومغناطيسى لحرب الكواكب .

و قمت بحل مشاكل صاروخ الهاربون للبحرية الأمريكية ،

و مشكلة تذبذب الضغط فى محرك مكوك الفضاء ،

و قدمت لهم مشروعا قالوا أنه سيحدث طفرة فى التكنولوجيا.

فيحق لبلادى أن تفخر بى .

متفـــــرج٣ : كان لدينا الكثيرون من أمثالك غداة حرب أكتوبر ،

عشرات الألوف من الشباب المؤهل لاستيعاب التكنولوجيا .

كنا فى حاجة إليهم لنبنى و نعمر ، .

فدفعوهم إلى الهجرة ،

ليخلو لهم الجو ويحلو السهر .

لكن لكل عملة – كما لعلك تدرك – وجهان .

فأنت بالتأكيد تعرف قصة الجسرالجوى الذى أمد اسرائيل بالدبابات ،

فى أحرج لحظات الحرب ،

و بالأعداد التى قتلها السلاح الأميركى .

فضلا عن المساعدات المالية و المساعدات الأخرى ،

التى قدمتها بلادك – أمريكا –

لشراذم الأمم ،

فمكنتهم من اغتصاب أرض ودولة .

فعلا ، يحق لبلادك أن تفخر بك .

متفـــــرج ١ : العباقرة الأمريكومصريون أو المصرأمريكيون كثيرون ،

وأغلبهم يعيشون بين ظهرانينا .

ودون أن يحملوا الجنسية المبجلة ،

تفانوا فى خدمة وطنهم الأعلى ،

و في إجراء البحوث المشتركة .

عروسة صفراء ٧ : لا أنكر أني ، فضلا عن مهام أخرى ،

لم يحن وقت الكشف عنها ،

أشرفت على إجراء أكثر من مائتي بحث ،

عن الزواج و الزار ، هجرة العقول و الانتخابات ،

العمالة مصادر الطاقة و المياه ،

الصحة توزيع الدخل ومعوقات الإنتاج ،

القوى السياسية ، الجماعات الإسلامية و القبطية ،

الذوق العام تحديد النسل تجديد شبكات الطرق ،

كل شئ يعني،

بواسطة باحثين لامبالين من الشباب ،

كانوا في حاجة إلى أكل العيش على كل حال .

متفــــــرج ٢ : فساعدت سادتك ، من بدري ،

على تحديد اتجاهات الاستثمار،

وإعادة صياغة أنماط الاستهلاك ،

والسيطرة على السوق ،

وفرض الشروط :

عروسة صفراء ٨ : أنا أسافر كثيرا بحكم عملي الصحفي ،

و دائما في معية الرئيس ،

و في كل مرة أزداد اقتناعا بأمر هام :

أننا نستطيع أن نخلق لأنفسنا ما نتمناه ،

من حياة كريمة و مجتمع راق ،

لو بذلنا مزيدا من العرق و الجهد .

متفـــــــرج ٣ : ليس ثمة شك فيما تبذل من جهد و عرق ،

فأنت تسافر على الأقل مرة كل شهر،

و تستغرق كل سفرة قرابة عشرة أيام .

صـحـيح أنك تتـقـاضى بدل سـفـر لا يقل عن ألف دولار في اليوم،

أى ما لا يقل عن عشرة آلاف دولار فى الشهر ،

و تحـصل على نصـيـبك من عـائد الإعـلانات التى تنشـرها الصحيفة ،

و عمولات على آلات الطباعة التى تستوردها ،

و المبانى التى تقيمها باسمها ،

فضلا عن المنافع الأخرى التى لا تعد و لا تحصى ،

و لا تقدر بثمن ،

لكن هذا كله لا يقارن بما تبذله – حقا –

من جهد و عرق .

عروسة صفراء ٩ : أنا قمت بواجبى على الوجه الأكمل ،

مع آخر طلقة فى حرب أكتوبر العظيمة .

كانت مهمتى هى التوعية و إعادة التثقيف ،

واتبعت في ذلك ما نصح به ذوي الخبرة من الأمريكان .

استلمناهم من لحظة الصحيان :

أكاذيب تدعمها حقائق ،

مشروعات وإنجازات على الورق ،

مهرجانات دائمة ،

إعلانات ملونة ،

أذان يخرم الآذان ،

ومسلسلات حتى الفجر،

إلى أن دوخناهم .

لو سألتم أحدهم الآن عما حدث في ٥٦ أو ٦٧ ،

سيحتاج بعض الوقت كي يتذكر.

البعض لم يعد يعرف حتى اسمه .

متفــــرج ١ : جئتم من أسفل الدرك ،

بعطش لا يرتوي للنعيم و السلطة .

تقربتم من الحكام ،

بمسح الجوخ و القوادة أو النسب ،

بكتابة التقارير، وشهادات الدكتوراه ،

التحليلات الإشكالية والشكلانية ،

الإشتراكية المخصوصة و القومية العربية ،

الأقنعة السبعة و الأزمنة المتغيرة ،

المسيرة و المعركة ،

الحداثة وما بعدها ،

و الشرق أوسطية .

وتتقلتم على أبواب السفارات :

الليبية والعراقية ،

و عندما تحول الميزان،

الكويتية والسعودية،

مرورا بمنظمة التحرير .

تذهبون فى الصباح معطرين مهندمين لمكاتب مكيفة ،

بعيون حمراء من السهر ،

حيث تتفننون فى التعليق والتزويق،

التفسير والتحليل ،

التبرير ، والإشادة ،

و لعق المؤخرات .

عروسة صفراء بعمامة : كنت معتكفا عندما جاءوا بى إلى هنا ،

منصرفا إلى هداية واحد من الجان ،

وإدخاله الإسلام .

متفـــــــرج ٢ : صفحتك مشرقة فى الهداية ،

تشهد بها الممثلات و الجنيات .

و مع ذلك فاتك بعض الجهد ،

لهداية شياطين الإنسان ،

ليكفوا عن قتل المسلمين فى فلسطين ولبنان ،

ويتنازلوا عن بعض الديون ، و الشروط .

عروسة صفراء بلحية و ملابس

باكســـــتانية : بسم الله الرحمن الرحيم ،

و الصلاة و السلام على سيد المرسلين .

الشرع شرع الله ،

ولا حكم إلا لله وبكتاب الله .

قال تعالى: "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرين" ،

صدق الله العظيم .

متفــــــرج ٣ : تسعون فى المائة من الشرع الذى تتحدثون عنه ،

قوانين استنها بشر ،

وصايا مؤقتة مرتبطة باحداث وقعت للرسول و أتباعه .

يمكننا أن نهتدى بها ،

لكن يجب أيضا أن نستخدم عقولنا ،

التى وهبنا الله إياها .

متفــــــرج ١ : القرآن الكريم حمال أوجه ،

فبأى وجه تحكمون ،

إن كنتم تعلمون ؟

متفـــــرج ٢ : بينما هم ينتجون و يبتكرون و يرحلون فى الفضاء ،

ويرسمون خريطة جديدة المنطقة ،

تمكنهم من نهب الثروات العربية ،

تنشغلون و تشغلوننا بالحجاب و النقاب ،

عذاب القبر ،

و ألوان الخرافات ،

و الجهة التى يجب أن نأتى بها الطعام فى الصحاف ،

و هل يجوز للأم المبيت مع أولادها بملابس النوم ،

وهل من الحرام أن يجلس الرجل فى مكان احتلته امرأة قبله،

وأن يتعامل الأب مع إبنته البالغة ،

أم يجب ألا يجلس معها وألا يتحدث إليها إلا من خلال أمها ؟

متفـــــرج ٣ : مهووسون أنتم بجسد المرأة ،

شأنكم شأن أبناء الشيطان الأكبر .

هوليود الفاجرة عرته ،

و أنتم تسدلون عليه الحجب ،

وفى عظاتكم تزعمون :

" يكون للرجل فى الجنة سبعمائة زوجة ."..

متفـــــرج ١ : ألم يأتكم تنزيل العزيز الحكيم :

" لله ملك السموات والأرض و مابينهما " ؟

و إنه وحده هو المالك ،

وليس للإنسان حق التصرف

بالتبديد و التدمير،

أو الجمع و التكنيز؟

متفـــــرج ٢ : هل بلغكم قول الرسول الكريم ،

عليه الصلاة والسلام :

" الناس شركاء في ثلاث ،

الماء و الكلأ و النار؟ "

متفـــــرج ٣ : حقا ، قبل أن تقتلوا و تدمروا و تعتدوا ،

قولوا لنا أولا : لمن الأرض و المعادن ،

المصانع و المزارع ؟

للمرتشين و المضاربين ،

أو الاكتنازيين ،

أم لله وعباده المؤمنين ،

للعاملين و الكادحين

بحق ،

وعابرى السبيل ؟

متفـــــرج ١ : نواياكم طيبة بلا شك ،

أفزعكم حال الوطن .

نساء يغيرن لون البشرة ،

و أولاد يعوجون الألسنة .

مخدرات على النواصى .

شباب لا يشغله غير البحث عن العمولة ،

إعلام كاذب و مخادع ،

وحكام ضالعون مع الأجنبى ،

يزدادون ثراء وإنحلالا ،

ينهبون الفقراء ،

ويضحكون على ذقونهم .

متفـــــــرج ٢ : أرعبكم حال العالم ،

أقلية لا تتعدى الخمس ،

تستهلك ثمانين بالمائة من الموارد الطبيعية ،

وتسيطر عليها .

و ٣٥٠ شخصا فقط ،

يستحوذون على قسط من الثروة ،

يماثل ما لدى مليارين من البشر .

متفـــــــرج ٣ : رءوس أموال ترتع كالوحوش ،

تتسابق بلهفة وشراهة ،

على تقسيم الموارد و الأسواق ،

دون أن تضيف شيئا إلى الحياة .

تبيع الحاجيات القديمة لزبائن جدد ،

و تخلق حاجيات جديدة عند الزبائن القدامى .

متفـــــــرج ١ : ويهدف الحصول على أكبر سيولة نقدية ،

فى أسرع وقت ،

و أعلى ربح بأى ثمن ،

لاتتورع عن نشر الدمار و الحروب و المخدرات .

متفــــــرج ٢ : وممثلوها فى اجتماعات القمم الدولية ،

يصيحون بسخرية :

" يا عمال العالم ،

بدلا من أن تتحدوا ،

تنافسوا

فى خدمتنا ! "

متفــــــرج ٢ : فى حضارة الرأسمالية ،

يتم تسميم الأرض والماء والهواء ،

لكى تنتج أموالا أكثر.

متفــــرج ٣ : ويجرى الترويج بحماس لقيمة التملك ،

بحيث أصبح الناس عبيدا للأشياء لا سادة لها .

متفــــــرج ١ : أصبح حق الملكية ،

أهم من حق الحياة ،

و قيمة البشر،

أقل من قيمة الأشياء .

متفــرج ٢ : وتدنت الحياة اليومية إلى أسفل درجات المهانة ،

بينما الناس مخدرون باحتياجات اصطناعية ،

أنستهم احتياجاتهم الحقيقية .

متفــــــرج٢ : سرقت منهم أرواحهم ،

وحولوا إلى كائنات متوحشة أنانية ،

لا يشغلها فى الحياة ،

غير القتال من أجل مجرد البقاء .

جماعة العرائس :كل هذا جميل .

ونصدقكم القول أننا حقا سعداء ،

بأن أتحنا لكم الفرصة ،

كى تخرجوا ما فى صدوركم .

ولعلكم تكونوا الآن قد استرحتم .

جماعة المتفرجين : حرمتمونا من طعام صحى ،

مياه نقية نشربها ،

مستشفى حقيقى ،

مسكن ملائم ،

هواء نقى نستنشقه ،

رصيف نمشى فوقه ،

وسيلة انتقال آدمية ،

حديقة خضراء و زهور يانعة ،

من فرصة التريض و التنزه ،

من البهجة والفرح ،

من الطمأنينة

و السعادة .

فماذا تنتظرون ؟

فترة صمت . يخفت نور الكشافين تدريجيا . يخطو الدكتور رمزى إلى مقدمة المسرح .

د. رمـــــزى : فى بورسعيد ،

التى جئنا منها بفكرة هذا العرض ،

يستمر الأهالى فى التشهير بالتماثيل ،

إلى أن ينتصف الليل ،

وعندئذ يشعلون فيها النار،

و هم يزغردون .

و تظل النار مشتعلة حتى تشرق الشمس .

فيتوجهون إلى البحر ،

ليغتسلوا من أثر الحريق ،

ويبدأوا يوما جديدا ،

بعد أن فشّوا غلّهم .

يتلاشى نور الكشافين تدريجيا .يتناول الدكتور رمزى علبة ثقاب من جيبه ويشرع فى إشعال مجموعة من أوراق الصحف. ينهض المأمور والضباط واقفين فى ارتباك . هرج ومرج . تنقلب مائدة العرائس . الحراس ينفخون صفاراتهم . يعود الضوء المبهر . يشير المأمور إلى الدكتور رمزى هاتفا :

- امسكوه .

يهرع الحراس إلى الدكتور رمزى فيقيدون ساعديه و يقتادونه إلى الخارج .

يجمع المسجونون بطاطينهم و يتجهون إلى زنازينهم . ترتفع من بينهم أصوات ضاحكة : هوتجا حتى القتلى !

القسم الثالث

(١٦)

خرج المأمور من معركة اللحى كما تخرج الشعرة من العجين (إذ لبس إدكو الموضوع برمته) ، لكن التوفيق جانبه في حالة الاحتفال بالسادس من أكتوبر . فقد كانت مسئوليته واضحة كالشمس . ألم يجرالاحتفال بمبادرة شخصية منه ؟ ألم يترك للدكتور رمزى مهمة إعداده دون أن يكلف نفسه عناء السؤال عما ينتوى العمل بعرائسه ؟ صحيح أنه شعر بالانزعاج فى منتصف العرض لما جاء على ألسنتها وألسنة المتفرجين الذين دسهم الدكتور بين الحاضرين (لم يفهم الكثير مما رددوه لكن شعورا مبهما خالجه بأن الأمور ليست على ما يرام) . وداعبه خاطر إيقاف العرض و إلغائه . ثم أدرك أن الإلغاء سيستدعى س و ج من رؤسائه و هو أمر يمكن تجنبه لو مر الأمر فى سلام . لهذا تغاضى عن العبارات التى أثارت قلقه واكتفى بأن يأمر بالقبض على الدكتور عندما شرع فى إشعال النارثم تبين أنه لا يمكن القبض على شخص مقبوض عليه بالفعل ؛ فأمر بارساله إلى التأديب ثم تراجع عن ذلك عندما تذكر أن التأديب مكتظ بأصحاب اللحى ، فأرسله إلى زنزانته ، واكتفى ببعض الإجراءات لمواجهة رد فعل البيروقراطية عندما يتسرب إليها نبأ ما حدث ، فاستعد لزيارة مفاجئة من ممثليها بفرق نظافة من خدم الميرى مسحت ولمعت الأرضيات ودهنت الطرقات وبعض الزنازين التى اختارها كى يدخلها الزائرون صدفة .

حط الزائرون فجأة كما توقع و تجولوا فى العنابروالورش فألفوا النظام مستتبا ودخلوا الزنازين بالصدفة ووجدوها نظيفة مرتبة مدهونة يقطنها نزلاء تم تأديبهم و إصلاحهم ، كما وجدوا الطبيب فى العيادة و المرضين فى المستشفى ،

واستقبلهم العاملون بالمطبخ في معاطف بيضاء نظيفة بل وقفازات من البلاستيك الشفاف . لم يفد كل هذا بشئ ، ففى نهاية الأسبوع نقل المأمور و زوجته الصغيرة النزقة (وفى جعبتها صندوق سكرابل) إلى أطراف الصعيد ، وعين العميد " سيد الضرويش" مكانه .

لم يكن هذا بالطبع لقبه الحقيقى . وإنما اكتسبه على مر السنوات الخمسة والثلاثين التى قضاها فى خدمة مصلحة السجون . و بدا مناسبا لوجهه المتجهم وجسمه البدين و ساقيه المقوستين قليـــلا وحركات ساعديه العشوائية .

كان هوالذى اختار العمل فى مصلحة السجون بعد تخرجه من كلية الشرطة إذ استهواه تطبيق لائحتها . و أتيحت له الفرصة على الفور فى ليمان " أبو زعبل" و بالتحديد فى سجن ملحق به يسمى "الأوردى " حيث كان الشيوعيون يتعرضون للضرب يوميا كى يرددوا أغنية أم كلثوم الشهيرة : " ياجمال يا مثال الوطنية " .

ما أثار سيد الضرويش وقتها ليس رفضهم الغناء وإنما التبرير الذى قدموه . قال متحدث باسمهم (أستاذ فى الجامعة) أنهم يحبون الغناء و يعتقدون بوطنية جمال عبد الناصر و على استعداد لأن يتغنوا باسمه ليلاو نهارا لكنهم لن يفعلوا ذلك تحت وطأة التعذيب . لم يكن الأمر متعلقا برؤية خاصة بفن الغناء . فقد ظل يضرب واحدا منهم (من عمال النسيج) بعصا غليظة على رأسه كى يقول أنه امرأة فرفض . و عندما كلت يده و أوشكت رأس المعتقل على التصدع أوقف الضرب وسأله عن سر تعنته . أجاب أنه لا يجد ما يشين فى أن يكون امرأة لأنه يؤمن بالمساواة التامة بين الجنسين لكنه لن يقولها إلا بمزاجه .

بدلا من أن تشبع الإجابتان فضوله ، ضاعفتا من ريبته فى أن هناك ملعوبا ما يدار من خلف ظهره . فهل يعقل أن يسجنهم عبد الناصر لكى يجبرهم على الهتاف باسمه ، الأمر الذى كانوا يفعلونه طواعية وهم أحرار ؟ ومن ناحية أخرى،

فالمنطقى أن يصبحوا ضد النظام بسبب ما يتعرضون له و كونهم مستمرين فى تأييده لغز آخر. هل هى تمثيلية متقنة من الجانبين ؟ ما لم يفهمه أبدا هو تصرف السلطات معه ، فهى نفسها التى أصدرت إليه الأوامربتطبيق اللائحة على هؤلاء الكفار الملحدين وبعد ذلك على المؤمنين ذوى اللحى وعاقبته فى الحالتين على أنه نفذ التعليمات بأمانة وتفان، فاستحق لقب الضرويش بجدارة .

نقل الملازم أول سيد الضرويش إلى وظيفة مكتبية فى المقر الرئيسى للمصلحة عندما توفى أحد المعتقلين أثر ضربة شوم محكمة . هكذا لم يعد لديه من مجال لتطبيق اللائحة غير المنزل . وكانت وجهة نظره التى شرحها لأهل زوجته عندما إستنجدت بهم أنه لا بد من إحترام السلطة (خاصة و أنه لا يؤمن بالمساواة بين الرجل والمرأة) .

تجول سيد الضرويش بين مكاتب المصلحة لمدة عشرين سنة بينما كان زملاؤه ينعمون بتطبيق اللائحة (ظهرت ملامح النعمة فى شكل سيارات فاخرة وشقق جديدة وملابس أنيقة ونساء استبن) إلى أن بدأت موجة حرق نوادى الفيديو و دور العرض و المسارح والكنائس ، ومست الحاجة إلى خبراء تطبيق اللائحة فأعيد إلى حلبته الأساسية حيث صال وجال إلى أن استدعى لفرض الظبط والربط اللذين أخلت بهما إحتفالات أكتوبر .

أقبل على عمله الجديد بهمة لتعويض ما فاته من فرص تطبيق اللائحة (فلم يعد بينه وبين التقاعد غير سنتين) : أمر بوضع الدكتوررمزى فى التأديب (وتحرك شرف بالنتيجة بمقدار نمرة بعيدا عن دلو البول) ثم ألحقه بعم فوزى ، صانع العرائس ، من باب الحيطة (تجاهل الدور الذى لعبه شرف و سامح وصبرى إكراما لخدمات أولهم) . وعندما تبين أن العنبرالصغير المخصص للتأديب كامل العدد بأصحاب اللحى ، تصرف بذكاء : وضع كل من الاثنين فى

زنزانة انفرادية بالطابق الأرضي من عنبر الآخر: الدكتور في الميرى وعم فوزى في الملكي ، وطبق عليهما اللائحة : الفـــول والصراصير والفئران ، فضلا عن اللاءات الثلاث : الطابور والزيارة والقراءة . لكنه لم يتمكن من حرمانهما من سماع نشرات الأنباء أوإذاعتها ، في حالة الدكتور رمزى .

ففى أول ليلة له بالزنزانة الانفرادية ، وبعد النشرتين التقليديتين ، الدنيوية والروحية ، إنطلق صوته من شراعة الباب . كان ضعيفا مترددا في البداية فلم ينتبه إليه أحد . لكنه ما لبث أن ازداد ثباتا و قوة وأصغى أكثر من خمسمائة سجين لصوت أجش يحمل عليهم :

"... لماذا تقبلون معاملة الحيوانات؟ لماذا تتركونهم يسرقونكم و يضطهدونكم ؟ لماذا لا تطالبون بحقوقكم ؟ طبقا للائحة السجون ، لكل واحد فيكم الحق في سرير ومرتبة وملاءات وبطاطين وأدوات طعام وطقمان من الملابس الداخلية والخارجية صيفا و شتاء لكنكم لا تحصلون على السريرو المرتبة والملاءات و يعطونكم بطاطين متهرئة و طاقم واحد من الملابس .

" طبقا للائحة السجون لكل واحد فيكم الحق في ١٤ وجبة في الأسبوع منها ٧ فول و ٣ عدس و٢ لحم و ١ جبن و ١ وجبة خضار ساخنة و قطعة عجوة تزن حوالى ١٢٥ جرام . لكنكم لا تحصلون إلا على فتات لا يصلح ولا حتى للحيوانات.

"طبقا للائحة السجون لكل واحد فيكم الحق في رعاية صحية كاملة لكن السجن به طبيب واحد يأتى مرة واحدة في الأسبوع لمدة ساعتين ولكى يفوز الواحد منكم بلقائه لا بد أن يدفع علبة سجائر للتومرجى ثم في النهاية لا يحصل على غيرحبتين من الأسبيرين .

"وإذا اشتكيتم أو تضررتم تعرضتم للجلد ، وهى عقوبة مهينة تنتمى إلى عصورالعبيـــد و تتنافى مع الدستور .

"لماذا تقبلون إستغلال النوباتجية و الحراس ؟

"هل تعرفون أن لائحتهم تعطيكم حق الاحتجاج و الاعتصام والإضراب عن الطعام حتى تأتى النيابة لتسجل مطالبكم ؟ " .

ران الصمت على العنبر عدة لحظات ثم انطلقت صيحات التهليل من الزنازين المختلفة ، ما لبث أن غطى عليها صوت جهورى وجه إلى الدكتور أقذع الشتائم (تتعلق برجولته المفترضة) ، تلاه صوت جهورى أخر أعلن : " الدكتور رمزى عاوز يروح لأمه يا جدعان "، و كرر ثالث نفس الإستنتاج مقلدا عربية الدكتور الفصحى : " الدكتور رمزى يريد الذهاب إلى أمه يا رجال " .

من جانبه قرر الدكتور أن يعطيهم القدوة فأعلن فى اليوم التالى الإضراب عن الطعام إلى أن يتم تطبيق اللائحة و الدستور .

تلقى الضرويش نبأ هذا الإعلان بغير مبالاة . ففضلا عن سذاجة المطالب ، تنص اللائحة على عمل محضر رسمى بالإضراب بعد مرور أربع وعشرين ساعة . لكن اللائحة شئ و تطبيقها شئ آخر . فمنذ قيام الثورة لم تعد السجون تنفذ هذا النص إلا بعد مرور أربعة أيام على الأقل تستخدم خلالها كل وسائل الإقناع حتى يعدل المسجون عن الإضراب وبالتالى لا يثبت أمره فى أوراق السجن . لم يهتم الضرويش بمحاولة إقناع الدكتور إذ تصوره غير أهل لذلك . اكتفى بأن عرضه على الطبيب النفسى الذى أرسلته المصلحة خصيصا ، ووجه جهده كله إلى حملة الظبط والربط التى شنها ، فأحال للتحقيق على بلبل لأنه غادر السجن قبل موعده (الساعة الثالثة والنصف فى قول الضابط مرقص فهمى والرابعة والنصف فى قول أمين البوابة) . فتش على طفايات الحريق فوجدها معطلة ثم اكتشف أن لا أحد بالسجن كله من ضباط و حراس و مسجونين يعرف كيفية تشغيلها ، فأحال الجميع (الطفايات) للتحقيق . لاحظ وجود كثير من الكلاب الضالة فى أنحاء السجن فأحالها إلى "سماوى" متخصص اصطيادها وضربها بالنار ليلا .

هجم على المخازن فوجد بها ٢٩٤ كيلو عجوة تالفة بسبب إنتهاء صلاحيتها للاستهلاك الآدمي . وتبين أن تحقيقا إداريا جرى في هذه الواقعة منذ ثلاث سنوات وأرسلت نتيجته إلى المصلحة بالمحضر رقم ١١٦ . وأقر مراجع المخازن بالمصلحة "إدوارليب" بإستلامه إلا أنه أفاد بتسليمه لرئيسه "عبد القادر الدسوقي" الذي أنكر ذلك وبالتالي ضاع المحضر المذكور نهائيا .

فتح س و ج مع المساعد أول شرطة أمين المخزن الذي كان اسمه ، بالضرورة ، إبراهيم أمين، فقرر أن العجوة التي تسلمها كانت سليمة .

س : و كيف عرفت أنها كانت سليمة ؟

ج : لأن اللجنة التي إستلمتها من شركة قها وقعت بأن الكمية صالحة وتم الصرف منها في حينه إلى أن أوقف سيادة النقيب أحمد الجوهري الصرف .

س : هل تعرف لماذا أوقف سيادة النقيب أحمد الجوهري صرف العجوة المذكورة ؟

ج : بناء على شكوى المساجين .

س : و بماذا اشتكى المساجين ؟

ج : اشتكوا من وجود آثار عض بها .

كشف التحقيق أن الضابط المذكور خالف التعليمات لأنه فعل ما فعله دون أن يحرر محضرا به أو يطلب لجنة لتحديد المسئولية والصلاحية ولهذا أحاله الضرويش إلى التحقيق .

خلال ذلك كان الدكتور يواصل نداءاته من شراعة الزنزانة ، فبعد أن مل تكرار ندائي الحقوق والإضراب عن الطعام انتقل إلى مجال تخصصه :

– هل تعرفون أن ٦٠ بالمئة من ثمن الدواء في مصر يذهب إلى الموزع والمستورد ؟ وأن الدواء الذي تدفعون فيه الآن ثلاثة جنيهات ستدفعون فيه

عشرين بعد تطبيق الجات ؟ هل تعرفون أن ٥٥ بالمائة من الأطفال مرضى بأكبادهم وأن عدة أفراد لاوطن لهم ولاضميركدسوا ثروات بالملايين من استيراد الأطعمة الفاسدة ورش المبيدات ؟ هل تعرفون أنهم يبيعون السرطان لعشرين مليون طفل ؟ اشربوا هذا بطعم البرتقال ، كلوا هذا بطعم الفراولة ، الحسوا هذا بطعم الأناناس والشكولاتة والملح والخل والكاري والكباب والخراء . مياه غازية وكولا ملونة وشكولاتة وحلوى وأعصرة و شربات و مربات وجيلي و غزل بنات ، عبارة عن مكسبات طعم ورائحة ولون أى أمراض تدوخ أطفالكم طيلة العمر إلى أن يقصفه السرطان بعد أن يصابوا بالفشل الكلوى من جراء المياه الملوثة أوالطرش والغباء بسبب التعرض للرصاص المنبعث من عوادم السيارات أو يرحمهم الرحيم فيقعوا فى بالوعة مجارى أوتدهمهم سيارة أو ينفخهم صاحب ورشة... .

طبعا لم يكونوا يعرفون كل هذا وإلا ما ردوا عليه بنداءات معاكسة تضمنت اتهامات بذيئة تتعلق بأمه (أهونها رغبته في الخروج إليها) ، استفزت الدكتور فوجه إليهم السباب :

- يا حيوانات يا مساكين ! دفعتم نصيبكم من الأموال الهائلة التى تنفقها الدولة على تعليم وتدريب أطباء يستنزفونكم ويعاملونكم معاملة الحيوانات . يجرون لكم جراحات لا تحتاجون إليها وينسون مشارطهم فى بطونكم . دفعتم نصيبكم من الأموال الهائلة التى تنفق على إقامة مستشفيات لا يدخلها من يحتاج إليها ، تستخدم أدوية فاقدة الصلاحية ولاتقبل الحالات العاجلة وحوادث الطرق دون أتعاب وتتقاضى أجورا باهظة رغم أنها معفاة من الضرائب لمدة خمس سنوات على الأقل و معفاة أيضا من الجمارك . جهازالأشعة الذى ثمنه ٢٠٠ ألف جنيه جمركه ٥٠ ألف ويدفع المستشفى ألف واحدة فقط ثم يطالبكم بالآلاف . يا غلابة

يا مساكين .. الواحد منكم يعيش فى كشك طوله لا يتعدى ثلاثة أمتار و عرضه متر ونصف متر والسقف تبدو منه السماء بعد أن فتتته الأمطار... تعانون البرد وتقضون حاجتكم ليلا في دورة مياه مشتركة يستعملها ثلاثون أسرة على الأقل أي مائة و خمسين شخصا على الأقل . وتحصلون على المياه العذبة من المسجد القريب وأحيانا تشترون الجركن بخمسين قرشا .. وحولكم آلاف الشقق المغلقة والأبراج العملاقة . اسألوا أنفسكم : لماذا تقبلون كل هذه المهانة ؟ "

لم يعبأ الضرويش بنداءات الدكتور إذ إنشغل بالبحث عن خاتمه الذهبى الذى فقده فى غمار تطبيق اللائحة . كان قد اشتراه بعد تعيينه فى المصلحة من أول راتب له . ولهذا كان يستبشر به بعد أن ربط بينه وبين طاقة القدر التى فتحت له . وبلغت معزة الخاتم عنده أنه رفض بيعه لمواجهة الضائقة التى مر بها عندما أغلقت الطاقة ونقل إلى المكاتب . لهذا جند السجن كله بحثا عن الخاتم دون جدوى . وفى النهاية التجأ إلى "المهدى " المنتظر .

كان عم حسين الكعكى متهما فى قضية إهانة أديان ، ويؤمن بأنه المهدى المنتظرالذى تحدثت عنه الأديان المتهم بإهانتها ، وأنه سيحكم العالم فى القريب . لم يكن الأمر هزلا فقد آمن به الكثيرون وعلى رأسهم دكتورفى أصول الفقه بالأزهر، أخرج أولاده الأحد عشرمن المدارس على أساس أنها مضيعة للوقت طالما أن زعيمه سيحكم العالم قبل أن تنتهى السنة الدراسية .

أحضره الحارس فى قميص مشجر و بنطلون هافانا . كان ربعة ، ممتلئ الجسم ، حاد النظرات ، فصيح اللسان ، تبدو عليه ملامح الذكاء و الحيوية البالغة.

خاطبه الضرويش باستخفاف : إزيك يا عم حسين . عامل إيه ؟

أجاب المهدى المنتظر برصانة بالغة : أحمد الله و أشكره ياسيادة المأمور .

أخفى المأمور ضيقه من تجريده من لقب الباشا المعهود و قال : الله . إنت بتعرف ربنا أهوه .. أمال إيه اللى بيقولوه عليك ؟

سيطر المهدى المنتظر على أعصابه و شرح للمأموركيف أنه يؤمن بالله وبرسله جميعا بمافيهم هو نفسه . و عندما لم يبد الاقتناع على وجه المأمور أضاف :

– أنا سيادتك تحديت النيابة و القضاة أنى قادر على حل ثلاثة ألغاز حيرت العالم.

لم يكن المأمور فى هذه اللحظة معنيا بغير لغز واحد . أشار عليه المهدى أن يستدعى كافة الأشخاص القريبين منه ، من الضباط و الحراس إلى المجندين والنوباتجية . تفرس فى وجوههم الواحد بعد الاخر فاصفرت جميعها و بدا الإرتباك على أصحابها . إصفر وجه الضرويش أيضا إذ ظن أنهم اشتركوا كلهم فى سرقة الخاتم . لكن سرالمهدى كان باتعا فقد خطا نحوهم وأشار بحركة مسرحية إلى أحد المجندين الذى تراجع قليلا إلى الخلف فى ارتباك شديد . تولى الضباط الباقى فوجه إليه على بلبل السباب وتوعده بالويل والثبور، وعاجله خضرة بصفعة على وجهه وركلة فى مؤخرته ، ثم تسلمه مرقض فهمى إلى أن إعترف .

عبر الضرويش عن إمتنانه بطريقة أسلافه من الحكام . طلب من المهدى المنتظرأن يتمنى عليه شيئا بعد أن وعده بتحقيق أمنيته . فطلب نقله من الزنزانة التى يسكنها و ضمه إلى أعوانه و أتباعه .

لم يكن فصله عنهم لسبب غير أزمة المساكن و ضيق الأماكن . أما ضيقه بزنزانته الحالية فكان جمال عبد الناصر هو المسئول عنه . ففى غمار التصريحات اليومية الصادرة عنه والتى تبلور أفكاره وفلسفته ، والتى قسم فيها الأرواح إلى خيرة و شريرة ، أعلن ذات مرة أن ناصر من عتاة المجرمين ، دون أن ينتبه إلى

أن الزنزانة تضم ثلاثة من عتاة الناصريين الذين حكم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة فى تنظيم ثورة مصر المسلح وكانوا فى طريقهم من الليمان إلى القصر العيني للعلاج . و لم يكونوا في حاجة إلى أية أسلحة كي يحولوا حياته إلى جحيم.

ارتبك سيد الضرويش و قال : السجن زحمة الوقت ع الآخر ، لكن فى أقرب فرصة حانقلك .

كان المهدى المنتظرخبيرا بوعود الحكام فقرر أن يعتمد على نفسه . فى نفس الليلة أيقظ زملائه في الزنزانة عند الفجر ، و هو الموعد الذى يتلقى فيه الوحى ، و هتف فيهم :

– أبشروا يا أخوانى .

بهت الأخوان و تبادرت إلى أذهانهم بشرى واحدة لا غير وعندما استوضحوه الأمر قال :

– الحبيب أخبرني أنه تمت إعادة تقويم عبد الناصر في البرزخ وتقررضمه إلى العناصر الخيرة .

بالمقابل أعاد الناصريون تقويم المهدى المنتظر. وكما يحدث عادة في هذه الحالات ، اشتطوا في الأمر فآمنوا بالرجل و بدعواه . ومن جانبه وثق هو فيهم فأسر إليهم ببقية رسالة الحبيب : فى نهاية الشهر الهجرى التى تحل بعد اسبوع سينطلق موكب المهدى المنتظر من المنطقة المقدسة (أى السجن الذى تقدس بوجوده) بعد أن تنزل من السماء أربعة أسود تفتح الطريق أمامه و دابة قادرة على التمييز بين المؤمن وغيره تهش للأول وتكشرللثانى . وتصادف أن التجأت إحدى القطط الضالة إلى الزنزانة فى نفس اليوم فاعتقد الجميع أنها الدابة المقصودة وشرعوا يعاملونها برقة بينما أخذ هو يردد لكل من يخاطبه فى شئ : إن هى يا بنى إلا مسألة أيام .

تضاعف إيمان الجميع بمقولات المهدى و دعاويه وبأنه سيخرج و يحكم العالم كله. و أبلغ الناصريون المحامين الذين كانوا يسعون إلى استصدار عفو صحى عن بعضهم : أوقفوا مساعيكم . خلاص .الدنيا كلها حتتغير بعد يومين .

حل اليوم الموعود أخيرا دون أن يحدث شئ بالطبع . فانقلب الجميع على المهدى المنتظر وأشبعوه سخرية و استهزاء . تحمل الرجل الموقف فى بسالة المجاهدين و أصحاب الرسالات دون أن يصيبه اليأس . و بعد عدة أيام أيقظهم فى الفجر قائلا أن الحبيب جاءه وعاتبه لأنه أفشى السر فالخبر كان له وحده ولهذا قرر أن يربيه بتأجيل التنفيذ . وأكد الحبيب ماسبق أن قاله بخصوص قرب خروجه فى موكب ليحكم العالم فهو الحق بعينه . لكنه ، عقابا له ، لن يذكر له من الآن لا الموعد ولا الزمان ولا الكيفية .

خلال ذلك انشغل الضرويش بإعادة تقويم الرائد مرقص فهمى على ضوء اعترافات جديدة من سارق الخاتم الذهبى ألمحت إلى الرواتب الشهرية التى يحصل عليها من المساجين الذين يعملون فى مشغولات الخرز والخشب كى يسمح لهم بالخروج إلى الزيارة يوميا لعرض منتجاتهم على الزائرين .

استقبل الضرويش هذه الإعترافات بهدوء . و إنتظر فرصة ملائمة للتصرف . سنحت الفرصة سريعا . ففى أثناء مروره بالفناء وجد سيارة "مازدا" يجرى إصلاحها بواسطة أحد السجناء . أخبره الحراس أنها خاصة بالضابط مرقص فهمى وقد عهد بها إلى هذا المسجون بالذات لأنه من الخبراء النادرين فى السيارات اليابانية (سرقتها بالطبع) . وفى اليوم التالى رأى سيارة أخرى من طراز "أوبل" مكان السيارة المازدا يتولى الخبير اليابانى إصلاحها. استفسر من مرقص فهمى نفسه فقال أن السيارة لزوج أخته الذى أعجب بالإصلاحات التى تمت على المازدا فرجاه أن يطبقها على الأوبل . و بعد يومين كانت هناك ثلاث

سيارات متجاورة في الفناء من ماركات مختلفة . أراد أن يستفسر عن الأمر فبعث في طلب مرقص فهمي. قيل له أنه غادر السجن لشراء مهمات للكانتين . بحث عن الخبير الياباني فاكتشف أنه غادر السجن أيضا في رفقة الضابط . و تبين أن الاثنين نزلا إلى السوق لشراء قطع غيار للسيارات الثلاث .

لم تكن اللا ئحة تتضمن ورشة لإصلاح السيارات أوإمكانية استخدام الفناء لأغراض غيرالتريض (للمساجين) والجلوس إلى جوار الزهور (للضباط)، ولاكانت السجون قد دخلت بعد برامج الخصخصة، كما أن مغادرة السجن بالنسبة للنزلاء كانت لها حالات محددة ، ليس بينها أبدا النزول إلى السوق . لهذا جرت مواجهة حاسمة بين الضرويش والضابط لم تؤد إلى إحالة الأخير وإنما أثمرت نتائج أكثر إيجابية أهمها تدعيم الورشة بخبيرين آخرين من تخصصات أخرى (السيارات الفرنسية والأمريكية) وإطلاق عملية الشاى .

ففي سعيه من أجل إحكام الظبط والربط ، شن الضرويش سلسلة من حملات التفتيش العشوائي (تسبقها معلومات محددة من المرشدين) صادرفيها الممنوعات التي صادفته وعلى رأسها بالطبع الشاى الذى عهد به إلى الضابط مرقص فهمي كي يبيعه سرا للمساجين من خلال شبكة المرشدين. وقبل أن يتمكن هؤلاء من استهلاكه قام الضرويش بحملة تفتيشية عشوائية ثانية فصادر نفس الشاى الذى سبقت له مصادرته و عهد به لمرقص فهمي ليبيعه من جديد وهكذا .

لم يكن قلقا بشأن الدكتور رمزى . حقا أن اللائحة ، الموروثة من العهد الملكي، تنص على ضرورة استدعاء النيابة للتحقيق في مطالب المضرب عن الطعام في موعد لا يزيد عن ٤٨ ساعة منذ بداية الإضراب أى منذ بداية تسجيله في الدفاتر ،إلا أن هذه المدة إمتدت بلا حدود في ظل الثورة . و بذلك أتيحت الفرصة للدكتور كي ينوع نداءاته و يوسع من مجالها :

- يا غلابة يا مساكين .. هل تعلمون أن خمسة من أهالى القرية يشغلون أهم المناصب الإدارية بها ، من العمودية إلى إدارة الجمعية ، هم أنفسهم تجار الأسمنت و مواد البناء والمقاولون الذين يتعهدون ببناء المنازل على الأراضى الزراعية التى اشتروها وقاموا بتقسيمها وبيعها من قبل . وهم كبار الحائزين يملكون ثلث الأرض ويستأجرون الربع و يملكون ثمانين بالمائة من أدوات الإنتاج خاصة الجرارات وماكينات الرى ورافعات المياه ويقومون بتأجيرها لصغار الفلاحين بدعم المعونة الأمريكية بأجور مرتفعة بينما يستخدمون الأدوات الموجودة فى الجمعية التعاونية بأجر أقل وهى التى قيل للفلاح أنها معطلة ...

تهدج صوته من التعب لكنه واصل :

- يا غلابة يا مساكين .. هل تعرفون أن ثمانية تجاريسيطرون على سوق الخضر والفاكهة ، و أربعة على تجارة اللحوم المستوردة وسبعة على البقالة وثلاثة على سوق السمك . و أن كل هؤلاء يتفقون عليكم كل مساء .. وأن المستهلك ليس هو الضحية الوحيدة . المنتج أيضا من الضحايا .. فالمزارع و الصياد لا يحصلان على أكثر من نصف حقهما و يذهب النصف الآخر لتجار الجملة ..

وفي اليوم الذى بعده عاد إلى قضية الطعام ويبدو أن عزيمة الامتناع عنه أصابها بعض الوهن ، وأنه شعر بالحنين إلى بعض الأنواع المحببة إليه ، فأراد أن يشد من أزر نفسه :

- هل تعلمون أن مربى الدواجن يضيفون حبوب منع الحمل إلى أعلافها من أجل تسمينها فيعرضونكم لخطر الإصابة بسرطان الكبد ؟ وأن البصل الأخضر والفجل والجرجيروالكرات التى تعيشون عليها وتحلمون بها ملوثة بالرصاص الذى يسبب الأنيميا والتخلف العقلى و يمحى الذاكرة و يجعل الواحد ينسى حتى أمه وبالكادميوم الذى يضر بالكلى و يؤدى إلى الإجهاض ؟

هلل المساجين لندائه كالعادة . وصاح أحدهم من زنزانة فى الطابق الرابع :

– يا كاديوم إنت يا كايدهم .

هل اكتفى الدكتور ؟ كلا .

فى اليوم التالى واصل اختبار معلوماتهم : " هل تعلمون أن فى مصر ٣٠ ألف سيارة من طراز مرسيدس . متوسط سعر الواحدة ٧٠ ألف جنيه أى أن المجموع ٢١٠٠ مليون جنيه تكفى لسداد ثلث العجز فى الميزانية العامة أو نصف أصل الديون العسكرية ؟ وان المرسيدس التى تدعى بالزلكة لا يقل ثمنها عن ٤٠٠ ألف جنيه و هو مبلغ يكفى لشراء ثلاثة أتوبيسات للنقل العام و بناء أربعة آلاف وحدة سكنية اقتصادية ؟

" هل تعلمون ان سعر طفاية السجاير فى المرسيدس المدعوة بالشبح ٧٠٠ جنيه أى ما يكفى لإطعام ١٤٠٠ مصرى بوجبة إفطار مكونة من ٢٨٠٠ سندوتش فول. و أن سعر الإطار الواحد لهذه السيارة يساوى مرتب عشرة موظفين مصريين فى شهر، والفانوس الواحد بها ثمنه ٤٥٠ جنيه والتكييف ١٥ ألف ؟ هذه هى السيارة التى يملكها الان ١٣٦٠ من الذين يدعون أنفسهم برجال الأعمال ومنهم وزراء و رؤساء صحف، وحجزها ٤٠٠ غيرهم دفعوا جميعا فيها ما يساوى ثلثى تكاليف فوائد الدين السنوية على مصر ومقدارها أربعة مليارات جنيه. وهم لا يدفعون عنها ضرائب فهى تمرمن الموانئ بنظام الترينتيك الذى ابتكروه خصيصا لمصلحتهم فيضع صاحب السيارة قيمة الجمرك فى أحد البنوك فتوفر له ضريبة الترينتيك التى تقدر بالألوف بدلا من الجمرك الذى يقدر بالملايين، أويكون أصلا صاحب مشروع يتمتع بالإعفاءات الجمركية فتضاف السيارة إلى الأصول المعفية.

بمجرد أن تعرض الدكتور رمزى للسيارات بدأ الضرويش يشعر بالقلق . استخرج ملفه و تصفح التقرير الطبى الذى أهمل قراءته فى حينه . كان بتوقيع

الدكتورحمدى السكرى، الطبيب بمستشفى حلوان للأمراض النفسية .وجاء به أن المسجون "يتمتع بشخصية قوية تميل للعظمة كما أنه جذاب للآخرين . ذكى يحب الناس جميعا و خاصة ذوى المراكز المرموقة . طموحه أكبر من قدراته . ذو ذاكرة قوية . يتمنى أن يصلح الكون . مضطرب نفسيا نتيجة ما يحدث حوله من انحرافات ". حاول أن يستخلص من ذلك نوع الإجراء الذى يتعين اتخاذه . وقبل أن يصل إلى قرار وقع ما صرف اهتمامه فى اتجاه آخر .

فبينما هو يقرأ خطابات السجناء لشطب أى إشارة إلى سوء المعاملة وبحثا عن أى عبارة يمكن أن تغذى مشاعره الإيروتيكية الذاوية ، هبطت عليه فجأة لجنة مشتركة من لواءات المصلحة (مباحث السجون) والداخلية (أمن الدولة) والمخابرات العامة ؛ و تبين أن المهدى المنتظر تمكن من تسريب رسالة إلى رئيس الجمهورية . لم ينزعج ممثلو البيروقراطية لأنه تمكن من إخراج رسالة من السجن عن غير الطريق الرسمى ، ولا لأنه تجاسر على مخاطبة رئيس الجمهورية ، ولا على الطريقة غير اللائقة التى خاطبه بها إذ وصفه بأنه من الأشخاص ذوى الأرواح الخيرة ثم حذره من أن يتعرض للإفساد على أيدى أصحاب الأرواح الشريرة . ولا أزعجهم قوله أنه يستطيع أن يقدم للرئيس الدليل على صدقه بأن يحل الألغاز الثلاثة التى حيرت العالم . ما أزعجهم لدرجة بلت ملابسهم الداخلية هو ما جاء فى نهاية خطابه من أن الله سيخرجه من السجن لمدة أربع وعشرين ساعة بكيفية لا يعلمها إلا هو (أى سبحانه تعالى) .

استدعى المهدى المنتظر لمقابلة البيروقراطية . وقف أمامهم محاطا بحارسين أمسكا بساعديه حتى لا يخرج من السجن بدونهما . سأله لواء مباحث السجون :

– إيه يا عم حسين اللى إنت باعته للريس ؟

أجاب عم حسين على الفور :

– الرئيس رجل طيب و خيّر . و أنا استخدمت حقى فى مخاطبته .

سأله لواء المخابرات العامة : و إيه هى بأه الألغاز اللى حيرت العالم ؟

أجاب المهدى المنتظر :

–إنها ثلاثة يا سيادة اللواء . مثلث برمودا وقارة الأطلنطيد المختفية و أصل موشيه دايان .

– ماله موشيه دايان ؟

أجاب بثقة : أصله سفاح أمريكى كان موجودا فى أمريكا سنة ١٨٠٠ ، لو ضاهى أحد بصماته ببصمات موشيه ديان لتطابقا .

– وانت ناوى تهرب ؟

– لا يا سيادة اللواء .الله سبحانه سيخرجنى من هنالمدة ٢٤ ساعة فقط وأعود مرة أخرى .

تدخل لواء مباحث أمن الدولة :

– حتعمل إيه فى الأربعة وعشرين ساعة دى ؟ إذا كان عندك مصلحة مستعجلة قلنا عليها وإحنا نشوفهالك من غير ما تتعب نفسك و تتعب المولى معاك.

– أستغفر الله يا سيادة اللواء . إنها إرادة الله و لا راد لمشيئته .

أمر اللواءات بإخراجه من الغرفة على أن ينتظر بالخارج مع حارسيه . .

فور خروجه أعلن الضرويش بصوت حاول أن يجعله قويا :

– الجن الأحمر نفسه ميقدرش يطلع من السجن من غير إذنى .

تطلع إليه لواء أمن الدولة باستخفاف ، وطالب لواء مباحث السجون بوضع المهدى فى التأديب وتشديد الحراسة عليه . رد الضرويش بأن التأديب لا يوجد به مكان فارغ . و أن الحراسة مشددة عليه بالفعل و هو فى زنزانته .

عاد اللواء الخبير بأوضاع السجون يتكلم :

- بالنهار طبعا مفيش مشكلة . تقدروا تراقبوه بكذا طريقة . المشكلة بالليل . مين حيراقبه طول الوقت ؟ حتى لو حطيناله حارس مخصوص على الباب . منضمنش إنه يسيب مكانه و يروح يشرب شاى أو ياخد تعسيلة .

استشار لواء المخابرات العامة أوراقه وقال :

- معلوماتنا إن الساحر ميقدرش يخرج نفسه من المكان إنما يقدر يخفى نفسه في المكان . فافرضوا إننا حطيناه في زنزانة لوحده وأخفي نفسه ؟

بعد تفكير ومشاورات توصلوا إلى وضعه فى زنزانة خاصة مع عدد محدود من النزلاء بينهم مرشد أو إثنان يتكلفان بمراقبته طول الوقت - وخاصة بالليل - والإبلاغ عن تحركاته و خططه واللحظة - لا قدر الله - التى يختفى فيها .

أضاف لواء أمن الدولة :

- إحنا حنراقب كمان بيته و الأماكن اللى بيتردد عليها عشان لو خرج . مفيش أى معلومات عن مكان معين بيتكلم عنه ؟

قال الضرويش : هو دايما بيتكلم عن مكان إسمه البرزخ . لكن مبيقولش هو فين .

سجل اللواء هذه المعلومة فتدخل لواء المخابرات العامة :

- باين عليه مكان خارج البلاد . يبقى من اختصاصنا .

عند انصراف اللواءات حرص كل منهم على الإنفراد بالمهدى المنتظر لاستفساره فى شأن "بعض المتاعب الصحية" . ولم تغب طبيعة هذه المتاعب عن فطنة المأمور الذى سبق أن استشار المهدى فيما يؤرق كل المأمير و اللواءات .

انفرد الضرويش نفسه بالمهدى بعد انصراف الزائرين :

- اسمع يا عم حسين . إنت لازم تفهم أنا معنديش حاجة ضدك . أنا بأدى واجبي وبس .

- فاهم يا سيادة المأمور .

- أنا عاوزك تحلف ع المصحف إنك متضرنيش بحاجة . أنا عارف إنك واصل وبتاع ربنا .

حلف عم حسين واطمأن المأمور فسأله فى استعطاف :

- انت ناوى ترجع فعلا لو خرجت ؟

أجاب المهدى المنتظر بتؤدة :

- كله بأمر الله .

أمره بالانصراف واجتمع على الفوربضباطه لتدبير الزنزانة الخاصة واختيار نزلائها . و عندما جاء دور المرشد الذكي الذى سيتولى المراقبة والإبلاغ تذكر الضابط خضرة أنه ورث بين ما ورث من متعلقات إدكو و أوراقه : أشرف عبد العزيز سليمان و أن هناك غطاءا جاهزا للعملية . فقد حان الوقت لترقية نزلاء زنزانة الإيراد الجديد بالطابق الأرضى وتوزيعهم على الزنازين المتخصصة بالطوابق العليا . .

(١٧)

رقدت في النور أغالب النعاس . أردت أن أنقلب على جانبي الأيسر لكنى تذكرت تعليمات سيادة الضابط خضرة لي بألا يغيب عم حسين عن بصرى طول الليل وأن أستدعى الحراس إذا اختفى فجأة . إنقلبت على الجانب الأيمن واختلست النظر إليه . وجدته غارقا في النوم . فهو ينام مبكرا دائما ويستيقظ في الفجر و هوالموعد الذى يأتيه فيه الحبيب ، أى الرسول عليه الصلاة والسلام .

كنا خمسة في زنزانة المخزن الصغيرة بالطابق العلوى المخصص لجرائم المخدرات و النفوس: أنا و المهدى المنتظر والنويتجى توكل والحاج شوقي ورضا بوند . لم تكن هناك أماكن خالية في الزنازين الكبيرة لهذا وضعونا سويا في هذه الزنزانة رغم اختلاف جرائمنا . و عين لنا توكل أماكننا فخص نفسه طبعا بالركن البعيد و وضع المهدى المنتظر في مواجهة الباب مباشرة و رضا بوند في الركن الآخر . أما أنا فقد وضعنى إلى جوار المهدى ، بينه و بين رضا . وجعلنى هذا أشك في أنه على معرفة بمهمتى السرية و ربما كان رقيبا علينا نحن الاثنين . لكنى سررت لأنى تحررت أخيرا من رفقة دلو البول .

خالجنى أيضا شعور بأن توكل سعد بهذا التغيير ليتحرر من وجود المتعلمين من أمثال عزت بيه و سامح و الدكتور رمزى ومستر تامر. وفي أول ليلة لنا بالزنزانة جمع منا الرسوم التقليدية ، ثم أعددنا مائدة مشتركة وأكلنا في صمت . و تولى عمل الشاى بمساعدتى ثم صاح فينا فجأة :

– جرى إيه يا اخوانا ؟ إحنا في ميتم و الا إيه . إنتو عمركم ما دخلتم سجن؟

لم يرد عليه أحد فاستطرد : عرفتم اللى حصل النهاردة مع سيادة الباشا المأمور ؟

هززنا جميعا رؤوسنا فى حيرة .

قال : بعت جاب سيادة الضابط خضرة و قاله يقوم ع الفيوم فى الحال بواحد مسجون . و طلب منه أنه يروح بالطريق الصحراوى عشان يمر على بيته في المنيل – بيت المأمور – و يشوف إذا كان هناك والا لأ .

تطلعنا إليه فى وجوم و أخيرا بدأ رضا بوند يضحك فاستوقفه توكل باشارة من يده : – لسه . مش تعرف اللى حصل بعد كده ؟ سيادة الضابط خضرة قام على طول . على باب السجن قابل سيادة الضابط على بلبل . بلبل ساله : على فين العزم ؟ قاله ع الفيوم . قاله متوصلني معاك . قاله مش حينفع عشان أنا طالع الهرم . ليه ؟ قاله المأمور عاوز كده . عاوزنى أفوت على بيته و أشوف إذا كان هناك والا لأ . بلبل خبط كف على كف : أما غبى صحيح . ما عنده التليفون يقدر يتصل ببيته و يسأل .

ضحكنا جميعا فانبسط توكل . قال: لازم الواحد يضحك . وإلا طق . محدش واخد من الدنيا حاجة . حتة قطن بس . مش كده يا شرف ؟ عارف عشان إيه ؟

لم أكن أعرف . قال : محضرتش ميت بيتغسل ؟ مشفتهومش و هم بيسدوا كل خرم في جثته ؟ لو كنت شاطر قوللى يعوزوا كام حتة قطن .

أحصيت على أصابعى : اتنين للمراخير و اتنين للودان . و الخامسة . .

قاطعنى : فيك ولا مؤاخذة .

انفجر ضاحكا و خبط على النمرة : ساعة الحظ مهمة . تدينى كم سنة ؟

لم أرد فوجه السؤال إلى المهدى : تدينى كام سنة يا عم حسين ؟

لم ينتظر الإجابة و استطرد : أنا تلاتة وخمسين و لي أخ أصغر مني بثلاث سنين لو شفته تقول عجوز .ده لأني مبشيلش هم . أقوم م النوم قبل الضهر . آخد الإصطباحة وأنزل . ألاقي الناس زي ميكونوا مضروبين بالصرم. والصنايعية مقفلين ومكشرين . أزعق فيهم : جرى إيه يا ولاد القحايب ؟ محدش عملكو حاجة إمبارح والاإيه؟ و أقوم موزع عليهم الدوا .على طول يفكوا ويهيصوا.

و أضاف موجها الكلام إلى شوقي عمر : صح والا لأ يا حاج ؟ اللي زينا بيخدموا البلد شوف الناس يبقى شكلها إيه إن مكناش نخفف عليها . قال و بيحاكمونا على كده .

تذكرت أبو السباع وحديثه عن دوره القومي . و تأكدت شكوكي في توكل عندما هجعنا للنوم و طلب منه المهدي أن يخلع المصباح الكهربائي فرفض قائلا أن التعليمات تقضي ببقائه مضاء طول الليل . ورأيت المهدي يبتسم فأدركت أنه فهم أن هذا الإجراء يتيح للحراس رؤيته من النضارة أثناء الليل و التأكد من عدم اختفائه.

وجدت نفسي أستريح للمهدي . كان يتكلم كثيرا ويفتي في كل شئ مثل الدكتور رمزي . لكن حديثه كان شيقا على خلاف الأخير . كان مغرما بمسلسل "فالكون كريست " ولا يمل الحديث عن أبطاله وحكى لنا منه عدة حلقات سبق أن شاهدتها لكنني إستمتعت بطريقته في الحكي . وكان يرتدي قمصانا مشجرة أو "بولو سبورت " وينتعل في الطابور حذاء "ريبوك " فوق جوارب من نفس الطراز نقش عليها العلم الأميركي . وكان الطعام يأتيه يوميا و عندما يحضره و يدخل الزنزانة يكشف محتوياته قائلا بالفصحى التي لا يتخلى عنها أبدا : "ترى ماذا أعدت لنا أم المؤمنين اليوم" ؟ كان يقصد زوجته وأراني صورتها وكانت جميلة جدا رغم الحجاب الذي يغطي رأسها و يحيط بوجهها .

شرح لنا نظريته وهى أن ربنا خلق مجموعة من الأرواح الشريرة والخيرة ذات دورات . و جعل الأنبياء روحا واحدة خرجت منها دورة باسم عيسى و أخرى باسم موسى و ثالثة باسم محمد عليه الصلاة و السلام وهو آخر دورة فى الأنبياء . وقال أنه تحدى في التحقيقات أنه قادر علي حل ثلاثة ألغاز حيرت العالم : مثلث برمودا و قارة الأطلنطيد و أصل موشيه دايان . و عندما سألته عن حل هذه الألغاز قال أنه يحتفظ به للوقت المناسب .

سأله توكل : وانت ناوى فعلا تهرب ؟

كان أمر الخطاب الذى أرسله إلى سيادة الرئيس قد ذاع فى السجن .

قال : الحبيب هو الذى سيخرجنى و يعيدنى بعد أربع و عشرين ساعة .

– تعمل فيهم إيه ؟ عندك معاد مهم ؟ ولا يمكن مؤتمر ؟

لم يكن المهدى يعبأ بمحاولات الاستفزاز ولاكان يغضب من المزاح . كان يتجاهله وينطلق فى حديث جاد ومنطقى ويجبر سامعه على احترامه والإنصات إليه.

اطمأننت إلى أنه غارق فى النوم فاعتدلت على ظهرى و التفت ناحية رضا . كان أكبر منى بعشر سنوات ، ضخم الجسم مستدير الوجه ، حليق الرأس ، ذو عينين واسعتين وشارب كث . وكان معروفا بأنه من أخطر لصوص السيارات ودخل السجن عشرات المرات ولديه أكثر من خمسين قضية .

قلت له : مش عارف أنام و عندى زيارة الصبح .

سألنى : سلك ولا خاصة ؟

قلت : خاصة .

عاد يسأل : مين جايلك ؟

قلت : أمى هى اللى بتيجى دايما . وانت ؟

قال : أمى برضه . معنديش غيرها .

طلبت منه أن يحكى لى كيف قبض عليه فضحك .

قال : مش حتصدق .

لم يكن السجناء يتحدثون عادة بصراحة عن جرائمهم ويحرصون على التأكيد على براءتهم . ولهذا شعرت بالزهو لأن رضا يحكى لى كل شئ ولا يخفى شيئا . وتأكدت أنه يثق فى .

قلت و أنا أختلس نظرة إلى عم حسين و أتأكد من وجوده :

- احكيلى .

- شوف يا سيدى : مرّة شفت أتومويبل فى المهندسين عجبنى . مرسيدس فيها كل الكماليات وعليها اللوحة الخضرا بتاعت السفارات . مشيت وراها لغاية معرفت انها تبع سفارة أفريقية . بلد كده إسمها غريب . تصورنسيته ؟ المهم . قعدت أراقب السفارة وأفكرفى طريقة أخطف بيها الأتومويبل . وفى يوم لقيت فيها شغل نقاشة وعمال بتيجى الصبح . رحت متنكر فى هدوم نقاش ودخلت ضمن العمال وسهيت السواق وهربت بالأتومويبل .

نظرت إليه فى إعجاب فضحك و قال : اللى حصل بعد كده يموت من الضحك.

كانت زوجته تنتظره على ناصية الشارع ومعها طاقم ملابس لسائق رسمى . احتلت المقعد الخلفى وأنزلت الستائر ومضى هو بالسيارة إلى شارع جانبى هادئ فأوقفها . استبدل ملابس النقاش بملابس سائق رسمية أحضرتها له . ثم إنطلق فوق كوبرى فيصل إلى الهرم وإلى طريق اسكندرية الصحراوى .

– طلعت بالأتوموبيل وهو رافع علم السفارة . فجأة لقيت ضابط مرور على موتوسيكل . كان بيتكلم في اللاسلكي . قلبي طب ومراتي قالتلي وقعنا يا رضا . قلتلها دي داورية عادية . مسألتش فيه وعديته .بصيت لقيته جاي ورايا . مراتي قالتلي اوعى تتهور يا رضا . بصيت لقيته مسرّع ومحصلني . قلت رحنا في داهية. حصلني و عداني . ولقيته عمال يفتح لنا السكة و ماشي قدامنا كإنه الحرس بتاعنا . و كل شوية يبص ناحية مراتي باحترام . متنا على نفسنا م الضحك . الظاهر لما لقى أتوموبيل السفير ماشي من غير حراسة كلم الرئاسة بتاعته فكلفته بالحراسة . فضل قد امنا لغاية ما وصلنا اسكندرية وقدام الشيراتون حيانا تحية عسكرية ورجع ع القاهرة عشان يبلغ إنه قام بمأموريته .

تطلعت إليه مبهورا بجرأته :

– محدش اكتشف المقلب ؟

– جايلك في الكلام . قبل مايوصل سمع بلاغ من قيادة الطريق السريع بسرقة سيارة سفير ، واكتشف أنه كان بيحرس السيارة المسروقة . مبلغش حد رجع اسكندرية على طول . كنت سبت الشيراتون و نقلت فندق تاني ففضل ورايا لغاية ما لقاني . من غيظه تف في وشي أول ما مسكني .

صاح فيناالحاج شوقي عمرأن نكف عن الكلام كي يتمكن من النوم . وكان الجو قد مال إلى البرودة و تغطى الجميع بالبطاطين . سحب رضا بطانيته فوقه بحيث غطته تماما بعد أن ثنى ركبتيه إلى أعلى . و شعرت بالغيظ لأني عاجز عن تقليده و ممارسة متعتي السرية . وظللت ساهرا وحدي في الضوء أقاوم النعاس . وتسليت باستعراض مغامرات رضا متخيلا نفسي مكانه .

كنت واثقا أن توكل مستيقظ رغم أني كنت أسمع شخيره بين الحين و الآخر. وعندما بزغ الفجر نهض المهدي فتوضأ و صلى . و قام توكل أيضا يعد لنفسه كوبا من الشاي ، فانتهزت الفرصة و أخذت لنفسي تعسيلة .

ذهبت إلى الزيارة قرب الظهرو أنا كالمخدر من قلة النوم . وجدت أمى بمفردها ومعها كيس الطعام وكيس آخر به بيجامة كستور و بلوفر من الصوف . بسطت البلوفر فوق حجرى فألفيته رخيصا للغاية لا يقارن بما بدأ يظهر على بعض المساجين . لم أتصور نفسى به فى الطابور لكنى أخذته بعد أن قدرت أني قد أحتاج إليه أثناء النوم عندما تشتد البرودة .

لاحظت أنها شاحبة الوجه ويبدو عليها الإعياء . وقالت لى و أنا أتفحص كيس الطعام أنها كانت عند المحامى بالأمس وطمأنها على نتيجة الجلسة القادمة فى شهر ديسمبر . سألتها عن عايدة و عما إذا كانت فاطمة قد وجدت عملا فهزت رأسها نفيا . كنت أرغب فى تجنب الحديث عن أبى . لكن الصمت ران علينا و لم أجد ما أقوله . سألتها عنه فانفجرت باكية .

قلت و أنا أكشف غطاء إناء صغير من المعدن : فى إيه ؟ حصل حاجة ؟

وقبل أن ترد تبينت أنها أحضرت لى بطاطس مطبوخة فصحت بها : بطاطس تانى . مش قلتلك بلاش تجيبيلى بطاطس .

واصلت البكاء فقلت لها متذمرا : كفاية عياط بأه . انت حتقلبيها محزنة .

قالت : أبوك .

قلت : ماله ؟

قالت أنه دخل المستشفى مصابا بجلطة فى المخ .

بحثت عن سجائر فى الكيس فم أجد . كنت دخنت أخر سجائرى قبل الزيارة فسألتها فى نرفزة : انت مجبتيش سجاير ؟

قالت أن مصاريفها كثرت بسبب علاج أبى و أدويته .

زعقت فيها غاضبا : لما انتو مش قادرين على مصاريفنا خلفتونا ليه ؟

أخذت تبكى فى سكون . وأخذت أفكر فى كل الأشياء التى حرمت منها بسببهم . على الأقل لوكنت دخلت مدرسة لغات لكنت الان أتكلمها بطلاقة وكنت التحقت بالعمل فى فندق أو شركة سياحة بسهولة .

أعلن الحارس انتهاء الزيارة فودعتها فى صمت . و تبعته مع المساجين الآخرين إلى العنبر .

صعدت السلم الكبير الذى يتوسط الفناء الداخلى للعنبر . نادى على عم فوزى من شراعة زنزانته الانفرادية فلم أرد عليه . كانت زنازين الطابق الثانى مغلقة كالعادة منذ معركة التليفزيون . و ظهرت وجوه نزلائها الملتحين وراء قضبان الشراعات . حاولت أن أتبين بينهم وجه الشيخ عصام فلم أتمكن .

واصلت الصعود إلى الطابق الثالث المخصص لقضايا الأموال العامة من رشوة واختلاس واحتيال و تبديد . كان يتقدمنى أحد نزلائه حاملا صندوقين كبيرين أحدهما يحمل شعار "بتزا هات" والثانى شعار " لا بوار" الحلوانى . استقرت عيناى على اليتيه اللتين كانتا تتراقصان بشدة بسبب بدانته . وكان فى انتظاره عند رأس السلم اثنان من زملائه يرتدى أحدهم روب دى شامبر مكوى فوق بيجامة . كانوا يشتركون فى زنزانة واحدة تزدحم بالخيرات من معلبات تونة و أنشوجة و سردين و ماكريل و كومبوت و خلافه وبها ثلاجة "فيليبس" صغيرة وينامون فوق أسرة حديدية وضعت فوق بعضها . كان الثلاثة أيضا يشتركون فى ملكية ثلاث قرى سياحية على شاطئ البحر الأحمر وتهربوا من سداد ضرائب وتعويضات مقدارها أربعة عشر مليونا من الجنيهات . وكان رأى الحاج شوقى أن هذا لا يكفى لسجنهم و لا بد أن أحد الكبار حاول الاستيلاء على القرى وعندما فشل جرهم إلى السجن .

بلغت الطابق الرابع و أنا أفكر فى أن زنزانتهم تمتلىء بالتأكيد بصناديق المارلبورو . وداعبنى خاطر التسلل إليها لكنى استبعدت الأمر لصعوبته . مضيت

إلى زنزانتي مارا بعم حسين الكعكي جالسا إلى جوار حارس الدور . و ضعت حاجياتي فوق نمرتي . ولمحت توكل يتناول زجاجة المياه الخاصة به وعندما وجدها فارغة اتجه ناحية الباب . أسرعت نحوه قائلا :

– عنك يا نبطشي .

جمد في وقفته وتطلع إلى متمعنا . و شعرت به يفكر بسرعة في مدلولات تصرفي و ما سيترتب عليه . وانتظرت قراره و قلبي يخفق في صدري.

ترك لي الزجاجة وقال و هو يخطو إلى الخارج : ماشي .

طرت بالزجاجة إلى دورة المياه فملأتها وعدت . لم يكن بالزنزانة غير الحاج شوقي. ولاحظت أنه يبكي . كنت أشفق عليه لأنه مهدد بخطر الإعدام مثلي . كان تاجرا ناجحا في الموسكي إلى أن سقط في الإدمان و أهمل عمله فتكاثرت عليه الديون واتجه إلى الاتجار في الهيروين لتغطية نفقاته . وأعدت له الشرطة كمينا فتقدم له ضابط متنكر اتفق على شراء كمية كبيرة من تذاكر الهيروين و في الموعد المحدد للتسليم بكوبري القبة حوصر وضبطت معه الكمية مع الخاتم المعدني الذي يستخدمه في ختم التذاكر و ٥ آلاف جنيه حصيلة البيع .

وضعت الزجاجة بجوار نمرة توكل واستدرت لأنصرف وهنا تبينت أن الحاج شوقي في حالة غير طبيعية . كان مخاطه يسيل من أنفه فوق فمه ويعرق بشدة ثم بدأ يتشنج ورأيته يتبول على نفسه و الظاهر أيضا أنه تبرز ؛ إذ شممت رائحة عفنة . لم أدر ماذا أفعل فأسرعت أبحث عن توكل ووجدته جالسا مع حارس الدور وعم حسين الكعكي فناديته و أبلغته بحالة الحاج شوقي .

اتجه توكل بخطوات سريعة إلى الزنزانة . كان شوقي ما زال بمفرده ، وقد أقعى فوق نمرته محتضنا نفسه بساعديه . انحنى توكل فوقه و قال له شيئا . هز

الحاج رأسه نفيا فاعتدل واقفا وقال : لما ممعكش يبقى خد أنجكة . أرخص . قلت إيه ؟

مد شوقي يده إلى كيسه فاستخرج منه ثلاثة صناديق من سجايركليوباترا أعطاها لتوكل الذى انتزع من أحدها ثلاثة علب وضعها فى جيبه ثم نادانى وناولنى الصناديق الثلاثة قائلا:

– خد السجاير دى للحاج رأفت في زنزانة ستاشر . و هات الحاجة اللى يديهالك . طيارة . بس إوعى الشاويش يشوفك .

لم أكد أتحرك حتى نادى على و أشار إلى أن أقترب منه ثم همس : قوله يديك العدة كمان .

مضيت إلى الزنزانة ١٦ فى الربع المخصص للمخدرات بالناحية الأخرى من الطابق . كانت واسعة تضم خمسة وعشرين نزيلا توحى محتوياتها بالثراء وتزين جدرانها صور المجلات .

كان الحاج رأفت معروفا للجميع فقد دخل السجن ثلاث مرات لتنفيذ أحكام آخرها الحبس خمس سنوات . وكان ينفق ببذخ و تأتيه فى الزيارة تورتات ضخمة وكميات كبيرة من الخضروا ت والفاكهة ويرتدى ملابس بلدية فاخرة . وكانت زوجته مسجونة أيضا و للمرة الثانية وعندما خرجت أول مرة أشاع أولادها نبأ موتها وأقاموا لها سرادقا كبيرا فى بولاق أبوالعلا بينما اختفت فى شقة فاخرة فى مدينة نصر زاولت منها نشاطها إلى أن قبض عليها .

وجدته متربعا فوق نمرته و فى يده مسبحة . . كان ضئيل الحجم يعانى من شئ فى عينيه كالحول لم أدرك كنهه وإن كان يحد من قدرته على الرؤية . وكنت قد سمعت أن زوجته أيضا شبه عمياء .

أخذ مني السجائر ووضعها بجواره على الأرض ثم نادى أحد النزلاء الشبان وأسر إليه بشيء فغادر الزنزانة . ولحظت أنه إتجه ناحية المراحيض . طلبت منه سيجارة فأعطاني واحدة "روثمان " .

عاد المسجون الشاب بعد لحظات فأعطاه لفافة صغيرة ناولنيها قائلا : خبيها كويس .

بلغت أنفي رائحة غريبة منفرة و أنا أدس اللفافة في صدري . أطفأت السيجارة عند منتصفها و أسرعت إلى زنزانتي . ألفيت العرق يقطر من خدي الحاج شوقي ويتجمع حول إبطيه .

فك توكل اللفافة و استخرج منها لفافة أخرى ملوثة ببقع بنية فميزت رائحة البراز . إنحنى فوق دلو البول و أشار لي أن أصب له كوزا من المياه . و بعد أن شطف اللفافة الملوثة صببت له المزيد من المياه فصبنها وغسلها جيدا . ثم شطفناها للمرة الأخيرة و غسل يديه كما غسل علبة صلصة صغيرة فارغة .

طلب مني أن أوارب باب الزنزانة وأقف خارجه في الممر لأحذره إذا اقترب الحارس أو دخل الضابط العنبر . خرجت وواربت الباب ثم إختلست النظر من فرجته . رأيته يفك اللفافة المغسولة ويستخرج منها قطعة قطن و محقن بلاستيكي وبالونة حمراء معقودة الطرف . و بسط ورقة جريدة فوق نمرته وضع فوقها محتويات اللفافة . ثم ملأ كوبا من مياه الدلو وناوله الحاج شوقي ليمونة من كيسه مزقها بأسنانه .

كنت أعرف أن الليمون يعصر على البودرة الرخيصة المخلوطة بشوائب ولا تصلح للشم لتطهيرها من التلوث قبل استخدامها في " الأنجكة " أي الحقن .

راقبت يديه تتحركان بحذق وسرعة .امتص بعض المياه في إبرة المحقن ورفعها في الضوء ليتأكد من صفائها . ثم فض بالونة وسكب مابها من مسحوق

في علبة الصلصة و عصر عليه الليمونة ثم سحب الخليط إلى المحقن من خلال قطعة القطن .

قال شيئا للحاج شوقي ففك هذا حزام بنطلونه وشمر عن ذراعه ثم ثناه بعنف عدة مرات كأنما يطريه ولف الحزام بمهارة حول الجزء العلوى من ذراعه ، واحتوى طرفه في يده اليمنى . تحسس توكل ذراعه بأصابعه إلى أن عثر على وريد كبير بارز قرب المرفق ، فأمسكه بين الأصبع الوسطى والإبهام ، وجعل يضخ بيده حتى نفرت العروق على ظهرها . وضع طرف الإبرة و ضغطها . اندفعت الدماء إلى القطارة فضغط الحقنة ودفع المحلول ببطء شديد . بعد عشر ثوان تنهد الحاج شوقي في نشوة . واسترخى جسده ولانت ملامحه وتباطأ تنفسه . سحب توكل الإبرة حتى أوشكت القطارة أن تمتلى بالدماء ثم جذب السن ومسحه في ورقة كلينكس ومسح أيضا ذراع الحاج النازف وجمع العدة بسرعة و أعادها إلى كيسها و دسه في صدره فولجت الزنزانة . وفجأة انحنى الحاج شوقي إلى الأمام واضعا يده على بطنه ثم تقيأ فوق نمرته .

لم يبد توكل انزعاجا و قال له :

– ميهمكش . دايما كده في الأول . عشان كده إسمه السم .

أشعل سيجارة وعندما نظرت إليه قدمها لي لاخذ منها نفسين . راقبني وأنا أستنشق الدخان بشراهة . و أمرني باعداد الشاي للحاج شوقي ففعلت . ولاحظت أن علامات الانبساط بدأت تظهر عليه بالتدريج و أشعل سيجارة جذب أنفاسها في عمق .

سألني توكل : انت مجتلكش سجاير في الزيارة ؟

أجبت : لأ . وكنت عايز أستلف منك .

قال : ممعييش .

ثم أضاف : متقلقش . حتفرج .

ناولني عقب سيجارته فجذبت نفسا عميقا ساخنا جعلني أسعل بشدة . وولج عم حسين الزنزانة فقال عندما رآنا :

– سمعتو الخبر ؟ الدكتور رمزى رجع العنبر . حطوه في زنزانة أموال عامة بالدور التالت .

كنت قد تابعت أخباره منذ نقله إلى زنزانة انفرادية في العنبر الآخر ، ثم إضرابه عن الطعام . وكانت حالته قد ساءت بعد مرور عشرة أيام . لكنه ركب رأسه وواصل الإضراب طالبا أن تأتى النيابة لسماع أقواله . وركب المأمور رأسه هو الآخر ورفض إبلاغ النيابة وفشلت محاولات إقناعه بوقف الإضراب . وبعدها بأسبوع رآه الطبيب وأعلن عدم مسئوليته عن حياته وراجت اشاعة بأنه مات . ثم عرفنا أن المأمور نقله قسرا إلى المستشفى بسبب تدهور حالته لكنه امتنع عن تناول العلاج مشترطا مجئ النيابة ؛ فاضطر المأمور للخضوع وأخطر النيابة التى جاءت و أخذت أقواله فأوقف الإضراب و خضع للعلاج .

هبطت إلى الطابور فوجدته جالسا في الشمس ، مستندا بظهره إلى حائط العنبر و ممددا ساقيه أمامه وقد بدا عليه الهزال الشديد ، وأحاط به سامح و أبو السباع و مستر تامرالذى غطى عينيه بنظارة " لويسول " وارتدى سويت شيرت أسفل " باركا " زرقاء من النايلون ، ذات وسط مطاطى .

تطلعت إلى الدكتور بإعجاب و سألته عن الإضراب و هل كان شاقا . هز كتفيه قائلا : – أصعب وقت هو التلات أيام الأولانية بعدها تكون المعدة تعودت والواحد نفسه تنسد .

انضم إلينا رضا وقرفص إلى جوارنا . كان يرتدى سترة " أولد انجلند "من الجبردين مخططة طوليا فوق بولو من القطن " ثوماس بيربريز" ، و كرافتة من نفس

الماركة بألوان العلم الألماني ، وينتعل موكاسان جلد بنعل كاوتشوك فوق جوارب قطنية "بول سميث ". ولاحظت أن بنطلونه ضيق يضغط على محاشمه ويوضح تفاصيلها .

سأله عن هدفه من الإضراب فقال ببطء :

– تطبيق اللايحة و الدستور بالنسبة لمعاملة المسجونين .

علق رضا ساخرا : واطبقوا ؟

أجاب الدكتور في تردد : النيابة سجلت كلامي . لما نشوف .

نهض رضا واقفا و هو يقول : شالله يانيابة .

أخرج علبة سجاير مارلبورو تناول منها سيجارة . نهضت واقفا وأنا أنظر إلى العلبة . علقت على أناقته فقال بزهو : دى عدة الشغل .

أعطاني سيجارة فوضعتها في عبي لكي أدخنها بالليل . قال و نحن ندور حول الفناء :

– لازم ألبس كويس عشان محدش يشك في . مرة فتحت باب أتوموبيل وفجأة لقيت صاحبه جنبي . تمالكت أعصابي وقلتله ان العربية بتاعته سدة السكة قدام عربيتي و انى معرفتش أزقها لقدام فجربت المفتاح بتاعي وفتح . الراجل مشكش في حاجة و اتأسف لي . الهدوم اللي أنا لابسها ساعدتني . وفضلت واقف لغاية ما مشى .

سألته : إنت ناوى على حاجة النهاردة ؟

ضحك : ياريت . مفيش غير المحامي .

نفخ الحارس في صفارته معلنا إنتهاء الطابور . وناداني توكل بمجرد صعودي وأخذني إلى دورة المياه فإنتحينا فجوة صغيرة في مدخلها بعيدا عن الأنظار .

قال بصوت خافت : اسمع . الوقت لازم نشيل العدة و التموين لعمك شوقى قبل التمام . يمكن يحصل تفتيش . فايه رأيك ؟

لم أفهم ما يقصده . قلت : اللى تشوفه .

قال : أنا حطيت كل حاجة فى لفة صغيرة . همتك بقى يا بطل .

أرانى لفة واحدة إحتوت على عدة خوابير مدكوكة فى بعضها البعض وملفوفة ببلاستيك الأكياس الناعم .

تطلعت إليه متسائلا فصاح فى : إيه ياواد حتستعبطلى ؟ ياالله خش البسهم .

بدت لى اللفافة كبيرة الحجم وبدون تفكير قلت : و ليه ما يلبسهمش هو ؟

قال : ما انت شايف إزاى بيريل على روحه . أنا لو مكنش عندى بواسير كنت لبستهم على طول ولا الحوجة للئيم .

قلت محتجا : لكن دول كتير .

ضحك : يابنى لا كتير ولا حاجة . مش فاكر لما إدكو مسك الواد بريمة وغسلله معدته ؟ فاكر طلع منها إيه ؟

تذكرت أنهم أخرجوا من بطنه عشرين علبة سجاير و كتلة حشيش و أفيون وعدة أمواس حلاقة و حوالى ألف جنيه .

قال : مفيش مشاكل . انت بس تزقها زقة صغيرة . و لما نعوز حاجة تحزق فتتزفلط على طول من غير ما تحس . بس خلى الخابور الأحمر ده فى الآخر عشان لما نعوز نعمر دماغنا يبقى فى ايدنا .

قلت: طب افرض جابوا الأجهزة اللى بتكشف كل حاجة فى الجسم ؟

ضحك : هو إنت معرفتش ؟ مش عطلت كلها و معرفوش يصلحوها . رموها فى المخازن .

قلت : و لما أدخل الدورة الصبح ؟

كشر قائلا : الله بأه . يا بنى متخافش . حاخدها منك ساعتها . بالنهار أقدر أتصرف إنما المشكلة بالليل . عشان المهدى الله يجحمه .

كنا فعلا نتعرض بسببه لتفتيش شبه يومى فى أوقات مختلفة وخاصة بعد التمام . أخذت اللفافة و دسستها فى صدرى فأضاف محذرا :

- بس اسمع . كلمة واحدة منك و تروح فى الباى باى . فاكر اللى حصل لسكسكة ؟

كان سكسكة نشالا مشهورا فى عنبر الميرى و أبلغ الإدارة عن شحنة مخدرات دخلت السجن و بعد أسبوع وجدوه فى المرحاض مغمى عليه و عينه مفقوئة.

قلت : أيوه فاكر . متخفش .

وقف هو فى مدخل الدورة بينما دخلت المرحاض الأخيرو أسدلت ستارته . قرفصت وفككت اللفافة وأخرجت الخوابير فلبستها واحدا بعد الآخر وحرصت على أن يكون الأحمر فى الآخر .

وجدته فى انتظارى عندما خرجت فأشعل سيجارة كاملة وقدمها لى لندخنها سويا . و عدنا إلى الزنزانة فوجدنا الحاج شوقى مصهللا . وجدت صعوبة فى الجلوس إلى أن تعودت على وجود الخوابير فى إمعائى .

تخلى الحاج شوقى بعد العشاء عن الحذرالذى لازمه معنا ، ومضى يحكى مغامراته . روى لنا كيف كان عليه مرة أن يذهب إلى الأسكندرية بسيارته ال ١٢٧ ليسلم " بضاعة " . فخبأها فى خزان البنزين ولم ينتبه إلى تأثير ذلك على سعته الصغيرة من الأساس ، وإلى أنه لم يعد يتسع لأكثر من عشرة لترات . وتوقفت

السيارة فى الطريق ، يادوبك بعد ما عبر البوابة ، بعيدا عن أى محطة بنزين . لم يعد أمامه غير أن يعتمد على السيارات المارة . فأشار لواحدة رفضت التوقف ، واعتذر سائق الثانية بقلة ما معه . وكانت السيارة التالية للشرطة و هى التى أعطته . جاء الدور على رضا فقال :

– مرة فتحت أتوموبيل فلقيت ع الكرسى شنطة فيها ٦٥ ألف جنيه . أخدت الشنطة وسبت الأتوموبيل و بعد أسبوع رجعت سرقته ..

اعتدلت فى جلستى بحثا عن وضع أكثر راحة و سألته إذا كان حزينا لأنه دخل السجن . هز كتفيه وقال : أزعل ليه ؟ كلها كام شهر و أخرج و أرجع لنشاطى .

– إزاى ؟

– حاخرج بكفالة و بعد كده يبقوا يلاقونى .

كنت مفتونا بحكاياته لا أمل سماع المزيد و أتخيل لى دورا فيها . و خطرلى فجأة أن أسأله عما دفعه لاختيار هذا الطريق .

أطرق برأسه ثم ابتسم :

– كنت بازهق من المدرسة وأهرب مع الشلة نطلع نتفسح . وكنا مصاحبين ٣ بنات و عاوزين نعمل مغامرات على طريقة الأفلام . عملنا رحلات فى النيل . كنا نسرق القوارب و نتفسح بيها طول النهار وفى اخر اليوم نسيبها على الشط التانى. وبعدين نقلنا على الأوتومبيلات نسرقها وبعد مانتفسح نسيبها فى أى حتة بعيدة . تعلمنا السهروالسجايرومصاريفنا زادت فبقينا ناخد حاجات من الأوتوموبيل قبل ما نسيبه و نبيعها . و بعد شوية مبقيناش نسيبه خالص . بقينا نبيعه للتجار اللى يفكوه ويبيعوه قطع غيار .

سألته عن أهله و هل كانوا يسببون له مشاكل فتردد لحظة ثم قال :

– لا . عادي .

تخيلت نفسي عضوا في شلته و أشاركه في مغامراته . ثم سألته عن المرة الأولى التي قبض عليه فيها . فقال أنهم سرقوا سيارة وذهبوا للسهر في عوامة على النيل فتشاجروا مع أخرين . و قطع أحدهم حبل العوامةفجرفها التيارإلى عرض النهروبدأت تصطدم بالقوارب الصغيرة وتملك الذعر الجميع إلى أن أنقذتهم شرطة الإنقاذ النهري و سحبت العوامة إلى المرسى و ألقت القبض على كل من عليها . وهنا اكتشفت الشرطة أمر السيارة المسروقة فأحالت رضا وأصدقائه إلى النيابة التي راعت ظروف المراهقة والدراسة فاكتفت بتوجيه تهمة استهلاك وقود لهم بدلا من تهمة السرقة وأحالتهم إلى المحكمة التي قضت عليهم بالحبس ٢٠ يوما .

– الشهر ده كان بدايتي الحقيقية . كان زي المدرسة . اتعلمت فيه حاجات كتيرمن المعلمين الكبار . ولما خرجت أخدت علقة محترمة من أبويا ومنعني شوية من الخروج . رحت مصنّع طفاشة تنفع لكل أبواب الأتومبيلات . و بدأت أشتغل لوحدي ونجحت بفضل الطفاشة . وبعد شوية سكنت لوحدي و اتجوزت صاحبتي.

تصورت المفتاح السحري في حوزتي و أنواع السيارات التي سأطير بها . ثم انتبهت إلى أنه يبكي .

بهت الجميع و ساد الوجوم . ولم يلبث أن تمتم :

– ربنا انتقم مني ، أنا عمري ما حبيت واحدة زيها . الواحد له مرّة واحدة بس يا يلقاها يا ميلقهاش . متتعوضش أبدا . كانت تعمل معايا كل حاجة . كنا نسرق سوا ونهرب سوا ونتفسح سوا ...

سرد علينا ماحدث : كانت بمفردها في الشقة تعد الطعام عندما أمسكت النيران بملابسها النايلون . صرخت واستنجدت بالجيران إلا أن النيران تمكنت منها . ونقلها الجيران إلى المستشفى بين الحياة و الموت . لكنها لم تكف عن النداء باسم رضا حتى جاء وظل يبكى بلا دموع حتى لا تشعر به إلى أن لفظت أنفاسها فى حضنه.

ران الصمت علينا و اكتأبنا . و أخرجنا توكل من حالتنا بأن صاح :

– الله ...أمال بقى .. لوكان الواحد بدل ما اتجوز اشترى بالفلوس بهايم مش كان أحسن ؟ أنا متجوز من تلاتة وعشرين سنة وحبيت خمسة . إجوزت على مراتي وبعدين طلقت الجديدة و اجوزت واحدة عرفى .

جاراه الحاج شوقى متسائلا :

– و أنى واحدة فيهم بتبسطك ؟

– اللى أنا متجوزها عرفى .

أشعل سيجارة و بدأ يتحدث جادا :

– لازم تحسس مراتك إن فيه واحدة تانية و ياريت تعرفها و تكون أقل منها فى حاجة عشان تتجنن . أيوه كده .

أدار بصره فينا ثم أضاف بزهو :

– نيمتهم جانبى واحدة على يمينى و التانية على شمالى .أنا الجاهل . حد فيكم يا متعلمين عملها ؟

قال عم حسين و هو يتناول مسبحته :

– معاذ الله يا أخ توكل .

تجاهله توكل و نظرإلى وقال : وانت يا شرف ؟ تلاقيك لسه مدخلتش دنيا ؟ مش عاوز تدخلها ؟ تعال جنبى هنا و أنا أعلمك .

لم أدر بماذا أرد . خفت أن أنتقل إلى جواره و من ناحية أخرى إذا لم أرد سأتعرض لسخريته . و أخيرا أجبت و أنا أهز كتفى : مش عايز .

نظر إلى بوقاحة و قلدنى بصوت أنثوى : مش عايز . مش عايزة ليه يا بطة ؟

ارتفع صوت الدكتور رمزى فجأة من الطابق الثالث : " يا غلابة يا مساكين. فكروا بعقولكم . إنهم يسرقونكم طول الوقت و يضحكون على ذقونكم . وأنتم تتجاهلون حقوقكم . الأموريسست سداحا مداحا فى البلدان المتقدمة كما يحاولون إيهامكم . الدولة فى البلدان المتقدمة تحمى مواطنيها عندما يشترون احتياجاتهم من السلع وعندما يتحدد سعرها و عندما يعلن عنها وعندما توزع فى السوق . البائع مثلا يجب أن تتأكد نظافته و خلوه من الدرن و الالتهاب الوبائى بشهادة صحية غير مزورة .و يجب أن يمر مراقب أغذية يأخذ عينات من السلع الغذائيةليتم تحليلها فى معامل مختصة . ومن واجب الدولة أن تراعى اعتبارات الأمان فى السلع التى تشترونها وأن تحميكم عندما تتحدد شروط البيع و عندما تتحدد المواصفات و البيانات اللازمة عن السلعة كمحتوياتها و تاريخ إنتاجها وصلاحيتها ووزنها و تركيبها وسعرها .. " .

هلل المساجين و أعلن أحدهم نبأ عودة الدكتور رمزى من المستشفى . والظاهر أن هذا الاستقبال شجعه فمضى يقول : " ضحكوا عليكم و سرقوكم عندما أعلنت الشركات و الجمعيات عن فتح باب الحجز لسلعها بدفع الثمن مقدما كاملا أو جزئيا لتمول أعمالها بأموال المستهلك دون أن يحصل على عائد استثمارأمواله وينتظرسنوات فإذا اشتكى قالوا له خذ نقودك . طبعا دون عائد استثمارها . و عندما يستلم السلعة يجدها من موديل غير الذى اتفق عليه وأحيانا بسعر غير الذى تعاقد عليه و إذا اشتكى يجد أن شروط الحجز تعطى الشركة الحق فى تعديل التصميم و السعر و التأخير فى التسليم . ضحكوا عليكم

وسرقوكم عندما فرضوا عليكم تقسيطا فى أسعار السلع يضاعف ثمنها تقريبا . وعندما تقاضوا منكم مبالغ كبيرة بصرف النظر عن مستوى السلعة أو الخدمة ونوع المعاملة التى تتلقونها : التليفون الذى يتكرر عطله ،الكهرباء التى يتقلب تيارها و يتلف ما لديكم من أجهزة . ثم جاء أصحاب شركات توظيف الأموال وأبلغوكم أنهم ضد الربا وأنكم طبقا للشريعة تستحقون ربحا مقداره ٢٥ بالمائة وأكثر فأخذتم الربا وعشتم فى نشوة عاما أو اثنين لغاية ما راحت عليكم أموالكم ومع ذلك لا تتعظون . . تستسلمون بكل بلاهة لكل ما ينشر فى الصحف أو يعلن فى التليفزيون..

علق توكل وهو يشعل نصف سيجارة :

– الراجل ضرب . الصيام خلاه يهلوس . هو عايز يغير الكون والا إيه ؟ هو ماله ومال الحكومة والتجار . عامل راسه براسهم ؟ عاملى فيها فلّة ؟ طب ولمايرفعو ه حكم محترم ؟ حتنفعه الفلسفة دى ؟ كده والا لأ يا شرف ؟

ناولنى النصف فأجبت على الفور : تمام يا معلمى .

كانت أول مرة أخاطبه بهذا اللقب و أعجبه ذلك فانطلق فى الكلام :

– بص . أنا مبدئى هو أمشى مع الريح و ميل معاها لما تميل و انت تستريح . طب قولى ياحاج .. صاحبك و الا أخوك ؟ أخويا هو اللى ينفعنى . أنا سيبت أختى بتعمل عمليـــة و واحد صاحبى فى الإنعاش و رحت أعزى فى واحد ليه عنده مصلحة . أه . هو كده . صح و الا لأ يا عم حسين؟..

قال عم حسين وهو يبسط بطانيته استعدادا للنوم :

– غدا إنشاء الله أحدثك عن رأى فى كل ما ذكرت .

(١٨)

لم يُكتشف اختفاء المهدى إلا عند إجراء التمام المسائى . وكان شرف هو الذى نبه "اسحب الفجل" إلى غيابه فنودى عليه فى المرحاض وفى الزنازين الأخرى بالطابق الرابع وبقية الطوابق وجرى البحث عنه فى الفناء والمكاتب والفرن و المغسلة والورش دون جدوى .

وكما يحدث فى أمثال هذه الحالات ، قرر اسحب الفجل أن المهدى إشترك فى طابور بعد الظهر . وشهد حارس الطابق الثالث أنه رآه يصعد السلم بعد انتهاء الطابور . و أكد عدد من النزلاء بينهم توكل أنهم لمحوه فى الزنزنة قبل إجراء التمام بدقائق .

ظلت الزنزانة بغيرتمام ولم يسجل الضرويش التمام العمومى فى الدفاتر و بالتالى ظل السجن مفتوحا . وطاف بأرجائه يوزع الشتائم والأوامر واضعا على عينيه نظارة "فوارنيه" أخفتهما تماما بفضل زائدتيها الجانبيتين ، مؤجلا إلى آخر لحظة ممكنة إبلاغ مثلث الرؤساء (فى المصلحة والمباحث والمخابرات) . واستولت على السجناء حالة من الترقب الحذر كما تصف وكالات الأنباء لحظات الأزمات : فلو نجح الإختفاء تعرض الجميع للتكدير، وطبقت عليهم اللائحة بحذافيرها فيتم التشديد على دخول الممنوعات (منعها لا السماح بها) كى ترتفع أسعارها . ولهذا السبب تمنى الجميع سرعة ظهوره . دافع آخر لهذه الرغبة الإجماعية هو الغيرة . فهل هناك سجين لا يحلم بالعثور على طاقية الإخفاء ؟ بل إن البعض ، مثل توكل ، يعتبر ذلك من الفرائض .

شرح وجهة نظره من الناحية القانونية :

- لو القضية جناية الحكم يسقط بالتقادم بعد عشر سنين ، ويسقط لنفس السبب بعد تلات سنين بس إذا كانت جنحة .

كان لديه مثال جاهز هو ما حدث مع الملحن "بليغ حمدى " الذى غادر البلاد قبل ساعات من صدور الحكم عليه بثلاث سنوات فى قضية مقتل المغربية سميرة مليان ، و بعد انقضاء السنوات الثلاث عاد و لا يهم أنه مات بعد قليل .

من يضمن مثل بليغ حمدى أن تتحول الجريمة من جناية إلى جنحة ؟ تبقى المفاضلة بين عشر سنوات فى السجن وعشر مثلها من الاختفاء و الخوف و الحرية . رضا الأكثر خبرة بدخول السجن والخروج منه قدم حالة أخرى بالمثال التالى : إذا كان الحكم ستة شهور ولا ترغب فى أن تصبح لك سابقة رسمية تطعن فى الحكم . فى هذه الحالة تنتظرفي السجن نتيجة النقض التى قد تأتى بعد أربع سنوات . فمن يعوضك عن هذه الفترة لوصدر الحكم النهائى ببراءتك ؟ استخلص شرف النتيجة : الأفضل أن يختفى الواحد ويعتمد على حظه ، رغم أن الفشل ينتظره فى غالب الأمر .

أخر المحاولات الفاشلة تمت فى نفس الشهرمن العام الماضى . فقد نجح مسجونان في تهريب منشار من الصلب فى رغيف فينو و عكفا على قضبان الزنزانة حتى تمكنا من نشرها وتسللا منها إلى السقف و بطريقة ما وصلا إلى السور وإلى الحرية التى لم يتمكنا من الاستمتاع بها أكثر من بضع ساعات إذ قبض عليهما فى المنزل الذى إختفيا به والذى تركا عنوانه فى ورقة بالزنزانة .

وليس معنى هذا أن الحظ لا يضرب ضرباته أحيانا ، فمنذ بضع سنوات حصل أحدهم - وكانت له علاقة بمافيا مخدرات إيطالية - على ملابس

ضابط وغادرالسجن بطريقة عادية في يوم الأولومبياد و كانت تنتظره بطاقة طائرة أقلته خارج البلاد قبل أن يكتشف مأمور السجن إختفائه .

لم يكن عم حسين عضوا في أي مافيا ولا تمكن من تهريب ملابس عسكرية فضلا عن منشار و لهذا السبب عثروا عليه بعد خمس ساعات . كان قد نجح في التسلل أثناء الطابور إلى خزان مياه فوق سطح المغسلة وإنزوى به منتظرا موعد تغيير الحراس في منتصف الليل ليستغله في التسلل إلى السور . لكن الخزان بدأ يمتلىء بالمياه قبل منتصف الليل بساعتين ووجد نفسه مهددا بالغرق فاضطر لمغادرته وهنا كشفته الأنوار الكاشفة للحراس الذين كانوا ينقبون الفناء بحثا عنه . و تولى اسحب الفجل سحبه إلى عنبر التأديب .

ترتب على ظهور المهدى إخلاء إحدى زنازين التأديب من أصحاب اللحى وعودتهم إلى زنازينهم الأصلية بالطابق الثاني من عنبر الملكية ، وكان مذيع النشرة الإسلامية بين العائدين فاستأنف العمل على الفور. والظاهر أنه كان متأثرا بطول الفترة التي عزل فيها عن العالمين الداخلي والخارجي ، فبعد أن استعرض الثوابت بسرعة (الخمر و الزنا و الميسر و الربا) إنتقل للتعليق بصوت يرتعش من الغضب على إغتصاب المسلمات في البوسنة بواسطة وحوش الصرب ، ثم إنطلق يندد بعميد كلية الشريعة المصرية الذى أفتى بجوازإعادة غشاء البكارة للفتاة بواسطة الجراحة كي لا يفتضح أمرها أو يلحق العار بأسرتها طالما أنها تابت ورجعت إلى الله . و أعلن في سخط أن ذلك غش وخداع لا يقره الإسلام وإغراء لفتيات غيرها على الزنا . ثم ختم نشرته هاتفا :

- هذه العملية حرام حرام حرام .

انتقلت عدوى السخط فيما يبدو إلى الدكتور رمزى كما إتضح من أول نداء له بعد ظهور المهدى :

- يا غلابة يا مساكين . هل تظنون أنفسكم أحياء ؟ أنتم موتى . الواحد فيكم مرسوم ككائن حي لكنه ليس حيا على الإطلاق . تأملوا أحوالكم و أحوال زوجاتكم . الواحدة تطبخ وتعطى جسدها بدون إنفعال و تحمل و تلد وتواصل حياة هى والموت سواء . أنتم لستم سوى فئران تجارب . قبلتم معاملة الحيوانات . تشربون مياه الترع الملوثة بالحيوانات النافقة والمبيدات والقاذورات والخراء وتتنفسون الأتربة والأبخرة السامة وعوادم السيارات ويدقون رؤوسكم بالميكروفونات والستريوهات فيصيبكم الطرش و تنخفض نسبة المغنسيوم فى أجسامكم فتتلاشى قدرتها على تجديد البناء و تضطرب أعصابكم و تنهار خلايا أمخاخكم ويصيبكم الإكتئاب، ويرتفع ضغط دمكم ، إذا تبقى عندكم دم .

تعرف السجناء على أعراض العلل التى يشكون منها فهللوا للدكتور الذى واصل هجومه :

- هل تعرفون أن فى مصر خمسة آلاف مصنع غير مرخص تنتج سلعا غير مطابقة للمواصفات مثل اللانشون و البسطرمة و السجق و الجبن الأبيض وملح الطعام ومستحضرات التجميل وزيوت السيارات و إطاراتها و تيل الفرامل وأسطوانة الديرياج والأسلاك الكهربائية والأجهزة الكهربائية المجمعة من أجهزة قديمة . أى أنكم إذا لم تموتوا بسرطان المعدة والأمعاء فبحادث سيارة أو صعقة كهرباء .

على خلاف ماحدث فى عنبر الميرى ، حيث كان الإستنكار لنداءاته شاملا (من باب الجهل على الأقل) ، انقسم عنبر الملكى بشأنه إلى مؤيدين ومعارضين وبين بين . و تم الانقسام على أساس طابقى ، لا طبقى ، فبينما صفق له سكان الطابق الأول من نشالين ولصوص صغار (ولو من باب التهريج) وإيراد جديد (لم تتضح الرؤية له بعد) ، هاجمه سكان الطابقين الثانى المخصص لأصحاب اللحى (على أساس الخلاف الأيديولوجى المزمن بين

محمد و عيسى) والثالث المخصص لقضايا الأموال العامة من رؤساء شركات وموظفين كبار ومحتالين وقوادين ومزيفين وأصحاب قرى سياحية (على أساس موقعهم فوق قمة النظام الإجتماعى و بالتالى مسئووليتهم فى الدفاع عن كل تجلياته) . لنفس السبب تعاطف معه سكان الطابق الرابع من قتلة و تجار مخدرات ينتظرون أحكاما تتراوح بين المؤبد والإعدام (كماسبق أن تعاطفوا مع تطبيق الشريعة) . ولم يعبأ به نفر قليل من سكان هذاالطابق هم (الحمر).

كانوا ثلاثة جواسيس لإسرائيل يرتدون ملابس الإعدام الحمراء ، يحتلون ربعا كاملا من الطابق وينفرد كل منهم بزنزانة خاصة ، ولا يتاح لهم الإختلاط ببقية السجناء . وهو وضع يعتبر إمتدادا لمناخ عهد سابق كانوا يتعرضون فيه للأذى على يد المساجين العاديين قبل أن تعطيهم "كامب ديفيـــد" الشرعية . و بالرغم من تغير الأوضاع و ثقتهم فى حتمية الإفراج عنهم لم يكونوا ينعمون بالنوم غيرليلة واحدة فقط فى الأسبوع هى ليلة الخميس لأن الجمعة هو اليوم الوحيد الذى لا تنفذ فيه أحكام الإعدام . أولهم وليم الهش الذى لم ينكر أبدا جريمته و أعلن أمام المحكمة : "اسرائيل مش محتاجة جواسيس ، هى عارفة كل حاجة عن مصر" . وكان شابا ، من جيل أكتوبر ، عمل فى مصنع ملابس بالأسكندرية يصدر إنتاجه المتميز إلى إسرائيل دون علامات مصرية وهناك توضع عليه علامات إسرائيلية ويصدر إلى أوروبا . عن هذا الطريق سافر إلى إسرائيل والتقطته فتاة بادلته الحب بالمعلومات فـأدمن الاثنين والتحق بالموساد .

ثانيهم ، " مصطفى صور يا بيه "، كان حارسا (ماركة غفير لا أمن) لشركة مقاولات فى سيناء ، يتصيد الجنود الذين يمرون به و يتوقفون لشرب الشاى أوالماء ويعرف منهم أسماء وحداتهم و أرقامها فى البريد الحربى وأسماء الضباط ، فيحفظها فى ذاكرته لأنه أمى لا يعرف الكتابة أو القراءة ثم

يسلم هذه المعلومات إلى مندوب إسرائيلي . وفي يوم عثر في كوم من الزبالة بجوار مبنى للدفاع الجوى فى الإسماعيلية على ورق غريب مثقوب من الجانبين فسلمه للمندوب الذى سعد به قائلا أنه ورق كومبيوتر مهم وكافأه بكاميرا ومهمة تصوير مداخل ومخارج شبكة الكهرباء فى المبنى . وتتابعت بعد ذلك مهام التصوير التى أنجزها بكفاءة . أما السبب فى لقب الشهرة الذى عرف به فى السجن فيعود إلى ما جرى أثناء التحقيق معه بواسطة المخابرات المصرية وهى قصة لم يكن يمل روايتها بتفكه بالغ ، إذ قال له الضابط المحقق متلطفا :

- يا عم مصطفى قل لنا المواقع اللى إنت صورتها عشان نغيرها .

فرد عم مصطفى وهو يبتسم :

- صور يا بيه من الأسكندرية لغاية أسوان .

الثالث "يوسف ليفى" هو الإسرائيلي الوحيد بين الجواسيس (والملتحى الوحيد بينهم) ، ولهذا يستمتع بزيارة دورية من ممثل السفارة الإسرائيلية يزوده خلالها بحاجته من الهيروين ويؤكد له قرب الإفراج عنه وهو مصير لم يشك فيه أبدا بعد أن رأى بنفسه كيف أدانت المحكمة زميله "مصراتى" فتبول أمامها ثم أفرجت عنه السلطات (هو وابنته) و سلمته لأهله معززا مكرما. كان يعيش فى عالم خاص به يتمحور بين صحيفتين يوميتين (فهو الوحيد أيضا بين الثلاثة الذى يجيد اللغة العربية قراءة وكتابة) : " الجمهورية" ليتابع قضايا الدعارة التى تخصصت فى نشرها بالتفصيل . ويسجل أسماء المتهمات ثم يخمن السجون التى ذهبن إليها فيكتب إليهن خطابات يهربها عن طريق الحراس أملا فى عقد أواصر علاقة عاطفية على الورق .

الجريدة الثانية التى كان يتابعها بانتظام هى جريدة "الأهرام" ليبرهن على عبثية الوجود : ما فعله فى خدمة اسرائيل (واستحق عليه الإعدام) لا

يساوى شيئا إلى جانب ما يؤديه لها صاحب العمود اليومى الصغير فى جريدة مصر الأولى .

ترتب أيضا على ظهور المهدى وإحالته إلى عنبر التأديب أن الزنزانة المخصوصة فى المخزن فقدت مبرر وجودها فأعيد توزيع نزلائها طبقا لقواعد اللائحة : رضا لطابق الحرامية والحاج شوقى فى زنازين المخدرات ، وشرف وتوكل مع أقرانهما من القتلة فى زنازين النفوس حيث تحرر الأول من مهام الرقابة والتخزين لينتقل إلى مهام أخرى أكثر إثارة .

فى زنزانته الجديدة التى اتسعت لأكثر من عشرين قاتلا واحتل فيها كالعادة أول درجة فى السلم (بجوار دلو البول) ألفى شرف نفسه فى عالم شديد الثراء . على خلاف الجرائم الأخرى كانت للقتل دوافع غاية فى التنوع من الثأر لأب أو ابن قتل فى القرن الماضى أو الذى قبله إلى علاج الموقف الذى نشأ عن رش قليل من المياه النقية أمام دكان خضرى . كان هناك من قتلوا صديقهم بالعصى و الحجارة و حرقوا جثته لأنه طالب بنصيبه من عدة مئات من الجنيهات سرقوها من أحد المخابز ، و من ألقى بمطلقة شقيقه من الطابق الثانى بعد أن صب عليها كمية من الكيروسين وأشعل فيها النيران لاستيلائها على الشقة ، و من قذف رأس خطيبته بحجرفهشمه عندما إلتقى بها مع أمها فى الطريق فوجهت إليه سؤالا سخيفا بشأن إعداد منزل الزوجية بعد أن مضى على الخطوبة خمس سنوات . من ذبح شقيقه الصغير و شقيقته الطالبة فى الجامعة ليقنع أصدقائه التلاميذ بأنه أصبح رجلا . من مزق والده الكهل بالساطور ليمنعه من الزواج بفتاة صغيرة و من قضى على أمه بطعنات سكين إرضاء لزوجته ومن دس السم لزوجته إرضاء لأمه ومن خنق زوجته لأنها لا تنجب ومن مزقها قطعا صغيرة وزعها فى أماكن متباعدة على طريقة "ست " و"إيزيس " لأنها أنجبت من وراء ظهره ، ومن ذبحوا ابنة عمهم الجميلة لسوء سلوكها و من إغتصب ابنة خالته الطفلة حتى الموت .

كان هناك أستاذ الجامعة الذى قتل عمه من فرط حبه له ، وصاحب ورشة السمكرة الذى نفخ طفلا يعمل عنده و علقه من قدميه في السقف حتى خرجت روحه وذلك من أجل تهذيبه وإصلاحه ، والطبيب الذى أجرى عملية ختان لطفلة في السادسة من عمرها من أجل مساعدتها على التمسك بالفضيلة فأصيبت بنزيف قضى عليها و أراحها من مشقة المجاهدة . وخريج معهد التدريب بالمطارية (دبلوم برادة) الذى عمل سائقا على فان نقل لدى مطعم يملكه أحد المطربين فيشترى مستلزمات المطعم و ينقل الزبالة ويتولى توصيل الطلبات للمنازل أي يعمل من الفجر للفجر مقابل ٢٥٠ جنيها فى الشهر يرفعها البقشيش إلى ٣٠٠ يدفع منها ٦٠ للسكن والباقى ينفق منه على زوجة وطفلين وعندما طالب بالتصحيح هدده المطرب بمسدس و بالنتيجة حقد على صاحب المطعم وقتله . وكان هناك من أطلق النار فى الهواء إحتفالا بنجاته من القتل فأصاب أحد المارة فى مقتل . وكان هناك من لم يقتل أصلا وإنما اتهمته زوجته الأولى بأنه اشترك مع الثانية فى تقييدها ثم سكبوا الكيروسين عليها وأشعلوا فيها النار ثم أعترفت قبل الموت بأنها حرقت نفسها إنتقاما منه . وكان هناك سالم محمود سالم الذى يقتل بلا سبب.

لم يتعلم لأن أهله لم يتمكنوا من العثور على مريلة من قماش معين حددتها المدرسة شرطا لملابسه ولقبوله . فتحول إلى رعى الغنم ثم عمل فى ورشة بلاط . ثم سحب المالك قراريط كان يزرعها الأب بالإيجار فبكى الأب و تمرغت الأسرة فى طين الأرض ترفض الخروج منها إلى أن طرد أفرادها بالقوة . ذهب سالم إلى المسجد ليصلى ركعتين ويطلب من الله أن يخرب بيت المالك ويبقى به حتى صلاة العشاء. إستجاب الله لدعائه مع تعديل بسيط . فعندما عاد إلى منزله وجد فى انتظاره مخبرا صحبه إلى مركز الشرطة حيث اتهم بقتل صاحب الأرض .

كانت الجريمة مفبركة لأن السلاح كان على مكتب الضابط و أمامه شهود يؤكدون أنه هدده وبينهم إمام المسجد الذى أنكر رؤيته . صدر الحكم بثلاث سنوات فى سجن أسيوط و عند الإفراج تم اعتقاله فى سجن قنا باعتباره من الخطرين حيث أمضى ثلاث سنوات أخرى . ثم أفرج عنه بشرط البقاء تحت المراقبة . ولم تكد تنتهى مدة المراقبة حتى قبض عليه مرة أخرى بتهمة التهرب من التجنيد الذى حان موعده و هوفى المعتقل فلم يتقدم له لحظتها بالطبع . شحن إلى إدارة التجنيد على أنه من أفراد الأمن المركزى الهاربين و تمسك هو بالتوصيف الجديد لحالته فما أن حصل على الكارنيه وتسلم العهدة حتى هرب فعلا إلى الصعيد .

التحول التالى فى حياته تم بنصيحة أحد معارف السجن الذى يتمتع بفراسة شديدة . تفرس فيه طويلا ثم قال له أنه يصلح لاحتراف النصب .كل ما يتعين عليه فعله هو أن يرتدى ملابس فاخرة و نظيفة ويتسلح بأعصاب باردة . أى دور ينتحل ؟ أهناك غيردور رجل المباحث ؟ ولم يمض وقت طويل حتى صار خبيرا بانتقاء المغفلين : ينادى الواحد منهم باحتقار ويسأله إذا كان يحمل بطاقة . سواء كانت الإجابة بالسلب (وهى غالبا هكذا) أو بالإيجاب فإنها تعينه على دراسة الضحية وتجريده من نقوده . المرحلة الأخيرة يتظاهر فيها بأنه أشفق عليه ولهذا قرر أن يخلى سبيله ، ولا يصدق الضحية أذنيه ، فيطلق ساقيه للريح .

أدار النجاح رأسه وانتشى ، لا بالنقود السهلة و إنما بالسطوة ، فتعطش للمزيد . تكررت عمليات النصب حتى ضبط و حكم عليه بالسجن لمدة عام لكنه فضل الهروب بعد دفع الكفالة . وفى القاهرة استأنف النشاط . فى القاهرة أيضا وقع التحول الأخير .

كان أول من لقى مجندا فى الجيش فوق كوبرى مسطرد . سأله عن التصريح الذى غادر بمقتضاه المعسكر فارتبك . طلب منه أن يرفع يديه فاستسلم

التفتيش . كان معه أربعة عشر جنيها . أبلغه أنه مضطر لاقتياده إلى مركز الشرطة لأنه مطلوب في قضية . وأضاف أنه لا بد من تقييده قبل الدخول على ضابط المباحث . و لهذا لا بد من ربط يديه من الخلف . لم يعترض المجند. كان الوقت قبل الغروب بقليل . فاجأه بعد قليل وهما يسيران بين الحقول :

- إيه رأيك لو أسيبك تروح ؟

- و تدينى فلوسى ؟

أبدى سالم تعجبه مما إعتبره من قبيل البجاحة :

- شوف الواد ، بدل ما تبوس إيدى .

ركب الواد رأسه :

- أنا معليش قضية ومش حاسيب فلوسى .

أمره بالجلوس و هجم عليه من الخلف و ربط كوفية كانت معه حول عنقه لكنه قاوم وحاول أن يقف فوضع ركبته فوق كتفه و جذب طرفى الكوفية حتى خرج لسانه و لفظ أنفاسه دون صرخة واحدة ثم انكفأ على الأرض فتركه و مضى .

كانت تجربة مذهلة : ظلت يداه ثابتتان ولم يرمش له جفن . و على العكس : شعر أنه يحلق فى الهواء كما لوكان قد دخن قرشا كاملا من الحشيش و أخذ يستعيد لحظة الخنق في نشوة : بدت له مثل لحظة الخلق . فعندما تمكنت يداه من عنق الضحية كان بوسعه أن يفعل ما يشاء : أن يواصل الضغط أوأن يطلق سراحه . أن يأخذ روحه أو يمنحه الحياة . أدرك أيضا أن القتل لا يختلف عن أى شئ آخر فهو مثل المشى . بعد الخطوة الأولى يصبح سهلا . يتعوده الواحد .

كانت الضحية التالية رجلا فى الأربعين قابله فى محطة حلمية الزيتون . ابتدره:

- معاك بطاقة ؟

ارتبك الرجل لكنه أبرزها من محفظة معبأة بالفلوس ، ألقى نظرة على البطاقة رغم أنه لا يعرف القراءة أو الكتابة و ووضعها فى جيبه قائلا : أهو إنت.

تساءل المسكين فى حيرة : أنا مين ؟

- إنت اللى بندور عليه .

أمسك به من كتفه بالطريقة التى يقبض بها المخبرون على المتهمين و دفعه أمامه بعد أن أوهمه أنهما ذاهبان إلى مركز الشرطة . بعد أن وصلا إلى جسر المطرية كرر عليه قصة القيد الضرورى قبل الدخول على ضابط المباحث .ربط يديه بكوفية (صار الآن يحمل ثلاثا بصفة دائمة) ثم قال له أنه مشفق عليه من الجريمة المتهم بها والتى سيواجهه بها الضابط وعرض عليه أن يسلمه مائة جنيه مما معه مقابل إطلاق سراحه . لكنه رفض قائلا أنه برئ .

لجأ سالم إلى الصراحة :

- إفرض ان أنا مش مخبر ولا حاجة ، إنما بتاع ليل وقلتلك : عمرك والا فلوسك ..تقول إيه ؟

أجاب العبيط فى صلف و غرور :

- لسه متولدش اللى ياخد منى فلوسى .

لم يملك سالم نفسه أمام هذا الغباء . كانو قد أشرفوا على فناء مهجور فطلب منه أن يجلس على الأرض ليستريحا قليلا . وما أن جلس حتى لف الكوفية حول عنقه وقتله .

الذى بعده لم يكن معه مليم واحد و مع ذلك (أوريما بسبب ذلك) قتله. وبلغ عدد قتلاه ١٣ دفعوه جميعا لقتلهم . وعندما شرع يلف الكوفية حول رقبة رقم ١٤ظهر فجأة عابران أمسكا به . لم يعرف أحد بأمر القتلى السابقين وحكم عليه بالأشغال الشاقة خمس عشرة سنة قضى ثلاثة أرباعها فى

اليمان . وقبل موعد خروجه بأيام قبض عليه من جديد لأنه طعن سجينا أهانه ورفض أن يعتذر .

روى القصة لشرف : لم يكن أمامه خيار فلو تركه بعد الإهانة تشجع غيره . سيطلب منه واحد أن يحضر له شيئامن الكانتين أو أن يغسل له ملابسه أو أن ينحنى أمامه ويفك سرواله . سينيع الأمر : سالم محمود سالم لا يريد القتال لأنه فى طريقه إلى الخارج . بعض السجناء لا بأس بهم لكن هناك أيضا بينهم حيوانات . حثالة الأرض القذرة المعفنة : الطريقة الوحيدة لردعهم هى أن تكون دائما مستعدا لتسييح دمائهم . و النتيجة : أولا إلغاء العفو عن ربع المدة وعودته لإستكمالها و ثانيا الحكم عليه بخمس عشرة سنة أخرى قضى منها ثلاثا فى انتظار حكم النقض .

كان السفاح فى حوالى الستين من عمره ، طويل القامة مهيب الطلعة يوحى وجهه الأسمر القوى بالثقة والطمأنينة ، يعتلى فمه الشارب المنفوش المعهود ، فى حالة ارتخاء لا إنتصاب ، مسدلا الستار على عدة فجوات بين الأسنان ، يشغل الركن الذى يشغله النوباتجية عادة و يحسب له الجميع حسابا ، بما فيهم النوبتجى الذى كان على عكس ما يتوقع المرء تماما فى زنزانة تضم قتالين القتلة . فبدلا من أن يكون شيخ منصر كان رجلا منكسرا فاقد الهمة دائم الشرود قليل الحركة بسبب دوالى واضحة فى قدميه ينتظر حكم النقض فى جريمة لم يرتكبها .

لم يكن سالم يشارك فى السانيات إلا نادرا أو هكذا بدا فى الأيام الأولى التى واجهه فيها شرف من مكانه فى مدخل الزنزانة . لكن مجئ الأخير شجعه على ممارستها فدعاه فى أول ليلة للعشاء وشرب الشاى (وهى دعوة رحب بها شرف الذى عاد للاعتماد على اليمك ليغطى به الثغرات المتسعة باستمرار فى الغطاء العائلى) واستمع منه إلى قصته بالتفصيل . تولت

الجغرافيا الباقى ، إذ كان موقع شرف إلى جوار دلو البول يجعله فى مواجهة السفاح القابع فى الركن البعيد عن الباب و فى المجال الدائم لرؤيته . وهو أمر أثار خوف شرف فى البداية (خصوصا بعد أن سمع بقصة الكوفيات الثلاث)إلى أن ألفه بالتدريج حتى صار ينزعج إذا أخطأ السفاح وصوب عينيه نحو هدف آخر . أبدى السفاح أيضا لمسات إنسانية رقيقة فاذا رآه متعبا سأله : أجيبلك أسبرينة ؟ (حقيقية لا كودية) ، وإذا لاحظ أنه يفتقرإلى السجاير أشركه فى أنصاف سجائره وإذا وجده مكتئبا فاجأه بكوب ليمونادة أو بسيل من النصائح تؤلف رؤية كاملة فى الحياة :

- معاك فلوس الناس الحلوة تحترمك . ممعكش يدوسوك بالجزم .
- لوكنت متعلم وأقدرأدافع عن نفسى أو أقدر أأجر محامى كبير كنت فلت .
- المال الحلال معدش سهل زى زمان . مكسب الوقت كله حرام .
- كل اللى انت شايفهم دول سمك صغير . السمك الكبير ميجيش هنا أبدا .
- النساء ناقصات عقل و دين ولا يمكن عمل صداقة معهن إنما الصداقة فقط مع الرجل .

إلى جانب هذه الأفكار الحداثية كانت هناك ومضات كلاسيكية بعضها كفيل بتنظيم علاقة الإنسان بالسلطة (اتعلمت من صغرى انى مصدقش الحكومة . مش راح أكون أبدا شخص محترم فى المجتمع . عشان أبقى كده لازم يا إما أبقى مرشد أو جبان أو جردل خرا يمشى زى الأعمى ورا أى واحد حمار يختاروه للحكومة) والبعض الآخر كفيل بحل قضايا معقدة مثل الصراع العربى الإسرائيلى (لو حد دخل بيتى عشان ياخد منى حاجة مش حاروح للبوليس . إذا مكنتش أقدر أدافع عن نفسى واسترد حقى يبقى الراجل ده من حقه يا خد اللى عاوزه لأنى مستحقهوش) وإن عبرأحيانا عن فلسفة الدولة الإسرائيلية ذاتها (الحق معى لأنى أملك القوة) .

ويبدو أن السفاح كان واثقا من مصير شرف إذ أخذ يعده لحياة الليمان: لاتفتح فمك إلا عند الضرورة القصوى ، تجنب الاحتكاك بالآخرين ، احذر من مصادقة أحد مهما كان طيبا (باستثناء السفاح نفسه بالطبع) ، لا تتنازل طوعا عن أى شئ (إذا تنازلت عن شبر واحد حيحاولوا ياخدوا منك اتنين) ، أضعف لحظة هى أثناء التبول (خلى بالك وانت بتطرطر) ، فى السجن ليس هناك من يحل لك مشاكلك ، إذا ذهبت إلى الإدارة ستوصم بأنك مرشد وهذا قد يقضى عليك . إذن فأنت مضطر لأن تعالج مشاكلك بنفسك . من سيطلب منك إنزال بنطلونك لن يكتفى بذلك ولهذا يجب أن تكون مستعدا للقتال والدفاع عن نفسك أو تستسلم .

لكن أهم شئ هو ألا تجعل السجن يهزمك بأن تهزمه أنت . كيف ؟ باستخدام مخك .

استخدم سالم محمود سالم مخه من أجل الترويح عن نفسه بانتاج خمر محلية (خبز و برتقال و ماء و سكر تترك فى علبة بلاستيك أربعة أيام) ولمقاومة متاعب المعدة والأمعاء بصناعة الزبادى (قطعة صغيرة من لبابة الخبز فى حجم الليمونة مع أروانة لبن وتوضع فى مكان دافيئ لمدة يومين) وفى الاستعداد للاختفاء بأدوات بسيطة (أى سلك من الصلب الرفيع من علبة نظارة مثلا كفيل بنشر القضبان) وللدفاع عن النفس بالتسلح (تلف فرشاة أسنان جيدا بكيس بلاستيك ثم تسخنها بعيدان الكبريت إلى أن تتصلب ثم تدعكها فى أرضية الزنزانة عدة ساعات يصبح لديك بعدها سكين من البلاستيك) . هذا هو الدرس الأول .

الدرس الثانى كان كفيلا باثارة غضب الرئيس الراحل أنو السادات لأنه يتلخص فى تغذية الحقد : فالحقد الصافى الخالص يمكن الإنسان من الصبر والتحمل والصمود لسنوات . إنه يعطى السجين عطشا للانتقام ورغبة

فى البقاء ولو لدافع واحد هو أنه يحرم ساجنيه من متعة الظن بأنهم قد هزموه .

انتقلت عدوى توجيه النصائح إلى الدكتور رمزى فانهال بها على الغلابة المساكين :

– لا تثقوا فى أحد . لاتصدقوا الصحفيين و الكتاب الكبار. لا تثقوا فى طبيب أو محامى أو بائع مهما بسملوا و حوقلوا فهم يسعون جميعا وراء لحمكم الحى . لا تثقوا بالحكام .كذبوا عليكم ووعدوكم بالرخاء والعدالة والسعادة . و لم تحصدوا غير الفقر والمعاناة و الكآبة . ضحكوا عليكم وقالوا لكم أن الإشتراكية مساواة فى الفقر وأنها تحرم الإنسان من أعز غرائزه وهى التملك والتميز . صدقتموهم فماذا كانت النتيجة ؟ هم وحدهم الذين تملكوا وتميزوا . ...لا تثقوا فى إعلانات الصحف . كلما كبـــر الإعلان و ارتفع ثمنه كلما كانت الهبرة ضخمة . التهنئة أو التعزية الموجهة إلى وزير أو مسئول لها ثمنها الذى سيأتى من جيوبكم . لا تثقوا فى التليفزيون . لا تثقوا فى أنباء السى إن إن مهما تظاهرت بالحياد و الموضوعية . فكروا بعقولكم . اسألوا أنفسكم دائما : من المستفيد . كم المكسب . تذكروا دائما أن السلعة التى يعلن عنها فى التليفزيون بمئات الألوف من الجنيهات لا بد أن يكون مكسبها بالملايين . إســألوا أنفسكم كيف ؟ من أين تأتى هذه الملايين وأين تذهب . إسألوا أنفسكم ما معنى أن المسئولين عن التليفزيون يعملون هم و أولادهم فى نفس الوقت لدى تليفزيونات منافسة يملكها السعوديون الذين يسيطرون على كافة وسائل الإعلام العربية .إسألوا أنفسكم ماذا يريد هؤلاء منكم . كونوا دائما على حذر . عندما يذكر أحد المتحدثين فى التليفزيون أنه يحب مصر ، تحسسوا جيوبكم . إنتبهوا وافتحوا عقولكم جيدا .

كما احتوت نصائح السفاح لشرف على جانب عملى ، كذلك كان الأمر فى نصائح الدكتور :

– لا تتساقوا لنصائحهم و توجيهاتهم . اعملوا بعكس ما يطلبون منكم ، لا تشربوا مياههم الملونة الضارة . اعتمدوا على تراث الآباء والأجداد . بدلا من الكولا إشربوا العرقسوس والقصب واليانسون والحلبة والكركديه . كلها مشروبات صحية ومفيدة . لا تأكلوا الهامبورجر لأنه قد يسممكم . لا تستعملوا المعلبات الغالية التى يأخذون منكم عشرات أضعاف ثمنها الحقيقى .أنتم لا تحتاجون إلى كل هذه الرشاشات التى تملأ شاشة التليفزيون ورفوف السوبرماركات . ملعقة كبيرة من تنوة القهوة القهوة تنظف أية آنية تلتصق بها مخلفات الطهى . إحذروا مساحيق الغسيل التى تتنافس فى زيادة الفعالية بإضافة مواد كيماوية سرطانية . بوسائل بسيطة ورخيصة يمكنكم أن تصنعوا الصابون بأنفسكم . لا تتناولوا أدوية السعال التى أغرقوكم بها . قليل من مغلى لبان الدكر يقضى على أقوى كحة . وفروا نقودكم و صحتكم واحكموا عليهم بالإفلاس . لا تتركوهم يضحكون عليكم .

أثارت نداءات الدكتوراستغراب السفاح وفضوله . وازداد الاثنان عندما روى له شرف ذكريات زنزانتهما المشتركة . شرف أيضا كان يشعر بالاستغراب والفضول لا لسلوك الدكتور وإنما لسلوك السفاح نفسه .

كان الطعام يأتيه يوميا و السجائر لا تفرغ من عنده ولا تخلو الأكياس المعلقة من حبل فوق رأسه من كل ما يحتاج إليه السجين الذى ينعم بمصدر مالى ثابت . ومع ذلك لم يكن يتعامل مع الكانتين و لا يتلقى زيارات ولا حوالات مالية مثل الآخرين .

ألقى السفاح ضوءا كافيا على مصادره المعيشية مصادفة عندما روى فى زهو قصة صداقته مع النجم السينمائى "فؤاد وصفى" . تعرف به يوم وصوله إلى اللومان بتهمة الاتجار فى المخدرات . كان رقيقا وادعا ضئيل الجسم . وكرمته إدارة السجن (التى اشتهرت بتقدير الفن والفنانين) بإعطائه زنزانة مستقلة مفتوحة طول اليوم . وبعد أيام قليلة اقتحم بلطجيان زنزانته و أوقعاه

أرضا ووضعا سكينا في عنقه ثم شرعا ينزعان سرواله . وكان يمكن أن يحدث ما لا يحمد عقباه لولا الظهور المفاجئ للسفاح و تخلصه من الشقيين على طريقة " فريد شوقي ". هكذا اقتنع الممثل الوسيم بأهمية صداقة السفاح (فضلا عن حاجته إليه لتزويده باحتياجات مزاجه) و رتب له إيرادا يوميا من الطعام والسجائر. مالم يدركه الممثل هو أن الاعتداء الذى تعرض له كان من تدبير صديقه وحاميه .

بالإضافة إلى عيني السفاح كانت عيون أخرى تلاحق شرف أثناء صعوده و نزوله و تنزلق فوق أماكن من جسده ساعد الأكل المنتظم المتنوع و ندرة الحركة على تسمينها . وكانت هناك ابتسامات هازئة فى العيون و تلميحات بذيئة واحتكاكات عفوية . و وضع السفاح حدا لكل ذلك .

ففى فى أحد الأيام ، تلقى شرف من أمه فى الزيارة (التى أصبحت تخلو من السجائر بسبب تفاقم حالة الأب الصحية) علبتى كليوباترا . استخدم واحدة واحتفظ بالثانية فى كيسه . وعند عودته من طابور المساء اكتشف اختفائها . فتش عنها جيدا بمساعدة السفاح لكنهما لم يجدا لها أثرا .انتظرا حتى انتهى التمام واستقر كل نزيل فوق نمرته فخاطب السفاح الجميع :

– فى علبة سجاير ضايعة من شرف . حد شافها يا جدعان ؟

تبادل الجدعان النظرات دون أن يفتح أحد فمه . وتطلع البعض ناحية النوبتجى الذى تشاغل بترتيب نمرته .

خاطبه السفاح قائلا : إيه رأيك يا نبطشى ؟

استدار النوبتجى نحوهما قائلا : مش يمكن تكون وقعت منه فى الطابور ؟

قال شرف : دى كانت هنا فى الكيس بتاعى .

قال النوبتجى : ع العموم محدش هنا بيمد إيده على حاجة حد .

ثم أضاف مخاطبا الموجودين :

- إذا كان حد أخدها بالغلط يرجعها وإحنا نسامحه .

قال السفاح بصوت مرتفع :

- اللى حيمد إيده تانى على حاجة شرف أنى حاقطعها له .

وضع هذا الإعلان كل الأمور في نصابها وأحدث صدى واسعا كالذى أحدثه فى الماضى إعلان الحماية البريطانية على مصر لدى الطامعين الآخرين مثل فرنسا وإيطاليا وألمانيا فضلا عن الباب العالى فى استنبول . وظهرت النتائج على الفور إذ طفت علبة السجاير فى الصباح . وتوقفت الابتسامات الهازئة والتلميحات البذيئة والمضايقات التى كان شرف يتعرض لها من أصابع الباشا .

لم تكن نوعا من الحلوى و إنما لعبة . ففى طابور بعد الظهر كانت الألعاب تنقسم إلى كرة القدم وصلح المعدلة " . ولما كان شرف لا يلعب الأولى بسبب عيب (خِلقى لا خُلُقى) فى باطن إحدى قدميه فانه كان يلعب الثانية التى طورتها أجيال من السجناء . فبدلا من أن يقف الواحد واضعا يده اليسرى مبسوطة الكف على كتفه اليمنى ويتبارى اللاعبون فى ضربها بكفوفهم ويتعين عليه ان يحذر شخصية الضارب من ضغط كفه ، صار اللاعبون يستخدمون أصابعهم بدلا من كفوفهم ، يغزونها فى أى مكان من جسم الضحية . وكان الاختيار للدور الاخير يتم بالقرعة على طريقة ملك وكتابة ولسبب غير مفهوم يقع دائما من نصيب شرف .

تتابعت ردود أفعال إعلان الحماية حتى بلغت أوجها بظهور اسحب الفجل فى مدخل الزنزانة بوجهه الشاحب المعبر عن فقر الدم ، حاملا لفافة مستطيلة فى كيس أسود ، قادما فى سفارة . استقبله سالم فى ترحاب وأصر أن يتناولا معا طعام الغذاء الذى أعده شرف من علبة بولوبيف كاملة تم إنضاجها فوق السخان الكهربائى بعد إضافة بصلتين وحبة طماطم . تباسط اسحب الفجل فتحدث

بصوته المبحوح عن متاعبه التي تتمثل في الانفاق على بيتين (الأصلى مع الزوجة والأولاد في الصعيد والثاني مع حارسين أعزبين قرب السجن) وعن أبيه الذي كان سجانا مثله وأميا .كان ذلك أيام القيود الحديدية التي تكبل المحكومين بالأشغال الشاقة (حلقة في كل قدم تربطهما سلسلة وزنها أربعة كيلوجرامات متصلة من الوسط بحلقة أخرى معلقة في حزام جلدي ولا يخلع السجين هذه القيود أبدا في نومه أويقظته أو حتى عند الإستحمام، تصور) وعلمه المسجونون الشيوعيون (في واحد من أخطائهم التاريخية) الكتابة والقراءة فأصرعلى تعليم ابنه جدول الضرب ، فأتقن هذا الاثنين : الضرب والحساب . بعد الشاى والسجاير انزوى اسحب الفجل مع السفاح جانبا وقدم إليه اللفافة السوداء وكشف عن سفارته بصوت خافت .

لم يسمع شرف الحديث لكنه رأى السفاح يفض اللفافة التي احتوت على خرطوشة كاملة من كليوباترة . أطرق السفاح بعض الوقت ثم أعاد كليوباترة إلى لفافتها واللفافة إلى حاملها قائلا في صوت بارد :

– قولّه يفتح الله .

شعر شرف شعورا مبهما أن الأمر يتعلق به . وصدق شعوره عندما روى له السفاح القصة : فالجاسوس الإسرائيلي ضاق بغراميات الورق وحن إلى الواقع فوقع اختياره على شرف الذي صدم للنبأ لا لأنه أصبح موضوعا للتفاوض بين قوى خارجية ولا لطبيعة الخدمة المطلوبة وإنما للثمن البخس الذي وضعه في مستوى سجين مثل عزيزة يتقاضى صندوقا مماثلا مقابل جولة سريعة بالنهار وعدة أضعاف إذا تعلق الأمر بليلة كاملة .

ليست هناك أسرار في السجن ولهذا لم تمض ساعات حتى عرف الجميع بموقف السفاح الرافض . وتسببت عيون شرف في زيارة ثانية من اسحب الفجل في اليوم التالي ، هذه المرة في سفارة من عشم الله .

جاء عشم الله من قرية في كفر الشيخ حيث كون عصابة للثأرمن أسرة إشترك

أبناؤها فى اغتصاب أخته البكماء . وليضمن الحماية قرر أن يؤجر عصابته لمن يدفع من أصحاب النفوذ . لكنه كان مغرما باللسانيات التى أدت إلى وقوعه والحكم عليه بخمسة عشر عاما. وخلال وجوده فى السجن ورطته اللسانيات مرة أخرى . فقد حكى لأصدقائه كيف استأجرته سيدة بمبلغ عشرين ألف جنيه لقتل مزارع استولى منها على قطعة أرض ، فقام بالمهمة على أفضل وجه ولم تستدل الشرطة على القاتل وحفظت النيابة التحقيق وقيدت الجريمة ضد مجهول . بعد الإفراج عنه أمرت النيابة بإعادة التحقيق فى القضية وإعادة حبسه.

ما دفع عشم الله للمزايدة على الجاسوس الإسرائيلى البخيل لم يكن معارضة منه للتطبيع وإنما ضعفه المزمن أمام العيون . فقد كانت هى القاسم المشترك بين أول وآخر عملية له . فى الأولى هاجم مزرعة وأطلق الرصاص على مابها من أبقار . بعد ذلك لم يتمكن من نسيان نظرة عيونها إليه أثناء إحتضارها . وفى آخر عملية تعرفت عليه فلاحة عندما اغتصبها فحاول أن يخنقها لكن عينيها ظلتا مفتوحتين فارتجفت يداه ولم يتمكن من انتزاع روحها . أمال رأسها إلى الخلف وطعنها فى رقبتها بقرن الغزال لكنها لم تغلق عينيها و ظلت تنظر إليه . استخدم يديه الإثنتين فى دفع المطواة بلا جدوى ، فالتقط طوبة وأمسك المطواة بيده اليسرى ومضى يدقها بالطوبة ثم جذب المطواة ناحية اليسار و مرة أخرى ناحية اليمين إلى أن أتم مهمته .

لم يعرف أحد ما إذا كانت عينا شرف قد ذكرته بعيون البقر أو بعينى الفلاحة العنيدة ، فقد ضاعت فرصة معرفة ذلك . حقا ان اسحب الفجل قد حمل معه خرطوشتين من كليوباترة مما أرضى كبرياء شرف (رغم أنه ما كان سيرضى بصفقة تنال من شرفه) ، لكن الرد الذى حصل عليه من جهة الاختصاص – سالم – كان واحدا :

– يفتح الله .

وعندما تطلع إليه شرف متعجبا قال فى اقتضاب :

– أنامش وسخ .

(١٩)

إنكمشت فوق نمرتي وأنا أرتعش من البرد . كنت ألتف بالبطانيتين المخصصتين لي بعد أن جعلت الوسادة من كيس حاجياتي وحذائي كما كنت أرتدي البلوفر الصوفي الذي أحضرته لي أمي و كلسون طويل من القطن لكن برد ديسمبر خرم عظامي بسهولة . كنت في نقطة إلتقاء تيارين من الهواء اللاسع : واحد يهب من من إحدى النافذتين اللتين تتمتع بهما الزنزانة والثاني يندفع من أسفل الباب المجاور لي ويصطدم مباشرة بجانبي الأيمن كله من الرأس إلى القدم أنصت لأصوات شخير النائمين و تنفسهم و خصوصا الذين كانوا في الركنين البعيدين عن تيارات الهواء وهما سالم والنوبتجي . كان إلى جواري عجوز أهتم متهم بقتل شريكه في محل بقالة . وكان قد حصل على بطانية إضافية من الحراس مقابل سجائرثم جاءته واحدة "ساراتوجا " ثقيلة من أهله . لكنه كان دائم التقلب و التنهد .

أثنيت ركبتي وكورت جسمي وإقتربت قليلا من العجوزلأتدفأ بالحرارة المنبعثة من جسمه و دسست يدي بين فخذي محاولا تجاهل البرد بالتفكير في شئ آخر.استعدت صورة زوجة الدكتور ثابت محفوظ أثناء جلوسها في المحكمة واضعة ساقا فوق ساق . وجدت نفسي عاجزا عن تذكرها بوضوح وعاجزا أيضا عن التركيز من البرد . وشعرت بالأسف لأني لن أراها ثانية أثناء الزيارة أو في المحكمة إذ خرج زوجها بكفالة كبيرة .

انتظرت في لهفة بزوغ النهار . وتابعت شقشقة الفجر من النافذة . وتمنيت أن يكون اليوم مشمسا لأتخلص من برد الليل .

كان سالم أول من استيقظ وبدأ يعد الشاي و عندما رآني مفتوح العينين أضاف كوبا آخر إلى الماء . إنتظر حتي غلى الشاي فصب لي كوبا ارتشفته في لهفة .

قلت : ياريت النبطشي يحطلنا كرتونة أوأي حاجة في الشباك اللي جنبي .

سمعني وهو منكمش أسفل أغطيته فاعتدل جالسا و سعل بشدة . صوب بصقة تابعتها في قلق حتى استقرت في دلو البول بجواري .

قال : لو غطينا الشباك حنتخنق من النفس والزراط .

قلت : يعني الواحد يموت من البرد ؟

توجه إلى الآخرين بالحديث :

– حد تاني عاوز قفل الشباك ؟

أبدى الجميع اعتراضهم وتطلعت إلى جاري العجوز لكنه لم ينبس بحرف . قلت في نفسي أن لديه ساراتوجا كما أني أصد عنه التيار القادم من تحت عقب الباب.

قال سالم للنوبتجي : انقله بعيد عن التيار .

قال النوبتجي : أوديه فين ؟ و مين ييجي مطرحه ؟

– طب شوفله بطانية . أنا لو مكنتش ظهري تعبني كنت اديتله واحدة .

تطلع النوبتجي إلى ثم إلى سالم وأدركت فيما يفكر : الثمن ومن الذي سيدفعه . لكنه لم يعلق و اكتفى بان قال :

– إن شاء الرحمن .

تناول سالم إحدى بطاطينه الثلاث وكانت من بطاطين السجن الداكنة لكن في حالة جيدة . قدمها لي قائلا : خد دي لغاية ما يشيئ الرحمن .

ابتسم النوبتجي في خبث فابتعدت عن يد سالم الممدودة قائلا :

- لا . انت محتاجلها أكتر .

ألحف علي سالم بقبول البطانية لكنى أصررت على الرفض و غادرت الزنزانة إلى دورة المياه .

فوجئت عند مدخلها بحجاج الذى تعرفت عليه فى عنبر الميرى والذى اختطفته العصابات وهو صغير . كان يرتدى جلبابا فضفاضا بعض الشئ تبدو من تحته ملابس داخلية من الكستور : كلسون طويل حتى القدم وفانلة بكمين طويلين . وكان يحمل فى يده فوطة كبيرة ملونة وصابونة "كامى" .

صبّحت عليه و أضفت فى استغراب : بتعمل هنا إيه ؟

احمر وجهه وقال : الحاج رأفت نقلنى .

- الحاج رأفت ؟

- أيوه . كلم سيادة الضابط مرقص فهمى فنقلنى .

- فى زنزانة ستاشر ؟

أطرق برأسه مؤمنا . تذكرت فوطته الممزقة الجربانة وأدركت أنه يحمل فوطة الحاج رأفت و صابونته و أنه فى طريقه كي يحجز مكانا للحاج فى الدورة .

تبعته إلى الداخل وصح حدسى إذ وقف أمام أحد المراحيض الخالية مانعا الآخرين من دخولها حتى يأتى صاحبه . تبولت فى المجرى و لم أعبأ بالإغتسال إذكان اليوم موعد الحمام الأسبوعى . و عدت إلى الزنزانة فأفطرت مع سالم بقطعة من الجبن القريش أضاف إليها ملعقة من الطحينة البيضاء .

كنا قد تبادلناالعزايم عدة مرات ثم اقترح أن نتشارك فى الطعام والشراب والسجائرفأصبحنا نتقاسم كل شئ . وكان هذا الترتيب ملائما لى إذ بدأت زيارات أمي تقل واقتصر تموينها الضئيل من الطعام و السجاير على مرة واحدة فى الأسبوع .

جاء الدور على زنزانتنا بعد ساعة لنزول الحمام . ووقفنا عراة في القاعة الصغيرة أسفل مياه الدش الساخنة . كان سالم قريبا مني ، وكانت أول مرة نستحم فيها سويا و لحظت أن له كرشا بارزا و ثديين متهدلين، و تأملني هو بإمعان ثم علق على شعر سيقاني الكثيف .

كان السنية في طابوريمفردهم فصعدنا إلى أعلى وانتظرنا عودتهم . وتلكأت قرب السلم بحثا عن الشيخ عصام الذي لم أره منذ عاد من التأديب . نهرني الحارس وأمرني بدخول زنزانتي مهددا بإغلاقها . وأسر لي سالم أنه يريدني في أمر و طلب مني أن أتخلف عن نزول الطابور .

انتظر حتى نزل الجميع إلى الفناء ثم شرح لي أن زنزانة ١٦ ستحتفل الليلة بالإفراج عن أحد نزلائها وبالتالي يحتاجون إلى تموين من المخدرات . وقال اننا مدعوان – أنا وهو – لقضاء الليلة معهم .

كانت العادة ألا تحتفظ زنازين المخدرات بأي كميات منها تجنبا لأي تفتيش مفاجئ رغم أن السجن كله يعرف دائما بحملات التفتيش قبل موعدها بوقت كاف. ولهذا تودع في مخابئ بزنازين أخرى . و كشف لي سالم أنه يتولى أمرأحد هذه المخابئ بزنزانتنا و أنه سيتولى فتحه أثناء الطابور و يحتاجني للقيام بدور الناضور .

وارينا الباب ووقفت في الخارج متظاهرا بالتدخين . و أخذت أنقل عيني بين السلم و أبواب الزنازين الأخرى . فلم نكن نخشى الحراس وحدهم و إنما أيضا السجناء الآخرين

ألقيت نظرة داخل الزنزانة فرأيت سالم قد طوى نمرته وجلس فوقها ثم تناول علبة حلاوة طحينية فاقتطع منها بأصابعه كتلة في حجم البرتقالة وفتتها نتفا صغيرة فوق غطاء العلبة . مزق صفحة من جريدة رقعا صغيرة . ودعك كل رقعة في فتافيت الحلاوة ووزّعها في شبه دائرة فوق أسفلت الأرضية ثم أشعل عودا من الكبريت وقربه من الورق وتركه يشتعل ببطء .

تابعت الحلاوة فى أسى إلى أن ذابت تماما ولانت الأرضية فدس فيها سلكا رفيعا وحركه فى دائرة بحجم رغيف الخبز. كررالعملية عدة مرات إلى أن انفصلت الدائرة عن بقية الأرضية . رفعها ووضعها جانبا ثم استخرج من الحفرة لفافة سوداء من البلاستيك فض محتوياتها فوق الأرض وتناول منها عدة لفائف صغيرة وضعها فى صدره و أعاد اللفافة الأصلية مكانها و أضاف إليها لفافتين أخرتين أخرجهما من جيب جلبابه . أعاد دائرة الأسفلت مكانها ثم وزع رقع الورق المدهون بالحلاوة حول محيط الدائرة وأشعله وإنتظر حتى ذاب الأسفلت من جديد حول الدائرة فأخذ يخزه بحرف السلك . واظب على هذه العملية إلى أن سوى سطح الأرضية وأعاده إلى ماكان عليه واختفي الشق الدال على الحفرة . ثم جمع الرماد المتخلف عن العملية ونثره فوق سطح الحفرة و مسحه بلطف . وكرر هذه العملية أيضا إلى أن استعادت المنطقة لونها الأسود القديم .

ظهر مساعد الحاج رأفت بعد قليل فجمع لفائف المخدرات فى صدره ومضى إلى المراحيض ليلبسها توقيا لأى تفتيش مفاجئ عند التمام بعد أن شاع نبأ الاحتفال المزمع . فكرت أن أحلق ذقني بهذه المناسبة لكنى لم أكن أملك ما أدفعه للحلاق . وقبل التمام حملنا نمرنا وانتقلنا إلى زنزانة ١٦ .

أعطانا النوبتجي مكانين متجاورين في العمق بعيدا عن الباب وتيارات الهواء. واقترح سالم أن نعد فراشا مشتركا لنضمن الدفء . فبسطنا البرشين متجاورين وفوقهما بطاطينه الثلاث و أبقينا بطانيتى الاثنتين لنتغطى بهما معا .

كان الحاج رأفت فى مكانه المعهود بمركز الصدارة يتوسط الحائط الممتد بين ركنى العمق وإلى يمينه حجاج . و لحظت أن الأخير يرتدى جلبابا أبيض نظيفا وأن خديه أملسان ويلمعان وأدركت أنه حلق ذقنه بالفتلة . وجلس الحاج عرفة ، المحتفل به ، إلى يساره . كان يرتدى بذلة كاملة من صوف "ستيا " وكرافتة لم تعجبنى ألوانها ، وله عدة أسنان ذهبية فى مقدمة فمه . ورأيت إلى جواره تاجر

المخدرات وإبنى أخيه الذين كانوا فى زنزانة عبد الفتاح بالطابق الأرضى بالإضافة إلى عم حسن نوبتجيها . سألونى عن أخبار عبد الفتاح وعما إذا كنت أتلقى منه خطابات أو أنباء . و أجبت بالنفى .

كان العشاء مخصوصا و يتضمن دجاجا محمرا و صينية كنافة ضخمة وعدة سلطانيات مهلبية . و بعد الشاى صعد النوبتجى إلى شراعة الباب وصاح بأعلى صوته :

– المعلم عرفة مروح لامه ياجدعان عقبالنا جميعا يا حبايب .

تصاعدت الصيحات من مختلف الطوابق . و بدأت كل زنزانة توجه تحياتها المفرج عنه . وفجأة سمعت صوت الدكتور رمزى يشترك فى التحية ثم ينطلق فى موال من مواويله اليومية :

– يا غلابة يا مساكين ..الواحد فيكم سرق ألف أوألفين . أو قتل واحد أواثنين بينما هم يسرقون و يقتلون بالملايين ولا يدخلون سجون ولا يعرفون مشانق .

انطلقت التهليلات والشتائم من كل اتجاه . وصحنا جميعا فيه أن يسكت . لكنه لم يعبـأ وواصل :

– يا غلابة يا مساكين . أنتم تعيشون حياة الموتى بينما يبددون أموالكم وحقوقكم . سرقوكم و نهبوكم . . خدعوكم وضحكوا عليكم من زمان ...فى الأول منوا عليكم بدعم تحصلون به على السكر والأرز والزيت والخبز بأسعار رخيصة وكأنهم يعطونكم من جيوبهم متجاهلين أنه يأتى من جيوبكم ويذهب أغلبه لهم ومنه شيدوا ثرواتهم . فمن جيوبكم دفعت الحكومة دعما للأسمنت و الأسمدة و حديد التسليح ذهب لأصحاب العمارات والأبراج ، والدقيق الفاخر والسكر ذهب لصانع الحلويات والمياه الغازية (فتتكلف زجاجة السفن أب عشرين قرشا وتباع بخمسين) . أى أنكم اقتطعتم من خبزكم ودخولكم كى يحصل أصحاب العمارات والمخابز ومحلات الحلوى على المواد الخام بأقل من أسعارها الحقيقية

ثم ألفيتم أنفسكم عاجزين عن السكنى فى عماراتهم أو شراء منتجاتهم التى تذهب للقادرين من أمثالهم بأسعارفى متناول أيديهم ، نتيجة الدعم المزعوم . ومنوا عليكم بدعم الكهربا الذى يذهب أغليه لسكان المدن والقادرين منهم على شراء الميكفات و الأجهزة .

بعد ذلك تدفعون ضرائب وهى ضرائب غير عادلة لأنها على الدخل وليست على الثروة ولا تستطيعون التهرب لأنها تخصم من المنبع على العكس منهم فهم يملكون حسابات فى بنوك فى الخارج و يملكون السلطة والنفوذ فى الداخل ويستمتعون بالاعفاءات التى تقدر بأربعة مليارات جنيه فى السنة . وأنتم تدخرون إجباريا فى صندوق التأمينات وتقترض الدولة من هذه التأمينات بفائدة رمزية و أيضا من صندوق توفير البريد وشهادات الإستثمار لتنفق على احتياجات المحظوظين من سيارات و مكيفات و ديشات .

وتقدم البنوك قروضا ميسرة للإسكان والأمن الغذائى واستصلاح الأراضى وشراء الأراضى المستصلحة . وتتحمل الخزانة العامة ، أى خزانتكم التى تمولونها بعملكم و تضحياتكم ، الفرق بين سعر الفائدة فى السوق والسعر المنخفض الذى يدفعه المقترض وهو عادة من الأغنياء .

فهل حل هؤلاء مشاكلكم ؟ لقد أقاموا العمارات الفاخرة الضخمة متعمدين أن يصبح الرصيف والشارع جاراجا لسياراتهم ، فأخذوا منكم الشارع الذى دفعتم ثمن رصفه . و لأنهم يأكلون جيدا بالطبع فالمتوقع أن يكون ضغطهم عاليا على شبكة الصرف الصحى ، و النتيجة قرض أجنبى من أجل إصلاح وتطوير الشبكة بتكلفة ثلاثة مليارات من الجنيهات اقتطع منها الوسطاء و الخبراء الأجانب والوزراء شريحة ضخمة . وتدفعون من قروشكم المحدودة كل هذا : ربح صاحب العمارة وقيمة القرض الناشئ عن آثارها و (مخلفاتها) و تتكرر القصة فى شبكة المياه وشبكة المواصلات وشبكة التليفونات و بقية الشبكات .

والآن وبعد أن اغتنوا واكتفوا ، يلغون الدعم بناء على طلب الصندوق ، فيحرمونكم حتى من القليل الذى كان يصلكم ، بدعوى تسديد الديون التى اقترضوها باسمكم ، ضاحكين عليكم للمرة الثانية .

يقولون لكم أن صندوق النقد مبسوط وقرر إسقاط عدة مليارات من الديون ولا تعرفون أن ذلك تم مقابل الخصخصة . فبعد أن فقد الدائنون الأجانب الأمل فى الحصول على ديونهم وأصبحوا مستعدين للتنازل عن نصفها مقابل الحصول على النصف الثانى ، يتيحون لهم الحصول عليها كاملة بشراء المصانع والشركات والبنوك التى قامت بأموالكم وتضحياتكم . يشترونها بتراب الفلوس و يحصلون معها على سوق لمنتجاتهم الأخرى و عمالة رخيصة فكأنهم استردوا ديونهم مضاعفة عدة مرات ...

أغرقت صيحاتنا صوته حتى اضطر للصمت . ولم يلبث أن إرتفع صوت آخر خيل الى أنه صوت الشيخ عصام . وبدا أن الليلة لن تنقضى على خير . لكن لم يكد ينطق بكلمتين حتى غطى عليه صوت قوى سمعته يقول :

– أخى المسلم انظر ماذا فعل الله بأبرهة الأشرم حينما جاء بالفيلة ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل ؟ وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول ؟ و ماذا فعل الله بفرعون حينما قال " ما علمت لكم من إله غيرى ؟ " ماذا فعل الله تعالى ؟ أغرقه الله و من معه . قل يا أهل الكتاب إن الله حرم الخمر و الزنا و الميسر و الربا فتعالوا إلى كلمة سواء فإن لم تأتوا إن ربك لبالمرصاد

استمعنا جميعا فى هدوء ولم يجرؤ أحد على التشويش عليه . و ظهر حارس الليل عند الباب فناوله النوبتجى من الشراعة نصيبه من الطعام وعندما أعطانا الأمان قام مساعد الحاج رأفت و أقعى بجوار دلو البول وتعاون النوبتجى مع سجين آخرفحجباه عن الأنظاربيطانية رفعاها فى الهواء ، ثم أنزلاها فظهرت فى

يده لفافة المخدرات . تولى النوبتجى صب المياه فوق يديه فغسلهما هما واللفافة جيدا بالصابون . وفك النوبتجى اللفافة فكشف عن كيسين يضم أحداهما قطعة من الحشيش فى حجم كف اليد تشممها النوبتجى فى إعجاب ويضم الآخر أقراصا بيضاء وأخرى خضراء فوسفورية .

تولى الحاج رأفت توزيع الأقراص يمينا ويسارا بينما انهمك مساعده فى تقطيع الحشيش . واعتذر سالم عن تناول الأقراص فقال له الحاج ضاحكا وهو يبرز زجاجة باراكودايين :

– كودا صلايش فودرة .

كان يقصد أن الجمع بين أدوية السعال وأبو صليبة يعطى نفس تأثير البودرة. أصر سالم على الرفض وسألنى إن كنت جربت هذا المزيج فقلت :

– مرة . كان لى شلة أصحاب فى المعادى . وقعدنا نسمع مزيكة . شريط لفريق إسمه "بينك فلويد " بيقول حاجات عن الظلم واضطهاد الشباب والفقر . وكنا بنسمع كمان "محمد منير" . قعدت مشعشع مدة و بعدين صدرى طبق على وحسيت إنى حاتخنق . و نمت بعدها تلات تيام .

قال بصوت خافت : الحاجات دى مضرة جدا . تعرف إن كل اللى بياخدوا أدوية الكحة دى بيخلصوا . مبيعودش فيهم للنسوان ويجيلهم احتباس فى البول .

سكت لحظة ثم أضاف :

– اوعى تاخد الحاجات دى . . ولا حتى البانجو .. ده يلحس الدماغ . .خليك فى المية والحشيش أحسن ..

أبرز الحاج رأفت جوزة محلية الصنع تتألف من علبة عصير من الصفيح مثقوبة من الجانبين وعدة "حجارات "مصنوعة من لباب الخبز وبوصتين قصيرتين ثبت كل بوصة فى ثقب ثم وضع "الحجر" فوق إحدى البوصتين و ثبته بجزء من

غلاف علبة سجاير . وقامت الحلاوة الطحينية بدور الوقود مرة أخرى فوضع الورق المدهون بها فى فتحة "الحجر" ثم أشعله وأضاف إليه الحشيش . ومرت الجوزة حتى وصلت إلى سالم فأخذ نفسا عميقا إحتفظ به طويلا فى صدره ثم أطلقه وناولنيها . قلدته و تركت النفس فى صدرى أطول مدة ممكنة كما فعل وأطلقته فشعرت بالدوارثم بدأت أسترخى . وكان النوبتجى قد أعد دورا ثانيا من الشاى وقدمه إلينا قائلا :

– شاى كواليتى ... عقبالنا جميعا بإذن الله .

تناهى إلى حديث بين الحاج رأفت والحاج عرفة . و كان الأخيريحاول تأكيد سلامة الخطوات التى يتخذها عند تعبئة البودرة :

– إحنا بنخلطه تمانية لواحد . أربعة مانيتا وأربعة كينين . وبعدين نخلطهم مرة واتنين وتلاتة ، ست مرات لغاية ما ينضفوا تمام .

مال على سالم و همس :

– بقى هم دول اللى بيدخلوا البلد مخدرات بألف مليون جنيه فى السنة ؟ زى مقلتلك السمك الكبير ميجيش هنا أبدا .

إنطلق عم حسن يغنى أغانيه الصعيدية ثم ردد آخر أغنية "خالد عجاج" التى أحبها :

"فى ناس بتحب تاخد كل حاجة

مع إنها مش محتاجة

وناس بترضى بأى حاجة

فى عز ما هى محتاجة .."

فوجئت بسالم يردد بصوت أجش أغنية سميرة توفيق : أنا عاشق . وعندما وصل إلى المقطع التى تقول فيه : " أنا عاشق يا صاحبى من زمان " التفت نحوى،

أعلن النوبتجي أن الأغنية التالية مهداة إلى الحاج عرفة فنهض وخطا وسط الزنزانة وتناول من عم حسن الشال الأبيض الذى يلفه فوق رأسه فأحاط به خاصرته وعقده على جانب . انطلق يرقص ونحن نصفق ثم انضم إليه النوبتجي . وقام الأخيربتقليد الراقصات فعرى جانب جلبابه ببطء وهو يتثنى فكشف عن ساق ضامرة غطاها الشعر. تعالت صيحاتنا ورددت أصوات اسم حجاج فقام وحزموه ورقص بحرفنة وعرى ساقه حتى أعلى الفخذ وكانت ملساء بلا شعر فهللنا له وصاح الحاج عرفة مقلدا العالمات : أيوه يا أختى . وبلغ الهياج مداه .

تعلقت عيناى بصور يسرا و ليلى علوى و فيفى عبده ورضا عبد العال الملصقة على الجدران ثم نقلتهما بصعوبة إلى مجلس الحاج رأفت . تابعت أحد النزلاء يقترب منه حاملا بطانية وبسطها ثم رفعها بحيث حجبت عنا حجاج . وعندما أبعدها بعد قليل انطلقت صيحات التهليل ورأيت حجاج يزم شفتين مصبوغتين بالروج الثقيل وهو يضحك .

ابتسم الحاج رأفت فى زهو و تطلع حوله بعينيه الضيقتين القاصرتين وبدأ الرقص من جديد . أمسك الحاج عرفة بالغطاء المعدنى لدلو المياه وأخذ يدق عليه بكف يده وقاد زفة بدأت من الباب حتى مجلس الحاج رأفت حيث يستديرالراقص ويثنى جسده للخلف مقتربا برأسه من الأرض إلى أن تصبح فى حجر حجاج بينما يرعش جسده ويصيح الجميع : ادلع يا عريس و عروستك جاية .

دارت الجوزة حتى وصلتنا فأخذت منها نفسا طويلا دون أن أرفع عينى عن حجاج . وتمددت فى جلستى مستمتعا برائحة الدخان التى اختلطت بالرائحة المنبعثة من ملابس سالم والتى ذكرتنى برائحة ملابس أبى . وسرح فكرى إلى عبد الفتاح ثم هدى .

حكى أحدهم نكتة بائخة عن الصعايدة ومع ذلك انفجرنا ضاحكين ثم ذكر ما دبروه لأحد الضباط الذى كان مغرما بتفتيش الزنازين و يثور إذا لم يجد شيئا

من الممنوعـات . حـصلوا على قليل من المواد الكاوية التى تسـتخـدم فى تنظيف المراحيض ووضعوها فى كيس صغير أخفاه أحدهم فى ملابسه . وابتهج الضابط عندما عثرعلى الكيس وأراد أن يتأكد من طبيعة المسحوق الأبيض بداخله ففتحه وذاق محتوياته بطرف لسانه . ومن ساعتها حرم .

روى آخر مافعلوه فى الليمان أثناء مرور اللواء مدير المصلحة عندما أرادوا الاحـتـجاج على سـوء المعاملة .انتظروا حتى دخل العنبربصحبة مدير الليمـان وضباطه بعد أن صاح الحراس بصوت كالرعد " إنتبا ه " وساد سكون مطبق فدسـوا قطة صغيرة فى جورب وأطلقوها فى العنبر. وفوجئ اللواءات بكرة داكنة تصدر عنها أصوات غريبة تندفع نحوهم بسرعة خارقة دون أن يتمكن الحراس من الامساك بها . فاستولى عليهم الذعر وجروا مبتعدين . وطبعا عرفت الحقيقة فى النهاية وتعرض الليمان كله للتكدير .

إستولى على النعاس مرة واحدة وإستيقظت فجأة شاعرا بيد تعبث بسروالى . ظننت أنى أحلم ثم تبينت أن النور مطفأ والجميع نيام و سالم إلى جوارى تحت غطاء واحد . إعتدلت جالسا فسحب يده على الفور واستدار معطيا ظهره لى .

ظللت جـالسـا أحدق فى الظلام وقلبى يدق فى عنف . أنصت لصـوت تنفس سـالم وحاولت تحديد موقع الحـاج رأفت وحـجـاج إلى أن بزغ الفـجرفـغـفـوت . واستيقظت من جديد عندما فتحت الزنازين فنهضت أنا أتحاشى النظر إلى سالم و شعرت أنه هو الآخر يتجنب مواجهتى . وخيل إلى أنه يشعر بالحرج فملأنى هذا بنشوة غريبة .

حمل كل منا نمرته وعدنا إلى زنزانتنا . تركته يتناول الإفطار وحده وبعد أن شرب الشاى غادر الزنزانة . قمت إلى نمرته فوجدته قد ترك لى نصيبى من الجبن والخبز وقطعة من الحلاوة الطحينية . فضلا عن سيجارة كاملة بجوار الوسادة . أفطرت وأعددت كوبا من الشاى ثم قسمت السيجارة إلى ثلاثة أجزاء وضعتها فى

علبة صغيرة من الصفيح وبخنت إحداها . تكررالأمر ذاته فى الغداء فأعد قروانة من الفول بعد أن انتقاه و قشره وخلصه من السوس ثم أضاف إليه قليلا من الزيت وبصلة وحبة طماطم ووضعه على السخان . وعندما استوى أكل نصفه وترك لى النصف الثانى . وفى العشاء اضطررت أن أنضم إليه فوق نمرته كعادتنا كى لا أثير التساؤلات .

كان قد أعد مائدة مؤلفة من قطعة مكرونة بالفرن وصحن من الخبيزة أضفت إليها نصيبى من اليمك الذى لم يكن أحدنا يستسيغه . أكلنا فى صمت ثم التجأت إلى نمرتي فأشعلت الثلث الأخير من السيجارة وتشاغلت بالإنصات إلى الأحاديث الدائرة والفرجة على بقية المساجين . وكان أحدهم منشغلا برتق فانلة من الصوف فقررت أن أعهد إليه بفانلتى التى تمزقت عند الابط . وعرض على فريق الكوتشينة أن ألعب معهم فاعتذرت وتسليت بمتابعة الإذاعات التى بدأت كالعادة بأخبار السجن . لم أكن أتوقع زيارة من أحد فى الغد كما كان بينى و بين موعد جلسة المحكمة أسبوعان ومع ذلك أنصت فى إنتباه لأسماء الزيارات والترحيلات أملا أن أسمع اسمى بينها .

انتهت النشرة و تلتها النشرة الإسلامية ، وفى نهايتها طرح المذيع سؤالا وإجابته . كان السؤال عما يفعل الخطيب إذا حدث ناقض لوضوئه وهو يخطب الجمعة . قال أن الخطيب فى هذه الحالة له أن يستمر فى الخطبة ثم يتوضأ بعد ذلك ليصلى بالناس أويقدم شخصا آخر لإمامة الناس بدلا منه حتي يتوضأوإما أن يقطع الخطبة وينيب غيره لاستكمالها أو يذهب هو ليتوضأ ثم يعود ليخطب فكل ذلك جائز.

جاء دور الدكتور رمزى الذي انطلق كعادته :

– يا غلابة يا مساكين أنتم لا تفهمون سعرالفائدة أو الخصم . لاتفهمون شيئا فى الإقتصاد . لهذا تتركونهم يقترضون ويقرضون و يغامرون بأموالكم

ويستثمرون و فى النهاية أنتم تدفعون . ضحك عليكم أصحاب الذقون واستولوا على مدخراتكم ثم أودعتم الباقى فى البنوك التى أغرتكم بربا مرتفع . وبعد فترة خفضت السعر وتلاعبت به . أما أموالكم فقد أقرضوها بالملايين للأفاقين والمغامرين والنصابين وأبناء الحكام وأقاربهم . وأغلبهم لا يردون هذه القروض ويتهربون من سدادها بكافة الوسائل . وتساعدهم البنوك بأن تعتبرها فى النهاية قروضا معدومة أو ميتة . وتقرأون عن ذلك فى الصحف و تسمعون أن فلانا هرب بعدة ملايين وفى الحالتين تهزون أكتافكم بغير مبالاة ولا تدرون أنكم ستدفعون كل الملايين المعدومة والهاربة فى نهاية المطاف . كيف ؟ أولا هم يعطونكم ربا بسيطا على إيداعاتكم أقل بكثير من الذى يأخذونه عند إقراضها لغيركم أى أقل مما يحق لكم . كما أنهم يحسبون ربا الإقراض بطريقة الربح المركب فيتزايد يوميا . هذا الفرق الكبير الذى يأتى من جيوبكم وشقاؤكم هو الذى يغطى القروض الميتة التى يحصل عليها أقارب الحكام وأصحاب الأموال ..

إستمر موال الدكتور رمزى بعض الوقت لكنى انصرفت عنه إلى عدد من مجلة " الكواكب " وجدته بجوارى ثم تناولت صحيفة اليوم . طالعتنى صورة لضابط شرطة شاب وسيم قتله الإرهابيون فى الصعيد بعد أن أطلقوا النار على الناس فى السوق وأردوا بعضهم .

نمت فى عمق لم يوقظنى منه البرد . وفى الصباح اكتشفت أن سالم وضع فوقى إحدى بطاطينه فأعدتها له دون كلمة .

أفطر كل منا بمفرده وتوضأت ونزلت لصلاة الجمعة فى فناء الطابق الأرضى. وتبعنى سالم بعد قليل . كان الخطيب بادى التجهم وبعد أن حمد الله وأثنى عليه انطلق يهاجم مذهب الشيعة .استفاض فى شرح بعض المسائل الفقهية التى استعصت على فهمى فأنصرفت عنه إلى تأمل الجالسين وألفيتهم مثلى يتململون ثم بدأوا ينتبهون للخطيب و سمعته يقول أن بعض كتب الشيعة تعتبر المرأة ناشزا

إذا رفضت الوطأ في دبرها من الزوج كما أن أحد أئمتهم أفتى بأن الزوجة إذا ماتت من الوطأ في دبرها فلها نصف الدية وهذا كله يعني إباحةالشيعة للشذوذ رغم علمهم إن الإيدز لم يأت إلا من وراء هذه الأفعال القذرة .

سرت همهمات بين السجناء وعلت الابتسامات وجوه بعضهم . مضى الخطيب فقال :

– إن الشيعة في موقفهم هذا يستندون زورا وبهتانا إلى القرآن الكريم وقوله تعالى : " وجاء قومه يهرعون إليه ومن قبله كانوا يعملون السيئات قال يا قومي هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزوني في ضيفي أليس فيكم رجل رشيد ، قالوا قد علمت ما لنا في بناتك من حق و إنك لتعلم ما نريد " صدق الله العظيم . وهنا قال الشيعة أن لوطا قال لقومه إني أعرض عليكم بناتي وهو يعلم أنهم لا يريدون إلا الأدبار فكأنه وافق على وطء بناته في أدبارهن .

في ختام الخطبة رفعنا جميعا أيدينا بالدعاء لله تعالى كي يصلح أحوال البلاد والأمة ويغفر لنا ذنوبنا ويمن علينا بالإفراج القريب . وصعدت بعد الصلاة إلى الزنزانة فألقيت نظرة داخلها . كان سالم قد سبقني وجلس يدخن فوق نمرته . ولم أر أثرا لأي سجائر فوق نمرتي . مضيت في الطرقة إلى نهايتها فافترشت الأرض جاعلا ظهري إلى الحائط الخلفي للعنبر . وأخذت أستعرض المساجين الذين يمكن أن أقترض منهم وفكرت في توكل . كان قد عرض علي أن أواصل تخزين لفائفه مقابل حصة من السجائر وقلت لسالم فمنعني و حذرني منه ، متعهدا بأن يتكفل بحاجتي من السجائرإلى أن يفرجها الله .

صعبت علي نفسي فدمعت عيناي و فوجئت بسالم يقترب مني فانتابني الخوف. جلس إلى جواري وقال دون أن يلتفت نحوي :

– أنا مش عاوزك تفهمني غلط . اللي حصل كان غصب عني . وإوعي تفتكر إن ده هو اللي أنا عاوزه منك . أنا أقدر أفك حاجتي بأسهل ما يمكن ، انت عارف

ده كويس ، لكن مش حاقدر ألاقى أبدا صاحب . . اسمع . . أنا لى فى السجون أكتر من عشرين سنة . تفتكر إيه أكتر حاجة كنت محتاجلها ؟

لم أجب فواصل : تفتكرأنا مكنتش محتاج لحد جنبي ؟ حد يطبطب على وأطبطب عليه ؟ حد يحضني و أحضنه ؟ عارف يعنى إيه انك تقعد عشرين سنة من غير ما تلمس إنسان تانى ؟ من غير ما حد يحبك ؟ مش معنى كده انك عاوز تعمل معاه حاجة . مش ضرورى . فيه شئ إسمه الصداقة . إن يكون جنبك حد يعرف إنت بتفكر فى إيه وتقصد إيه لما تقول حاجة .. واحد يفهمك و يقدرك ويعزك ويخاف عليك و يساعدك و يقف جنبك وقت العوزة .

قلت فجأة : أنا أبويا عمره ما حضنني .

أشعل نصف سيجارة في مبسمه و قدمه إلى فتناولته . واستأنف حديثه :

– ناحية الغريزة دى حاجة طبيعية . السجن هو اللى مش طبيعى . العالم اللى هنا كله منحرف . تفتكر انا معرفش الفرق بين الراجل و الست ؟ الراجل مش ممكن يحل محل الست أبدا . حتى ولو نام على ضهره . بس بص حواليك . إنت شايف ستات كتيرة هنا ؟ طب الواحد يعمل إيه . أوقات أبقى حاسس انى حاجنن ، ومهما حاولت مفكرش مفيش فايدة . مفيش يوم يفوت من غير ما حاجة تفكرك . صورة فى مجلة . غنوة . حركة . فيه ناس تعمل أنها مش مهتمة بالموضوع ده ، خايفين من اللى ممكن يحصل ، خايفين يتسخمطوا . مفيش حد هنا يحب يبقى شاذ . الشواذ دايما محتقرين والناس بتستضعفهم و متعملش لهم حساب . طب الواحد يعمل إيه ؟

جذبت نفسا من نصف السيجارة حبسته فى صدرى ثم ناولته المبسم وأطلقت الدخان من فمى دون أن أعلق . كان يدهشنى دائما بقدرته على أن يتحدث مثل المتعلمين .

مضى يحكى لى عن مسجون من أصدقائه قبض عليه أول مرة وهوفى سن الثامنة عشرة . وفى مركز الشرطة اعتدى عليه ثلاثة من الأشقياء بالقوة . وبعد ست سنين قبض عليه مرة ثانية وفى مركز الشرطة وجد معه صبيا فى السابعة عشر من عمره فاغتصبه بعد أن ضربه . وقال لسالم أنه كره نفسه ساعتها لأنه تذكر ما حدث له شخصيا وكيف كان شعوره و هو عاجز عن المقاومة بينما مغتصبوه يتتابعون فوقه . ثم اعترف بأنه استمتع باغتصاب الصبى . لا بالعملية الجسدية وإنما لأنه ، على حد تعبيره ، " كان فوق مش تحت " .

لمحت نزيلا من فرق النظافة الميرى يحمل فى يده لفافة مغلفة بورق الفويل المفضض ويطل فى الزنازين كمن يبحث عن أحد . أشار سالم للنزيل و هو ينهض قائلا : الأكل وصل .

تناول اللفافة من النزيل و تبادل معه بعض كلمات ثم ولج الزنازانة وهو ينادى على . ذهبت إليه فأرانى صينية مستطيلة من الكرتون استقرت فوقها ثلاث سمكات مشوية مغطاة بالبقدونس وكمية من البطاطس الفريت .

قال : إيه رأيك ناكل الوقت البطاطس بالعيش و نسيب السمك للعشا .

أعددنا سندوتشات البطاطس و جلسنا ناكلها . وتجرأت فسألته عن مصدر الأكل فضحك وقال :

– الجماعة بتوع القرى السياحية . عملتلهم خدمة .

– و خبيزة إمبارح ؟

– هم برضه . شوف بعتولى إيه كمان .

أرانى ماكينة حلاقة "جيليت " من النوع الجديد الحساس و لوحة شفرات من النوع ذى الحدين اللذين يعلو أحدهما الآخر و التى تثبت فى الماكينة بضغطة خفيفة على نتوء بها . تناولت لوحة الشفرات و قلبتها فى يدى . كانت بلا هوية ولا

تحمل اسم ماركة معينة ثم اكتشفت فى طرفها عبارة بخط دقيق : " MADE IN ISRAEL" .

شعرت أنه لا يريد أن يذكر نوع الخدمة التى أداها لهم فلم أسأله عنها . توليت إعداد الشاى وجلسنا نشربه فى الطرقة . سألته بعد لحظة إذا كان قد تزوج فقال :

– مرة . اللى زيّى مالوش فى الجواز . السجن بيخرب الواحد . أنا أول مادخلت السجن كنت دايما أشوف نفسى فى الحلم بره . الوقت عندى حلم بيتكرر كتير . باشوف نفسى فى العنبر وفيه هوجة وأدخل زنزانة فيها إدكو عمال يعيط . أمسكه من شعره وأهزه قدام المساجين وأقوله يفك بنطلونه فيترجانى إنى مقتلوش عشان عياله . وبعدماينزل بنطلونه أخليه يطاطى وأسخمطه . وبعدين ألاقى نفسى ماسك سكينة وعمال أغزها فى ضهره . حاجة فظيعة . مش كده ؟ فى الأول كنت باحلم بنسوان عريانة لها بزازكبيرة . شوف وصلت لإيه ؟ يا ترى بعد خمس سنين مثلا حاحلم بإيه ؟ والا لما أخرج . لكن حأروح فين ؟ لوكنت حاخرج بكره تفتكر حاتغير ؟ طب وحاعيش إزاى ؟ حاقف فى كشك سجاير ؟ ولو عييت مين حيعالجنى ؟ لوكنت لوا شرطة ولا ممثل أو مهرج وحصل لى حاجة فى القلب حيسفرونى على طول أتعالج بره على حساب الدولة . لا . أنا مشيت فى سكة من زمان وخلاص . بس عمرى ما فكرت انى حاقضى حياتى فى السجن .

قلت : إنت اللى جيبته لنفسك .

قال : معاك حق .

صمت لحظات فى وجوم ثم قال :

– تعرف إنى كتير أحسد اللى أنا قتلتهم ؟ تعرف ليه ؟ لأن محدش حيجرى وراهم ولا حيهربوا ومش حيقتلوا حد . كل واحد فيهم كان له اللى حزن عليه . أنا بس اللى حزنت على نفسى من بدرى لأن مليش حد يحزن على : أبويا مات

مشلول وأمي عميت ومعدتش باسأل عليها . مش عاوز ابعتلها حاجة حرام وأنا مبكسبش من حلال .

نادى علينا الحارس لطابور العصر . ولازمتني ثرثرة سالم طول الوقت . حكى لي طويلا عن طفولته . ولم يتوقف إلا عندما بدأت نشرات المساء . استمعنا إلى واحد يتحدث عن ضرورة الصبر مستشهدا بمحنة النبي أيوب . ورتل بصوت رخيم : " وأيوب إذ نادى ربه إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين ، فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله .." وقال إن الضر يقرب المؤمن من الله ، فعندما يشكو أوجاعه إلى الله ويتضرع إليه ينال ثوابا عظيما . والله يبتلي البر والفاجر بالبأساء والضراء لحكمة قدرها فالأول يزداد من الله قربا حين يستنجد به بينما الفاجر يزداد بعدا عن الله حين لا يتضرع إليه ولايستغيث به .

تنهد سالم وقال :

–الحاجة اللي مش قادر أفهمها انه بعد كل التقدم اللي حصل والإختراعات والصواريخ اللي بتلف في السما وكل ده ملقوش لحد النهاردة حل للمجرمين اللي زيي غير السجن ؟ همّ عاوزين مني إيه ؟ يعاقبوني ؟ طب ده يفيدهم بإيه ؟ يقولك السجن تهذيب وإصلاح . انت شايف فيه تهذيب وإصلاح ؟

أشرت إليه أن يصغي معي للدكتور رمزي الذي صاح فينا :

– يا غلابة يا مساكين . لو أنا سألت الواحد منكم ، كم دفع هذا الشهرمن الربا سيجيب قائلا : الربا يدفعه من يقترض من البنوك أما أنا فمن يقرضني ؟ وإذا سألت واحدا آخر : كم دفعت من ضرائب هذا الشهر ؟ سيجيب بأنه رجل فقير ولا مال عنده و بالتالي فلا يدفع ضرائب . و لم يدرك المسكينان أن الرغيف الذي يشتريانه يضم في ثمنه نسبة مخيفة من الربا ومن الضرائب . الرغيف يمر قبل وصوله إليكم بخمس مراحل : مرحلة الزراعة أو الاستيراد ، مرحلة تخزين القمح ، مرحلة الطحن ، الفرن ، بيع التجزئة . كل مرحلة يجري تأمينها عن طريق

القروض الربوية التى تضاف إلى تكلفة كل مرحلة وتضاف الضريبة بنفس الطريقة . فإذا كان رغيف الخبز ثمنه عشرة قروش وإذا حسبنا نسبة الربا فى ثمن الجرار والمبيدات والبذور والسماد أوتكلفة الإستيراد والنقل ومخازن الحبوب والأفران لوجدناها الثلث أما الضرائب التى تدفع من ثمن التراكتور إلى أخره فهى أيضا فى حدود الثلث . أى أنه لو كان هناك نظام غير ربوى و نظام ضريبى عادل فإن بإمكان الواحد أن يشترى ثلاثة أرغفة بدلا من الرغيف الواحد وتصبح قدرته ثلاثة أمثالها .

لم أفهم ما يعنيه الدكتور رمزى بالضبط ولهذا بحثت عنه فى طابور الصباح لأستفسرمنه و أيضا كى أهرب من ثرثرة سالم . وجدته جالسا إلى جوار الحائط وقد مدد ساقيه وعراهما ليعرضهما للشمس وأحاط به سامح و رمضان . جلست إلى جوارهم وانضم إلينا مستر تامر بعدقليل، وكان يمسك بمجلة فرنسية سميكة تحمل فوق غلافها صورة مايكل جاكسون فى ملابسه الذهبية اللامعة التى تلتصق بجسمه .

وضع مستر تامر المجلة جانبا وأنصت للنقاش فتناولتها وتصفحتها بسرعة . كانت بها إعلانات كثيرة عن المودات الجديدة لملابس الرجال . وأعجبنى معطف ترواكار من الصوف له ياقة قصيرة منفصلة تثبت فوق الصدر بزرار كبير ، ومعطف آخرمن النايلون ببطانة كاروهات من الصوف وياقة عالية من الفرو وجيبين مائلين عند الصدر وزراير ذهبية عند الرسغين من إنتاج بيربيريز الإنجليزى .كما أعجبتنى مجموعة من كرافتات سيروتى الفرنسية . وفهمت من إعلان عن عطر "أوبيوم " النسائى أنهم بدأوا ينتجونه للرجال أيضا . وكانت هناك عدة صورللموديلات الجديدة من سيارات فرارى وألفا روميو ومرسيدس تشبه السيارات التى تظهر فى أفلام الفضاء وخصوصا واحدة بلا عجلة قيادة . وتوقفت طويلا أمام صورة إمرأة شقراء جميلة ارتدت بلوزة شفافة محزقة أبرزت حلمتى ثدييها بوضوح تام .

لمح مستر تامر المجلة في يدى فأخذها منى . وجهت انتباهى لحديث الدكتور رمزى :

– .. . بعد سنة البنك يديك فلوسك بزيادة . صح ؟ معنى كده انك أخدت مكسب من غير مقابل . أخدت فلوس من غير متعمل حاجة . من غير ما تنتج حاجة ، صح ؟ جت منين الفلوس دى ؟ يا إما من إللى تطبعه الحكومة من غير رصيد يعنى من غير مايسنده إنتاج . وده يضرك لأن الفلوس لما تكتر في السوق قيمتها تقل . مسألة عرض و طلب . أويكون البنك أخد من حقوق غيرك وإداك . يعنى الكل يخسر عشان انت تستفيد . أو تخسر أنت عشان يستفيد غيرك . . عشان كده بقول ان اللى بياكل الربا بيخده من عرق الفقير .. تعرف البنك الأهلى حقق السنة اللى فاتت أرباح قد إيه ؟ مليار جنيه . جم منين دول ؟

سكت لحظة يفكر ثم إستطرد :

– لو أخدنا واحد مرتبه ٣٠٠ جنيه فى الشهر مثلا . حتلاقيه فى الحقيقة بياخد خمسين جنيه بس . إزاى ؟ أولا بيدفع تأمينات . قول عشرة فى المية . طبعا صاحب العمل بيدفع قدامه عشرين فى المية لكنه بيحمّل المبلغ ده على سعرالسلعة والنتيجة ان الفقير بيدفعها تانى لما ييجى يشترى . بعد كده بيدفع خمسة وعشرين فى المية ضرائب دخل والباقى هو الراتب الصافى . يعنى كأنه بياخد تلتين حقه ومن التلتين دول يدفع ضرائب تانية غير مباشرة عبارة عن تلت تمن السلع التى بيشتريها . يعنى يفضله من مرتبه تلت واحد . التلت ده نفسه ربعه بيضيع فى التضخم والإنخفاض المستمر فى قيمة العملة نتيجة ان الدولة بتطبع فلوس من غير رصيد . يعنى عمليا بيتقضاله سدس المرتب الأصلى . يعنى متسخمط تمام ..

لمحت حجاج جالسا إلى جوار الحائط فانتقلت إلى جواره . فوجئت به يبكى . سألته عما به فلم يرد و واصل البكاء . ربت على ظهره ثم على شعر رأسه الناعم . مسح دموعه بكم جلبابه و التفت نحوى قائلا : مفيش . بفتكر حمادة .

سألته و أنا أتأمل شفتيه : حمادة مين ؟

ذكر لى أنه صبى فى سنه يتيم الأب تشاجر مع أمه بسبب الفلوس وإلتقطه زرافة فصار يخرج معه ويسرحان فى القطارات . وفى يوم قرر حمادة الهرب فقفز من القطاروسقط على الأرض بجوار القضبان . قفز حجاج وراءه و أسرع إليه فوجد رأسه تنزف . نادى عليه فلم يرد فقطع قميصه وربط له رأسه واستنجد بالمارة الذين تبينوا موته . و عندما سألوه عنه أنكر معرفته به وتسلل هاربا .

– رجعت لزرافة وأنا بعيط . كنت خايف منهم جدا ومرعوب وبعدها سخنت وقعدت أرتعش ومرضيتش آكل . أصل حمادة كان صاحبى الوحيد و كنت باحبه قوى . زرافة أخدنى وأنا تعبان كده وقعد يشحت بى فى الشارع على إنى ابنه وعيّان ومعاهوش ثمن العلاج . فضلت ع الحال ده أربع أيام لغاية ما خفيت بس كل مفتكر حمادة أروح معيط .

صفر الحارس معلنا انتهاء الطابور فقمنا متثاقلين وإرتقينا السلم على مهل . وتوقفت أستريح عند الطابق الثاني . وحانت منى التفاتة إلى الفناء فلمحت نزيلا جديدا يدخل من بوابة العنبر حاملا نمرته . تعرفت فيه على موظف التربية والتعليم الذى لقيته فى حجز القسم . لم أتذكر اسمه فناديته :

– كعب الداير .

رفع وجهه إلى و لوح بيده . لم أعرف إذا كان تذكرنى .

سألته : إيه اللى جابك ؟

ضحك و صاح : أنا لسه راجع من لفة المحافظات . إنشاء الله أخرج قريب .

قاده الحارس إلى زنزانة الإيراد وواصلت الصعود و عندما بلغت قمة الدرج شعرت فجأة بألم حاد فى جانبى جعلنى أنحنى ممسكا به . تكررالألم فخطوت بصعوبة نحو الزنزانة . وهرع سالم إلى جوارى وعاوننى على الوصول إلى نمرتى فتمددت فوقها وأنا أئن .

تجمع النزلاء حولي واستمر أنيني فتعددت الآراء والاقتراحات بشأني . فمن قائل أني تعرضت لضربة برد ومن أفتى بأنه المصران الغليظ و من أكد أنه المصران الأعور . أعد لي سالم كوبا من عصير الليمون . وعندما وجد أن الألم مستمر قال:

– لازم نوديه العيادة .

قال النوبتجي :العيادة مقفولة . الظاهر محدش جه منهم النهارده .

تذكرت الطبيب المزيف في زنزانة عبد الفتاح فطلبت من سالم البحث عنه . أحضره بعد قليل ففحصني وقال أني أشكو من برد في الكلي أوحصوة . ونصحني بأن أشرب السوائل باستمرار وأتدفأ جيدا .

شربت كوبا من الشاي وأعطاني سالم فانلة صوفية لففتها حول خصري وبسط فوقي بطانتين من بطاطينه . وأحضر لي النوبتجي أسبرينة وقرص نوفالجين. لكن المغص لم يتوقف بل ازداد حدة . فطلبت من سالم أن يذهب إلى الدكتور رمزي ويطلب منه مسكنا . وجاء الدكتور رمزي بنفسه فأعطاني حقنة . وبعد ربع ساعةأخذ الألم في الانحسار حتى اختفى تماما .

أصر سالم على نقلي إلى جواره بعيدا عن تيارات الهواء ولم يعترض أحد . وأعد لي كوبا من الحلبة الساخنة . وكان جاري من الناحية الأخرى سائق ميكروباس اصطدم بمقطورة نقل على الطريق الزراعي فقتل سبعة من ركابه . كانت له رأس ضخمة بالنسبة لجسمه القصير ورحب بي قائلا : خدها إيزي . وكان دائم الترديد لهذه العبارة بمناسبة وغير مناسبة .

روى لي كيف قرر أن يصبح سائقا وهو طفل لأنه أعجب بما يتمتع به سائق مأمور المركز من هيبة و نفوذ . و علق قائلا :

– أنا دايما خيبان . جماعة قرايبي هاجروا استراليا وقالوا لي أروح معاهم . مرضيتش . يعني مش كنت سمعت كلامهم أحسن ؟ مكنش حصللي اللي حصل واترميت الرمية المهببة دي .

قلت له : خدها إيزى .

ضحك وقال : واخدها . بس وحياتك مش خسارة ؟ كان زماني الوقت مع قرايبى . بلاد بتحترم البنى آدم . العيل يتولد بمعاش . الرعاية الصحية شاملة ودقيقة و أمينة و مجاني . الساعة خمسة اللي يفضل من العيش يحطوه في أكياس ويوزعوه على البيوت مجانا . التفاح اللي مجروحة قشرته يوزعوه على الناس مجانا . النتيجة مفيش لا سرقة ولا جريمة ولا مخدرات . . المصريين هناك عايشين ملوك . الولية قريبتى كانت عاوزة تيجى مصر زيارة بنتها الصغيرة قالتلها يا ماما خلينا هنا أحسن منروح لبلد الشحاتين .

حكى لنا عما يصادفه في عمله من مواقف و شخصيات ونعست خلال حديثه . رحت في نوم عمق مستمتعا بالدفء . و في الصباح أصر سالم أن أعرض نفسي على طبيب السجن . قلت أن جسمي قذر ولا بد أن أغير ملابسى الداخلية وأستحم أولا بينما مياه الدورة باردة . قال أنه سيتكفل بتسخينها وأعطاني فانلة نظيفة . ثم أخرج من كيسه ماكينة الحلاقة ذات الشفرة المزدوجة ومرآة صغيرة مكسورة واقترح أن أحلق ذقني . أسندت المرآة إلى قروانة مقلوبة ودعكت ذقني بصابونة بالموليف ثم بالفرشاة وحلقت ثم نظفت الماكينة والمشرط و أعدتهما إليه فقال :

– خليهم . بالمرة تشيل الشعر الزيادة اللي في جسمك .

حملت الفانلة النظيفة وفوطتي والصابونة بالموليف . وسبقني إلى الدورة فأعد لي دلوا كبيرا ممتلئا بالمياه الساخنة أخذته معي إلى المرحاض الأخير . أنزلت الستارة وخلعت ملابسى و ألقيت بها فوق الحافة الخشبية . دهنت ساقي بالصابون ودعكته جيدا بالفرشاة إلى أن تكونت رغوة كبيرة فرفعت ساقي إلى أعلى وتناولت الماكينة فقربتها من أعلى فخذي وبدأت في إزالة الشعر .

تمـــــت

شكر واجب

لمحمد برادة الذى أتاح لى الفرصة ، وأعاننى بتواصله (فضلا عن نصائحه المستمرة !) .

لكمال القلش الذى كان كعهده دائما خير صديق وقت الحاجة .

للفنان الكبير بهجت عثمان .

لصلاح حزين .

لأسرة «دار المستقبل العربى» التى والتنى دائما بالتشيجع والمساندة .

للأصدقاء الذين لم يبخلوا بمعلوماتهم : أحمد سيف الإسلام المحامى، وائل عويس ، إيهاب الأرفلى ، د.إسماعيل محمود فهمى ، إمام رفاعى المحامى، الكتّاب : يوسف فاخورى ، رؤوف مسعد ، وأشرف توفيق (وقد استفدت بالخصوص من كتابيه عن المخدرات) وأحمد زغلول الشطى الذى تكرم بتصحيح معلوماتى عن اجراءات التحقيق كماوردت فى الفصول التى نشرت بالصحف .

وللآخرين من ضباط سجون وسجناء سابقين تحدثوا بصراحة عن تجاربهم، وأمدونى بحاجتى من الوثائق وتحرجوا من ذكر اسمائهم .

لمحمد سعد شحاتة الذى تكرم بمراجعة المخطوطة (مستنكرا تجاهلى المشين لقواعد الهمزة) . وتامر سعيد ونادية محمد الجندى اللذين اكتشفا العديد من التناقضات .

وللأقلام أيضا نصيبها من الشكر ، فقد استفدت كثيرا من شهادات : فتحى فضل فى الزنزانة (١٩٩٣) ، طاهر عبد الحكيم فى «الاقدام العارية» ، فتحى عبد الفتاح فى «شيوعيون وناصريون» ، مصطفى طيبة فى «رسائل سجين سياسى إلى حبيبته » ، فؤاد حجازى فى «سجناء لكل العصور» (١٩٨٧) ، الهام سيف النصر فى «معتقل أبو زعبل» ، نوال السعداوى فى «مذكراتى فى سجن النساء» (١٩٨٦) ، شريف حتاتة فى «النوافذ المفتوحة » (١٩٩٥) .

إستفدت أيضا من : مؤلفات محمد حسنين هيكل التى لا غنى عنها لفهم التاريخ المصرى المعاصر (و بالخصوص دراسته القيمة عن المصرفى الاميركى روكفلر و بياناته الموثقة عن حركة المال المصرى والعربى) ،

كتابات رشدى سعيد ودراسات رمزى زكى عن الديون والتضخم وأزمة الدول النامية ، والليبرالية المتوحشة ،

مؤلفات ANTHONY SAMPSON الذى تقصى آليات النظام الإقتصادى المعاصر من أول أسواق السلاح إلى البنوك العالمية والشركات العملاقة وخصوصا كتابه عن شركة آى تى تى ،

كتاب STANLEY ADAMS عن شركة روش ١٩٨٤ ،

منشورات مؤسسة OXFAM الإنجليزية وخاصة BITTER PILLS BY DIANNA MELROSE ، ١٩٨٢ ، «صناعة الجوع» تأليف فرانسيس لا بى و جوزيف كولينز وترجمة أحمد حسان ، «وأمريكا وصناعة الجوع» للمؤلفين السابقين بالاشتراك مع ديفيد كينلى، ترجمة د. حسن أبو بكر (١٩٨٧) ،

، من الاقتصاد القومى إلى الاقتصاد الكونى «لمايكل تانزر وآخرين ترجمة عفيف الرزاز (١٩٨١) ، «التاريخ السرى للبنك الدولى » لزكى العايدى ومقدمته الهامة لرمزى زكى (١٩٩٢) ، «دعم الأغنياء ودعم الفقراء» لمجموعة باحثين ، ١٩٨٥ ، «نموذج النمور الاسيوية» لابراهيم العيسوى (١٩٩٥) ، «الفرصة السانحة » لريتشارد نيكسون ، ترجمة أحمد صدقى مراد ، ١٩٩٢ (وقد نقلت عنه الفقرة الخاصة بالموقف الأميركى من اسرائيل) ،

برنامج حزب الرفاه الاسلامى التركى ،

الطبعة العربية من مجلة «ليموند ديبلوماتيك» الفرنسية ،

تحقيقات مجلتى «روزاليوسف» و«اليسار» ، وصحف «الاهالى» و«الشعب» ، و «اللواء الاسلامى» .

الشكر أيضا لجمعيات و مراكز حقوق الإنسان فى مصر وخاصة «مركز النديم» الذى أتاح لى الاطلاع على بعض وثائقه .



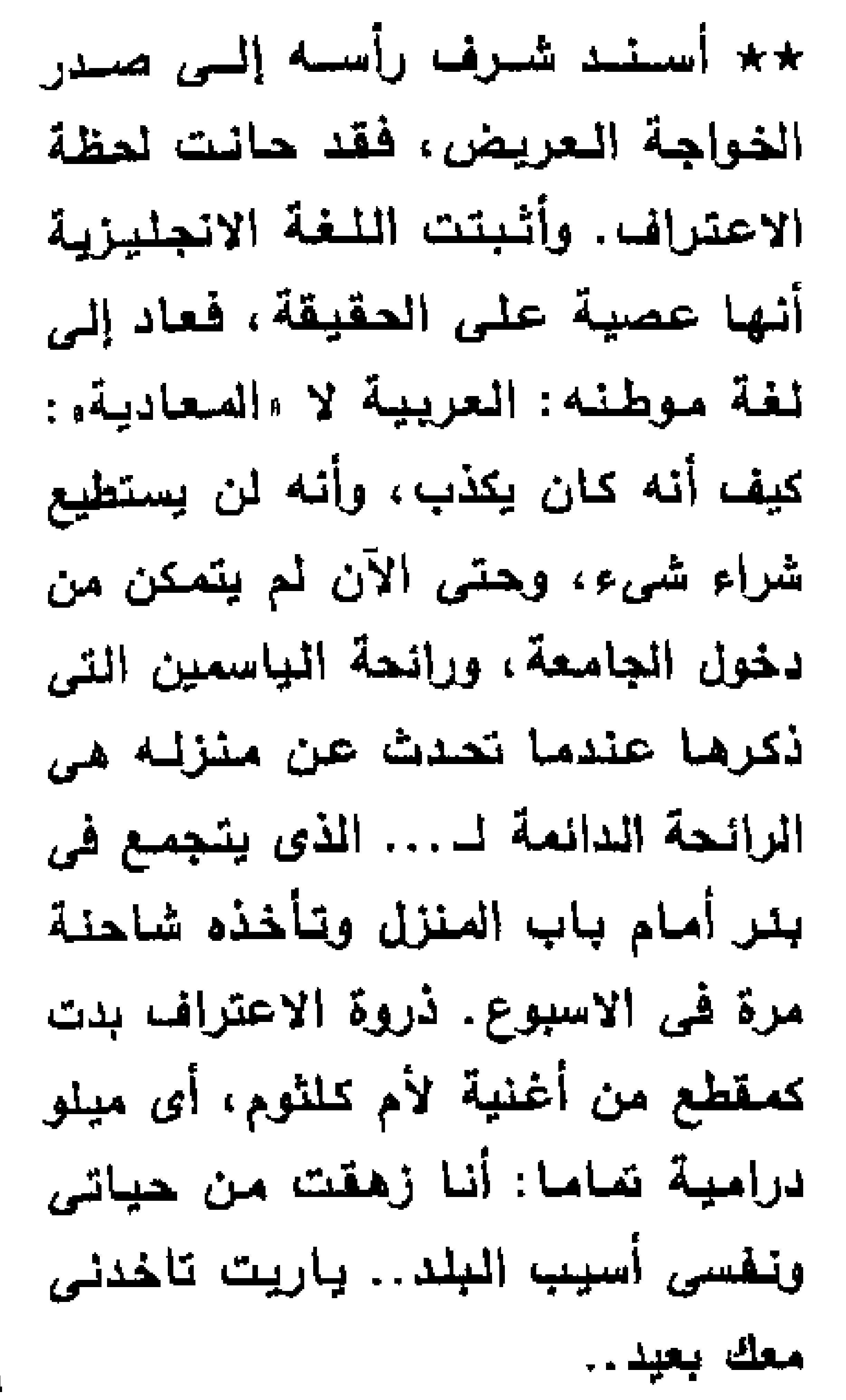
صنع الله ابراهيم

** تعرضت أولى رواياته «تلك الرائحة» ١٩٦٦ للمصادرة فور نشرها. ولم تصدر طبعتها الكاملة إلا بعد عشرين عاما في القاهرة والدار البيضاء والخرطوم في وقت واحد.

أصدر «نجمة اغسطس» ١٩٧٤ «اللجنة» ١٩٨١، «بيروت» ١٩٨٤، «ذات» ١٩٩٢.

** ترجم عددا من الأعمال الادبية مثل «العدو» للكاتب الامريكي جيمس دروت ١٩٧٥، و «الحمار» للكاتب الالماني جونتر دي برون، ١٩٨٣ «، التجربة الانثوية» ١٩٩٤.

** كتب للفتيان والصغار خمس روايات وعشرات من الحكايات العلمية فضلا عن البوم من القصص التاريخية المصوره ..



هذه الرواية

** أسند شرف رأسه إلى صدر الخواجة العريض، فقد حانت لحظة الاعتراف. وأثبتت اللغة الانجليزية أنها عصية على الحقيقة، فعاد إلى لغة موطنه: العربية لا «المعادية»: كيف أنه كان يكذب، وأنه لن يستطيع شراء شيء، وحتى الآن لم يتمكن من دخول الجامعة، ورائحة الياسمين التى ذكرها عندما تحدث عن منزله هى الرائحة الدائمة لـ... الذى يتجمع فى بئر أمام باب المنزل وتأخذه شاحنة مرة فى الاسبوع. ذروة الاعتراف بدت كمقطع من أغنية لأم كلثوم، أى ميلو درامية تماما: أنا زهقت من حياتى ونفسى أسيب البلد.. ياريت تاخدنى معك بعيد..

لم يتكلم الخواجة واكتفى بأن وضع السلسلة حول عنق الشاب، ثم مد يده إلى ساقه وتحسس فخذه ..

شرف ..
رواية ١٩٩٧

رقم الايداع : ١٤١٤٥ / ١٩٩٦

I.S.B.N
977-07-0515-2

روايات الهلال

تقدم :

الصمت

رواية يابانية

تأليف :

شوساكو إندو

ترجمة

كامل يوسف حسين

تصدر : ١٥ إبريل سنة ١٩٩٧



نبع الآداب والثقافة المعاصرة

من : أدب ، وقصة ، ودراسة ، وسير ، وبحوث ، وفكر ، ونقد ، وشعر ، وبلاغة ، وعلوم ، وتراث ، ولغات ، وقضايا ، وتاريخ ، واجتماع ، وعلم نفس ، ورحلات ، وسياسة ... إلخ .

صدر من هذه السلسلة :

- الإنسان الباهت .	طيبة أحمد الإبراهيم
- الحياة مرة أخرى .	نوال مصطفى
- التنويم المغناطيسي .	يوسف ميخائيل أسعد
- نوم العازب .	محمد حسن الألفى
- من شرفات التاريخ جـ ١ .	د . محمد رجب البيومى
- أم كلثوم .	مجدى سلامة
- المرأة العاملة .	سوزان عبد الحميد أغا
- قادة الفكر الفلسفى .	يوسف ميخائيل أسعد
- الملامح الخفية (جبران ومى) .	لوسى يعقوب
- عبد الحليم حافظ .	مجدى سلامة
- انقراض رجل .	طيبة أحمد الابراهيم
- الشخصية المتطورة .	يوسف ميخائيل أسعد
- محمد عبد الوهاب .	مجدى سلامة
- الشخصية السوية .	يوسف ميخائيل أسعد
- الشخصية القيادية .	يوسف ميخائيل أسعد
- الإنسان المتعدد .	طيبة أحمد الابراهيم
- الشخصية المبدعة .	يوسف ميخائيل أسعد
- فكر وفن وذكريات .	لوسى يعقوب
- ساعة الحظ .	محمد حسن الألفى
- سيكولوچية الهدوء النفسى .	يوسف ميخائيل أسعد
- الإعلام والمخدرات .	د . نوال محمد عمر
- من شرفات التاريخ جـ ٢ .	د . محمد رجب البيومى
- الشخصية المنتجة .	يوسف ميخائيل أسعد
- الأسرة مشكلات وحلول .	مجدى سلامة
- ظلال الحقيقة .	طيبة أحمد الابراهيم
- شعرة معاوية .وملك بنى أمية .	عرفات القصبى قرون
- مذكرات خادم .	طيبة أحمد الابراهيم

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ـ المطابع ٨ ، ١٠ ، ١٣ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
العباسية ـ المكتبات ١٠ ، ١١ شارع كامل صدقى بالفجالة ـ ٤ شارع الإسحاقى بمنشية البكرى ـ روكسى ـ
ساهرة ت : ٢٨٣٥٥٥٤ ـ ٩٠٨٤٥٥ ـ ٢٥٨٦١٩٧ ج . م . ع / فـاكس ـ 2596650